
مكانة علم التاريخ
في
الحضارة العربية والإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢
فاكس: ٨١٨٦١٥ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 319039 - 815112
Fax: (9611) 818615
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com

Web Location:
Http://www.resalah.com

١

مكانة علم التاريخ في الحضارة العربية والإسلامية

بقلم

أ. د. علي بن عبد الله الدفاع

أستاذ كرسي العلوم الرياضية
بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن
ورئيس اتحاد الرياضيين والفيزيائيين العرب

مؤسسة الرسالة
ناشرون



وبه نستعين وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الإهداء

أهدي كتابي هذا إلى كل من

عقيلتي لولوه محمد عبد اللّه سليمان الزامل

وابنتي منيرة

وابني عبد اللّه

وابني محمد

وابنتي نورة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنه لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، أما بعد:

فهدفنا من تأليف هذا الكتاب المعنون: (مكانة علم التاريخ في الحضارة العربية والإسلامية) هو إبراز تميز علماء العرب والمسلمين في هذا المجال، حتى يكون ذلك أساساً جيداً لعمل أكثر شمولاً وأوفر نصوصاً وعوناً للدارسين في حقل التاريخ الإسلامي. ففيه محاولة جادة للتعرف بأساطين التاريخ من علماء المسلمين الأوائل والكشف عن مآثرهم، وعما خلفوا من مادة غزيرة استوعبت جميع الأحداث التاريخية التي حفظت أصولها، كما عملوا على حُسن تدوين وترتيب مادتها لينتفع بها القارئ، ويتمكن من الإحاطة بما يحب منها.

والمتواتر أن المؤرخين المسلمين الأوائل كان لديهم حب شديد لمعرفة كلّ من المصادر الأولية للحوادث التاريخية وأنساب الأمم، وهذا جعلهم يجمعون أعداداً كبيرة من مصادر التاريخ في الحضارات السابقة عليهم والمعاصرة لهم، وقاموا بتحليل مادتها تحليلاً دقيقاً استفادوا منه في مؤلفاتهم الثمينة. وهكذا عاش المسلمون الأوائل وهم يعتنون بمقومات حضارتهم اللامعة عناية تامة؛ لأنها كانت ولا تزال الطريق السوي للكشف عن ملكات العرب والمسلمين، ومن هنا تزايد الإقبال منهم على دراسة علم التاريخ.

وهنا يعجب القارئ اللبيب عندما يرى الأعداد الهائلة من رجال الفكر الذين كانوا يعملون في ميدان علم التاريخ على امتداد القرون الماضية، ويزيد عجبه ودهشته حينما يفهم مناحي إبداعاتهم على اختلاف العصور، على الرغم من الاضطرابات السياسية التي مرت بها الأمة الإسلامية. وهؤلاء العمالقة أصرّوا وبشدة على حمل أمانة العلم وأداء رسالته. وكان حق لهم علينا أن نقدم ولو موجزاً عن حياتهم وبعض أعمالهم في يسر ووضوح في كتابنا الحالي: (مكانة علم التاريخ في الحضارة العربية والإسلامية) .

ويجب أن لا ينسى القارئ الجريمة النكراء التي اقترفها التتار ـ عليهم اللعنة وسوء الدار ـ في تدمير ذخائر المسلمين ومخلفاتهم العلمية ومؤلفاتهم. وفوق هذا كله بقي التاريخ الإسلامي يمثل حلقة هامة جداً في سلسلة الحضارة الإنسانية المتصلة الحلقات.

ويقع الكتاب في أربعة أبواب: الباب الأول: (التاريخ قبل الإسلام) ، والباب الثاني: (تطور الكتابة التاريخية عند العرب بعد الإسلام) ،والباب الثالث: (المدارس التاريخية في العالم الإسلامي)، والباب الرابع: (تراجم لبعض علماء العرب والمسلمين في علم التاريخ) .

وقبل أن أختتم هذه المقدمة أحب أن ألفت نظر القارئ العزيز إلى ملاحظات ذات أهمية كبيرة، تتعلق بسرد المراجع التي اعتمدت عليها في تأليف هذا الكتاب، فلقد أحببت أن أضع المراجع بجانب النص، أو الفكرة المقتبسة بين علامتي تنصيص، وفاء بحق الأمانة العلمية، مع طباعة اسم الكاتب بالأسود لإبرازه، وقد تبينت أن هذه الطريق أسهل للقارىء بدلاً من أن يجد نظره موزعاً بين متن الكتاب وهامشه، ويمكن للباحث الذي يريد

الاستزادة أن يعود بنفسه إلى المصادر التي أشرت إليها وذللتها له، وجعلتها بين يديه دانية القطوف. والجدير بالذكر أن هذه الطريق هي بالضبط الطريقة التي استخدمها مشاهير علماء العرب والمسلمين في كتاباتهم العلمية، وهي في نظري طريقة موضوعية؛ لأن التوثيق فيها حاصل بدقة وأمانة.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت بعملي هذا ـ الذي أرجو من اللّه تبارك وتعالى أن يكون مفيداً ـ في إبراز معالم نهضة أسلافنا وطرقهم العلمية في تناولهم الأفكار التاريخية.

علي عبد اللّه الدفاع

جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

الظهران

١/ ١٢/ ١٤١٨ هـ

الباب الأول

التاريخ قبل الإسلام

مكانة علم التاريخ عند قدماء المصريين

المعروف أن الحضارة المصرية من أقدم الحضارات الإنسانية، حيث حصل الباحثون والمؤرخون على معلومات لها وزنها وثقلها في تاريخ مصر القديم مكتوبة على جدران المعابد والمقابر، ومنقوشة على الصخور باللغة الهيروغليفية في مصر. ولا ريب أن مثل هذه المعلومات كانت عاملاً مساعداً عظيماً يستند عليه الباحثون في مجال علم التاريخ.

ويذكر **جورج سارتون** في كتابه «تاريخ العلم» ـ الجزء الرابع ـ: أن هيكاتويوس تيوس (Hecataios teos) اليوناني الأصل الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد أثناء حكم بطليموس سوتر، كتب وصفاً رومانتيكياً لمصر جعل اليونانيين يألفون فكرة أن وادي النيل مهد المدنية. ثم قام الكاهن المصري ماينتون الذي عاش بين اليونانيين، بإثبات أن الحضارة المصرية لها السبق على الحضارات الأخرى، في كتابه (تاريخ مصر القديم) المعروفة باسم (Aigypticaca)، وهذا يظهر واضحاً من الدراسة المتكاملة التي قدمها حول تاريخ مصر من البداية إلى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد. وقد استقى ماينتون معلوماته من وقائع أصيلة كانت في متناول يده في سجلات المعابد المنتشرة في مصر؛ لأنه كان قادراً على قراءتها وتحليلها تحليلاً علمياً متميزاً. والمتواتر عن ماينتون أنه كان صادقاً، يتحرى الموضوعية في جميع مادته التاريخية وتفسيرها.

استطاع قدماء المصريين أن يدوِّنوا معلوماتهم التاريخية الخاصة برحلات ومغامرات ملوكهم على جدران معابدهم ومقابرهم، وعليه تمكن الباحث والكاهن الكبير ماينتون من أن يستخدم المصادر الأولية في مصنفاته التاريخية، والجدير بالذكر أن المعابد آنذاك كانت مثل الجامعات، تُعقد فيها المحاضرات العلمية، ولذا كان طلاب العلم يتلقون دروسهم العلمية حول كل من العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والتاريخية والاجتماعية والمعمارية فيها.

يقول **حسين محمد سليمان** في كتابه «المدخل إلى دراسة علم التاريخ»: «وكتب ماينتون كتابه (تاريخ مصر القديم) باللغة الإغريقية، وأهداه **لبطليموس** الثاني، واقتبس من الكتاب ـ فيما بعد ـ ما يهمهم في دراساتهم، واعتمد عليه اليهود والمسيحيون لإثبات تاريخ الحوادث الواردة بالكتب المقدسة، ونقل عنه الإغريق أيضاً ما كتبوه عن مصر فيما بعد، وإن تعرض النقل لشيء من التزييف وخاصة بالنسبة لليهود. ومما يؤسف له أنه لم تصلنا نسخة كاملة من الكتاب، وما وصلنا لم يعد شذرات وملخصات تناولت التاريخ المصري، وردت في كتاب المؤرخ اليهودي يوسيفيوس، وفيما كتبه المؤرخان المسيحيان فيما بعد جولياس، وإيزيبيوس».

وخلاصة القول: حرصنا شديداً على أن نكتب عن تاريخ مصر القديم حتى ولو نتفاً؛ لأنه من المعروف أن التاريخ يهتم عادة بحفظ الوثائق والأسانيد ونقدها وتمحيصها، وكذلك المؤرخ الناجح كان يركز على دراسة العادات الاجتماعية للشعب، وأسباب قيام الأمم وتقدمها واندثارها. ومن هنا نجد أنه من الضروري جداً أن نتحدث ولو قليلاً عن تاريخ مصر القديم، وإن كان هذا ليس تعبيراً عن المكانة الحضارية التي احتلتها الحضارة المصرية القديمة؛ لأن الحضارة المصرية القديمة كانت لها سمعة مرموقة بين الحضارات الإنسانية.

والمتواتر بين المؤرخين أن قدماء المصريين كانوا يعتنون كثيراً بالكتابة عن الطبقة العُليا من شعبهم، لذا أصبح معظم إنتاجهم التاريخي يختص بمغامرات وغزوات ملوكهم، ولكن في العصور الإسلامية تغير الوضع تماماً، حيث اهتم المؤرخون المسلمون برواد الفكر والقادة المتميزين، وعليه صار تاريخ الأمة العربية والإسلامية قنْديلاً للحضارات جميعها.

دور سكان وادي الرافدين القدماء
في علم التاريخ

حرص سكان وادي الرافدين القدماء تمام الحرص على أن يسجلوا أخبار أسلافهم بطريقة تاريخية، محاولين أن يلبسوا أجدادهم ثوباً جديداً من البطولات، وهدفهم من ذلك الاستفادة من الماضي وتوضيح الحاضر والسير في الطريق إلى المستقبل الباسم؛ لذا استطاع سكان بلاد الرافدين (مثل الآشوريين والبابليين) أن يدوِّنوا أنواعاً كثيرة من الأحداث التاريخية في كل من المجالات السياسية والعسكرية والدينية.

والجدير بالذكر أن شعب بلاد الرافدين القدماء، قدموا دراسة جيدة في ميدان كل من الأدب الشعبي والأساطير والقصص والملاحم، واستخدموا لتدوينها الألواح الطينية التي عثر عليها علماء الآثار في منطقة بابل.

ويذكر **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر نقلاً عن كتاب «ألواح سومر» لصمويل كريمر: أن معظم كتابات بلاد ما بين النهرين سواء في سجلات ملوكها أو تدوينها دارت حول حادثين لضبط التواريخ وهما: حدوث (كسوف الشمس) في عهد الملك الأشوري المسمى (آشور دان الثالث) الذي كانت مدة حكمه (٧٧٢ – ٧٥٥ ق.م)، وأهمية هذا الحادث أنه عندما حسب فلكياً تحدد له (١٥ حزيران ٧٦٣ ق.م)، فاستخدم المؤرخون ذلك كنقطة ثابتة لتحديد عهود الملوك الآشوريين قبل وبعد هذا اليوم في التاريخ. أما الحادث الثاني: فهو وثيقة انتيمينا: المعروفة ــ انتيمينا أحد ملوك السومريين المعروفين ــ الذي يروي مسجلها الأيام التي وقع فيها النزاع بين مدينة (لجش) و(أوما) أو المجاورين لها، ولذا صارت هذه الوثيقة مصدراً للمعلومات السياسية والعسكرية للسومريين، وقد قام بتدوينها الموكلون بسجلات المعابد والقصور. ولا شك أنها كشفت عن تفصيل الحوادث التاريخية التي تمت في عهد الملك السومري المسمى: انتيمينا (Antemena).

تمكن كل من علماء الآثار والتاريخ من الكشف بطريقة علمية بعض السجلات الخاصة بمغامرات وغزوات ملوك بلاد الرافدين القدماء التي اعتمد عليها الكاهن البابلي بيروسوس (Berossus) ـ الذي عاش في عهد الملك السلوقي (انطيوخس) الأول (٢٧٩ - ٢١١ ق.م) ـ في تصنيفه لكتابه الشهير (تاريخ بابل) الذي يحتوي على معلومات نادرة عن سكان بلاد الرافدين. والجدير بالذكر أن للكاهن بيروسوس شهرة عظيمة في تاريخ بابل؛ لأنه كان من كبار الكهنة هناك، عليه استطاع أن يستخدم نفوذه ليحصل على المعلومات الجيدة في سجلات كل من المعابد والقصور والمقابر منذ الخليقة والطوفان إلى فتح الإسكندر لبلاد بابل سنة ٣٣٢ ق.م التي استند عليها في تأليف كتابه، وهكذا أصبح كتاب (تاريخ بابل) لبيروسوس المصدر الفريد لتاريخ سكان وادي الرافدين القدماء.

ويذكر **ف. ج. هرنشو** في كتابه «علم التاريخ» ـ ترجمة وتعليق وإضافة بقلم عبد الحميد العبادي ـ أن بيروسوس الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، اعتمد في تأليف كتابه (تاريخ بابل) على مصادر بابلية قديمة. وكان الكتاب لا يخلو من بعض الخرافات والأساطير، ولكنه أيضاً يحتوي على مادة علمية تتعلق بالمسائل الكونية، ولذا عرف بيروسوس (بالمنجم). وللأسف أن هذا الكتاب القيم قد فقد ولم يبق منه إلا نتفاً بسيطة موجودة ببعض الكتب القديمة التي أخذ مؤلفوها عنه. كما أضاف **جورج سارتون** في كتابه: «تاريخ العلم» ـ الجزء الرابع ـ قائلاً: «إن بيروسوس كان على علم عميق بتاريخ بابل وديانتها، وكان قادراً على الاستفادة من المصادر البابلية (أو الكلدانية).. وكان هذا الكتاب هو الوسيلة الرئيسة لانتقال علم التنجيم الكلداني إلى مصر وإلى العالم الهلنستي بوجه عام».

وخلاصة القول: لم يقر سكان بلاد الرافدين مبدأ أن الدراسة التاريخية يجب أن تكون محصورة في الحركات السياسية، بل بلوروا بالفعل أن علم التاريخ

عبارة عن محصلة لعدد كبير من العوامل الاجتماعية؛ لذا يمكن القـول: إن الفضـل يرجع لسكان بلاد الرافدين القدماء بجعل المؤرخ يهتم بأفكار الأمم وآمالهم.

ولا ريب أن لدى سُكان وادي الرافديـن القدمـاء الحـس التـاريخي الـذي يظهر واضحاً في دراساتهـم العميقة للأحداث التاريخية الموغلة في القـدم، ليـس فقط من الوجهة السياسية ولكن من جميـع جوانـب نشـاطات الإنسـان علـى كوكب الأرض؛ لأنهم يعتقدون بأهميـة خـبرات المـاضي وتجاربـه الأوضـاع الاجتماعية وتطورها وتعليل أحداث التاريخ، فلم يتوقفوا مثل قدماء المصريين على تسجيل أعمال الملوك من بناء وتعمير وحملات حربية ومغامرات.

وأخـيراً يبـدو أن الـروح التاريخيـة لـدى سـكان وادي الرافديـن القدمـاء كانت جيدة ومرتبة، ولكن يجب أن نعرف أن مؤرخي العرب والمسلمين هـم الذين جعلوا علم التاريخ بحثاً قبل أن يكون وصفاً. وعليه اسـتطاعوا وبجـدارة أن يؤسسوا علاقة رائعة بين جميـع العوامـل الاجتماعيـة. والجديـر بـالذكر أن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين حددوا منهـج البحـث التـاريخي؛ وذلـك بتصنيف المراجع واستخدام مبادئ النقد الخـارجي للوثـائق التاريخيـة والتعليـل الدقيق الموثق لبعض العناصر التاريخية الغامضة.

مكانة علم التاريخ عند قدماء الهنود

المعروف لدى المؤرخين في العالم أن الشعب الذي ليس له تاريخٌ مكتوبٌ مثل الأقوام الهندية، يلجأ المؤرخون الذين يريدون الكتابة عنه إلى استخلاص تاريخه من الخزعبلات المنتشرة بين السكان والتي يتناقلونها جيلاً بعد جيل. ولا ريب أن الخرافات والأساطير المروية المشهورة بين أفراد سكان شبه القارة الهندية تحتوي على كثير من المعلومات الصادقة، ولكنها لا تخلو من المبالغات وخاصة في الأمور التي تتعلق بمغامرات ملوكهم؛ لذا يجب أن يكون المؤرخ حذراً يمتلك فراسة قوية فيما يدونه.

ويذكر **علي أدهم** في كتابه «تاريخ التاريخ»: «أن تاريخ الهند القديم كان يتميز بالأساطير والخرافات المتعددة التي كان يتغنى بها الكهنة في طقوسهم الدينية. والحق أن أساطير الهنود كانت ذات أسلوب رفيع شيق، يرتاح له القارئ، ويتمتع في قراءته، وأنه لمن المؤسف حقاً أن ليس لهذه الأمة تاريخ قومي مكتوب، وذلك ناتج لتعدد الجماعات والأجناس بين سكان الهند، مما ترتب عليه عدم وجود وحدة سياسة بينهم تجمع تاريخاً قومياً ليكون قنديلاً لمعالم حضارتهم العريقة، والجدير بالذكر أنه يوجد تنافر شديد بين العادات والتقاليد واللغات للشعوب الهندية، من هنا يصعب كثيراً أن يكون لديهم تاريخ مكتوب، يحفظ نشاطاتهم العلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية وغيرها من الفناء».

لقد برزت معالم الحضارة الهندية في علم التاريخ في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، حيث انتشر تأثير علماء الهند في كل من الفلسفة والرياضيات والفلك وغيرها في المعمورة، وصار طلاب العالم يأتون إلى شبه القارة الهندية لنهل العلم بأعداد هائلة. وهكذا أصبحت مكانة سكان بلاد الهند في علم التاريخ معروفة وجيدة، والحقيقة أن الوثائق التاريخية تُعتبر ثروة

عظيمة لاحتوائها على معلومات نادرة، ليس فقط عن بلادهم ولكن عن منطقة الشرق الأدنى بأسرها (الأمة الإسلامية)، وذلك لأن الأمة العربية والإسلامية قد استفادت من مفكري بلاد الهند في كل من العلوم الأساسية والتجريبية، حيث تلقى بعض جهابذة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية تعليمهم هناك.

يقول **ول ديورانت** في كتابه «قصة الحضارة» ـ الجزء الأول من المجلد الأول ـ : «وليس في وسعنا أن نزعم أن هذه المدنية قد أفادت مدنيتنا إفادة مباشرة، كما استطعنا أن نتعقب بعض جوانب مدنيتنا إلى أصولها في مصر أو الشرق الأدنى (الأمة الإسلامية)؛ ذلك لأن مصر والشرق الأدنى كانا السلفين المباشرين لثقافتنا، بينما ندفن تاريخ الهند في مجرى آخر، وهو آخذ لتوه اليوم في مس تيار الحياة العربية والتأثير فيها، إنه على الرغم من حيلولة حاجز الهمالايا، قد استطاعت الهند أن تبعث إلينا عبر تلك الجبال طائفة من ألوان التراث فيه المشكوك مثل: النحو والمنطق والفلسفة والحكايات الخرافية والتنويم المغناطيسي والشطرنج».

وخلاصة القول: إنه من الصعب جداً على المؤرخ النزيه أن يقيّم بأمانة وصدق أعمال علماء الهند في علم التاريخ؛ لأنه من المعروف عند مؤرخي الهند تقديس الأجداد إلى درجة أنه لا مانع من نسبة أحد الأفكار وأصدقها إليهم، بل من مكارم الأخلاق عمل كهذا علاوة على الخرافات والأساطير التي يحتويها تاريخهم، ولكن الذي نستطيع الوصول إليه بوضوح تام أن المؤرخين في الهند نهلوا من منابع العلم في بابل (بلاد وادي الرافدين)، واستفادوا منها كثيراً ونوّهوا عن هذا في مؤلفاتهم. وهذا التصرف الحميد يُعد في موازين أمانتهم العلمية.

لقد فشل مؤرخو الهند في إخضاع الوقائع التاريخية للفحص والتفسير والتدقيق وتوخي الحقيقة، حيث سيطرت عليهم كل من عواطفهم وتحيزهم

لأسلافهم؛ لذا لم يحققوا خاصية علم التاريخ التي تميز بها عن العلوم الأخرى، (عناصر المصادفة) و(عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة) . بينما المؤرخ المسلم ببراعته وخبرته استطاع وبجدارة أن يضع الحقائق التاريخية في قالب مقبول؛ لأنه اهتم تماماً بتنظيم الظواهر التاريخية وتركيبها، والاجتهاد في تعليلها، وخلق الصيغة التاريخية المحببة للنفوس البشرية. وهكذا نستطيع القول: إن المؤرخ المسلم تفوق على المؤرخ الهندي في تحري نصوص الأصول، وتحديد العلاقة بينها، والابتعاد عن محاولة إخضاع الموضوع المعين لرأيه وفكره.

مكانة علم التاريخ عند قدماء الصينيين

من أقدم الحضارات الإنسانية الحضارة الصينية التي دوّنت عن طريق كل من الأساطير والخزعبلات التي تناقلتها الأجيال. كما اهتم المؤرخون الصينيون بذكر مغامرات ملوكهم والتغني بها، والتي كتبها مؤلفون من الحاشية الذين لم يسمح لهم بذكر أسمائهم بجانب أسماء مؤلفيها، وهذا الأمر خلق مشكلة للمؤرخين الذين يريدون توثيق بحوثهم. والحق أن المعلومات التي حصل عليها المؤرخون الصينيون للشعب الصيني عبر أساطيرهم كانت هامة جداً، لذا تمكنوا من كتابة تاريخهم بطريقة جيدة، والمتواتر أن كلاً من الأساطير والتمجيد لساداتهم من سمات علم التاريخ عند الصينيين. ولذا استطاع المؤرخون الصينيون أن يقفوا على معارف تاريخية قيمة، خدمت حضارتهم العريقة، على الرغم من أن المؤرخين في العالم يعتبرون هذه المعارف عبارة عن سلسلة من النظريات التاريخية الغامضة.

ويذكر **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر أن علم التاريخ عند الصينيين لا يختلف كثيراً عن وضع علم التاريخ لدى كل من بلاد ما بين النهرين ومصر، وإن كان اهتمامهم بأخبار أسلافهم أكثر اهتماماً، وذلك ناتج عن شدة احترامهم لهم، وحبهم للتعلق بالماضي والتغني بمآثرهم.

ولقد تميز المؤرخون الصينيون في اعتدالهم في إصدار الأحكام في كل من المجال السياسي والاجتماعي. وكما اشتهروا في عدد من كتاباتهم التي جعلت مدوناتهم التاريخية زاخرة بالمعلومات التي تتناول شتى العصور ومختلف جوانب الحياة، ولكنها لم تخرج قط عن المألوف في تدوين تاريخ الأسر الخاصة والملخصات الحولية والتراجم والسير.

والثابت أن تاريخ الصينيين القديم مملوء بالخرافات والأساطير التي كانوا ينسبونها لساداتهم وأكابر قومهم، وهذا التصرف نتيجة تربيتهم المنزلية والمدرسية، لذا أبرزوا أعمال قادتهم بطريقة تلفت نظر الباحث اللبيب، وعليه بذل المؤرخون جُهداً عظيماً في استخلاص تاريخ الصينيين من قصصهم وأساطيرهم المتعددة. كما اشتهر الصينيون بطاعتهم المنقطعة النظير لولاة أمرهم، وباعترافهم بفضل أجدادهم عليهم في تطوير حضارتهم العريقة، وهذا بلا شك يدل على وفائهم.

ويذكر **بدرالدين حي الصيني** في كتابه «العلاقات بين العرب والصين» أن علم التاريخ عند الصينيين يحتوي على معلومات قديمة جداً منذ سنة (٢٣٣٢ قبل الميلاد)؛ أي في عهد هوانغ تي (Hawang-ti) الذي يُنسب إليه صُنع السفينة واختراع البوصلة، كما يُنسب لزوجته علم تربية ديدان القز وصناعة الحرير والغزل. ولكن أول من حكم أرض الصين بطريقة علمية (فوني) (Funi) الذي حصل على شهرة جيدة باختراعه ستة أنواع من الحروف الكتابية، وبوضع نظام للأوقات، وبإيجاد ثمانية رموز تخص الفلك وتقلب الدهر. ثم أتى بعده شينغ لونغ (Shing lung) الذي ذاع صيته بأنه أول من علم الصينيين مهنة الحرث والزرع، واستخدام الأعشاب في علاج المرضى. ثم حكم الصين جنشي وانتي (Chin- shi - Wanti) الذي أحرق جميع الكتب التي لها علاقة في علمي السياسة والتاريخ؛ وذلك لأنه كان خائفاً من تأثيرها على أفراد شعبه لما تحتويه من الأفكار والآراء التي يمكن أن تفقده السيطرة عليهم، لذا لم يترك بين يديهم إلا الكتب الزراعية والطبية. وبقيت الحركة الثقافية في الصين في تدهور مستمر حتى عهد هانكاوتسياو (٢٠٦ قبل الميلاد)، الذي له اليد البيضاء في إحياءالحركة العلمية والأدبية في بلاد الصين.

وخلاصة القول: عرف الصينيون عبر التاريخ بولائهم المُطلق لحكامهم وساداتهم، فكانوا ينعتونهم بالعقلاء والحكماء وأصحاب الرأي السديد. كما

يرون وجوب طاعتهم بدون تحفظ، والاعتراف الواضح الجلي بأن أعمالهم جميعاً نافعة ومفيدة لشعبهم وحضارتهم، ويلقنون ذلك لأبنائهم بالبيتِ والمدرسة، لذا عاش سكان الصين مسالمين.

والمتعارف عليه لدى المؤرخين في العالم أن الحوادث هي مادة علم التاريخ. أما عند المؤرخين الصينيين فإن الأساطير والقصص هي مصدر تاريخهم؛ لأنها تحمل بين طياتها أفكاراً متسلسلة. أما المؤرخون المسلمون فقد أثبتوا أن علم التاريخ لا يقتصر أبداً على أخبار وقصص وأساطير الأولين البابلية، بل يعرض التجربة الإنسانية عبر العصور، ويبحث في أسباب الحوادث ويُفسر نتائجها، فالطيب منها يوصي باتباعه، أما السيئُ منها فيحذر منه ويأمر باجتنابه.

مكانة علم التاريخ عند اليابانيين

يردد اليابانيون في محافلهم المحلية والدولية: أن حياتهم التاريخية الحقيقية نشأت منذ القرن السادس قبل الميلاد، وأن الروايات التي وصلت إليهم من مصادر متعددة تروي: أن لهم الريادة في تأسيس الملكية التي يعتبرونها بحق جزءاً أساسياً من نظام حكمهم. وهكذا تطورت أطرهم السياسية والاقتصادية. أما ما يتعلق بكتابة التاريخ الياباني فإنه لا يختلف كثيراً عن منهج كتابة التاريخ عند الصينيين، حيث لعبت الأساطير والحكايات والتغني بالأجداد دوراً هاماً في محتوياته.

والمتواتر أن اليابانيين يرون أنه من الواجب على المواطن اللبيب أن يحكي لأبنائه وأحفادِه قصصاً خيالية عن الأجداد والسلف بوجه عام، لكي يحفزوهم على تقمص شخصياتهم. كطبيعة كل البشر، لم تخل هذه الحكايات من الإضافات الجوهرية التي تكسي هؤلاء الأجداد والسلف أثواباً من البطولات. ولا شك أن الهدف الرئيس من ذلك كله أن يحصل شبابهم على الموعظة من أحداث الماضي لتفسير الوضع الحاضر، والتخطيط للمستقبل على ضوء معطيات الماضي بعظاته وعبره.

يقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «وقد عني اليابانيون بكتابة التاريخ مثل الصينيين، ويرى المؤرخون اليابانيون أن الأسرة الملكية الحاكمة بدأ حكمها منذ القرن السادس قبل الميلاد، وهي أقدم الأسر المالكة تاريخاً. ومن المسائل التي لا تزال موضع خلاف ونقاش مسألة نشأة كتابة التاريخ الياباني، وهل كانت نتيجة حافز قومي أو كانت أثراً من آثار الاحتكاك بالصين، ويرى المتخصصون الأوروبيون في الدراسات اليابانية أن كتابة التاريخ الياباني الصحيح لا ترجع إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد، وقد جمعت أقدم الوثائق التاريخية اليابانية سنة سبع مئة واثنتي عشرة الميلادية في كتاب

ترجم إلى اللغة الإنجليزية، والحوليات اليابانية المسماة (ينهونجن) التي تمت سنة (٧٢٠ ميلادية) يبدو فيها طابع التأثير الصيني. وفي القرنين الثامن والتاسع اشتركت طائفة من الكتاب في كتابة وثائق تاريخية، وكان أنبه هؤلاء الكتاب ذكراً وأبرزهم أثراً المؤرخ سبجورا ميشيزن. ومن القرن العاشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر حدث تطور ملحوظ في كتابة التاريخ الياباني واتسم بإحكام السرد وإجادة التفكير التاريخي».

المعروف أن اليابانيين كانت لهم صولة وجولة في العصور الوسطى، ولكن لم تتبلور مكانتهم أمام المؤرخين في العالم، بل كانوا مجهولين؛ وذلك بسبب شهرة الصينيين في العلوم الأساسية والتجريبية التي طغت على دور العلماء اليابانيين، ولحُسن حظ اليابانيين قام الأمير ميتو (١٦٢٢ - ١٧٠٠ ميلادية) بمساعدة مؤرخين من الصينيين بتأليف كتاب يحتوي على معلومات قيمة عن اليابان ومكانتها بين الأمم منذ نشأتها إلى عام (١٤١٣ ميلادية)، ولذا صار هذا المؤلف مرجعاً هاماً للباحثين في هذا المجال، حيث يشتمل على أخبار نادرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في اليابان. ومن هنا بدأت قافلة المؤرخين اليابانيين في البحث والتنقيب والاستقصاء في تاريخهم. ولذا نبغ من بينهم أعداد كثيرة في ميدان علم التاريخ.

يقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «وأول مؤرخ ياباني صعد بالتاريخ إلى المرتبة العلمية هو: هاكيسيكي (١٦٥٧ - ١٧٢٥م)، ويعده اليابانيون أعظم مؤرخيهم أصالة وأوسعهم إحاطة. ومن كبار مؤرخي اليابان رابي سانجو (١٧٨٠ - ١٨٣٣م)، وقد عرف بنفاذ بصيرته، وسداد مذهبه، وقدرته الناقدة، والمقتطفات التي ترجمت من مؤلفاته تدل على أنه كان يجيد تصوير الأحداث ويُحسن عرضها. وظهر في اليابان الحديثة مؤرخون لهم وزنهم مثل موتوري نوريناجا (١٧٣٠- ١٨٠١م) وهيرانا استياني (١٧٨٦- ١٨٤٣م). ومن مميزات الأدب الياباني كثرة الروايات اليابانية

التاريخية، وكثير منها يرجع تاريخه إلى القرن العاشر والقرن الحادي عشر».

وخلاصة القول: يظهر أن المؤرخين اليابانيين ظلوا أمداً طويلاً متأثرين بمنهج الصينيين في كتابة التاريخ، حيث التزموا في تمجيد أجدادهم والسلف والاستشهاد بمواقف أبطالهم؛ لكي يخلقوا عند شبابهم وشاباتهم الحماس والاحترام لتاريخهم الذي يعتبرونه قنديلهم الفريد فوق كوكب الأرض، وذلك لأنهم يعتقدون أنه يحتوي على القواعد والأسس المنهجية التي لزم توفرها في الإنتاج التاريخي النافع.

قام المؤرخون اليابانيون المتأخرون بنجاح في ربط الأفكار التاريخية بتطبيقات عملية لتكون دروساً في التربية الوطنية. كما تمكنوا من الابتعاد تماماً عن السلبيات التاريخية والاستفادة الفائدة العظيمة من الإيجابيات والسلبيات، لذا استطاع المؤرخ الياباني بجدارة أن يرسم طريقه واضحاً محاولاً إبراز موارد بلاده وقوته أمام دول العالم.

مكانة علم التاريخ عند اليونانيين

ضاعت معظم المعلومات اليونانية التي يمكن أن يستند عليها المؤرخ، وذلك نتيجة تأخر استخدام المؤرخين اليونانيين للكتابة، حيث إنه لم يزاولوا الكتابة في تدوين الأحداث التاريخية إلا في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً، لذا افتقر المؤرخون اليونانيون الأوائل في أول الأمر إلى الوثائق المكتوبة التي تحتوي على المادة التاريخية الضرورية، ولكن لم يستمر هذا الوضع طويلاً، فقد ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً المؤرخ الشهير هيرودوتس (HERODOTUS)، الذي ألّف كتاباً في علم التاريخ يشتمل على معلومات قيمة ليس فقط عن اليونانيين ولكن عن سكان المعمورة بأسرها. والجدير بالذكر أن المؤرخين اليونانيين اشتهروا بتسجيل الروايات الوهمية التي أعطت تاريخهم بُعداً اجتماعياً عظيماً، وكذلك استطاعوا أن يعرفوا بجدارة شواهد الماضي عن طريق القصص والأساطير التاريخية.

يقول **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر: «والتدوين التاريخي عند اليونان بدأ متأخراً، وإن كان قد سبق غيره... وواجه التدوين أيضاً مشكلة اختراع فن الكتابة والزمن الذي بدأ استخدامها فيه، ولقد اشتدت حدة الخلاف بين العلماء عن الزمن، إلا أن كثيراً منهم رأوا أن فن الكتابة لم يمارس في بلاد اليونان إلا قليلاً حتى القرن السادس قبل الميلاد، وإن كانوا يعرفونها قبل ذلك كثيراً، ولكنه لم يكن شائعاً، وذلك لنفس الأسباب التي واجهت التدوين التاريخي في الحضارات الأخرى، وهي صعوبة توفر وسائل وأدوات الكتابة. وتعرضت الكتابات الأولى في اليونان لنفس مصير الكتابات الأولى في البلاد الأخرى، وهو الفقد والضياع والتلف، بل كانت أكثر نصيباً في ذلك، بسبب نوعية المادة التي سجلت عليها مثل الألواح الشمعية والبرديات وغيرها، لذلك لا يجد العلماء تاريخاً متسلسلاً لبلاد اليونان قبل هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد».

لقد تواتر أن المؤرخين اليونانيين بالغوا في تمجيد أبطالهم، بل أصروا على تثبيت ذلك في تاريخهم؛ لأن من أسباب نشوء الكتابة التاريخية عند اليونان الظروف السياسية والعسكرية التي مرت ببلادهم، سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي. كما اهتم المؤرخون اليونانيون اهتماماً كبيراً بالقصص التاريخية وخاصة التي لها صلة بحروبهم، بهذا تمكنوا من إرساء قواعد القصص التاريخي. الآن يمكن القول: إن المؤرخين اليونانيين استطاعوا استخلاص تاريخهم من كل من الملاحم والشعر والقصص والأحاديث الشفوية، محاولين بهذا الوصول إلى تفسير منطقي للأحداث التاريخية. وقد نهج هذا المنهج المؤرخ اليوناني هيكاتايوس (HECATAUES) الذي ولد سنة (٥٤٦ قبل الميلاد)، والذي يُعتبر من أوائل المؤرخين اليونانيين. وقد بذل جهداً كبيراً مع زملائه في تأصيل اليونان والتحدث عن حروبهم وهجراتهم بطريقة فلسفية.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما «طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار»: «بدأت الحضارة اليونانية بالازدهار في علومها ومعارفها منذ مطلع القرن السادس قبل الميلاد ولاسيما في بلاد إيونيا (السواحل الغربية والجزر القريبة من الأناضول)، ولكنها تمتد في جذورها إلى كثير من العناصر الحضارية إلى أن اقتبسها اليونان من الحضارة الإيجية (وهي الحضارة التي ازدهرت في كريت وجزر بحر إيجة ما بين الألف الثالث والثاني ق.م). كما أنها اقتبست أشياء كثيرة من الحضارات القديمة التي ازدهرت في الوطن العربي، وفي مقدمتها حضارة وادي الرافدين ووادي النيل، وتميز المفكرون اليونان من بين ما تميزوا به، بولعهم وشغفهم في البحث والتحري والتعليل والبحث في أصل الأشياء وعللها، بحيث يصح القول: إن الفلسفة بمفهومها الصحيح كانت من إبداعاتهم الفكرية، وأن مفكريهم حولوا كثيراً من الأساطير الخاصة بأصل الكون والحروب والأشياء التي اقتبسوها من حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل إلى آراء وتعليلات فلسفية».

وخلاصة القول: لم يحتفظ اليونانيون بالوثائق التاريخية المخطوطة؛ لأنهم لا يرون أهميتها، لذا أتت معظم معلوماتهم التاريخية من الكتابة الأدبية التي سبقت ظهور المؤرخ العظيم هيرودوتس. والجدير بالذكر أن الكتابة التاريخية عند اليونانيين بعد القرن السادس قبل الميلاد تميزت بمحاولة المؤرخين اليونانيين الوصول إلى تفسير منطقي للأحداث، لذا أخضعوا علم التاريخ للتعليلات الفلسفية المعقدة في كثير من الأحيان.

أما دور المؤرخين المسلمين فقد سبق دور زملائهم المؤرخين اليونانيين، حيث إنهم ركّزوا على دراسة الأحداث الماضية بإيجابياتها وسلبياتها، لكي يفهموا أحوال الشعوب وعاداتهم ونظمهم. كما أنهم يعرفون تمام المعرفة أن موضوع علم التاريخ كل من الإنسان والزمان والمكان، وفائدته فهم الحقائق التاريخية على وجهتها الصحيحة.

هيرودوتس:

هو **هيرودوتس الهاليكارناسي** من علماء التاريخ المتميزين بدماثة الأخلاق والإنصاف، ذاع صيته بين زملائه بثقافته الواسعة وببساطة أسلوبه، وإن كان يميل إلى الاستطراد في بعض الأحيان، ولد في مدينة كاريا (التي تقع في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى، والتي كانت خاضعة لتأثير كل من الفرس واليونان) وتعتبر إحدى مدن فارس، وقد أجبر هيرودوتس (HERODOTUS) أن يترك مسقط رأسه بسبب الاضطرابات السياسية، لذا تنقل كثيراً واستقر في مدينة تسوري في اليونان وتوفي فيها. لُقب بأبي التاريخ للمكانة التي احتلها في هذا الميدان الحيوي، عاش فيما بين (٤٨٥ - ٤٢٥ قبل الميلاد) . تمكن هيرودوتس من صياغة علم التاريخ بطريقة منطقية مقنعة، لذا وصف بعض المؤرخين في المعمورة كتاباته التاريخية أنها تميزت ببُعدها إلى حد معقول عن الخرافات والأساطير، والجدير ذكره أن التاريخ كان قبله بمثابة تسجيل الأخبار.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما: «طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار»: «اشتهر هيرودوتس باللقب الذي أطلقه عليه الكاتب والخطيب الروماني الشهير شيشرون (CICERO) أي لقب: أبو التاريخ. وقد دوّن تاريخه الشهير وكان موضوعه الرئيسي أخبار الحروب اليونانية والفارسية (٤٩٠ – ٤٨٠ ق.م) في عهد الملكين الفارسين دارا الأول (٥٢١ – ٤٨٥ ق.م) واحشويرش (٤٨٥ – ٤٦٥ ق.م)، ولكنه بالإضافة إلى هذا الموضوع الرئيسي ذكر هيرودوتس في كتابه معلومات كثيرة وشيقة عن الأمم والشعوب الأخرى.. ويمكن اعتباره أول مؤرخ تناول أحوال الشعوب وعاداتها ونظمها، ومما لا شك فيه أن أسفاره الكثيرة إلى الأقطار المجاورة مثل مصر وشمال أفريقيا وبلاد بابل، قد مكنته من جمع تلك الأخبار والمعلومات الطريفة. وكان هيرودوتس قد عمم استعمال مصطلح (HISTORIA) اليوناني».

اهتم هيرودوتس بتمجيد الأبطال، ويظهر ذلك واضحاً من مقولته المشهورة: «أنا أفهم تماماً بكتابتي هذا التاريخ الاحتفاظ بمآثر الرجال لكي لا يمحوها الزمان». كما أنه قام برحلات استكشافية كثيرة إلى الأماكن التي تُعتبر مصدراً لعلم التاريخ، فروي له عدد كبير جداً من القصص التي دوّنها في كتابه «التاريخ» كما سمعها بالضبط، لذا استطاع أن يقدم معلومات تاريخية قيّمة بأسلوب محكم يمتاز بالبساطة والوضوح والرقة. فقد عرض هيرودوتس حقائق تاريخية رائعة لكل من سكان مصر وسكان اليونان، تتعلق بعاداتهم وأخلاقهم ونظمهم العسكرية والسياسية والاقتصادية. والحقيقة أنه حاول جاداً أن يعيد بناء الأحداث الماضية ويربطها بالأحداث المعاصرة لكي يخطط للمستقبل المشرق.

اعتكف هيرودوتس في منزله للبحث والاستقصاء والتنقيب، فأنتج كتاباً رائعاً في علم التاريخ سماه «التاريخ» (HISTORIA)، يحتوي على قصص ملوك

كل من الليديين والفرس واليونانيين والفراعنة، وكذلك يشتمل على معلومات عامة عن تاريخ البشرية، ووصف مختصر عن جغرافية الأرض، ويُعتبر هيرودوتس أول من حاول أن يهمل كتابة الروايات الوهمية المرتبطة بالآلهة، لذا فكتابه خال منها. كما ركّز على البحث وتدوين وقائع الحروب الميدانية التي قامت بين اليونان والفرس، إذن كتاب «التاريخ» لهيرودوتس يمتاز بأنه عبارة عن كنز عظيم من المعارف المهمة التي لا يستغني عنها باحث في هذا المجال الحيوي.

يقول **جورج سارتون** في كتابه «تاريخ العلم» - الجزء الثاني -: «ويظهر لنا عرض هيرودوتس بوضوح، فيما قاله في الفقرة الأولى من كتابه (التاريخ): (الذي تعلمه هيرودوتس الهاليكارناسي عن طريق البحث، وتجده هنا ماثلاً بين يديك؛ وذلك حتى لا تنطمس ذكرى الماضي في أذهان الرجال على مر الأيام، وحتى لا تفتقر تلك الأعمال العظيمة الرائعة التي اضطلع بها اليونانيون والأجانب ـ وخاصة أسباب نشوب الحرب بينهم ـ إلى من يظهرها للملأ)، وكثير من الحقائق التي ذكرها استمدها من مشاهداته الخاصة، والبقية الباقية حصل عليها عن طريقة الرواية... وكتابه (التاريخ) يزخر بالحوادث والحكايات القصيرة التي يمكن أن تنحي منه جانباً، كما أنه يغص بالاستطرادات الممتعة، والتي كان يجب إيرادها على طريقة المحدثين البارعين. ولا يستبعد أن يكون قد قلب بعض الوثائق، ورأى بعض النقوش، ولكنه اعتمد على السماع في المقام الأول، وكان بارعاً في المقارنة بين الشهود وتمحيص الأخبار. وهو يتيح لنا رؤية هؤلاء الشهود وسماع أقوالهم بعينها، إلا أنه بعد ذلك كله، يدلي بخواطره وآرائه التي غالباً ما تكون رقيقة دمثة، تنبع عن عقل ذكي، وتفيض من فكر صائب، وتجعلنا أحياناً نتذكر مونتيني.. وكان هيرودوتس في أغلب الأحيان يعبر عن شكه، ويحتاط لنفسه ببعض الملاحظات، كقوله: (أنا أقص القصة كما رويت لي)، وكان في بعض الأحيان يورد عدة روايات ويتركها للقارئ ليميز خبيثها من طيبها».

وخلاصة القول: لم يقتصر كتاب هيرودوتس «التاريخ» على أخبار اليونانيين بل تعداها إلى أخبار الشعوب الأخرى في المعمورة. والحقيقة أنه أجاد إجادة رائعة في وصفه الحروب التي قامت بين اليونان والفرس، حيث حاول أن يبحث عن العلة التي كانت سبب الحروب بينهما بكل صدق وأمانة، فلم تغلب عليه العاطفة اليونانية. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين في العالم يحسبونه مواطناً فارسياً بناء على مولده.

على الرغم من طيبة وبساطة هيرودوتس في علاقاته الإنسانية كان جاداً في عمله، فقد كرّس وقته وجهده في كتابة كتابه «التاريخ» الذي يشتمل على ذخيرة نادرة من المعارف الهامة، ليست عن اليونان فقط ولكن أيضاً عن الأمم الأخرى. ولا شك أن منهجه الذي اتبع في تأليف كتابه المذكور أعلاه يُعتبر بحق موسوعياً راقياً. وقد استفاد من رحلاته الكثيرة في العالم، حيث جمع معلومات نادرة، منها المكتوب والبعض الآخر رواية شفهية، واشتهر بين المؤرخين في رواية القصص.

ثوكيديديس:

هو **ثوكيديديس بن أولوروس الأثيني** (THUCYDIDES)، لا نعرف بالضبط متى ولد ولا متى توفي، ولكن الثابت أنه أصيب بمرض الطاعون الذي كان منتشراً في أثينا سنة (٤٣٠ قبل الميلاد)، وشفي منه بعد أخذ العلاج الضروري. كما عُين قائداً للجيش (سنة ٤٢٤ قبل الميلاد)؛ لأنه كان من المهتمين في الشؤون العسكرية والسياسية.

إذن نستطيع أن نقول: إنه من مؤرخي القرن الرابع قبل الميلاد. والجدير بالذكر أن هناك بعض المؤرخين يرون أن ثوكيديديس عاش فيما بين (٤٧١ - ٤٠١ قبل الميلاد). ولقد نما وترعرع صاحب الترجمة في بيئة علم وثراء. ويظهر ذلك واضحاً عندما عزل من منصبه في الجيش؛ لأن جنوده فشلوا في

حماية مدينة امفيبوليس (AMPHIPOLIS)، تفرغ للدراسة والبحث في ميدان علم التاريخ الخاص باليونانيين، ولم يحتج إلى أي إعانة مالية من أحد.

عاصر ثوكيديديس في مستهل حياته الحروب الأهلية المعروفة باسم الحروب البيلوبونيزية (البيلوبونيز جنوب بلاد اليونان) التي حدثت بين أثينا وإسبرطة، فتعلم منها الكثير، حيث أثرت على اتجاهاته الفكرية، ولا شك أن أسبابها ونتائجها من المصادر الهامة في تأليف كتابه القيم المعروف باسم (التاريخ القديم لليونانيين).. والجدير بالذكر أن الكثير من المؤرخين يعتقدون أن الحروب البيلوبونيزية هي السبب الرئيسي في نجاحه الباهر في كتاباته في ميدان كل من علم التاريخ العسكري والسياسي. والحقيقة أن الصدفة لعبت دوراً عظيماً في الحركة التاريخية لديه.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «وخلف هيرودوتس في تدوين التاريخ في الحضارة اليونانية، المؤرخ الشهير ثوكيديديس (٤٧١ – ٤٠١ ق.م)، وكان أحد قواد أثينا العسكريين، وبعد أن عزل من منصبه لفشله في إحدى المعارك اعتزل الخدمة العامة، وتفرغ لكتابة تاريخ الحروب التي دارت ما بين دولتي أثينا وإسبرطة وأحلافهما، والتي عرفت في تاريخ اليونان باسم الحروب البيلوبونيزية (٤٣١ – ٤٠٤ ق.م)، وبذلك يكون موضوع تاريخه التاريخ المعاصر، وبالدرجة الأولى الأحداث التي عاصرها واشترك فيها، وتميزت روايته بالوقوف والنقد والتحليل، وكان تاريخه أول نوع مما يسمى بالتاريخ السياسي الحربي، وقد أودعه بعض الآراء والنظريات في تفسير التاريخ، ومنها أن في التاريخ دورات ثورية».

عندما عزل ثوكيديديس عن قيادة الجيش اليوناني، نفي من أثينا إلى سكبت هيل (SCAPTE-HYLE) لمدة لا تقل عن عشرين عاماً، كرَّس نفسه في هذه السنوات للبحث والتنقيب والاستقصاء في مجال كل من علم التاريخ العسكري والسياسي.

واعتبر ثوكيديديس كلاً من الحروب البيلوبونيزية وعلم الآثار وعلم الجغرافية، من المصادر الهامة جداً في تصنيف كتابه (التاريخ القديم لليونانيين) الذي عني فقط بالعالم اليوناني. وعرف ثوكيديديس بأسلوبه العسكري القوي الجريء، ومتابعته والتزامه الصدق في جميع تفسيراته للحوادث التاريخية التي ذكرها في كتابه. كما استنكر بشدة وصراحة استخدام الخرافات والأساطير، لذا كان كتابه خالياً منها تماماً.

يقول **جورج سارتون** في كتابه آنف الذكر: «والكتاب يبدأ على الوجه التالي: ثوكيديديس الأثيني كتب تاريخ الحرب التي شبت بين البيلوبونيزيين والأثينيين، وقد استهل عمله عند بداية الحرب؛ لأنه اعتقد أنها ستكون أعظم وأهم من كل ما سبقها من حروب، وحمله على هذا الاعتقاد، أن كلاً من الطرفين أعد للحرب ما استطاع من قوة، وأن الشعوب الهلينية جميعاً اشتركت في هذه الحرب، فانحازت إلى هذا الطرف أو ذاك. وبعضها سارع إلى هذا الانحياز والبعض الآخر عقد العزم على ذلك، وكانت هذه الحروب أعظم حركة أثرت في الهلينيين، بل امتد أثرها إلى بعض الشعوب الأخرى، ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنها أثرت في مجموعة كبيرة من الجنس البشري.. (ولقد عاصرت هذه الحروب، وكنت في سن يسمح لي باستنتاج الأحكام، كما أنني تتبعت حوادثها بدقة، لكي أتمكن من جمع المعلومات الصحيحة).. (قد يكون خلو كتابي من بعض الخرافات سبباً في جعله منفراً للأذن، ولكن لعل هنالك من يرغب في أن يلتقط فكرة واضحة عن الحوادث التي حدثت، أو التي يحتمل أن تحدث في يوم من الأيام، بنفس الطريقة، أو بطريقة مشابهة لها، وحسبي أن يجد مثل هؤلاء الناس، كتابي هذا مفيداً مهماً).. لم يكن ثوكيديديس يفكر في مجده الشخصي، بل كان يفكر في قيمة كتابه، شأنه في ذلك شأن كل عالم مخلص وقد بذل جهوداً مضنية في سبيل الحصول على نتائج لها قيمة خالدة»..

خلاصة القول: لقد بذل ثوكيديديس جهداً كبيراً للحصول على الوثائق التاريخية التي تتعلق بالشعب اليوناني، وعن طريقها تمكن من كتابة كتابه (التاريخ القديم لليونانيين) وقد التزم الصدق والحياد والأمانة، لذا صار كتابه هذا مصدراً قيماً للباحثين في ميدان علم التاريخ عند اليونان. كما برز بين زملائه في كتاباته المتقنة عن الحروب الأهلية التي اشتعلت في بلاد اليونان، وذلك لأنه عايشها، فألمَّ بجميع التفاصيل واستطاع بجدارة الربط بين الأسباب والمسببات مستخدماً ذكاءه ودهاءه.

المعروف أن منهج ثوكيديديس في علم التاريخ يخضع لكل من علم الفلسفة وعلم النفس، لذا ظهرت معظم تحليلاته سليمة ومنطقية ومقبولة من اليونانيين. كما أنه بلور فكرة أن علم التاريخ يشتمل على مادة علمية رائعة، تساعد المؤرخ اللبيب أن يتنبأ في نتائج الصراعات التي تحدث بين الأمم على الكوكب الأرضي. والجدير بالذكر أن كتابه المذكور آنفاً تميز عن غيره بربطه البيئة الجغرافية بالحوادث الاجتماعية، وكذلك محاربته الشديدة الأساطير والخرافات التي كانت تلعب دوراً هاماً في تدوين التاريخ عند اليونانيين. لذا اشتهر ثوكيديديس في انتقائه المراجع وفحصه الوثائق وتنسيقه المعلومات التي يستعملها.

بوليبيوس:

ولد **بوليبيوس** (POLYBIUS) بأركاديا، وأركاديا: منطقة واسعة تقع وسط البيولوبونيز جنوب بلاد اليونان، وعاش فيما بين (٢٠٥ - ١٢٣ قبل الميلاد) أي توفي عن عمر يناهز الثانية والثمانين سنة، وترعرع ونما في بيت علم وجاه، فأهله يعتبرون أنفسهم أنهم أعرق اليونانيين أصلاً. زاول مهنة السياسة في سن مبكرة في مسقط رأسه ببلاد اليونان، ولكنه في عام (١٦٧ قبل الميلاد) نقل كضيف شرف إلى روما وبقي هناك ربع قرن تقريباً معززاً مكرماً؛ لأنه جاء من أسرة عريقة، لذا صار رومانياً أكثر من الرومان

أنفسهم. اشتهر بأنه كان مؤرخاً عالمياً وقنديلاً لعصر العالمية الغربية المتمثل في الجمهورية الرومانية. كما عاصر كلا الحربين بين روما وإسبرطة، وبين الرومانيين والمقدونيين واللتين انتهتا لصالح روما، والمتواتر عنه أنه يصر دائماً على ضرورة معرفة أخلاق الخصوم معرفة جيدة في حالة الحرب؛ لكي يستفيد الجنود من نقاط الضعف عند العدو.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «ومن مشاهير المؤرخين الذين عاشوا في العهد الجمهوري الروماني، المؤرخ اليوناني بوليبيوس (٢٠٥ - ١٢٣ ق.م) الذي أخذه الرومان أسيراً أو رهينة إلى إيطاليا (١٦٧ ق.م) فاغتنم هذه الفرصة أثناء بقائه في روما، وألف في التاريخ باللغة اليونانية، واهتم في تاريخه بالدرجة الأولى بتدوين تاريخ الرومان، ولا سيما التاريخ الدستوري ونظام الحكم. كما ذكر طرفاً من الحروب والحملات الرومانية، واشتهر كتابه بعنوان (تاريخ الرومان واليونان)».

ألف بوليبيوس كتابه (تاريخ الرومان واليونان) والذي يحتوي على معلومات قيمة عن الرواية التاريخية، والدستور الروماني، وجغرافية البحر المتوسط، ولكنه ركز فيه على دراسة الوضع المزري في بلاد اليونان قبل مجيئه إلى روما. كما قدم أيضاً تفسيرات كثيرة حول الحروب الرومانية التي عن طريقها سيطرت روما على معظم بلدان العالم (٢٢٠ - ١٦٧ ق.م). والجدير بالذكر أنه أعطى أهمية كبيرة للاستراتيجية العسكرية وعلاقتها بالعوامل الجغرافية، ولذا فقد زار عدداً كبيراً من أقطار العالم التي يكثر فيها جهابذة العلم، وعن طريق الرحلات المتكررة حصل على وثائق أصلية تحتوي على معلومات تاريخية في غاية الأهمية، استخدمها في كتابه المذكور أعلاه. أما أسلوبه الذي تبناه فقد تقيد بأسلوب التحليل الموضوعي للأحداث التاريخية الذي عناصره كل من دراسة الوثائق والمعرفة الجغرافية والإلمام بالخبرة العلمية.

يقول **جورج سارتون** في كتابه «العلم» ــ الجزء السادس ــ: «أنه صنف كتباً متعددة، وخلد بواحد منها ما كتبه في المدة من (١٦٧ إلى ١٤٠ قبل الميلاد)، وهو كتاب (التاريخ العام). يصف الغزو الروماني لجزء كبير من العالم في نصف قرن أو يزيد (٢٢٠ - ١٦٧ ق.م)، ويبين كيف أصبح المؤلف رومانياً بعد ذلك. ويقع المصنف في أربعين جزءاً، لم يصلنا منها إلا الخمسة الأوائل.. ولا تعنينا التفاصيل كثيراً، ويكفي أن نقول: إن تاريخ بوليبيوس يصف (العالم) كما عرفه من سنة (٢٦٤ إلى ١٤٦ ق.م)، أي ١١٨ عاماً في غاية الأهمية. وكان غرضه فنياً تماماً، هو تعليم السياسة العلمية لرجال السياسة والموظفين المدنيين. وكانت تجربته أكمل ما تكون؛ لأنه قضى مرحلة النشأة والتكوين (٤٠ عاماً) في اليونان، حيث شهد نتائج الفوضى السياسية، ثم الأربعين السنة التالية في روما أو في رحلات لا يلبث أن يعود منها دائماً إلى روما. أكثر من الرحلة إلى اليونان، وإيطاليا، ومصر، وصقلية، وموريتانيا، والجزائر، وإسبانيا، والجال، وربما انجلترا، فلا غرابة أن يكون جيد المعرفة بالأقاليم والأماكن. وكان شاعراً تماماً بضرورة وصف البيئة الطبيعية للمحاولات الحربية أو الإدارية، كما كان مزوداً بما يكفل له وصفها وصفاً صحيحاً، إذا قرأ كل كتاب له صلة بهذا الموضوع باللغة اليونانية أو اللاتينية، ووقع تحت يديه كثير من الوثائق العامة والخاصة. وأخيراً ــ وهذا هو الأهم ــ كان على صلة شخصية في البداية ببعض قادة اليونان، وبعد ذلك بقادة روما والعالم كله، لذا ظهر كتابه (تاريخ الرومان واليونان) متكاملاً».

وخلاصة القول: لقد تأثرت بحوث بوليبيوس التاريخية كثيراً بمسببات وتبعيات ونتائج الحروب التي تمت بين اليونان، ونتيجة لذلك كتب تاريخاً موثقاً للدولتين الرومانية واليونانية. والجدير بالذكر أن بوليبيوس قضى أكثر من ثمانية عشر عاماً في روما يبحث وينقب ويستقصي في المعارف التاريخية التي كانت موجودة في مكتبات أثينا، وخلال فترة بقائه بين الرومانيين

استطاع بذكائه أن يكون علاقات صداقة مع القادة وكبار المفكرين هناك، لذا فهم عن كثب أنظمة وأخلاق الرومان، وحصل أيضاً على جميع السجلات الرسمية لبلادهم.

كان بوليبيوس واسع الثقافة، ويجيد اللغتين اليونانية واللاتينية،ومعروفاً بين زملائه في بحوثه التاريخية، كما أنه لم يحاول أبداً أن يسلي قرَّاءه ببلاغته الأدبية، بل تمكن بجدارة من تدوين آرائه التاريخية بأسلوب واضح وسهل ليثقف القراء. واشتهر بعدالته وصدقه في أحكامه على الحروب التي قامت بين اليونانيين والرومانيين. وهذا يظهر واضحاً من نقده القاسي لحكام بلاده اليونانيين، حيث رصد سلبياتهم وأخطاءهم الخطيرة، وفي نفس الوقت أبرز مثالب الحكام اليونانيين الذين تعاونوا مع الرومان، ولا شك أن حرصه هذا ناتج من معرفته بأهمية علم التاريخ وأنه الوسيلة الجيدة لتعلم الحياة.

مكانة علم التاريخ عند الرومان اللاتين

في بادئ الأمر كان المؤرخون الرومانيون الأوائل يستندون كثيراً على المصادر، البعض منها ضعيف مثل: كل من القطع الأدبية والوثائق والنقوش والنقود التي لم يثبت صحتها، والخرافات والأساطير، واستمروا على هذا المنوال إلى أن اكتملت قوة الدولة الرومانية، وعندئذ سيطر المؤرخون اليونانيون على الوضع وأصبحوا يكتبون تاريخ روما بلغتهم اليونانية، وهكذا تأثر المؤرخون الرومانيون في منهج اليونانيين التاريخي، وعليه تحسن منهج كتابة التاريخ الروماني، وصارت هذه الفترة من التاريخ الروماني تعرف باسم مرحلة النضج؛ لأن جميع المؤلفات الرومانية التي لها علاقة بعلم التاريخ كانت مكتوبة باللغة اليونانية، ثم بعد فترة طويلة على مشارف القرن الأول قبل الميلاد، بدأ المؤرخون الرومانيون يستخدمون لغتهم اللاتينية في تسجيل أحداثهم التاريخية. لقد ورث مؤرخو الرومان عن مؤرخي اليونان الأساليب الفنية في تدوين كل من الحوادث والظواهر التاريخية.

والجدير بالذكر أن المؤرخين اللاتينيين تحمسوا لأبطالهم، وصاروا يمجدونهم ويستشهدون بمواقفهم البطولية في حروبهم ضد أعدائهم، واعتبروا هذا الأمر واجباً ولقّنوه لأبنائهم في المدارس والمنازل.

يقول **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر: «يجمع المفكرون على أن المعرفة التاريخية عند مؤرخي الرومان كانت محدودة، لذلك لم يبتكروا جديداً في المنهج التاريخي، واعتمدوا ـ في بادئ الأمر ـ على وثائق هزيلة وبدائية، فغلبت على كتابتهم البلاغة الأدبية أكثر من المعرفة التاريخية الموثقة توثيقاً دقيقاً، ولولا مشاركة الكتاب الإغريق (اليونان) في التدوين لحدثت انتكاسة كبيرة له، وظلت التقاليد اليونانية في الطابع والأسلوب هي السائدة، وعالج المؤرخون الرومان موضوعاتهم متأثرين بالمنهج اليوناني، وأول ظاهرة

لهذا الأمـر أن الرومـانيين ظلـوا يكتبـون ــ حتـى الأدب ــ باللغـة اليونانيـة، وكانت معظم المؤلفات التاريخية بهذه اللغـة، مثـل حوليـات فـابيوس بكتـور، وكان أول كتاب أشير فيه إلى أسطورة أصل روما الطروادي حوليات الشاعر إينياس سنة (١٦٩ قبل الميلاد)».

وفي أواخر القرن الثـاني قبـل الميـلاد ظهـرت لـدى المؤرخـين الرومـانيين حركة الاهتمام بدراسة تراثهم القديم، وذلك بهدف إحيائه والتمسك به، لذا فرضت الحكومة الرومانية تمجيـد السـلف وإحيـاء التقـاليد الرومانيـة القديمـة. وعليه اتجهوا إلى تاريخ الحوليـات، وصبغـوا المنهـج التـاريخي بصبغـة تتناسـب والأفكار الاجتماعية والسياسـية القائمـة حينئـذ. لـذا بلـوروا بوضـوح للمـلأ موارد روما وقوتها، وصاروا يتغنون ويتفاخرون بذلك. كمـا اتجهـوا كذلـك إلى ربط علم التاريخ بكل من دوائر المعارف والموسوعات والفهارس، وأصبح الأرشيف (مكان تخزين قرارات الدولة) من المصادر الهامة للمؤرخ، بل تحول المؤرخ الروماني إلى موظف لدولتهم، يهتم بتسـجيل عـدد المواليـد والوفيـات وما تقدمه له السلطة من المعلومات التاريخية.

يقول **قاسم يزبك** في كتابه «التاريخ ومنهـج البحـث التـاريخي»: «وكـان للتاريخ عند الرومان دائماً شخصية مركزية، فكانت روما تلك الشـخصية إذ إنها سبب تاريخهم نفسه، ومنذ عهدهم أصبحـت كتابـة التـاريخ وظيفـة مـن وظائف الدولة؛ لأنه قد أعطى لكل مـؤرخ أن يؤمـن لشـعبه عنـاوين نصـره، وكنزه من الحكمة السياسـية. لا شـك أن هـذا الاهتمـام النفعـي اسـتطاع أن يضر بروح البحث عن الحقيقة.. وهكذا صوّبت روما كل انتباهها إلى ذاتهـا، فقدرت أن تدمر الشعوب واحداً بعد الآخر غير مبقية منها إلا أثراً بعد عـين. لكن التقليد الملحمي المأخوذ عـن اليونـان أخـر المؤرخـين عـن الاهتمـام بغـير العظماء من الناس، ونتيجة لذلك بقـي التـاريخ سـرد وقـائع، فبقيـت جماهـير البشر غارقة في كدها وكدحها، وظلت همومها اليومية يغمرها النسيان».

وخلاصة القول: لقد تمكن الرومان باستيعابهم حضارة كل من البـابليين وقدماء المصريين واليونانيين من السيطرة على أجزاء كبـيرة جـداً مـن حـوض البحر المتوسط،و نتيجة لذلك أصبح انتماء المـؤرخ اليونـاني لرومـا أكـثر مـن ولائه لبلاده اليونان. وهذا يوضح تماماً الوضع المتدني الذي وصلت إليه الحياة الاجتماعية والحياة السياسـية عنـد اليونـانيين، وذلـك يعـود إلى تبـني الرومـان نظاماً للحكم يميل إلى الإنصاف بين مواطنيهـم، ولكـن الوضـع المذكـور لـم يستمر طويلاً، بل تدهور مجتمعهم تدهوراً خطيراً عندمـا سيطر علـى شـؤون الدولة الرومانية القساوسة والرهبان، وعليه صار التاريخ اللاتيني خاضعاً لآراء اللاهوت مسخراً لفلسفاتهم العقيمة.

يوليوس قيصر:

لمع **يوليوس قيصـر** (JULIUS CAESAR) في أواخـر القـرن الأول قبـل الميلاد بين أحبابه، بأنه كـان مؤرخاً بارعـاً وعسـكرياً فـذاً وسياسـياً محنكـاً، وعاش فيما بين (١٠٠ – ٤٤ قبل الميلاد) ، روماني المولد والمنشأ. وكان من الحكام الرومان البارزين، وقتل وهو في سن ٥٦ عاماً، وفي وقـت متـأخر مـن حياته ذاع صيته بين زملائه لكونه قائداً شجاعاً خاض معارك كثـيرة وانتصـر فيها، ولـذا يعتـبر رائـداً عسـكرياً وسياسـياً موهوبـاً، ولثقتـه العظيمـة بنفسـه استطاع أن يشرح لجنوده وطلابه بوضوح وببساطة المعارك التي خاضها والتي شاهدها، وذلـك بقصـد أن يفهمـوا أسـباب الحـروب ونتائجهـا. كمـا لقبـه معاصروه بديقوس (أي المقدس) لأعماله المتميزة، ليس فقـط في حقـل العلـوم العسكرية، ولكن في مجالات أخرى وفي مقدمتها علـم التـاريخ، وهـذا يظهـر جلياً في كتابـه (كتـاب التعليقـات) الـذي يمتـاز بمـا يحتويـه مـن المعلومـات عسكرية وتاريخية لا يستغني عنها الباحث في ميدان التاريخ الروماني. والجدير ذكره أن المؤرخين في العالم يجمعون على أنه كان أحد الأبطـال المعروفـين في التاريخ القديم، وعلى رأس سائر المؤرخين.

ومن المعروف أن التاريخ الروماني سيطرت عليه أقلام يونانية إلى أن ظهر على الساحة يوليوس قيصر الـذي كتـب كتابـه المشـهور عـن الحـرب الغاليـة (THE GALLIC WAR)، والذي وضـح فيـه أن الحـرب انتهـت بضـم بـلاد الغـال إلى الدولـة الرومانيـة، وكتاباتـه التاريخيـة توحـي بالاهتمـام بـالجوانب الجغرافية، لذا عرض دراسة متكاملـة عـن الـدول الأوربيـة مـن حيـث جغرافيتهـا وثرواتها وعادات قبائلها المتنوعة، ونستطيع القول: إن المؤرخ العسكري يوليـوس قيصر قد مزج علم التاريخ بعلم الجغرافية، حيث استعان في الخرائـط الجغرافيـة في تحديد المناطق والأنهار والقبائل التي يريد دراستها، واشتهر يوليوس قيصر بنزاهتـه، فلم يعرف عنه الكذب أو تزييف الحقائق، بل كان مؤرخاً عسكرياً مخلصاً بعمله.

ويقول **حسين محمد سـليمان** في كتابـه آنـف الذكـر: «ويوليـوس قيصـر رجل وبطل وحاكم سياسي، كان إمبراطوراً لروما، ولُقِّـبَ بلقـب (ديقـوس) أي المقدس اعترافاً لعظيم أفعالـه. دَوَّخَ الجيـوش الرومانيـة، وجـال بهـا شـرقاً وغرباً، ووسع الإمبراطورية حتى بلغت الجزر البريطانية، وغلب أمم بلاد غالـة (فرنسا الآن)، هذا فضـلاً عـن معاركـه، الداخلية مـن أجـل السـلطة ولإخضـاع القوى السياسية لسلطانه. كل ذلك منحه تجارب كبيرة بجـانب مـا كـان يتملكـه من خاصية أدبية. بدأت حياته الأدبية في وقت متأخر، وكتب كُتُباً لـم يبـق منهـا إلا كتـاب (التعليقـات)، وذكرياتـه الحربيـة ووصـف معاركـه في بـلاد الغـال، ومعاركه السياسية الداخلية، وفتح بكتابه هذا باباً لطراز أدبي جديد لا يتوافـر إلا لمن كان أديباً، وسنحت له الأيام بأعمال حربية. ويُعد كتابه خير ما كتـب من المذكرات في العالم القديم. فقـد شـرح معاركـه في بـلاد الغـال وغيرهـا في وضوح تام، يمتاز بنصاعة الأسلوب وقوته والتزام كبح نفسه والترفق والاعتـدال في سرده الأحداث، وتصوره للواقع، مما كشف عن عبقريته المتعـدده الجوانـب، وقد صار كتابه مصدراً للمعلومات عن بلاد الغال».

وخلاصة القول: لقد كان يوليوس قيصر حاكماً سياسياً، ثم صار مؤرخاً في آخر أيام حياته يهتم بكل من الجانب العسكري، والجانب السياسي من علم التاريخ، لذا يعتبر أعظم حدث تاريخي انفرد به يوليوس قيصر تاريخ الحرب الغالية التي أعطت كتاباته التاريخية جاذبية علمية، وذلك لحسن عرضه وتحليلاته العسكرية والسياسية الناتجة عن خبرته الطويلة في هذين المجالين الحيويين، والحقيقة أن تفننه في كل من الاتجاه العسكري والاتجاه السياسي لم تتغلب أبداً على اهتماماته الأدبية والتاريخية. وعليه تميزت كتاباته التاريخية بالدقة وسهولة التعبير والبُعد كل البُعد عن التنميق.

وصدق **جورج سارتون** عندما قال في كتابه «تاريخ العلم» ـــ الجزء السادس ـــ: «كان قيصر (النصف الأول من القرن الأول ق. م) في ابتداء أمره حاكماً وسياسياً، ثم أصبح قائداً. وبرزت عبقريته الحربية في وقت متأخر نسبياً من حياته، وبوجه عام لـم تبدأ حياته الأدبية والتاريخية إلا في وقت متأخر من ذلك، رغماً من أنه كان بالفطرة من رجال الأدب.. ولم يبق من كتاباته إلا (التعليقات) وهي ذكريات من معاركه الحربية، وقد فتحت الباب لطراز أدبي جديد، وستظل نماذج لهذا النوع. إن الرجال الذين تسنح لهم فرصة القيام بأعمال حربية عظيمة قليل، وقليل من هذه القلة لهم القدرة الأدبية على تصويرها... وتُعد (التعليقات) مصدرنا الأساسي للحوادث المروية، وهي تصفها وصفاً بارعاً؛ لأن قيصر يخرج معاركه ببساطة ووضوح تامين. ولما كان قيصر كاتباً مطبوعاً، كما كان قائداً مفطوراً، فلا غرو أن تكون (التعليقات) أحد روائع الأدب التاريخي..».

وهكذا يمكن القول الآن: إن يوليوس قيصر سخّر الأدب لخدمة علم التاريخ. وهذا يظهر من أعماله التاريخية التي تمتاز بالسلاسة والوضوح والصدق والاختصار والبُعد عن النفاق والمجاملات، كما حاول أيضاً أن يقدم

معلومات موجزة عن أجناس البشر التي تعامل معها في حياته. بهذا سلط علم التاريخ على علم الإنسان. إذن نستطيع القول: إن إنتاجه عبارة عن عمل موسوعي يفخر به الرومان.

فارو:

يُعتبر **فارو (Varro)** من علماء النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد المتفوقين ليس فقط في علم التاريخ ولكن في علوم شتى، فهو موسوعة عصره، ومن الذين لهم صولة وجولة في مجال الموسوعات التاريخية. ولقد عينه يوليوس قيصر مسؤولاً عن أول مكتبة عامة أنشئت في روما. عاش فيما بين (١١٦ - ٢٧ قبل الميلاد). وتوفي بعد يوليوس قيصر في ١٧ عاماً. ذاع صيته بين زملائه من خلال كتاباته التاريخية والأدبية، حيث أنتج إنتاجاً عظيماً في مجال علم التاريخ، والظاهر أنه كرَّس نفسه في أول الأمر لجمع الكتب والوثائق التي استفاد منها كثيراً في كل من مؤلفاته التاريخية والأدبية، ونتيجة لذلك فقد أنجز أيضاً كلاً من مجموعة الآثار الإلهية المقدسة، ومجموعة الآثار الإنسانية الدنيوية، وكتاب أعلام الرومان واليونان، وكتاب تاريخ الأسرة الرومانية، وكتاب تاريخ الشعب الروماني وغيرها. والمتواتر أنه نقل الكثير من معلوماته التاريخية من مؤلفات الأقدمين من اليونانيين والرومانيين. ولكن بطريقة فنية لم يخف فيها الوقائع والحقائق التاريخية مهما تكن، بل حاول أن يكشف عيوب الماضي وأخطاءه لكي يتجنبها معاصروه ومن سيأتي في المستقبل من الأحفاد.

يقول **جورج سارتون** في كتابه آنف الذكر: «والحق أن فارو كان أعظم باحث في أمته. وكانت كتبه تستخدم طوال عهد الإمبراطورية الرومانية بما في ذلك عصر تدهورها، كما يستخدم اليوم القواميس أو دوائر المعارف. نعم إن وسائلنا أفضل بدرجة لا حد لها، ولكن علينا أن نتذكر أن وسائل فارو، وإن

تكن بدائية وناقصة، تعد الأولى من نوعها.. فقد كان إلى حد ما فيلسوفاً أو على الأقل مفكراً حاول أن يفهم ويفسر أصل الظواهر الاجتماعية وتطورها.. وعلى الرغم من أن جوهر معلوماته كان بالضرورة من أصل يوناني، إلا أنه حاول أن يضيف إليها من المعلومات الرومانية بمقدار ما يستطيع، وأن يفسر الأمور اليونانية بلغة رومانية وبالعكس. كان هدفه الأساسي النهوض بالمؤسسات الرومانية أو تسويفها، وكان مقتنعاً أن الدين هو السبب الرئيسي في الطهر والقوة والوحدة».

وينقل **جورج سارتون** في كتابه السابق: «أن شيشرون سرَّ كثيراً فيما كتبه فارو عن الدولة الرومانية منذ بدايتها إلى زمانه، حيث دون أفكاره جميعها بوحي من نفسه وليس بتكليف من أي مسؤول في دولته، ولذا كتب شيشرون له ما نصه: «كنا هائمين على وجوهنا كأغراب يزورون مدينتنا ذاتها، حتى قادتنا كتبك ـ إن صح هذا القول ـ إلى قلب الوطن. ويسَّرت لنا أخيراً أن نتبين من نكون، وأين نوجد. فقد كشفت لنا عن عمر مدينتنا وأحداث تاريخها وقوانين ديانتها وهيئة كهنتها،ومؤسساتها المدنية والحربية ومواضع أحيائها وأسوارها، وكشفت لنا عن مصطلحات المؤسسات الدينية والمدنية وأصنافها وأساسها الأخلاقي والعقلي، وألقيت أضواء ساطعة على شعرائنا. وبوجه عام على الأدب اللاتيني واللغة اللاتينية، وألفت شعراً بديعاً بأساليب متعددة وفي جميع البحور، ولخصت من الفلسفة في فروعها المتعددة ما يكفي أن يحرك همة طالب البحث، وإن لم يكف لاستكمال تعليمه».

وخلاصة القول: لقد بلور فارو في جميع بحوثه التاريخية والثقافية كلاً من العوامل الجغرافية، والمؤسسات العلمية، والمدارس الاجتماعية، والحوادث التاريخية بطريقة علمية، تدل على أنه كان واسع الاطلاع عارفاً بالعلوم المتصلة بدراسة علم التاريخ وكتابته. ولقد عرّف أيضاً بدور الكهنة والعرافين وخطورتهم على المجتمع الروماني. كما حث الشباب الروماني على دراسة

علمي التاريخ والاجتماع؛ لأن لهذين الحقلين دوراً عظيماً في تطور الدولة الرومانية. والمتواتر أنه كان لفارو منهج فكري مختلف عن غيره من المؤرخين الرومانيين، حيث ركّز في جميع دراساته على علم الفلسفة وصلتها الوثيقة بعلم التاريخ، لهذا اعتبر بأنه أعظم باحث روماني.

تيتوس ليفي:

هو **تيتوس ليفي** (Livey) وفي بعض الأحيان يكتب اسمه **ليفيوس** (Livius) وهومن كبار المؤرخين الرومانيين. لذا أسند إليه الإمبراطور أغسطس كتابة تاريخ الرومانيين منذ البداية حتى زمانه، وفرغه لهذه المهمة الصعبة، فألف كتابه المعروف باسم (تاريخ العقود الرومانية) الذي يحتوي على تاريخ كامل لروما. عاصر ليفي كلاً من مؤرخي أواخر القرن الأول قبل الميلاد ومؤرخي أوائل القرن الميلادي الأول، أي عاش فيما بين (٥٩ قبل الميلاد ـ ١٧ م)، وكانت ولادته في مدينة باتفيوم الواقعة شمال شرق إيطاليا والتي تعتبر من أعظم مدن إيطاليا، ونشأ وترعرع في أحضان أسرة عريقة لها شأنها، ولا نعرف بالضبط أين قضى معظم حياته، ولكن الثابت أن الإمبراطور أغسطس قربه منه، وجعله مستشاره الخاص في كل من الأمور السياسية والأدبية والتاريخية، وبهذا ذاع صيته بين زملائه. كما اشتهر بقدرته الفريدة على كل من الخطابة وأدب الحوار، لذا احتل مكاناً مرموقاً في بلاط الإمبراطور أغسطس كمؤرخ وخطيب.

يقول **جورج سارتون** في كتابه آنف الذكر: «استهدف ليفي من عمله البناء خدمة الأمة والدفاع عن الوطن. ولما كان تحت رعاية أغسطس، فقد كان المؤرخ الرسمي للإمبراطورية، حقاً لم يحمل مثل هذا اللقب، ولكن مركزه كان شبيهاً بمركز كتاب التاريخ الذين ألحقوا بين حين وآخر ببلاط الملوك في أوربا. وكانت الأوراق الرسمية في متناول يده بما فيها مذكرات

أغسطس، مما جعله على علم ما أمكن بوجهة نظر الحكومة. كان باستطاعته أن يستخدم، بل لقد استخدم بالفعل الكتب التي صدرت من قبل لا في اللاتينية فقط، بل في اليونانية.. كان رجلاً حسن الطوية أميناً، وكانت نظرته هي النظرة التقليدية لطبقته وبيئته.. وقد بلغت مساوئ الحرب الوطنية وما ترتب عليها من كوارث من الخطر ما جعل ليفي يولي ظهره لها ويلتمس الراحة في رؤية أوقات الشجاعة في الزمن القديم».

اعتمد ليفي في تصنيف كتابه (تاريخ العقود الرومانية) على وثائق تاريخية مكتوبة في كل من اللغة اللاتينية واللغة اليونانية، حصل عليها عن طريق مكتبات روما ومخازن الكتب لدى الدولة الرومانية (الأرشيف). وقد كتبه بطريقة فنية استطاع عن طريقها أن يحرك الروح الوطنية عند الشباب والشابات لخدمة الدولة الرومانية. كما ركز على مكانة الإمبراطور أغسطس ودوره في الحفاظ على صيانة روما وحمايته من الاندثار، لذا يرى وجوب إظهار الولاء للوطن ثم للإمبراطور أغسطس. وهذا الكتاب القيم عبارة عن موسوعة متكاملة يبلغ عدد أجزائها ١٤٢ جزءاً ضاع معظمها. وتتضح أهميته بأنه طبع عدة مرات، فعلى سبيل المثال طبع سنة (١٥٠١ ميلادية) أكثر من عشرات المرات، وترجم إلى اللغة الإنجليزية في ١٣ مجلداً ونشر عام (١٩٥١ ميلادية)، وهكذا انتشر توزيعه في جميع أرجاء المعمورة.

وينقل **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر عن مقالة تحت عنوان (فلسفة التاريخ وصلتها بالصحافة) نشرت بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة سنة (١٩٥٥) لحسنين عبد القادر ما نصه: «ويمثل كتاب ليفي (تاريخ العقود الرومانية) قنطرة تصل الجمهورية بالإمبراطورية، وتربط العهد السابق للمسيح بالعهد المسيحي، فكانت نظرة ليفي إلى مصير روما أكثر دقة، وتحدث عن قصة اتساع الدولة الرومانية ، وعما شعر به المواطنون الرومان من الفخر والطموح، وكانت نظرته أن روما ستقضي على شرور الزمن الذي

يعيش فيه، ما دامت تغلبت في أحوال كثيرة في العصور العظيمة الماضيـة علـى كثير من الصعاب والمحن».

وخلاصة القول: يؤخذ على المؤرخ ليفي أنـه طـوَّع الأحـداث التاريخيـة وفقاً لرغبة الإمـبراطور أغسـطس، وذلـك لأن الدولـة الرومانيـة مرّت بفـترة مـن عمرها كانت مزدهـرة في كـل مـن النواحـي العسـكرية والسياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة، لـذا صـار يتغنـى بذلـك ويربطهـا بأعمـال الإمـبراطور أغسـطس. والمتواتر أن المؤرخ ليفي كتب تاريخ روما بتوجيه من الإمبراطور أغسطس، بهـذا لـم يكن أبداً مجرداً من التحيز، بل كان يعمل بوجهة نظر رسمية معينـة ولأهـداف سياسية واضحة.

وعلاوة على ما تقدم فقد تميز المؤرخ ليفي بكل من علم الفلسفة والأدب والخطابة والتاريخ، وتفوقـه هـذا أعطـاه قـدرة عظيمـة في تقييـم الأشـخاص، وكذلك مكنه من كتابة تاريخ روما بأسلوب سهل وسلس، لذا تعتبر كتاباتـه التاريخية ملحمة جيدة يمجد بها الرومان عبر العصور.

أمـا كتابـه الوحيـد (تـاريخ العقـود الرومانيـة) فكـان يشـتمل علـى آراء وأفكار قومية، تبعث الوعـي الوطـني عنـد الرومـان علـى مختلـف مسـتوياتهم الثقافية. وبالفعل كان لها صـدى عظيـم، وعليـه صـار القـادة العسـكريون في إيطاليا يستخدمون مقتطفات من كتابه خلال الحرب العالميـة الثانيـة (١٩٣٩ -١٩٤٥)، لإشعال الروح الوطنية عند الإيطاليين.

مكانة علم التاريخ
في العصور الوسطى الأوربية المظلمة

عانت الديانة المسيحية في أوائل عهدها الأمرّين، حيث وقف ضدها كل من كبار المفكرين الرومان والحكام الرومانيين، وهكذا تبلور بوضوح العداء للمسيحية بين أفراد الدولة الرومانية عبر القرون الثلاثة الأولى للميلاد. ولكن في سنة (٣١٣ ميلادية) اعترف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية كدين لدولته؛ لأنها اعتنقت في جميع أرجاء المعمورة، لذا اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالدين المسيحي يعتبر اعترافاً مكرهاً عليه. والمعروف أن الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ ميلادية) عاش معظم حياته وثنياً ويحارب بكل قواه الديانة المسيحية، ولكن الديانة المسيحية انتشرت انتشاراً عجيباً ما بين القرن الثالث والرابع الميلاديين، رغم معارضته القوية ضدها.

يقول **سعيد عاشور** في كتابه «بحوث ودراسات في تاريخ القرون الوسطى»: «بدأت حركة اضطهاد المسيحية في أوربا سنة (٦٤ ميلادية) في ظل سياسة الإمبراطور نيرون، ثم انتقلت إلى آسيا الصغرى في عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ ميلادية) وبلغت مداها في مصر على عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ ميلادية)؛ أي ظلت القرون الثلاثة الأولى للميلاد في صراع مرير مع الإمبراطورية، ولم يكن اعتراف الإمبراطور قسطنطين بها كديانة شرعية في الإمبراطورية سنة (٣١٣ ميلادية) إلا اعترافاً بالأمر الواقع».

في فترة ازدهار الديانة المسيحية حاول المؤرخون المسيحيون أن يضعوا قواعد عامة لكتابة علم التاريخ، معتمدين بذلك على فلسفة علم التاريخ التي ورثوها عن علماء اليونان الوثنيين، ومن هنا اتجهت أعداد كبيرة إلى التأليف في ميدان علم التاريخ، فصدر لهم مؤلفات كثيرة تدافع عن الديانة المسيحية

وترغب فيها وتحارب الوثنية الفاسدة، ولكنها للأسف تحتوي ــ هذه المؤلفات ـ على كل من الخرافات والأساطير البالية والتحيز العقيم والمبالغات الممقوتة، وهذه كلها توحي بالتعدي وعدم الاكتراث بشروط الكتابة في مجال علم التاريخ، والمعروف أن سبب جميع المخالفات في منهج الكتابة التاريخية ناتج عن سيطرة الكنيسة التي كانت تدعي بوضوح أنها تعمل هذا كله للحفاظ على الحضارة الرومانية المتعثرة، ولا شك أن الكنيسة ساعدت على استمرار الحضارة الرومانية المريضة التي يعتبرها المؤرخون في العالم أن عصرها عصر تخلف فكري.

يقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «كان لانتصار الديانة المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى في الكتابة التاريخية، وفي الأفكار التي كان يسترشد بها المؤرخون. فقد نبذت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان. واعتبرت الكتابات التاريخية التي أنتجها العصر الوثني أنزل من مستوى الكتابات التاريخية المقدسة، وحامت الشكوك حول قيمة التفكير العقلي الذي كانت له المكانة العليا عند اليونان، وأصبح للإيمان الديني المحمل الأعلى والركن الأقوى، وصار الاعتقاد بما فوق الطبيعة محك الفضائل، ونبذت منجزات الفنانين والفلاسفة والشعراء والساسة والحكماء.. وقد أضر ذلك بكتابة التاريخ وعاق تقدمها، ولكن برغم ذلك فإنه كان من غير الممكن التغلب على تأثير الثقافة الوثنية، وكثير من رجال الدين الأوائل كانوا يستعملون اللغة الوثنية، وقد تلقوا ثقافة وثنية قبل دخولهم في الديانة المسيحية، ولذلك تأثرت مثلهم العليا السياسية وممارساتهم للشؤون العلمية بالعناصر الوثنية».

لقد كثرت المصنفات التاريخية في عهد الإمبراطورية الرومانية على الرغم من أنها لا تعتمد على الحقائق التاريخية الصادقة ولا تحتوي على تحليل علمي ومنطقي؛ لأن جميع الإنتاج التاريخي آنذاك في قبضة القساوسة والرهبان، وصار المؤرخون يعملون ليلاً ونهاراً لإرضاء الكنيسة، واضعين في حسبانهم

أن الحركة التاريخية عبارة عن صراع بين الحق والباطل، وعليه بقيت الكنيسة هي المصدر الوحيد للتحليل والنقد وإصدار التعليمات التي يجب اتباعها، لذا عملت الكنيسة منهجاً لكتابة التاريخ التزم به جميع مؤرخي الإمبراطورية الرومانية، واستخدم لتفسير الوثائق التاريخية الخطيرة. والجدير بالذكر أنه حدث تدهور ذريع ليس فقط في منهج كتابة علم التاريخ المسيحي ولكن أيضاً في كتابة علم التاريخ الوثني.

يقول **شوقي الجمل** في كتابه «علم التاريخ»: «ولما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ ميلادية) تأثر التاريخ والكتابة التاريخية بهذا الحدث الهام، فقد تحول التاريخ إلى أيدي القساوسة والرهبان، وصار التاريخ خاضعاً للاهوت مسخراً له، وتركز في الحوليات التي لا تخرج عن تقييد للحوادث وربطها بأعياد الفصح وغيره من الأعياد المسيحية».

بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي سيطر الجرمان على الجزء الغربي منها سنة (٤٧٦ ميلادية)، وانتشرت حينئذ العنصرية المسيحية المعروفة التي لا تحمل أي حقيقة تاريخية، لذا أجمع المؤرخون في المعمورة آنذاك أن عملاً كهذا يُعتبرُ عبثاً تاريخياً، من هنا بدأت القساوسة والرهبان يعملون ليلاً ونهاراً للسيطرة الكاملة على الحركة التاريخية في بقايا الإمبراطورية الرومانية في شطرها الغربي.. بينما الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية فقد وقع في قبضة البيزنطيين الذين أعطوا ثقلهم التاريخي للكنيسة المسيحية، فصار البابوات لهم اليد الطولى في تدبير أمور الدولة البيزنطية المهزوزة لمدة تزيد عن ألف سنة، في وقت كانت الأمة الإسلامية تحاول أن تجعل علم التاريخ محور النشاط والتطور في المجتمع الإسلامي.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «دخلت أوربا من بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية على أيدي البرابرة

الجرمان (سقوط روما في سنة ٤٧٦ م) في عصور مظلمة سياسـياً وحضاريـاً، على الرغم من بقاء القسم الشرقي من تلك الإمبراطورية فيما يسـمى بالدولـة البيزنطية (الروم الشرقيين) في القسـطنطينية، وسادت الكنيسـة وعلـى رأسـها البابوات أوربا إلى مطلع ظهور الدولة القومية الأوربية منذ القرن الرابـع عشـر الميلادي، وانبعاث ما يسمى بالنهضـة الأوربيـة. والمعـروف تاريخيـاً أنـه كـان يقابل هذه العصور المظلمة في أوربا عصر ازدهار الحضارة العربية والإسـلامية التي حملت مشعل العلوم والمعارف البشرية ردحاً طويـلاً مـن الزمـن، وبـدأت تنتقل منها العلوم والمعارف إلىجهات العالم، ومنهـا العـالم الأوروبـي بطريـق الاتصـالات التجاريـة والحـروب الصليبيـة (١٠٩٥ - ١٢٩١م) وعـن طريـق عرب الأندلس في إسبانيا».

وسبب تخلف أوربا العلمي تعثر علم التـاريخ تعـثراً ملفتـاً للنظـر، حيـث كثر التزييف في كل مـن الأخبـار والوثـائق والمستندات، ولـذا خمـدت تمامـاً الحركة الفكرية وساد التخلف العلمي في جميع أرجاء أوربا، عليـه هبـط مسـتوى الكتابة في علم التاريخ هبوطاً مخزياً، حيث كانت بعيـدة كـل البعـد عـن التحليـل والاستقصاء والبحث، بل كان علم التاريخ آنذاك عبارة عـن سـجل للمعلومـات التاريخية التي أغلبها ملوثة بالتزوير إرضاء للقساوسة والرهبان.

ويقول **علـي أدهـم** في كتابـه آنـف الذكـر: «كـان المؤرخـون في العهـد الوسـيط في أوربـا أميـل إلى سـرعة الاعتقـاد والتصديـق منهـم إلى التحـري والتدقيق في قبول الأخبار ورواية الأحداث، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعي والمثالي أو الحق التاريخي والحق الشعري، وكانت الملاحم الشعرية تُعد مراجـع تاريخية، ولم يكن هناك عناية بكشـف الحقـائق وإزهـاق الأبـاطيل مـا دامـت الوثائق والأخبار المزيفـة تخدم قضيـة مـن قضايـا العصـر، وتؤيـد معتقـداً مـن المعتقدات الشائعة، والواقع أن ملابسات الأحوال السائدة في العصـر الوسـيط كانت تساعد على ذلك، فقـد عمـت الفوضـى، وخيـم الظـلام بعـد سـقوط

الحضارة الرومانية، وجمدت الحركة الفكرية، وساد الجهل والتخلف، وفقد الكثير من الكتب المدرسية الهامة، وكان التعصب الديني الضيق من دواعي سلب بعض المكتبات وإحراق ما بها من مؤلفات قيمة، ومن قبيل ذلك حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة».

وخلاصة القول: بعد تدهور الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية، واستيلاء الجرمان الحاقدين عليه، استمر حكمهم حتى القرن العاشر الميلادي، وفي نفس الوقت صار للكنيسة الغربية السيطرة الكاملة على الحركة الفكرية والثقافية والنظم والحركات الاجتماعية والاقتصادية التربوية في غرب أوربا، كما نجحت الكنيسة في تثبيت مبادئ الأنجلوسكسونية، أما من الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية فكان أحسن وضعاً من الجزء الغربي، حيث تولى حكمه كل من الأباطرة جستنيان (ت٥٦٥م) وهرقل (ت٦٤٠م) وليو الأيسوري (ت٧٤٠ م) الذين اشتهروا بمقدرتهم القيادية، ولكنهم جميعاً ساعدوا الكنيسة الشرقية المعروفة بتعصبها الصليبي الأعمى على نشر أفكارها المسيحية الأُرثوذكسية في جميع أرجاء العالم. كما حاولت الكنيسة الشرقية أيضاً محاربة مبادئ الدين الإسلامي الذي لاقى ترحيباً عظيماً في معظم أجزاء الدولة البيزنطية، (الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية)، مثل كل من الشام ومصر وغيرهما، وهكذا ازدهرت الحضارة العربية والإسلامية التي استوعبت كل الحضارات السابقة، وأنكرت بصراحة وقوة كل ما يتعارض مع الدين الإسلامي.

لقد سيطر البابوات على الحركة الفكرية في العصور الوسطى لأوربا، حيث كان القساوسة والرهبان هم العلماء وأصحاب الرأي والفكر حينئذ، كما أن الكنيسة أيضاً تبنّت تعليم المؤرخين، والتحيز للدين المسيحي والتمسك الشديد بالخرافات والأساطير البابلية. ولا شك أن مثل هذه التصرفات كانت حجرة عثرة في طريق تقدم وتحرر علم التاريخ من الخزعبلات.

كان المؤرخون الأوربيون في العصور الوسطى الأوربية المظلمة، يكتبون تحت تأثير كل من الكنيسة والأسر العريقة والحكام وأهل النفوذ (أي لأغراض نفعية بحتة)، بهذا فقد تاريخهم صفة علم التاريخ المتفق عليها، بينما المؤرخون العرب والمسلمون الذين يمثلون وجه العبقرية العربية الصحيح، لم يرضوا أبداً أن يكتبوا في مجال علم التاريخ تحت تأثير أي سلطة، لذا كانوا يحللون ويدرسون الأحداث التاريخية بصفاء قلب وروح، وعليه تمكنوا من إبراز مداركهم العقلية الفريدة، فصاروا مجد الحضارة العربية والإسلامية وموضع عزها وفخارها، وهكذا استطاعوا وبجدارة أن يرسوا دعائم حضارة عربية وإسلامية مرموقة، أسدت للإنسانية خدمات عظيمة لا تقدر بثمن.

الباب الثاني

تطور الكتابة التاريخية
عند العرب بعد الإسلام

مكانة علم التاريخ عند العرب والمسلمين

كان الجهل والفقر متفشيين في سكان قلب الجزيرة العربية قبل الإسلام، حيث إن معظمهم كانوا من البدو الرحل الذين يتنقلون في أرجائها الواسعة، لذا اضطر المؤرخون الأوائل أن يستندوا في تلك الحقبة على القصة والأسطورة والشعر والنقوش للتعرف على الكثير من القضايا التاريخية. كما أن العرب كانوا يتحدثون عن الروايات التاريخية التي كانوا يتناقلونها جيلاً بعد جيل، وهذه الأساطير تعطي شعوراً تاريخياً قوياً؛ لأنها في مضمونها الحقيقي تسجل أحداثاً تاريخية عظيمة تعتبر بحق من العناصر التاريخية الهامة جداً.

يقول **قاسم عبده قاسم** في مقدمة ترجمته لكتاب «المؤرخون في العصور الوسطى» **لبيريل سمالي**: «فقد ولد التاريخ من ضلع الأسطورة، ونما وترعرع في رحابها، وإذا كان التاريخ من حيث هو سجل للماضي الحضاري الإنساني، فقد بدأ مع بداية الوجود الإنساني نفسه، فإنه كان آنذاك موغلاً في ضبابية الغموض والخيال بشكل جعل بعض الباحثين يصفون الكتابات التاريخية الأولى بأنها (أوسع الأساطير وأكثرها جرأة).. ولكن يبقى السؤال مطروحاً: لماذا سعى الإنسان إلى المعرفة من خلال الأسطورة التي خلق التاريخ في رحمها؟. الواقع إن الرغبة في الكشف عن لغز الوجود الإنساني وأصوله من ناحية، وأصول العادات والتقاليد وغيرها من ظواهر الحاضر من ناحية أخرى، هي التي دفعت الإنسان منذ القدم - ولا يزال تدفعه حتى اليوم - إلى محاولة فهم حاضره من خلال ماضيه. وبذلك فإننا لا نبالغ إذا قلنا: إن للتاريخ ضرورة اجتماعية. فالقبيلة البدائية التي تعيش في عزلة نسبية تحاول الكشف عن تراثها، لإبراز بطولات الأجداد ومآثرهم، بينما يسعى المجتمع الأكثر تعقيداً في تركيبه إلى تحقيق معرفته بذاته من خلال التفتيش في الماضي للتعرف على شخصية المجتمع وهويته، وأصول المشكلات التي تواجهه».

المعروف أن الأسطورة في كثير من الأحيان ينقصها دراسة الأسباب والنتائج؛ لأن الورثة الأوائل يأخذونها كمسلمة تاريخية غير قابلة للإثبات، لكن بعد أن أشرق الإسلام، صار مؤرخو العرب والمسلمين لا يهتمون كثيراً في الأسطورة التاريخية التي تخالف الحقيقة الثابتة التي تنص على أن الإنسان أعظم وأطهر وأقدس الكائنات الحية، وأنه خليفة الله على الأرض، والتي تتعارض تماماً مع نظرية مؤرخي الغرب التي تقول: إن المجتمع كائن حي والإنسان خلية فيه، متجاهلين بذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وإِذْ قالَ ربُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً قالوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ونَحنُ نسبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ مالا تَعلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠]. ركز مؤرخو العرب والمسلمين في أول الأمر على تدوين السيرة النبوية وعلم الأنساب والتراجم الموجزة لرجال العلم والفقه والحديث.. والمتواتر أنهم يجمعون بين كل من علم التاريخ والعلوم الشرعية، حيث إنهم يشعرون بأهمية علم التاريخ لفهم العلوم الشرعية، كما يرون أيضاً أنه طريق قوي لشحذ الهمم العالية والقرائح الصافية، بل هو الوسيلة لمعرفة كل من الغلطات التي وقع فيها الأوائل، وأسباب تدهور الدول والحضارات، والمنهج الأمين للاقتداء بالشخصيات المرموقة. والحق أن مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل يعتقدون أنه من الضروري جداً أن يكون لكل أمة تاريخ يبين مكانها بين الأمم؛ لكي يساعد أبناءها بالعودة إليه، عندما يرغبون أن يعرفوا إسهامات آبائهم وأجدادهم في مجال كل من السياسة والاقتصاد والعلوم الأساسية والتجريبية.

يقول العلامة **عبد الرحمن بن محمد بن خلدون** في كتابه «مقدمة ابن خلدون» ـ الجزء الأول ـ (تحقيق علي عبد الواحد وافي): «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تعم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين

والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحُسن نظر وتثبيت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، وزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً وسميناً، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط».

وخلاصة القول: لاشك أن مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل اكتسبوا سمعة رائعة؛ وذلك لاتساع اطلاعهم ونظرتهم المحايدة للموضوعات المختلفة، فهم لم يصححوا أو يزيفوا في التاريخ بناء على رغباتهم الشخصية، بل كانوا أمناء صادقين في جميع أعمالهم التاريخية؛ لأنهم اعتمدوا على الوثائق الحقيقية المتوفرة بكثرة آنذاك، كما يرجع الفضل لمؤرخي العرب والمسلمين في التعرف على كل من السير والتراجم القصيرة والطبقات التي بين أيدينا، لذا نستطيع أن نقول: إن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين أرسوا كلاً من أسس ومنهج وأهداف علم التاريخ الحديث.

علم التاريخ عند العرب والمسلمين

من الصعب جداً الحصول على معلومات تاريخية دقيقة ومحدودة في العصر الجاهلي؛ لأن الأمم التي عاشت قبل الإسلام لم تدون شيئاً يذكر؛ لأنه لا يوجد سجل تاريخي واضح آنذاك، لذا اعتمد مؤرخو العرب والمسلمين اعتماداً كلياً على بعض النقوش التي حصلوا عليها في اليمن وشمال الحجاز وجنوب الشام، ولكن هذه النقوش معظمها كانت مكتوبة في الخط الحميري المعقد الذي يصعب قراءته على العربي حينئذ، وعليه تخلل تاريخ العرب قبل الإسلام بعض الخزعبلات الخطيرة. والجدير ذكره هنا أن العرب في العصر الجاهلي اهتموا بمعرفة شجاعة فرسانهم وكرم ساداتهم وتحديد أنسابهم، لذا كانوا يتناقلون هذه الحقائق التاريخية بين أفراد عوائلهم، وذلك للحفاظ على مكانة القبيلة بين القبائل الأخرى وعدم اختلاطها بالشوائب، ولكنها للأسف الشديد كانت لا تخلو (هذه البيانات) من التحريف والتعديل والمبالغة في كثير من الأحيان.

يقول **علي أدهم** في كتابه «بعض مؤرخي الإسلام» (سلسلة الثقافة العامة): «التاريخ للأمم بمثابة الذاكرة للفرد، وكل أمة مهما كانت متخلفة في مضمار الحضارة، فلها نصيبها المقسوم من الذكريات الحلوة والمرة، وهذا النصيب المقسوم هو ما يسمى تاريخها، وحينما انبعثت أنوار الإسلام في شبه الجزيرة العربية، كان للعرب نصيبهم المقسوم من الأخبار التاريخية، التي تختلط فيها الحقائق بالأساطير اختلاطاً يجعل التمييز بينها من أشق الأمور، لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتمحيص والوزن والتحقيق. وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى (أيام العرب) وحروبهم قبل الإسلام، وأنسابهم، وأخبار بعض القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس، وشذرات مما سمعوه من أخبار التوراة والتلمود».

كان علم التاريخ يهتم بكل من الوقائع وأوقاتها وأساليبها، لذا اتخذه العرب والمسلمون مرجعاً هاماً للحصول على المعلومات عن الوقائع الزمنية. من هنا اعتبروا كتب السير والمغازي (غزوات وحروب الرسول ﷺ) والأنساب من كتب التاريخ. والمعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤرخون في الأحداث الكبيرة مثل عام الفيل، وموقعة ذي قار، وخراب سد مأرب، وحرب كل من البسوس وداحس والغبراء وغيرها، لهذا يتضح للقارىء أن علم التاريخ عبارة عن سجل صادق للحضارة الإنسانية.

يقول **أحمد بن مصطفى** الشهير بطاش كبرى زاده في كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» (في موضوعات العلوم) ـ الجزء الأول ـ: «علم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف، وبلدانهم، ورسومهم وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم، وأنسابهم ووفياتهم، إلى غير ذلك. وموضوعه: أحوال الأشخاص الماضية، من الأنبياء والأولياء، والعلماء والحكماء والشعراء، والملوك والسلاطين وغيرهم. والغرض منه: الوقف على الأحوال الماضية. وفائدته: العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب، بالوقوف على تقلبات الزمن، ليتحرز عن أمثال ما نقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع، وهذا العلم كما قيل: عمر آخر للناظرين، والانتفاع في مصره بمنافع تحصل للمسافرين».

عندما أشرق الإسلام بدأ العرب يبحثون عن طريقة تاريخية ثابتة، لهذا جمع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب قادة الفكر حينئذ ليدرسوا الوضع عن كثب، فاختلفوا في آرائهم؛ فمنهم من اقترح أن يؤرخ من بداية بعثة الرسول ﷺ ، ومنهم من رأى أيضاً أن يستخدم تاريخ مولده أو تاريخ وفاته ﷺ ، والبعض الآخر استحب استعمال بداية هجرته ﷺ إلى المدينة؛ لأنها حدث عظيم، لذا أقر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب البدء في تطبيق التقويم الهجري، وذلك في العام الرابع من خلافته رضي ا لله عنه.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه «بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب»: «ووضع عمر بن الخطاب تقويماً ثابتاً هو التاريخ الهجري، فأصبح عنصراً حيوياً في نشأة الفكرة التاريخية، ومنذ ذلك الوقت أصبح توقيت الحوادث (أو تأريخها) العمود الفقري للدراسات التاريخية. وقام عمر بن الخطاب بتأسيس الديوان أو سجل المحاربين وأهليهم حسب قبائلهم، وهذا أعطى الأنساب أهمية جديدة، وكان حافزاً إضافياً للاهتمام بدراسة الأنساب».

لاشك أن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين جددوا في الحركة التاريخية؛ لأنهم يعتقدون أن علم التاريخ مصدر ضروري لضبط الوقت والوقائع، والسبيل الناجح الرائع لدراسة مقومات الحضارة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية. لذا يرجع الفضل لهم في تحديد عناصر علم التاريخ التي تشمل كلاً من الزمن والمكان والنفس البشرية. والمتواتر أن حكام العرب والمسلمين في القرون الوسطى كانوا يقضون وقتاً طويلاً في السماع لأخبار ملوك الأمم السابقة، لكي يتجنبوا هفواتهم ويستفيدوا من أساليب حياتهم الجيدة. لذا يظهر للقارىء أن علم التاريخ مجموعة من الأحداث المترابطة الخالية من التناقض والتفكك، ولقد مر علم التاريخ عند العرب والمسلمين بأربع فترات تاريخية هامة اعتمد عليها المؤرخون في دراساتهم؛ وهي فترة ماقبل القرن الثالث الهجري، والفترة الأخيرة ما قبل نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

يقول **كب** (H.A.R. Gibb) في كتابه «علم التاريخ» : «علم التاريخ ينطبق ـ باعتباره مصطلحاً من مصطلحات الثقافة العلمية ـ على تدوين الحوادث الحولية، كما ينطبق على تراجم الرجال وسيرهم لا على تاريخ شامل للثقافة العقلية بصفة عامة، وعلم التاريخ على هذا الاعتبار يتلخص تطوره عند العرب في أربع مراحل:

(١) من البداية إلى القرن الثالث للهجرة.

(٢) من القرن الثالث إلى القرن السادس.

(٣) من نهاية القرن السادس إلى بداية القرن العاشر.

(٤) من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر».

وخلاصة القول: يتضح للقارىء اللبيب أن علم التاريخ في الحضارة العربية والإسلامية تبلور من خلال السير والمغازي والأحاديث النبوية والروايات والأخبار، وأنه يستند تماماً على الزمن والناس. والمعروف لدى المؤرخين أن جماهير الناس مغرمون بقصص الأجداد التي تنم عن الصدق والأمانة والإخلاص. كما أن الثابت لديهم أن علم التاريخ غزير الفائدة وشريف الغاية، يحمل بصدق أحداث الأمم، ويفرح بدراسته الخاصة والعامة؛ لأنه الطريق الحقيقي للوصول إلى أخبار الأوائل، وهو بلا ريب الميدان العلمي الذي يعتمد على كل من التحقيق والنقد وربط الأسباب بالمسببات. والجدير ذكره أن علم التاريخ عند العرب والمسلمين لم يتأثر أبداً بالمصادر الأجنبية الملوثة، لذا نما وترعرع طبيعياً استجابة لحاجة المجتمع العربي والإسلامي.

نشأة علم التاريخ عند العرب والمسلمين:

كان تأثير العلوم الشرعية على الحركة التاريخية في صدر الإسلام عظيماً جداً، حيث اعتمد علم التاريخ على سير ومآثر كل من القضاة والفقهاء والمحدثين والمفسرين والزهاد والفضلاء والملوك والأمراء والنبلاء وغيرهم. لذا يتضح جلياً أن علم التاريخ أداة هامة لخدمة العلماء البارزين والحكام والسلاطين المتفرغين لنشر العلم، من هنا حرص الكثير من الناس على دراسة علم التاريخ دراسة دقيقة ليس فقط للثقافة، ولكن ليفهموا بجلاء المكانة التي وصل إليها أجدادهم. ولاشك أنه لولا علم التاريخ لانقطع حبل الوصل، ولضاعت جهود المخلصين من الحكام والسلاطين، ولمات ذكر الأوائل الأفذاذ الذين أبلوا بلاءً حسناً على كوكب الأرض. والحقيقة أن المؤرخ المجيد النزيه يشعر وكأنه معاصر لمؤسسة الحضارة الإنسانية عبر العصور؛ لأنه يحاول جاداً ويتجرد أن ينصح القادة والمفكرين بالابتعاد عن وسائل خراب البلاد وهلاك السكان، وصرف الثروة المالية في غير محلها؛ لأنه يعلم تماماً أسرار الماضي.

يقول **عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني** في كتابه «تاريخ اليمن» (المسمى: فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن): «علم التاريخ علم جليل المقدار، شهدت بفضله الآيات والأخبار، واعتنى بنقله الأثبات والأخبار، وأنفقوا في ذلك نفائس الأعمار، يطلع به العاقل على ما مرّ من الأعصار، فيزيده من الكياسة والاستبصار، بما حدث للأمم الماضية من الحوادث التي فيها عظة واعتبار».

وأضاف **شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي** في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» قائلاً: «فائدة التاريخ أنه يذكر فيه من أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم، وأخبار العلماء ومذاهبهم، والحكماء وكلامهم، والزهاد والنساك ومواعظهم، فهو عظيم الغناء ظاهر المنفعة، فما يصلح الإنسان به أمر

معاده ودينه وسريرته في اعتقاداته، وسيرته في أمور الدين، وما يصلح بـه أمـر معاملاته ومعاشه الدنيوي. وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم، وأسباب مبادىء الدول وإِقبالها، ثم سبب انقراضها، وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشباهها أبداً في العالم، غزير النفع كثير الفائدة، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرّب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه، وما أحسن قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (العقل، عقلان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع مالم يكن ثم مطبوع). ونحو هذا ما يقع فيه ذكر ذوي المروءات والأجواد والمتصفين بالوفاء ومحاسن الأخلاق، والمعروفين بالشجاعة والفروسية، وأنه أيضاً جم الفوائد، كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية، لما جبل عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها، ليصير لهم نصيب حُسن الثناء، وطيب الذكر الذي حرض عليه خلاصة البشر ﷺ ».

ويمتاز علم التاريخ عن فروع المعرفة الأخرى بأنه وحدة متكاملة واضحة المعالم يرتبط أولها بآخرها، لذا فهو الطريق السليم لتدوين نشوء وتطور المجتمعات المختلفة. ومن فوائده الكشف عن مغزى التسابق السياسي والثقافي والعلمي بين الأمم. ولاشك أن الإنسان المتحضر في أمس الحاجة إلى المنهج التاريخي الوافي، وذلك لكي يقيم حضارته الرائدة؛ لأن علم التاريخ يُعتبر الميزان الفاعل والحس النوعي للعقل البشري، إذن فهو حصيلة تفاعل الإنسان مع بيئته.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه «المؤرخون والتاريخ عند العرب»: «إن تقدم الشعوب مرهون باكتشاف شعورها التاريخي، فهو الذي يضعها في الزمان ويجعلها تحدد دورها في مسار التاريخ، وفي أي مرحلة من التاريخ تعيش، فالشعور التاريخي هو شرط الوعي التاريخي، ومع نزول الوحي بدأ الوعي

التاريخي عند المسلمين؛ لأن الوحي وحده مصدر المعرفة الجديدة التي أخذها المسلمون كمعطي مسبق دون تساؤل أو نقاش، ومنها نشأت العلوم العربية بجوهرها الإسلامي ابتداء من هذا المركز، وتجذرت بعد أن بدأ جمع القرآن مكتوباً في مصاحف، وبدأ جمع أحاديث الرسول في الإصحاحات، وبالتالي وضعت الأمة في التاريخ وبدأت الحضارة الإسلامية في التكون، هذه الأفكار التي جاء بها الإسلام شكلت المدماك الأول في بناء الدولة والحضارة الإسلاميتين، وكان للمعرفة التاريخية التي استجابت للمعطيات الجديدة، دور هام في جعل فكرة التاريخ محور النشاط والتطور في حياة المجتمع العربي المسلم».

لقد اعتمد علم التاريخ في الحضارة العربية و الإسلامية على العلوم الشرعية وليس السياسية؛ لأنه لم يقتصر على عرض إنجازات الحكام السياسية، بل قدم سجلاً حافلاً لإسهامات العلماء، ومن بينهم الفقهاء والمحدثون والمفسرون والشعراء والمثقفون، وعليه صار معروفاً لدى مؤرخي العرب والمسلمين أن نمو وازدهار الحضارة الإنسانية نتيجة مجهودات العلماء الذين كانوا يسهرون الليل ويحيون النهار في البحث والدراسة، والحقيقة أن مؤرخي العرب والمسلمين كانوا يعتقدون أن تاريخ العلماء أكثر أهمية عند الشعوب المختلفة، لذا ركزوا على هذا الجانب، وبلوروا معالمه، وأدوا الرسالة بصدق وأمانة في هذا المجال.

يقول **أحمد محمود صبحي** في كتابه «في فلسفة التاريخ»: «تحكمت في الفكر الإسلامي عدة عوامل جعلت المؤرخين فيه يؤرخون للحضارة لا للحكام، وأهم هذه العوامل:

أولاً: للقرآن الكريم الأثر الأكبر في تصور المسلمين للتاريخ.

ثانياً: ارتباط التاريخ الإسلامي في نشأته ارتباطاً وثيقاً بالحديث منهاجاً وموضوعاً وأشخاصاً، أما من حيث المنهج فقد تأثر التاريخ في نشأته بمنهج

رجال الحديث في الرواية والإسناد، وأما من حيث الموضوع فبالرغم من أنه بدأ بما يسمى بالمغازي، لم يكن البدء بغزوات الرسول التي تمثل الجانب العسكري وإنما بسيرته كرسول ﷺ .

ثالثاً: الإجماع، وهو المصدر الثالث للتشريع في الإسلام إلى جانب القرآن والحديث وفقاً لقول الرسول: «لاتجتمع أمتي على ضلالة»، وهذا يعني بالنسبة للتاريخ أن يرتفع فكر الأمة الإسلامية ممثلاً في علمائها في شتى فنون العلم، إلى مكانة تجعل أقوالهم وأفعالهم بدورهم جديرة بالتسجيل.

رابعاً: القصص الديني، فإنه جاء تدعيماً لأثر القرآن؛ أي أن يدور التاريخ حول الأنبياء لا حكام أو سلاطين، إنه حينما يذكر فرعون فمن حيث صلته بموسى، وهذا يعني أن الدين لا السياسة هو الذي اتخذ المحل الأول من الاعتبار، ومن ثم الصدارة في التاريخ».

وخلاصة القول: يبدو أن علم التاريخ عند العرب والمسلمين عمل أدبي رائع يهتم بالماضي الإنساني، ولكنه مرتبط تمام الارتباط بالمنهج الإسلامي، وأن المؤرخ باحث قادر على شرح تجارب الآخرين وفق عواطفه ونوازعه الشخصية في إطار قواعد وأسس حددها له كل من القرآن الكريم والحديث الشريف وإجماع العلماء المتخصصين في العلوم الشرعية. كما أثبت مؤرخو العرب والمسلمين عبر العصور أن الحركة الفكرية والعلمية لعلماء العرب والمسلمين جديرة بالدراسة والتحليل.

الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين:

ومن مقومات الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين تسجيل تطور الحضارة وعوامل سقوطها، والقدرة العلمية على التحليل والمقارنة، والاطلاع الواسع على جميع فروع المعرفة، بهذا تتضح الرؤية العلمية لما حدث على كوكب الأرض عبر العصور. ولاشك أن هذه الحيثيات تشكل النسق الضروري للوصول إلى الحقائق التاريخية المتوفرة. إذن نستطيع القول: بأن المعرفة التاريخية هي السمة الحقيقية للثقافة العامة.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه «الحضارة» (عالم المعرفة): «الحركة التاريخية هي حركة الكون وحركة الأرض وحركة الأحياء والناس على سطح الأرض، وما تستتبعه هذه الحركة الدائمة من تغيير دائم، وحيث إن الحركة والتغير مستمران منذ بدأ الله سبحانه الخلق إلى أن يطوي الأرض وما عليها، فإن التاريخ أيضاً متصل منذ الأزل إلى الأبد، وهو يشمل الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً، فكله تاريخ وكله ميدان عمل للمؤرخ، وهو نهر الحياة المتدفق الجاري المتجدد بما تأتي به منابعه وما تأتي به روافده».

لقد بذل مؤرخو العرب والمسلمين جهوداً عظيمة لرقي الحضارة الإنسانية، ولكن للأسف الشديد إن مؤرخي الغرب ومن بينهم بعض المستشرقين يعملون ليلاً ونهاراً لرفع ودفع القيم المادية البحتة، والتقليل من القيم الروحية في صنع مادة علم التاريخ. وهذه المبادىء الموسومة بخبث ودهاء تخضع لمنهج التفكير الغربي، وتناقض تماماً الأهداف العربية والإسلامية التي تعتمد على تعليل الأحداث، وتفسير الظواهر التاريخية في إطار العقيدة الإسلامية السمحاء. لذا فإن منهج مؤرخي العرب والمسلمين قد فتح في الأعماق نوافذ جديدة تشد بقوة إلى التعمق في الدراسة والبحث في علم التاريخ. لذا فإن الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين

تمثل بوضوح أحسن وأجمل تعبير تاريخي، وتتألق عن دين عظيم وحضارة رائعة يحركها لقاء خلاق بين السماء والأرض.

يلخص **شاكر مصطفى** في كتابه «التاريخ العربي والمؤرخون» ـ الجزء الأول ـ العوامل الأولى التي سيطرت على الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين قائلاً ما نصه:

«١ ـ الإسلام دين تاريخي الروح، يحمل في ذاته فكرة تاريخية عميقة، والعقيدة الإسلامية لا تعتبر نفسها جديدة ولكنها عريقة الجذور في التاريخ.

٢ ـ إن ما جرى ويجري من أحداث البشر على الأرض منذ بدأ الخلق إلى يوم القيامة، إنما هو قدر مقدور وخطة أرادها الله لمن خلق.

٣ ـ أعطت العقيدة الإسلامية تصوراً تاريخياً واضحاً للكون منذ الخلق حتى يوم القيامة. وربطت بين المبدأ والمنتهى بحلقات الأنبياء، وأعطت لمبدأ الخلق صورة لا تقل عنها وضوحاً صورة الآخرة.

٤ ـ ثم إن شؤون الحياة الدنيا هامة وأساسية في مصير الإنسان وآخرته.

٥ ـ ثم إن الإنسانية كلها واحدة.

٦ ـ ظهور الرسول الأعظم كان خطاً فاصلاً في مسيرة التاريخ.

٧ ـ وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن أساطير الأولين، ولا يعني ذلك الأسطورة الخرافية، ولكن ماهو مسطور لدى الناس؛ أي ليس بجديد ولكنه مؤرخ معروف من قبل.

٨ ـ انتزع الإسلام العرب من الإطار القبلي ومن الجو الوثني، ولهذا استخف بالأنساب وبقصص الأيام وبمثل الجاهلية، وبدلهم منها جواً ثقافياً آخر، ربطهم بسلسلة التاريخ الوجداني للبشرية.

٩ ـ قدم القرآن الكريم مادة تاريخية هامة وإن تكن مجملة وتكتفي بالإشارة واللمحة وتسمى بالقصص».

يتضح للقارىء مما تقدم أن علم التاريخ فن عظيم يحتاج إلى دراسة وتعمق بقصد العبرة والمنفعة؛ لأنه جم التجارب وحسن الغاية، يحتاج إليه جميع الناس في المعمورة، حيث يحمل أخبار الأمم ويهدي لفهم الحاضر بمختلف مناحيه، وعليه يتمكن الإنسان من معرفة أحوال ما قبله من الأجيال لكي يرسم برامجه المستقبلية. والجدير بالذكر لقد تعرض القرآن الكريم لأخبار الأمم القديمة وأحوالها بطريقة مقتضبة جداً، ليستفيد المسلمون منها في حاضرهم ومستقبلهم.

ولدى مؤرخي العرب والمسلمين القدرة النادرة على العرض التاريخي الجذاب، الذي يحمل التحليل والمقارنة والتجميع والنظرة الشاملة لبعض الأحداث المتشابهة. وهم الذين يعتقدون بصدق وأمانة أن علم التاريخ ليس فقط حصيلة أحداث خارجية فحسب، بل هناك القوى الداخلية التي تمثل العامل المهم في تخطيط مجرى التاريخ في حدود قواعد معينة عمادها مبادىء الدين الإسلامي. ولكن هذا المنهج الرائع لم يرض عنه المستشرقون النصارى، حيث يحاولون بكل ما يستطيعون أن يشوهوا تعاليم الإسلام وتاريخه المتميز في كتاباتهم المشبوهة.

يقول **ليو بولد فايس (محمد أسد)** في كتابه «الطريق إلى مكة المكرمة»: «لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوربيون منذ عهود اليونان والرومان إلى أن يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوربي والتجارب الثقافية الغربية وحدها.. وهكذا فإن تاريخ العالم لايعدو أن يكون ـ في أعين الغربيين ـ تاريخاً موسعاً للغرب، وطبيعي أن النظر من هذه الزاوية الضيقة لابد أن يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم.. وبالتالي أن طريقة الحياة الغربية هي النموذج الصحيح الوحيد، الذي يمكن أن يتخذ مقياساً للحكم على سائر طرائق الحياة، وأن كل مفهوم ثقافي أو مؤسسة اجتماعية أو تقويم أدبي يتعارض مع النموذج الغربي إنما ينتمي ـ حتماً ـ إلى درجة من الوجود أدنى وأحط».

وخلاصة القــول: لقـد مـرت الحركـة التاريخيـة عنـد العـرب والمسـلمين بتطورات كثيرة وأحداث صعبـة ومعانـاة شـاقة، حتـى وصلـت إلى مسـتواها المرموق، والمعروف أن المؤرخ العربي المسلم في طبيعته يحب دائمـاً أن يبحـث عن الحقيقة حتى لو تعرض في سبيل ذلك إلى منحنيـات ومنعطفـات عديـدة، لذا استقام عوده واكتمل نضجـه التـاريخي، وبـدأ يعمـم ويسـتقرىء ويـبرهن ويقنن بكل جدارة.

تمكن مؤرخو العرب والمسلمين من أن يعرضوا علـم التـاريخ ــ الـذي كان حافلاً بالأعمال والمآثر والتضحيات ـ بطريقة حيوية تدل علـى دهـاء وفطنة. والحقيقة أن علماء العرب والمسلمين بعقولهم الجبارة اسـتطاعوا أن يقهـروا الطبيعـة وسـيطروا عليهـا، ولـولا إرادة الله سـبحانه وتعـالى، ثـم جهودهم المتميزة لبقي الإنسان أقـرب إلى الحيـاة البدائيـة، يجـتر الخرافـات والخزعبلات التي ورثها عن أجداده.

الوعي التاريخي عند العرب والمسلمين:

ينبغي على الباحث في علم التاريخ عند العرب والمسلمين أن يكون ملماً بمبادىء الدين الإسلامي إلماماً جيداً؛ لكي يتمكن من معرفة مجريات الأمور، وبهذا يستطيع بكل سهولة فهم العادات الفكرية والتقاليد الاجتماعية التي ينقب عنها. والمؤرخ المخلص هو الشخص الذي هدفه الأول والأخير الوصول إلى الحقيقة التاريخية الناصعة، لا طلب الحجج والبحث عن الأدلة التي تبرهن رأيه الخاص. وبهذه المناسبة تميز المؤرخ العربي والمسلم عبر التاريخ بأنه يصب جميع اهتماماته في المشكلات التاريخية، محاولاً معرفة عللها وأسبابها، معتمداً بذلك على الدليل العلمي القاطع والإنصاف البريء من الغرض والتحامل.

يقول **محمد رشاد خليل** في كتابه «المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره»: «لابد أن تتوفر في الباحث في التاريخ الإسلامي شروط خاصة لكي يكون مؤهلاً للبحث في هذا التاريخ، ذلك أن التخبط الذي حدث في فهم هذا التاريخ وتفسيره، إنما نجم عن فقدان الأهلية لدراسة هذا التاريخ، وأهم هذه الشروط هي:

(١) الإخلاص والتجرد، فقديماً أفسد الحاقدون على الإسلام الأخبار وزيفوها وصنعوها، كيداً للإسلام وطعناً فيه وفي أهله.

(٢) الخبرة باللغة العربية وأساليبها.

(٣) العلم الصحيح بالإسلام وعلومه الضرورية.

(٤) المعرفة الصحيحة بتاريخ العرب وحياتهم قبل نزول القرآن.

(٥) معرفة الحالة التي كانت عليها الأمم الأخرى قبل الدخول في الإسلام، وهذه هي جملة الشروط الأساسية الضرورية التي لابد من توافرها للوصول إلى فهم صحيح للتاريخ الإسلامي».

استمد مؤرخو العرب والمسلمين وعيهم التاريخي من مصادر مختلفة في مقدمتها كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والرواية، لذا يتضح للقارىء اللبيب أن الماضي هو مادة الحاضر والسبيل المشرق للمستقبل، ولا ينكر هذا المبدأ إلا إنسان على سمعه وقلبه غشاوة. لقد تميز تفكير العرب والمسلمين بأنهم ينظرون نظرة شاملة للكون، محللين أسسه وعوارضه بكل ذكاء ودهاء، مع تقيدهم بشريعة الإسلام التي تُعتبر نبراسهم في جميع أعمالهم على كوكب الأرض، لذا كان علم التاريخ عندهم عبارة عن إناء لجذور الأمة ومكونات شخصيتها ومنهجها عبر الزمان والمكان، وعليه تكونت الدولة العربية والإسلامية المرموقة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

لقد تحدث **شاكر مصطفى** عن العوامل الأولى التي بلورت الوعي التاريخي عند العرب والمسلمين في كتابه آنف الذكر قائلاً مانصه: «..

(١) شعر المسلمين منذ الأيام الأولى أن الإسلام كعقيدة غير مسيرة الإنسانية الدينية، وأعطاها مساراً جديداً ودخل بها في طور مختلف، وهذا الحديث يستحق التسجيل في دقائقه لفهمه وإعطائه شأنه الإنساني.

(٢) وبالمقابل فقد ظهرت في العالم دولة إسلامية كبرى وغيرت مسيرته التاريخية والسياسية، وفتوحها الصاعقة ثم سيطرتها السياسية، وجديدها الحضاري لم تفاجىء الشعوب الأخرى فقط، ولكنها ألغت الدول الكبرى التي كانت لقرون طويلة، في ما يسمى بالعصور القديمة، تسير شؤون العالم وبرزت وحدها بدلاً منها.

(٣) إن التجارب الإنسانية والأمثلة أساسية في التوجيه إلى السلوك الطيب وفي التقويم الخُلقي، ومستودع تلك التجارب هو التاريخ الذي يجب أن يمشي أمام الإنسان مصباح هدي، لا وراءه، باعتباره في المطاف الأخير تعبيراً واقعياً عن إرادة الله وهدايته، وهذه التجارب الإنسانية هي بدورها

أساس في الثقافة الفكرية والسياسية . إنها هي المعرفة والعلم وكان تسجيلها وروايتها يشكلان جانباً حيوياً من التطور الثقافي للجماعة الإسلامية.

(٤) ومهما بالغنا في تقصي العوامل النفعية أو الدينية وراء ظهور التاريخ، فإنا لانستطيع أن نغفل وجود الرغبة العلمية الخالصة أيضاً بين تلك العوامل، الرغبة في المعرفة لمجرد المعرفة والاطلاع، وهي بدورها حاجة فكرية إنسانية لا تغيب عن أي عمل علمي».

وهكذا انطلقت النزعة التاريخية عند العرب والمسلمين منذ بعثة المصطفى ﷺ ؛ لأن الدين الإسلامي يحُث بشدة على التفكير والتأمل في كل زمان ومكان، لذا خلّص مؤرخو العرب والمسلمين التاريخ الإسلامي من الخزعبلات البالية، وبدؤوا بشحذ كل طاقاتهم العقلية والعقائدية واستجاشوا كل مالديهم من قوة وثقل لينطلقوا إلى آفاق التجديد والإبداع، وبهذا أعادوا صياغة التاريخ من جديد مقتدين بمنهج الدين الإسلامي الحنيف؛ لأن التاريخ الإسلامي ليس فقط فكراً وأحداثاً وظواهر اجتماعية وأوضاعاً سياسية، بل أيضاً هو عقيدة إسلامية شاملة، لها صفاتها وخصائصها ومقوماتها المتميزة.

يقول **ماهر عبد القادر محمد** في كتابه «التراث والحضارة الإسلامية»: «فعناصر القوة والأصالة في الحضارة الإسلامية مستمدة من الدين الإسلامي الحنيف الذي حثنا على التفكير والتأمل في كل زمان ومكان. فحين نزل القرآن أعلن أنه قد نزل بالحق للناس جميعاً، وهنا رسم للناس قواعد الحياة العملية وقواعد الفكر والنظر، وصوَّر لهم الكون أبلغ تصوير، فكان بذلك دستور المسلمين وروح حضارتهم، وبجانب القرآن الكريم وجدنا السنة النبوية التي تمثل كل ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير، فصار كل من الكتاب والسنة منهجاً للسلوك القويم. لقد انطلق المسلمون في شتى بقاع المعمورة يحملون القرآن والسُّنة ليخلصوا العالم من الفساد. ويأخذوا بيد الإنسانية إلى طريق الحضارة، حتى كان القرن الثاني

الهجري الذي شهد من الإنجازات والابتكارات ما تعجز الأقلام عن وصفه.. إنه عقلية مبدعة، وفكر ناضج، وبصر نفاذ، وفن رائع، وفلسفة شامخة، إلى غير ذلك وأكثر نلتقي به منذ بداية القرن الثاني الهجري».

وخلاصة القول: إن البحث في علم التاريخ يزيد تكوين الباحث الملتزم تبصراً بتراثه الفكري والحضاري، ويعطيه القدرة العالية على اكتشافه ومعرفة أسراره، وهكذا كان المؤرخ العربي والمسلم يشرح تجاربه وحصيلته الثقافية للآخرين بكل حيوية، ووضوح وفق وعيه التاريخي الذي أسس على المثل الراقية والفضائل والأمانة.

حقيقة التاريخ العربي والإسلامي:

اعتمد علم التاريخ عند العرب والمسلمين اعتماداً كلياً على العقلية الناقدة الرافضة للخزعبلات والأساطير البالية، وعليه فهو لديهم عبارة عن حلقات ثقافية مترابطة لتجربة الإنسان على كوكب الأرض منذ الأزل، من هنا نستطيع القول: إن علم التاريخ هو حركة الزمان، حيث إن الزمان في طبيعته هو الذي يحدث التغير، لذا بدراسة الماضي نعرف عن كثب الحاضر مما سيقود إلى التوجه للمستقبل.

يقول **قاسم يزبك** في كتابه آنف الذكر: «التاريخ علم يبحث فيه عن حوادث البشر في الزمن الماضي وهو من أهم العلوم التي يفتقر إليها الإنسان؛ لأنه بمعرفته أمور جنسه يعرف نفسه. قال أحد الفلاسفة: أعظم أمر يبحث عنه الإنسان هو الإنسان، فيه يتحقق على قدر الطاقة: مصدره واختياره وغايته القصوى وشأنه في هذه الأرض. وليس التاريخ مجرد سرد الأحاديث وأنباء الحوادث فقط، وإنما يتضمن ذكر ذلك مع تعيين أوقاته وبيان أسبابه، فيعرف منه سبب ارتقاء الإنسان وانحطاطه وعلل سعادته وشقائه على توالي الأيام والسنين إلى غير ذلك من الفوائد الكثيرة. وقال مصطفى لطفي المنفلوطي: (من يعرف التاريخ العام الذي سبقه يضيف إلى عمره عدد سنوات ذلك التاريخ)».

المؤرخ العربي والمسلم هو الذي استنكر بشدة أن يكون علم التاريخ وعاء لسرد المعارك الحربية والاتفاقات السياسية وقيام الدول وتعاقب السلاطين على حكمها، بل حاول أن يجعله الطريق الواضح الجلي لتحرير الإنسان من العبودية والاستكانة وأسرار نشاطاته العلمية التي ساعدت على رفاهيته، لذا فالمؤرخ العربي والمسلم هو الذي تمكن بجدارة من تعريف علم التاريخ بأنه الطريق السوي للكشف عن التقدم التقني والفكري.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «وقد احتاج التاريخ في الغرب إلى قرون طويلة لكي تظهر شخصيته، ويستقل ويقوم علماً كاملاً له أصوله ومناهجه وقواعده. أما عند المسلمين فقد ولد من أول الأمر علم مستقل الشخصية واضح الخصائص؛ لأنه نشأ على نفس الأصول التي قام عليها علم الحديث وهو الضبط والدقة والأمانة وتحري الصدق، فقد بدأ التاريخ عند المسلمين بالسيرة النبوية وهي في ذاتها حديث نبوي طويل؛ لأن الحديث كل ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو استحسان أو إقرار».

وحقيقة علم التاريخ التي لا تحتاج إلى برهان أنه علم تضاف إليه معارف من مصادر متنوعة لا يؤخذ منه. فعلى سبيل المثال: تجاربنا الإنسانية والعلمية الحالية ستكون تاريخاً فيما بعد للعصور القادمة، لذلك سوف يبرز بوضوح للأبناء والأحفاد عناصر علم التاريخ الظاهرة والباطنة وسيستفيدون منها في حياتهم اليومية إن شاء الله، ومن المؤسف حقاً أن هناك مجموعة من الناس الضالة في هذه الأيام لا يتحمسون لمعرفة ماضيهم، بل يفخرون وبإصرار على جهلهم التام في تاريخ أمتهم، وهذا عائد لعدم دراستهم لهذا الفن الرائع دراسة علمية. وعليه أعتقد من الضروري جداً أن يدرس علم التاريخ في جميع مراحل التعليم، على أن يركز في ذلك على النواحي التقنية والثقافية، ويقلل من سرد الملابسات التاريخية.

يقول **عبد اللطيف شرارة** في كتابه «الفكر التاريخي في الإسلام»: «تنحصر القضايا العلمية الوثيقة الصلة بالتاريخ في الزمان والمكان والنفس البشرية. أي في الفلك والجغرافية وشؤون المنطق (الرياضيات) والطب على أنواعه. وينقل في بيان الفائدة من التاريخ قول الإمام الشافعي: (علم التاريخ يزيد العقل)، ويفيد في ضبط الأوقات والأحوال عما يحصل بسبب الكذب فيه من الاختلال، كما ينقل كلام ابن الدبيغ: (لولا التاريخ لقال من شاء ما شاء). وحديث حسان بن زيد: (ألم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ)،

وأخيراً يوضح الغاية من التاريخ أنه يوقفنا على أخلاق الأنبياء في هدي رسالتهم، وأحوال الخلفاء والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء بهم في ذلك لمن يرويها في أحوال الدين والدنيا، ويطلع طلع حقائق الأمور غنية بالتصريح عن الرموز والكنى.. فهو كالمرآة الصقيلة من نظر فيها، كشفت له عما لا يحسن عنده، أو يقول باستحسانه، ويصير بمعرفة من تقدم بمنزلة من شاهد المغيبات بعناية ولولاه لأصبحت المآثر وهن دواثر، ورسل المكارم ليس لها معالم، ومناهل المحاسن ذات ماء آسن، فلم يزل الخلف متطلعين لأخبار من سلف، ومتتبعين لزهرات محاسنهم التي تقتطف لتقتفي آثارهم فيما كان لهم من الأفعال الحميدة، وينشر ما طواه الدهر من مآثر فضائلهم العديدة».

وخلاصة القول: إن الفكرة الشائعة حول أن العلوم المساعدة لتقدم علم التاريخ، منحصرة في كل من الدين والاقتصاد والجغرافية غير صحيحة؛ لأن جميع فروع المعرفة تعتبر من عناصر هذا العلم الحيوي. حيث إن علم التاريخ يهتم بالنشاط الإنساني بوجه عام. والحقيقة الواضحة أن علم التاريخ يمثل ذاكرة الشعوب؛ لأنه يحتوي على التكوين المتراكم بقيم الأمم وعاداتها وتقاليدها وثقافتها.

لاشك أن علم التاريخ يُعتبر بحث السجل الأمين للخبرات البشرية عبر العصور، وليس كما يدعي بعض المؤرخين المتطرفين أن مكوناته الظواهر الاجتماعية والأوضاع السياسية. الصحيح أن علم التاريخ تصور شامل لثمرة العقل الإنساني له سماته وخصائصه ومقوماته المرموقة. والمعروف أن كل أمة تأخذ عن الأخرى ما يتلاءم وطبيعة تكوينها ومتطلبات حياتها. لذا الآن نستطيع أن نقول: إن علم التاريخ يعصمنا عن أن نتوهم بل يثبت لنا (أمة العروبة والإسلام) أننا ورثة أمجاد حملت قنديل الحضارة الإنسانية فترة طويلة جداً من الزمن، فعلينا أن ندرسه بصدق وأمانة لكي نقدمه في ثوبه الجديد لأبنائنا الذين هم أمس الحاجة إلى معرفة محتواه في هذه الأيام الصعبة.

فلسفة التاريخ

عند مؤرخي العرب والمسلمين:

لقد تبنى مؤرخو العرب والمسلمين فكرة فلسفة التاريخ؛ لأنها لا تقف عند فترة معينة ولا مجتمع معين، بل إنها تجمع العالم كله بإيجابياته وسلبياته في بوتقة واحدة من الماضي السحيق إلى اللحظة التي يحاول فيها المؤرخ أن يسجل ويحلل معلوماته المتنوعة، لذا يستطيع المؤرخ النبيه أن يتجنب الجزئية التاريخية ويتجه إلى عالمية التاريخ، مهتماً في تخليص الفكر الإنساني من الخرافات والأساطير ومركزاً على التنوير والتطوير الذي يخدم الإنسانية بوجه عام. والحق أن المؤرخ العربي والمسلم أخرج التاريخ من طور الروايات والخرافات إلى منهج البحث والتنقيب والاستقصاء، ولذلك خدم علم التاريخ الدراسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية والعلمية.

يقول **أحمد محمود** في كتابه «في فلسفة التاريخ»: «فلسفة التاريخ لا تعوض قصور التاريخ فحسب، بل إنها تعوض قصور الفلسفة أيضاً، تعاني الفلسفة من قلق دائم مصدره اشتياق الفيلسوف إلى الوصول إلى الحقيقة فهو دائب البحث عنها، ولكنه يخشى أن يضل السبيل إليها وهو محلق في عالم المجردات، وهذه لفرط تجريدها تفلت دائماً من الإنسان فلا يستطيع الإمساك بها، ومن ثم فإن فيلسوف التاريخ يلتمس مادته من واقعية التاريخ. يشد التاريخ إلى فلسفة حتى لا تحلق بعيداً في غير عالمنا، وترتفع الفلسفة بالتاريخ حتى لا يغوص في وحل الماضي ودمائه، يلتمس التاريخ من الفلسفة الحكمة والمغزى، وتلتمس الفلسفة من التاريخ الواقعية، كلاهما يكمل في الآخر قصوراً، ومن ثم كان الزواج بينهما قائماً رغم معارضة الأهل من فلاسفة ومؤرخين».

تعتمد فلسفة التاريخ عند مؤرخي العرب والمسلمين اعتماداً كاملاً على التجديد، والحفاظ على الاستمرارية، واعتناق الجدلية النزيهة واضحة المعالم،

وليس كما يدعي مؤرخو الغرب أن التاريخ عند العرب والمسلمين عبارة عن مسلسل زمان وحوادث لا تعين إطلاقاً على فهم واقع الأمة الحقيقي. إن التاريخ الإسلامي بالنسبة للعالم العربي والإسلامي المعاصر يشبه الذاكرة المتوقدة التي لا يمكن أن يفقدوها، ويقسم لهم البقاء بأمن وسلام على كوكب الأرض، بل بدون هذه الذاكرة سيعيشون مضطربين مهزوزي الكليات.

يساعد التاريخ الإسلامي شباب الأمة العربية والإسلامية على فهم ذاتهم، وبه يستطيعون أن يجعلوا الماضي قنديلاً متوهجاً يضيء خناق الحاضر وطريق المستقبل؛ لأن الإنسان في طبيعته يتعلم من الماضي. ولاشك أن مؤرخي العرب والمسلمين قد قدموا خدمة جليلة للمعرفة التاريخية، وذلك من خلال منهج الإسناد الذي استخدموه لعلم الحديث.

يقول **محمد الطالبي** في مقالته التي بعنوان: (التاريخ ومشاكل اليوم والغد)، والتي نشرت بمجلة عالم الفكر سنة (١٣٩٤ هجرية) مانصه: «إن العرب قد لعبوا دوراً حاسماً في تقديم العلوم التاريخية، وكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الأمم الأخرى. فعن طريق منهجية الحديث أدخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية، والتأكد من صحة الأخبار المروية، بفضل قواعد الجرح والتعديل والاعتناء بنقد السند والرجال؛ أي بما نسميه اليوم النقد الخارجي، وبهذا جعلوا من التاريخ علماً حقاً ذا جدية ومنهجية، وكذلك قد حاولوا أن يخرجوا به من حدود الإقليمية الضيقة إلى حدود أوسع، هدفها أن تشمل العالم المتحضر المعروف في زمانهم».

وخلاصة القول: إن الكثير من علماء العرب والمسلمين يعتقدون أن الفلاسفة لم يوجهوا اهتمامهم للتنقيب والاستقصاء عن الحقيقة الصافية، بل تاهوا في زوايا المجالات العقلية، لذا اتهموا معظم الفلاسفة بالزندقة، وهذا أمر صعب الهضم والقبول. الآن أعداء الإسلام يعملون بجد وتفان ليبلوروا هذا الاعتقاد الباطل بهدف إبعاد شباب الأمة العربية والإسلامية عن دراسة علم

الفلسفة الذي سيساعدهم على استيعاب الحقائق التاريخية الناصعة التي تُعتبر بحق عصب علم التاريخ عبر العصور.

لا شك أن هذه الحرب الضارية ضد علم الفلسفة جعلت معظم المفكرين في العالم العربي والإسلامي يبتعدون عن دراسة هذا العلم الحيوي والهام. وفي رأي المؤلف يجب أن يكون علم الفلسفة ساحقاً وشامخاً في مجال علم التاريخ الذي يحتاج إلى تحليل.

والحقيقة أن علم الفلسفة يجعل العقل في ضوء المعرفة المتوفرة له أن يعمل على تحسين المصير وتجنب السوء؛ إذن فالفلسفة هي الطريقة للتدريب والتمرس والربط بين الأسباب والمسببات في هذه الدنيا الفانية.

والحقيقة الواضحة أن المعرفة التاريخية هي عملية تربوية، وعلم التاريخ بفلسفته هو الوسيلة المثلى لتحقيق ذلك، لذا يجب أن يدرس هذا العلم بطريقة علمية ومنطقية؛ لكي نتفادى سوء المصير ونحقق المطلوب؛ لأن الإنسان خليفة الله على الأرض، وصدق من قال: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

القرآن الكريم مصدر لكل
من التشريع الإسلامي والتاريخ الإسلامي

لقد فقدت جميع الأديان السماوية السابقة للإسلام من حيث الزمن قيمتها الشرعية والتاريخية؛ لأن أهل هذه الأديان البالية عبثوا بها عبثاً شديداً، حيث حرّفوا كلام الله سبحانه وتعالى حسب أهوائهم المغرضة، لذا انهار بنيان دينهم من أساسه.

من المؤسف حقاً أن بعض المؤرخين المعاصرين في العالم يأمرون طلابهم الأبرياء أن يدرسوا كلاً من التوراة والإنجيل المحرفين، ليصبحا مرجعين هامين في بحوثهم التاريخية، وهذا منهج خطر للغاية، فالواجب أن يوجه طلاب، علم التاريخ لدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة ليكونا المصدرين الرئيسين لدراساتهم التاريخية، لأنهما لم يعبث بهما على الإطلاق.

يقول **أنور الرفاعي** في كتابه «تاريخ العلوم في الإسلام»: «القرآن الكريم دستور المسلمين ومصدر تشريعهم الرئيسي، أكثر آياته المدنية هي آيات تشريعية بحثت في الأمور الدنيوية، ونظمت علاقات الفرد بالمجتمع وبالحكومة، وتعرضت لأمور البيع والشراء والزكاة وأنواعها والعائلة وأساسها وماشاكل ذلك، والقرآن كلام الله لا تغيير فيه ولا تبديل. والتشريع الإسلامي على هذا تشريع إلهي بعكس التشريعات الوضعية الأخرى. القرآن الكريم وضع الخطوط الرئيسة في التشريع الإسلامي ولم يتعرض للتفصيل فيها، وترك كثيراً من الأمور للظروف المواتية، وكان الرسول عليه السلام في حياته يُفسر ما جاء مجملاً في القرآن ويحل المشاكل التي تعرض له».

المعروف لدى المؤرخين في المشرق والمغرب أن القصص الإسرائيلية من أوسع القصص التاريخية ولها مكانة كبيرة منذ أمد طويل عندهم، ولكن

المشكلة الكبيرة تكمن في أن هذه القصص وقع عليها تحريف خطير، ولذا من الصعب جداً الاعتماد عليها، لذا الواجب على المؤرخين الأمناء محاربتها، والتنويه بطرق علمية أنه لايوجد على ظهر الأرض شيء له دعامات قوية وواضحة مثل الإسلام في القرآن الكريم كلام الله جل وعلا، لم يدخل عليه أي تحريف منذ نزوله على سيد البشرية نبينا محمد ﷺ إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. والجدير ذكره أن في كتاب الله القرآن الكريم استعراضاً مفصلاً لأخبار الأمم السابقة.

يقول **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه آنف الذكر: «ففي القرآن الكريم ذكر لبعض مظاهر حياة العرب السياسية والاقتصادية والدينية، وفيه ذكر لبعض أخبار الشعوب البائدة (عاد وثمود)، وفيه أخبار أصحاب الفيل (أبرهة الحبشي وجيشه)، وسيل العرم (وهو السيل الذي أصاب سد مأرب)، وأصحاب الأخدود (أهل نجران الذين أحرقهم ذو نواس الحميري في أخاديد)، هذه الأخبار أوردها الله تعالى في كتابه العزيز عبرة وموعظة للعرب بما أصاب الله الشعوب البائدة من قصاص لتكذيبهم الرسل والأنبياء، وقد أثبتت الحقائق التاريخية الثابتة والكشوف الأثرية صحة ما جاء في القرآن الكريم من أخبار العرب البائدة ودقتها. ومن المعروف أن الشعوب العربية انقرضت لعاملين: الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة العربية وفي الأحقاف، وهياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير شامل لمدن كانت مزدهرة».

لقد حثنا كتاب الله القرآن الكريم على عدم التصديق بكل ما ورد في الكتب السابقة على القرآن، قال جلت أسماؤه: ﴿يا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، ولا ريب أن هذه الآية وغيرها كثير توضح بجلاء التحريف

الذي قام به اليهود والنصارى حيال كتابيهما التوراة والإنجيل. والجدير بالذكر أنه تواتر عند المؤرخين أن هناك أعداداً كبيرة من الأناجيل التي كتبت بعد رفع عيسى ابن مريم عليه السلام بمدة طويلة، وهذا بالضبط الذي حدث للتوراة، فقد دوّنها اليهود بكميات هائلة بعد موسى عليه السلام بزمن طويل، لذا احتوى كل من التوراة والإنجيل علىالكلام المنكر والقصص الفاسدة والخرافية والشرك با لله سبحانه وتعالى، لذلك قال رسول ا لله ﷺ محمد بن عبد ا لله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا با لله وما أُنزل إلينا». أما القرآن الكريم فقد دوّن ورتّب خلال فترة خلافة كل من أبي بكر وعمر وعثمان رضي ا لله عنهم.

تقول **سيدة إسماعيل كاشف** في كتابها آنف الذكر: «ويظهر أن الجمع الأول للقرآن بعد رسول ا لله ﷺ كان في حياة أبي بكر الصديق، إذ يروى أن عمر بن الخطاب خشي ـ بعد مقتل قسم كبير من القراء في الحرب مع مسيلمة الكذاب ـ أن يقتل قراء آخرون في معارك أخرى فيضيع شيء من القرآن، ولذا اقترح على أبي بكر الصديق جمع القرآن وأقنعه بوجهة نظره، وترى أغلب الروايات أن أبا بكر عهد بذلك إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي للرسول ﷺ ، وقد أتم زيد هذا الجمع من سور مكتوبة على العسب وعلى الأحجار وعلى قطع من الجلد وعلى صحف (أي أوراق متفرقة) ومن صدور الرجال، ولما أتم جمع القرآن أعطى نسخة لأبي بكر وقد خلفها أبو بكر لعمر ابن الخطاب الذي تركها بدوره عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ ، أما جمع القرآن النهائي فقد تم في عهد عثمان بن عفان».

وخلاصة القول: لقد حفظ القرآن الكريم اللغة العربية من الضياع، حيث حصلت اللغة العربية بفضل القرآن الكريم على قدر كبير من المناعة تمكنت بذلك أن تحافظ على وجودها حتى في أقسى فترات الضعف والظلام الذي مرت به الأمة العربية والإسلامية.

القرآن الكريم هو الكتاب المنزل الوحيد الذي وصل إلى الإنسان محتفظاً بدقته وضبطه. وقد نزل منجماً خلال ثلاث وعشرين سنة يحث الإنسان على التمسك بالإسلام، وفيه توضيح لنظمه كي يثبتها في نفوس المسلمين الذين كانوا في أمس الحاجة إلى ذلك.

علم الحديث مصدر لكل
من التشريع الإسلامي والتاريخ الإسلامي

الحديث هو علم يقصد به كل ماصدر عن صفوة الخلق رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. وقد تلقى البشر الحديث عن طريق صحابة رسول الله رضي الله عنهم، ولاسيما القريبين منه مثل السيدة عائشة زوجه، وعمر بن الخطاب وأبي هريرة. حاول جماعة من الصحابة تدوين الأحاديث النبوية في عهد الخليفة الراشد أبي بكر رضي الله عنه، ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اعترض على ذلك بشدة خوفاً من التباس الحديث بالقرآن الكريم، لذا ظل الحديث محفوظاً في الصدور ويتناقلونه شفاهاً، وإن كان هناك مجموعة تقول: إن بعض الأحاديث دوّنت في صحائف تعرف بصحائف الحديث، واستمر الوضع إلى أن أمر الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) بجمع الحديث وكتابته من صدور الحفاظ، ومن هنا بدأت الحركة التاريخية في العالم العربي والإسلامي انطلاقتها الفصلية معتمدة على المنهج العظيم الذي ابتكره المحدثون لجمع الأحاديث صحيحة الإسناد.

يقول **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه آنف الذكر: «أما الحديث، وهو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية؛ لأنه يتضمن أحكاماً وقوانين للمجتمع الإسلامي المتطور، فيُعتبر أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم، على الرغم من أن الحديث لم يدون بالفعل إلا في أواخر القرن الثاني الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز؛ لأن الأحاديث كانت تحفظ في صدور الرجال أو تكتب في صحائف متفرقة، والحديث يمثل أقدم الروايات الشفوية التي وصلت إلينا عن طريق التدوين وأدقها، لاعتماده على الإسناد، ثم إن الأحاديث كانت تتعرض لكل ما كان قائماً من نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الدولة العربية الإسلامية».

عندما نفحص بدقة ثاقبة وبعقل وحكمة المصادر التاريخية، نجد أن علم الحديث الموروث عن سيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ يحتوي على منهج متكامل لعلم التاريخ الإسلامي، حيث يستند على الأحاديث صحيحة العنعنة الصادرة عن رسول الله ﷺ ، والتي لاتقبل الفروض والظنون والأوهام الصادرة عن الشيطان وأعوانه. والجدير بالذكر أن علماء الحديث اتبعوا أحسن وأصدق منهج علمي لتدوين وتدريس علم الحديث. ولقد جاء في علم الحديث الإشارة إلى مجموعة من القواعد التاريخية التي تمد الباحث اللبيب بالسعة والشمول في النظرة التاريخية، ولذا فقد اهتدى مؤرخو العرب والمسلمين إلى التصورات والمفاهيم التي على ضوئها استطاعوا أن يفسروا الأحداث التاريخية الخطيرة.

يقول **مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة** في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» : «أما مبدأ جمع الحديث وتأليفه وانتشاره فإنه لما كان من أصول الفروض وجب الاعتناء به والاهتمام بضبطه وحفظه، ولذلك يسر الله سبحانه وتعالى للعلماء الثقة الذين حفظوا قوانينه، وأحاطوا فيه فتناقلوه كابراً عن كابر، وأوصله كما سمعه أول إلى آخر وحببه الله تعالى إليهم لحكمة حفظ دينه وحراسة شريعته، فما زال هذا العلم من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أشرف العلوم وأجلّها لدى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين خلفاً بعد سلف.. حتى لقد كان أحدهم يرحل المراحل ويقطع الفيافي والمفاوز ويجوب البلاد شرقاً وغرباً في طلب حديث واحد ليسمعه من راويه، فمنهم من يكون الباعث له على الرحلة طلب ذلك الحديث لذاته، ومنهم من يقرن بتلك الرغبة سماعه من ذلك الراوي بعينه، إما لثقته في نفسه، وإما لعلو إسناده، فانبعثت العزائم إلى تحصيله، وكان اعتمادهم أولاً على الحفظ والضبط في القلوب غير ملتفتين إلى ما يكتبونه، محافظة على هذا العلم كحفظهم كتاب الله سبحانه وتعالى (القرآن الكريم)، فلما انتشر الإسلام

واتسعت البلاد وتفرقت الصحابة في الأقطار، ومـات معظمهـم وقـل الضبـط احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة».

وخلاصـة القـول: بقـي علـم الحديـث مـن أهـم المصـادر لعلـم التـاريخ الإسلامي عبر العصور، فقد اجتهد علماء الحديث فقسموا العمل إلى قسـمين رئيسين: القسم الأول: اهتم بالأحاديث التي تتعرض لشؤون الحياة والمعاملات والعقـائد، أمـا القسـم الثـاني: فقـد تنـاول الأحـاديث الـتي تتعلـق بالأحكـام (الاستنباطات الفقهية). وهكذا رتب هؤلاء العلماء الأجلاء الأحاديث النبوية بطريقة علمية رائعة، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المنهج التاريخي
عند العرب والمسلمين

لقد بدأ علم التاريخ بداية متواضعة وبطيئة، لذا كان منهجه غير واضح وخاضعاً لانفعالات واجتهادات شخصية، علماً بأن المؤرخين الأوائل كان لديهم الاعتقاد بأن الإنسان لايمكن أن يعرف نفسه تماماً دون أن يعرف ماضيه. من هنا اهتم العرب والمسلمون بعلم التاريخ، وعملوا منه دراسات اجتماعية وسياسية وفكرية نافعة تعين الأمة على فهم نفسها وغيرها من الأمم، لذلك أصبحوا يملكون منهجاً تاريخياً رائعاً تقمصه العالم المتحضر في زمانهم.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وحينما أخذ الإنسان البدائي منذ فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطير ومعتقدات، بدأ التاريخ يظهر إلى حيز الوجود في صورة بدائية أولية، وبدأ الاحساس به يتكون في ذهن البشرية منذ أقدم العصور، وتدرج التعبير عن التاريخ مختلطاً أولاً بعناصر من الفن، كالرسم والنقش على الحجر، وعندما سارت البشرية قدماً في مضمار الحضارة في شتى أساليبها وصورها، رويداً رويداً، أخذ التاريخ يشكل أساساً جوهرياً في تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب، إذ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذي يقدم لنا ألواناً من الأحداث وفنوناً من الأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار.. ومعرفة الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة، والتأمل في الماضي يبعد الإنسان عن ذاته، فيرى مالا يراه في نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه، وأقدر على حُسن التصرف في الحاضر والمستقبل».

في باديء الأمر تبنى مؤرخو العرب والمسلمين طريقة إسناد الروايات إلى أصحابها مهما طال ذلك وصعب، مما قادهم إلى التعمق في دراسة التراث التاريخي، وهذا أمر محبب إلى نفس كل عربي ومسلم. ولاشك أنهم استفادوا

من منهج علماء الحديث في بحوثهم التاريخية؛ لأن علماء الحديث كانوا يركزون على التحقق من الخبر المنقول عن رسول الله ﷺ . والجدير ذكره أن مؤرخي العرب والمسلمين حافظوا على منهج الإسناد الذي ورثوه من علماء الحديث مع الاعتناء بالوثائق المكتوبة وشرحها وتبين قيمتها التاريخية واستخدامها في التخطيط.

يقول **عبد المنعم ماجد** في كتابه «مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي» : «لجأ المؤرخون الأوائل إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان عن الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالأسانيد. فكان الحفاظ هم الوسطاء بين الحقيقة التاريخية والمؤرخ. وهذه الطريقة عينها في التاريخ كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية، مما يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث في أول تأليف، بل إن التاريخ كان يجمع من نفس رواة الحديث».

يمد التاريخ المؤرخ بحيثيات كثيرة تمكنه من معرفة الماضي وما يدور في نفسه كما يدعي البعض. والحقيقة أنه يساعدنا مساعدة ملحوظة في فهم واقع الأمة. ولذا استطاع المؤرخ العربي والمسلم بجدارة أن يتحرى ما سيحدث في المستقبل بطريقة علمية رائعة. ولاشك أن المعرفة التاريخية تعتمد اعتماداً كلياً على المادة التاريخية وعقل المؤرخ الناقد، وعليه صار للتاريخ منهج واضح المعالم عند العرب والمسلمين، ولذلك تمكنوا من وصف المؤرخ القدير بأنه الشخص الذي لديه القدرة على التحليل العلمي البعيد تماماً عن الأغراض الشخصية.

يقول **أحمد محمود صبحي** في كتابه آنف الذكر: «التاريخ بلا تعليل مجرد تقويم، فدراسة التاريخ هي دراسة أسباب، وإذا كان جمع المادة التاريخية يشكل الخطوة الأولى، فإن التعليل يشكل الخطوة الأخيرة الحاسمة في كتابة التاريخ، فالمؤرخ الحق هو الذي يقوم بتعليلات أصيلة لم يسبق إليها، وتكون مقنعة في تفسير أحداث التاريخ». وأضاف: «إن المنهج التاريخي الصحيح يجب أن يشتمل على الآتي :

(١) أن يعزل المؤرخ موضوعه زماناً ومكاناً عن سائر العصــور والـدول، كما يعزل العالم الطبيعي الظاهرة الطبيعية عما هو حولها من ظواهر.

(٢) أن يجمع المؤرخ أكبر قدر ممكـن مـن الحـالات والمعلومـات المتعلقـة بموضوع الدراســة، وأن يقـوم بدراسـة نقديـة للوثقـائق، وتمثـل هـذه المرحلـة التحليلية من البحث.

(٣) أن يقـوم بعمليـة تركيبيـة لصياغـة المـادة التاريخيـة صياغــة علميــة، متجاوزاً مرحلـة السـرد والوصـف إلى التعليـل، مفترضاً أن الوثـائق التاريخيـة معلولة لعلل وأسباب يسعى المؤرخ إلى استخلاصها.

(٤) أن يصل بذلك إلى أحكام كلية تمكنه من التنبؤ في المستقبل » .

وخلاصة القول: لقد عمل مؤرخو العرب والمسلمين علـى إخـراج علـم التاريخ من الطـور القصصـي الخيـالي والخـرافي إلى علـم يسـتند علـى البحـث والتنقيب والاستقصاء للحقائق التاريخية. فهم العلمـاء الذيـن تميز إنتـاجهم في هذا المجال بالشمولية والدقة المتناهية والعمـق البـالغ. لـذا يجـب أن نـدرس مـا أسهمت به قريحتهم دراسة فاحصة لكي نتمكن من عرض ثمار ماقدمه هـؤلاء الأجداد الأكارم للعالم أجمع.

بوجه عام يحكم المنهج التاريخي عوامل اجتماعيـة مصدرهـا مجموعـة مـن المفـاهيم والقيـم الـتي إذا صحـت ونضجـت استقام المنهـج، أمـا إذا فسـدت اختلطت النظريات التاريخية لدى المؤرخ، وبهذه الحالة لا يسـتطيع المـؤرخ أن يقدم تصوراً واضحـاً في هـذا الميـدان. ولكـن المـؤرخ المسـلم اللبيـب يسـتمد أفكاره التاريخية من أصول الإسلام ومصادره، لذا تميز منهج التاريخ الإسلامي عن بقية المناهج الوضعية البالية.

طريقة تدوين التاريخ

عند العرب والمسلمين

كان العرب قبل الإسلام يروون الأحداث التاريخية كقصص، فلم يعرفوا التدوين، لذا حصل بعض التحريف والتبديل والمبالغة في تاريخهم، ولكنهم لم يستمروا على هذا المنوال طويلاً، فبعد شروق الإسلام اختلط العرب بشعوب كثيرة دخلت في الإسلام، فحس العرب أنه لابد من الشروع بتدوين التاريخ، حيث صار كل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر من أهم المصادر التاريخية. وهكذا يتضح للقارىء اللبيب أن التاريخ الإسلامي لم يكن له صلة قوية بالتاريخ القديم.

يقول **عبد المنعم ماجد** في كتابه «تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى»: «من المحقق أن العرب في جاهليتهم وأوائل الإسلام لم يقوموا بتدوين التاريخ، وإنما كانوا يحفظونه في ذاكرتهم، ولم يكن ذلك لأنهم كانوا يجهلون الكتابة، ولكن لتحبيذهم الحفظ عن الكتابة، فهذه الأخيرة لم تكن وقتذاك لتعطي صاحبها تفوقاً في المجتمع أكثر ما تعطيه ملكة الحفظ، فكان تاريخ العرب الأول وهو عبارة عن: وقائع وأيام وغزوات محفوظاً في الذاكرة يرددونه على ألسنتهم، وأعانهم على حفظه بيئتهم الصحراوية الطليقة التي ليس فيها تعقيد. ولكن بعد أن ابتعد العرب عن بيئتهم وتفرقوا في الأرض للفتح بين شعوب لا تتكلم لغتهم، ضعفت ملكة الحفظ عندهم وظهرت حاجتهم إلى التدوين».

لقد نهج مؤرخو العرب والمسلمين في أول الأمر في تدوينهم تاريخهم منهج المحدثين الذي يعتمد على سلسلة من الأسانيد، ولكنهم أدخلوا بعض التحسينات، فبدؤوا يستخدمون الحوادث بالسنين مع الحفاظ على العنعنة كما فعل الطبري. ولم يستمروا على هذا المنهج طويلاً، فقد تمكنوا من حذف

الإسناد ورتبوا الحوادث بالسنين فقط مثل ما فعل ابن الأثير، أما ابن خلدون فقد أرخ لكل دولة على حدة، وهذه الطريقة الجيدة انفرد بها ابن خلدون وتليمذه المقريزي المصري. وأخيراً تبنى مؤرخو العرب والمسلمين الأوائل طريقتين لتدوينهم التاريخ هما: الأول: طريقة الحوليات التي تخضع لكتابة التاريخ سنة بعد سنة، ومشكلتها عدم استيفاء أخبار الحادثة الواحدة إذا كانت أحداثها طويلة لا تكفيها السنة الواحدة. أما الطريقة الثانية: فهي طريقة تهتم بتسلسل الموضوع الواحد، لذا لزم المؤرخ أن يتناول الحادثة التاريخية من بدايتها إلى نهايتها حتى ولو استغرقت عدداً كبيراً من السنين، وهذه الطريقة صار لها صدى عظيماً لدى المؤرخين في العالم.

ويذكر **أنور الرفاعي** في كتابه آنف الذكر: «أن مؤرخي العرب والمسلمين اتبعوا في تدوين كتبهم طريقتين: الأولى: الحوليات، وهي ذكر الحوادث سنة بعد سنة، والثانية: هي التسلسل التاريخي، وفيه يبدأ المؤرخ بالحادثة فيسردها من أولها إلى آخرها. أما اهتمام العرب والمسلمين بتدوين التاريخ، فلأسباب كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) رغبة العرب والمسلمين في معرفة تاريخهم السياسي والعلمي وسيرة زعمائهم.

(٢) رغبة العرب والمسلمين في معرفة كل ما يتصل بحياة سيد البشر رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ من أعمال وأقوال، ليستعينوا بها على تفسير القرآن الكريم، وليستنبطوا منها أحكام الدين الإسلامي.

(٣) الرغبة في معرفة أنساب القبائل العربية.

(٤) تشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة بتسجيل حوادث زمانهم لتطلع عليها الأجيال القادمة.

(٥) إقبال علماء اللغة على تدوين الأدب العربي من شعر وخطابة

وأمثال ومفردات لغوية، فذكروا الحوادث المتصلة بكل هذا».

بعد أن انتشر الإسلام بين الأمم احتوت الأمة العربية والإسلامية على ولايات وأقاليم كثيرة متباعدة، من هنا أخذت الحركة التاريخية تتسع بطريقة مذهلة، لذا أحب مؤرخو العرب والمسلمين أن يدونوا معلومات كاملة عن المآثر العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لتكون حصناً قوياً لأبنائهم وأحفادهم ضد الغزو الفكري الذي يشنه أعداء العرب والمسلمين. والجدير بالذكر أن طريقة تدوين التاريخ عند العرب والمسلمين مرت بثلاث فترات: الأولى: وتتسم بالبساطة وقد اعتمدت على الشفاه. والثانية: اهتمت بالأحاديث النبوية ورصدها لتكون عوناً في تفسير القرآن الكريم، مع الاهتمام بجمع الأخبار المتنوعة والتي لها علاقة في علم التاريخ. أما الثالثة: فقد تركزت على تطوير المنهج العلمي لكتابة التاريخ.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «إن التدوين في العصور الإسلامية الأولى مر في ثلاث مراحل: مرحلة التدوين الأولى: وفيها يتسم التدوين بالطابع الشخصي بالنسبة للهدف من استخدام التدوين، وبطابع العفوية والغضول العلمي والمنفعة الدينية أو الاجتماعية بالنسبة للدوافع العامة.. والمرحلة الثانية: وقد امتدت خلال القرن الثاني كله تقريباً. واهتم الأخباريون خلالها بجمع أخبار الأحداث والمواضيع المتنوعة كلها، ومن جميع الأفواه والرواة... والمرحلة الثالثة: مرحلة تدوين التاريخ على الأساس الزمني المتسلسل وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد، وهي تستند في فلسفتها العميقة إلى فكرتين أساسيتين: ـ وحدة التاريخ الإسلامي وأهمية تجارب الأمة الإسلامية ـ وحدة التاريخ البشري من خلال سلسلة الأنبياء. وقد امتدت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث حتى استقرت وتوطدت، فتوطد بها علم التاريخ الإسلامي ومناهجه في التدوين».

وخلاصة القول: لقد ثبت في الآونة الأخيرة أن مؤرخي العرب

والمسلمين لم يأخذوا تاريخهم عن كل من اليونان والفرس، بل نشأ وترعرع علماً مستقلاً تماماً، حيث اعتمد المؤرخون المسلمون في كتابة التاريخ على القرآن الكريم والسنة المطهرة كمصدرين رئيسيين لمظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. ولا ريب أن المؤرخين المسلمين استمروا يتناقلون الأحداث التاريخية جيلاً بعد جيل مدة طويلة من الزمن عن طريق كل من الرواية الشفهية والتدوين.

المعروف أنه كان يوجد أعداد كبيرة من المؤلفات التاريخية وغير التاريخية في مطلع العهد الأموي، قام بتأليفها علماء العرب والمسلمين. وهذا ينفي تماماً الادعاءات المغرضة التي تروي أن العرب والمسلمين لم يستخدموا التدوين في القرن الأول الهجري؛ لأنهم لايعرفون القراءة والكتابة. والمتواتر أن كلاً من المدينة المنورة ودمشق والبصرة والكوفة كانت تحتوي على مركز لتدوين التاريخ في القرن الأول الهجري وبداية الثاني، ثم استقطبت بغداد السلام كبار المؤرخين في العالم العربي والإسلامي، حيث كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية ومأوى جهابذة الفكر، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في جميع فروع المعرفة، ولذا عرف بيت الحكمة بموطن الحضارة العربية والإسلامية ومستودع جذورها.

موقف الاستشراق

من التاريخ العربي والإسلامي

من المعروف لدى أغلب الباحثين من المسلمين في علم التاريخ، أن المستشرقين لم يعطوا علماء العرب والمسلمين مكانتهم العلمية الصحيحة في تطوير الحضارة الإنسانية الحديثة، بل خانوا مصداقيتهم العلمية تحت ضغط العصبية الدينية، لذا حاولوا أن يشوهوا دور علماء العرب والمسلمين الحاسم في إنماء مصادر المعرفة عبر العصور، وذلك لكي يبعدوا أبناء الأمة العربية والإسلامية من إدراك حقيقة أنفسهم العلمية المرموقة. إن كلاً من العدل والأمانة يمليان علينا أن نذكر في هذه المناسبة أن هناك القليل جداً من المستشرقين الذين عملوا بجدية لإحياء التراث العلمي العربي والإسلامي خدمة للعلم، ولبعث الثقة في نفس القارئ العربي والمسلم بالظهور أمامه في المظهر العلمي النزيه. ولكنهم في الحقيقة وقعوا أيضاً في أحضان العواطف الشخصية والتيارات السياسية المعادية للعرب والمسلمين.

يقول **محمد رشاد خليل** في كتابه آنف الذكر: «لقد تعرضت الأمة المسلمة لأكبر عملية خداع تاريخية يقصد بها طمس ذاكرتها، حتى يسهل قطع حاضرها عن ماضيها، فلا تعود تذكر إلا هذا الحاضر المتفسخ العاجز الذليل فتيأس، وتغلب على أمرها وتستسلم للواقع. لقد حيل بين هذه الأمة وبين تاريخها الحقيقي بأسلوب علمي ذكي مخطط ومدروس. وفي نفس الوقت وضعت بين بعضها البعض حواجز وفواصل تحول دون التعرف على التجانس الذي تتمتع به هذه الأمة رغم الظروف السيئة التي تعيشها. لقد كانت خطة طمس الذاكرة ذات شقين: الشق الأول: تحريف التاريخ. والشق الثاني: تعميق الفواصل والحدود».

نمت وترعرعت الحضارة الإسلامية في ظل العقيدة الإسلامية السمحة التي تُعتبر بحق أساس ظهور الحضارة الغربية الحديثة، لذا بذل عدد كبير جداً من المستشرقين قصارى جهدهم أن يعيدوا الأفكار والنظريات العلمية والتاريخية، التي تدل على مظاهر الإبداع الذهني المتميز إلى الحضارة اليونانية التي يعتقدون أنها انتهت إليهم، علاوة على تصميمهم المركز على أسر الفكر العربي والإسلامي، بل استعماره كاستعمارهم السياسي الذي وصل قمته في النصف الأخير من القرن الثالث عشر الهجري إلى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري. والجدير بالذكر هنا أن علم التاريخ عند العرب والمسلمين ليس فقط مجموعة من الأحداث الاجتماعية والأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية، ولكنه تاريخ عقيدة ربانية متكاملة، لذا من المستحيل على هؤلاء المستشرقين الغرباء أن يفهموا فهماً عميقاً وواضحاً مغزى العقيدة الإسلامية الطاهرة التي يفخر ويعتز بها كل مسلم على كوكب هذه الأرض.

يقول **محمد عبد الله مليباري** في كتابه «المستشرقون والدراسات الإسلامية»: «نهج المستشرقون في دراساتهم الإسلامية نهجاً استهدفوا منه ما يأتي:

(١) محو الشخصية الإسلامية من كل أثر فكري، دينياً كان أم علمياً أم أدبياً.

(٢) محاولة إيجاد جذور للنصوص الدينية الإسلامية في النصوص النصرانية أو اليهودية، وجذور للأفكار الفلسفية، والعلمية في الأفكار الهلينية، أو أي فكر غير عربي.

(٣) التشكيك في النصوص وصحتها، واستعمال الخلافات الفكرية كأداة له.

(٤) التبرير للانحرافات الدينية وعثراتها في المسيحية من خلال هذه الدراسات ما وسعهم، والغاية من هذا النهج، هو تعطيل تأثير الفكر الإسلامي، وصده عن نفوس المسيحيين، وعن نفوس غير معتنقة، وليتاح بذلك مناخ صالح للتبشير

المسيحي، وأرض خصبة للنفوذ الاستعماري، وليس هناك دراسة من الدراسات الاستشراقية إلا كانت هذه الخصائص مجتمعة فيها أو واحدة منها على الأقل».

وخلاصة القول: المتواتر في المعمورة أن الإنسان وحده هو موضوع علم التاريخ، وأن التاريخ بوجه عام يعين إعانة رائعة على فهم ومعرفة واقع الأمة. والتاريخ الإسلامي يمتاز عن غيره بأنه يعتمد اعتماداً واضحاً على الدين الإسلامي الذي له سمات وخصائص ومقومات مرموقة، وعليه فإن الغربيين يخافون أن يتحرر العرب والمسلمون من التبعية الخطيرة، ويعرفوا ويستردوا تاريخهم الناصع. لذا شجّعوا المستشرقين على دراسة التراث العربي والإسلامي دراسة علمية توهم البسطاء والسذج أنها نزيهة، وذلك ليشككوا بمكانة الحضارة العربية والإسلامية، حتى يتخلى شباب الأمة العربية والإسلامية عنها ويبدؤوا مسيرتهم من جديد.

ويذكر **عبد الرحمن علي الحجي** في كتابه «نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي» : **نقلاً عن أبي الحسن الندوي** ما نصه: «المستشرقون لا يؤمنون بالإسلام ولا يعترفون به ولا بما ينتج عنه، فنحن وهم مختلفون ليس فكراً أو ثقافة فحسب، بل أيضاً ولاءً ومنطلقاً من الأساس. فنحن نؤمن بالإسلام وبكل الكيانات التي قامت به وعليه بكافة طاقاتنا وإمكاناتنا، وله وحده ولاؤنا. وموقفنا وموقفهم من الأديان الأخرى مختلف، فنحن نؤمن بكافة الأديان السماوية التي أنزلها الله على رسله ونجلها ونحترمها كدين. وإيماننا بها وبأنبيائها شرط في إسلامنا. وهذه الحقيقة ترد كثيراً من الاعتراضات حول موقفنا من المستشرقين ومن سار في دربهم ونحا نحوهم وامتص أفكارهم أو نظر نظراتهم من أبنائنا، من غير أن يحس ذلك لكثرة ما ارتوى من مشربهم. وهو متوفر في بلداننا في كثير من مصادر ثقافتنا ومواطن تعليمنا» .

مكانة الوثائق التاريخية

عند العرب و المسلمين

المعروف أن الوثائق التاريخية تشتمل على معلومات رسمية أو شبه رسمية مثل: المنشورات والسجلات والمخالفات والأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقات والمراسلات الاقتصادية والسياسية والمستندات وعقود البيع والشراء وما أشبه ذلك، لذا لابد من وجودها أمام المؤرخ الفطن لكي يجيب على الأسئلة والاستفسارات التي تدور في ذهن القارىء اللبيب.

يعرف **حسين محمد سليمان** الوثائق في كتابه آنف الذكر فيقول: «اللفظة مشتقة باللغة الأجنبية من كلمة (ديبلوم) وهي تعني أية وثيقة صادرة عن السلطة الشرعية، وهي تعني بالنسبة للتاريخ كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية، ومع بُعد زمن الوثيقة عن عصور البحث التاريخي صار علم الوثائق يعني تحقيق الوثائق ونقدها وتحديد زمانها، والوسائل التي صنعت منها الوثيقة في زمنها مثل نوع الحبر (المداد) المستعمل في الوثيقة، ونوع الورق المستخدم وخصائصه. وقد اتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام أو الطمغات وهو ما اصطلح عليه أخيراً واعتبروه علماً مستقلاً، وهي تمر به الوثائق ولكل عصر وزمن ودولة شكل خاص ومادة خاصة تستخدم بها الطمغات».

بدون الوثائق التاريخية لا يمكن للمؤرخ أن يعرف كلاً من خيرات وأفضال ومآسي وظلمات الماضي. وعليه يجب أن يكون في متناول المؤرخ المتمكن وثائق تاريخية واضحة وجديرة بالثقة، لكي يستخدمها في بحوثه التاريخية، لذلك يمكن القول: إن الوثائق التاريخية هي وقود علم التاريخ التي لا يستغني عنها المؤرخ.

يقول **قاسم يزبك** في كتابه آنف الذكر: «الباحث الذي يكتب التاريخ دون أن يحصل على مجموعة من الوثائق الأساسية الجديدة، أو التي لم يكن قد سبق استخدامها استخداماً علمياً مكتملاً، تنقص قيمة بحثه العلمية أو تتضاءل أو تنعدم مهما بذل من مجهود، وقد لاقى الباحثون والمؤرخون القدامى صعوبات جمة في سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية. وإذا كانت الحوادث التي قصدوا الكتابة عنها قريبة نسبياً من العهد الذي عاشوا فيه، فإنهم كانوا يرجعون إلى روايات وقصص بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث ويقارنون بينها وينقدونها، ويستخلصون منها ما يمكن الوصول إليه من الحقائق التاريخية».

وللأسف الشديد لقد خسرت الأمة العربية والإسلامية الكثير جداً من وثائقها التاريخية بسبب ويلات الحروب التي نتج عنها حرق وتخريب المكتبات العظيمة في البلدان العربية والإسلامية. كما أن أعداء الأمة العربية والإسلامية منذ الأزل كانوا يهتمون بالوثائق التاريخية اهتماماً بالغاً؛ لأنها تصور الأطر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية المتبعة في بناء الحضارة العربية والإسلامية التي خلبت عقول علماء الغرب، لذا استطاعوا بخبث أن ينهبوا الكثير من الوثائق الهامة التي وضعوها في مكتباتهم المنتشرة في جميع أرجاء أوربا، لتكون في متناول المستشرقين.

يقول **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه آنف الذكر: «إن المجتمع الإسلامي كان مجتمعاً يقوم على المساواة أمام الشريعة الإسلامية التي لم تفرق بين مختلف طبقاته في الحقوق، فلم تكن فيه هيئات كنسية ولا نظام الطوائف والنقابات والإقطاع الذي كان سائداً في أوربا في العصور الوسطى، وكلها هيئات كانت تحتفظ بالوثائق التي تثبت ما تكتسبه من حقوق. كما أدى قيام الدول المستقلة عن الخلافة العباسية وسقوطها وقيام دول أخرى على أنقاضها

إلى ضياع الكثير من الوثائق الرسمية للحكومات البائدة، أو تلفها بسبب الخصومات السياسية أو المذهبية القائمة بين الدولة الجديدة والدولة السابقة عليها، وتعرضت الدواوين التي تحفظ فيها الوثائق الرسمية في عصر الدولة الأموية للحرق. مثل ديوان الكوفة الذي احترق بما كان يضمه من وثائق في سنة (٨٢ هجرية)، وديوان الفسطاط الذي تعرض للحريق في عصر الدولة الأموية، ومع ذلك فقد وصلت إلينا بعض المستندات والوثائق العربية».

وخلاصة القول: لايمكن بأي حال من الأحوال دراسة علم التاريخ دراسة موضوعية متكاملة إلا من خلال الوثائق التاريخية؛ لأن علم التاريخ لا يبتكر ولا يوجد من العدم. وصدق كل من لانجلوس وسينوبوس عندما قالا في كتابهما الذي بعنوان: «أهمية الوثائق التاريخية»: «حيث لا توجد الوثائق ينعدم التاريخ».

ومن المحزن حقاً أن الغربيين استطاعوا أن يسرقوا وثائق عربية وإسلامية كثيرة عبر الأندلس وصقلية والحروب الصليبية وكابوس الاستعمار، وعن طريق هذه المصادر تمكنوا ـ عليهم اللعنة ـ من تزييف التاريخ الإسلامي. وقد قامت بهذه العملية القذرة شرذمة من المستشرقين المتخصصين في اللغة العربية والتاريخ، محاولين طمس المكانة العلمية والأدبية التي وصل إليها كبار علماء العرب والمسلمين في الحضارة العربية والإسلامية المرموقة.

علاقة علم الجغرافية بعلم التاريخ الإسلامي:

اهتم العرب والمسلمون بعلم الجغرافية اهتماماً بالغاً لصلته الوثيقة بعلم التاريخ، لذا أخذوا بالرأي القائل: «أن المعرفة الجغرافية ضرورية لفهم الوقائع التاريخية؛ لأن الأرض هي المحيط الجغرافي الذي يتم عليه جميع الأحداث التاريخية، وعليه رأوا أنه يجب على المؤرخ أن يتعرف على حالة المكان

وظروفه. وكما هو معروف أن الظواهر الجغرافية بأنواعها المتعددة لها تأثير مباشر على الإنسان الذي يُعتبر العمود الفقري لعلم التاريخ، وهكذا بذل العرب والمسلمون جهوداً عظيمة لمعرفة الطرق لكي يقوموا برحلاتهم المبتكرة لجمع المعارف العلمية والتاريخية من جميع أنحاء العالم، فوصلوا الصين وجزيرة زنجبار وسواحل المحيط الأطلسي الغربية وسواحل القارة الأفريقية وغيرها، بهذا أصبح مؤرخو العرب والمسلمين قادة الفكر في هذا المجال الحيوي.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «الجغرافيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ، والارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا، فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ وهي ذات أثر كبير في توجيه مصائر النوع الإنساني، فهي التي أطعمت الإنسان وأنشأته وعينت واجباته، وأوجدت المصاعب والعقبات الطبيعية التي تشحذ قريحته للتغلب عليها، وللتأثير بدوره في البيئة التي يعيش فيها والعمل على استغلالها، وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير مع غيرها من المؤثرات في الإنسان وبالتالي في التاريخ، وذلك تبعاً لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها».

يجب أن يكون المؤرخ حذراً جداً عند تطبيق ودراسة تأثير العوامل الجغرافية على الإنسان؛ لأن بعضها يمكن أن يكون مبالغاً فيه فيوقع المؤرخ في متاهات خطيرة لا أول لها ولا آخر، لذا لابد أن يتحرى المؤرخ الأمين الدقة في نقل المعلومات التي يعرضها، فمثلاً بعض المؤرخين يفترض أن تأثير البيئة على الحيوان ينسحب تماماً على الإنسان، وهذا طبعاً خطأ جسيم؛ لأن الإنسان بعقله وحكمته ومنطقه استطاع أن يغير من الصعوبات التي في البيئة، فلم تبق البحار والأنهار والجبال والغابات والرمال عوائق للإنسان كما كانت في السابق بل سخّرها لخدمته باستخدام التقنية الحديثة.

ومن الأمور التي لا يقبلها العقل السوي، ما قاله **أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي** في كتابه «طبقات الأمم» (تحقيق لويس شيخو اليسوعي) حول تأثير البيئة على الإنسان: «وأما التُرك فأمة كثيرة العدد أيضاً، فخمة المملكة، ومساكنها ما بين مشارق خراسان من مملكة الإسلام وبين مغرب الصين وشمال الهند إلى أقصى المعمور الشمالي، وفضيلتهم التي برعوا فيها وأحرزوا خصلتها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، فهم أحذق الناس بالفروسية والثقافة وأبصرهم بالطعن والضرب والرماية، وأما سائر هذه الطبقة التي لم تعن بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس؛ لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال عن مساحة رؤوسهم برد هواؤهم وكثف جوهم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة، فعظمت أبدانهم وأبيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم، فعدموا بهذا دقة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العي والغباوة».

لا شك أن الطبيعة الجغرافية لها أثر كبير على حياة الإنسان على كوكب الأرض؛ لأنه يتفاعل معها طبيعياً، وفي بعض الأحيان البيئة تحدد منهجه في التاريخ، ولكن المفروض أن يتجنب المؤرخ الغلو في هذا الاتجاه فلا يقع فيما وقع فيه أبو القاسم صاعد الأندلسي. كما تواتر لدى المؤرخين عبر التاريخ أنهم يرون أن علم الجغرافية من العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ، لذا اعتبر مؤرخو العرب والمسلمين التاريخ والجغرافية فرعين علميين متلازمين لارتباطهما الوثيق بحياتهم؛ لأنهم استفادوا من ذلك في معرفة كل من البلاد التي فتحوها والطرق التجارية المؤدية للدول المجاورة لهم، كما اتسعت معرفتهم بأقسام الأرض ورسم الخرائط.

يقول **محمد عواد حسين** في مقالة له تحت عنوان: «صناعة التاريخ»، نشرت له في مجلة عالم الفكر: «ليس ثمة شك في أن الجغرافية لها أثر كبير على توجيه المسارات التاريخية ومن ثم على مصائر أهل هذا الإقليم.. إن الناس في

أية بيئة من البيئات يتفاعلون معها تفاعلاً تلقائياً تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ومن ثم يتشكل تاريخهم تشكيلاً يتفق والبيئة، وبالتالي يتحدد مسار تاريخهم. ومن أبرز الأمثلة على أثر الطبيعة الجغرافية في تاريخ قوم من الأقوام مصر؛ فالنيل هو مصدر حياتها، وهو الذي شكل تاريخها ووجهه الوجهة التي سار فيها، لقد تعلم منه سكانها هندسة الري وأدركوا بفضله معنى الوحدة والتعاون، وجعلهم من أغنى شعوب العالم القديم، وأسبقهم إلى الأخذ بأسباب التقدم الحضاري».

وخلاصة القول: كان معرفة العرب قبل الإسلام عن الظواهر الجغرافية محدودة للغاية، ولكن بعد أن انتشر الإسلام اضطر العرب والمسلمون أن يدرسوا عن كتب الطرق والشعاب والمحصولات الزراعية والتضاريس والمناخ لجميع البلدان التي دخلت في الدين الإسلامي، وذلك ليطلعوا عن قرب على حالة السكان الاجتماعية والمالية والإدارية. والجدير بالذكر أن مؤرخي العرب والمسلمين عملوا أعمالاً رائعة لدراسة العوامل الجغرافية؛ لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنها لاتزال تلعب دوراً هاماً في تغيير مجرى التاريخ.

علاقة علم التاريخ بالحضارة:

كان علم التاريخ عند العرب قبل الإسلام قائماً على الرواية الشفهية التي تنتقل من جيل إلى جيل، كما يشمل على معلومات عن الأنساب والقبائل وشجاعة الفرسان وكرم الحكام وأخبار الأجداد السياسية والاقتصادية، وعليه استمد المسلمون في فجر الإسلام كثيراً من معارفهم التاريخية من هذا المصدر (الرواية الشفهية)، ولكنهم لم يستمروا طويلاً على هذا المنهج، بل اعتبروا علم التاريخ العلم الذي يحد بوضوح تام أوقات الحوادث وأساليبها وأسباب حدوثها، وربطوه بجميع العلوم، فصار يعرف علم التاريخ بعلم العلوم، وبهذه الحالة تكون الحضارة وعلم التاريخ متلازمين ومترابطين، لذا تميز مؤرخو العرب والمسلمين في هذا الفن وتفوقوا على غيرهم من الأمم.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «تجد الفكرة الحضارية سابقة على الحركة التاريخية، والحركة التاريخية مؤدية إلى المزيد من النشاط الحضاري؛ أي إن التاريخ والحضارة يسيران جنباً إلى جنب، فكرة حضارية تؤدي إلى خطوة حضارية أخرى وهكذا، فلا فاصل ـ في الحقيقة ـ بين الحضارة والتاريخ. ومن هنا نفهم كيف أن فلاسفة التاريخ في عصرنا الحديث يكتبون التاريخ ولكنهم يدرسون الحضارات، ودراسة توينبي الشهيرة في التاريخ إنما هي دراسة مقارنة للحضارات تتوقف الحركة التاريخية أيضاً، أو تجمد الجماعة في مكانها ثم تبدأ في التدهور، وهذه هي الحضارات الموقوفة».

إذا كان مرتكز علم الماضي بأبعاده المختلفة، فإن الحضارة أيضاً أساسها المتين الماضي المتصل بالحاضر المبشر بالمستقبل، والجدير ذكره أن كلاً منهما يحتوي على العملية العقلية المتقدمة من إسهام الفكر الإنساني، ولهما صلة وثيقة جداً في جميع فروع المعرفة المختلفة من حيث المقدار والنوع. والمعروف لدى الباحثين في هذين المجالين أنهما المصدران الهامان لمن يريد أن يحصل على معلومات صحيحة عن كبار العلماء الذين قامت الحضارات الإنسانية على أكتفاهم.

وتنقل لنا **سيدة إسماعيل كاشف** عن رأي روبنسون (J.H.Robinson) حول علاقة علم التاريخ بالحضارة الذي أورده في كتابه «العصور الوسطى والعصر الحديث»، ويظهر ذلك في كتابها «مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه»: «إذا أردنا أن ندرس التاريخ الإسلامي دراسة صحيحة تساعدنا على فهم الأحداث السياسية، وتمكننا من تفهم العوامل التي أدت إلى تقدم المسلمين أو إلى تأخرهم في الفترات المختلفة من التاريخ الإسلامي، يجب علينا أن ندرس المجتمع الإسلامي من كل نواحيه الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية. ولذلك فإننا لا نؤيد تقسيم الدراسات التاريخية إلى (تاريخ) و(حضارة)؛ لأن دراسة التاريخ السياسي وحده ليست تاريخاً كاملاً، كما أن دراسة الحضارة لايمكن فصلها تماماً عن التاريخ السياسي، اللهم إلا إذا قصد

بها أن تكون دراسة جانب من التاريخ،فعلم التاريخ لا يمكن أن يؤدي الغرض منه وأن يكون تاريخاً بالمعنى الصحيح إلا إذا درس الماضي بما فيه من الأحداث، والأحوال التي كان يعيش فيها الإنسان من النواحي المختلفة، والنظم التي اهتدى إليها وتطورت على يده».

في رأيي: إن المؤرخ الناجح هو الذي يسير على نهج مؤرخي العرب والمسلمين الذين اهتموا اهتماماً بالغاً بالدقة والصدق والأمانة، وهذا وليد دراستهم العميقة لإسناد الأحاديث النبوية الشريفة وتفسير القرآن الكريم منذ البداية، لذا نشأ وترعرع علم التاريخ عند العرب والمسلمين على قواعد وأسس علمية متينة، ولاشك أن المؤرخ العربي والمسلم يمثل ضمير الإنسان الواعي البعيد كل البعد عن النفاق والمجاملات الخطيرة. من هنا نقول وبصراحة: إن علم التاريخ إنتاج العقل والتجربة العلمية والسياسية، والحضارة هي المحرك الفريد لعلم التاريخ نفسه. وبهما نستطيع أن نعرف بوضوح سبب نهوض وجحود وتدهور الأمم عبر التاريخ، وبهما أيضاً يمكن بسهولة التخطيط للمستقبل.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «المؤرخ يدرس الماضي؛ لأن الماضي هو الذي أنشأ الحاضر؛ أي أننا ندرس الماضي لنفهم الحاضر، وندرس الحاضر لنستطيع توجيه المستقبل. وقد قال بعض فلاسفة التاريخ: إن التاريخ هو سياسة الماضي، وعلى ضوء هذا القول: يكون الحاضر جزءاً من اختصاص المؤرخ؛ لأنه نتيجة وثمرة للسياسات الماضية، وعلى أساس من فهم الحاضر وسياساته واتجاهاته يمكن تصور المستقبل وحسابه وتوقعاته، وهذا ما يسمى بالتخطيط للمستقبل. ونحن عندما نخطط لبلدنا خلال الخمسين سنة القادمة مثلاً إنما نكتب مقدمة تاريخ هذه الخمسين سنة القادمة، أو ــ على الأقل ــ نرسم تاريخنا القادم خلال هذه الفترة كما نريده أن يكون.. ولو أن المسلمين التزموا بالنظام السياسي المستقى من شريعتهم وسُنة رسولهم لما انتكست حضارتهم ولا تدهور مجتمعهم قط».

وخلاصة القول: إن الاتجاه الحديث لدراسة علم التاريخ مشجع ومطمئن؛ لأنه يقوم على الجمع بين علم التاريخ والحضارة. ولقد تواتر عن المؤرخين في المعمورة أن أي تحرك تاريخي لا يصحبه تحول حضاري لا قيمة له في الفعالية التاريخية، لذا فإن علماء العلوم البحتة والتجريبية يجب عليهم عند البحث في علم التاريخ أن يعرفوا الأسباب الرئيسة للتقدم العلمي، حيث إننا ندرس علم التاريخ لنفهم الماضي وعلاقته بالحاضر لكي نخطط للمستقبل المشرق، وعليه لابد من تدوين المنجزات العلمية الضخمة التي خلبت عقل الإنسان المعاصر. والحقيقة التي لابد من ذكرها بهذه المناسبة أن العلماء في الغرب والشرق لو درسوا علم التاريخ بصدق وتجرد، لاتعظوا من ويلات الحروب المدمرة التي قامت على اختراعاتهم لأسلحة الدمار الشامل.

لقد أصبح علم التاريخ من المواد الهامة لمن يريد أن يعمل خطة مستقبلية لبلاده، لذلك أخذ أصحاب الرأي يؤرخون للمستقبل بكل ثقة، حيث إن العناصر الضرورية لهذا العمل الحيوي موجودة في متناولهم، ولاشك أن هذه نتيجة لكل من المعلومات العلمية والسياسية، ومعرفة طبائع البشر بكل تفاصيله المخزنة لديهم في أجهزة الحاسوب الذي يُعتبر في الآونة الأخيرة من ضرورية العمل المتقن.

علاقة الأدب بعلم التاريخ الإسلامي:

كان مؤرخو العرب قبل الإسلام يعتمدون اعتماداً كثيراً على الشعر في دراساتهم التاريخية، بل يكاد يكون الشعر المرجع الوحيد الموثوق به حينئذ، ولاشك أن الشعر الجاهلي يفيض بالمعلومات التاريخية والجغرافية، لذا فالأعمال الأدبية بوجه عام تضفي على الدراسة التاريخية مزيداً من السلاسة والدقة، ولكن يجب أن يكون المؤرخ حذراً جداً حتى لا تختلط الحقائق التاريخية بالحقائق الأدبية. والمتواتر أن المؤرخين الأوائل استندوا على

المعلومات التي وصلت إليهم من دواوين الشعر في بحوثهم حول الحركة التاريخية؛ لأن الشعر أقرب وأصدق مصدر لتسجيل العادات والتقاليد للشعوب المختلفة. ولا ريب فإن الإنتاج الأدبي الجيد يفتح أمام المؤرخ آفاقاً واسعة ويمده بالخبرة العميقة.

يقول **محمد عواد حسين** في مقالة له تحت عنوان: «صناعة التاريخ» نشرت له في مجلة عالم الفكر: «الأدب من العلوم المساعدة التي يلزم المؤرخ أن يلم بها، فأدب القوم هو مرآة حياتهم وحضارتهم، وهو التعبير الصادق عن أفكارهم وعواطفهم الإنسانية. وهو الذي يكشف دخائل الأفراد ويصور لنا أحلامهم وأمانيهم. والأدب في مجالاته المختلفة يرسم لنا أوضاع الشعوب ونظمهم وشتى جوانب حياتهم. ونحن إذا تناولنا الأدب المصري القديم ـ برغم قلة ما وصلنا منه ـ أو الأدب الإغريقي أو الأدب الروماني، نجده يفيض بالمعلومات التي ترسم لنا تاريخ هذه الشعوب رسماً دقيقاً واضحاً».

المؤرخ الناجح هو الشخص الذي يستطيع أن يصور العواطف الإنسانية تصويراً أدبياً واقعاً، لذا يصح القول: إنه لا يمكن للباحث في ميدان علم التاريخ أن يصل إلى نتائج مرضية دون أن يتذوق ثمرات أدب الشعب الذي يريد أن يكتب عنه؛ لأن الأدب بنوعيه النثر والشعر كانا يساعدان على تحليل الحياة القائمة آنذاك تحليلاً علمياً مرموقاً. وهكذا نظم العرب والمسلمون الأناشيد والأغاني لتكون سجلاً تاريخياً للحياة الاجتماعية والسياسية في دولتهم المترامية الأطراف، وقد أضفى ذلك على دراستهم التاريخية مزيداً من الدقة ومزيداً من نبض الحياة.

يقول **حسن عثمان** في كتابه «منهج البحث التاريخي»: «ودراسة الأدب بصفة عامة توسع عقل الإنسان وتصقل نفسه، وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب ، ولابد للراغب في كتابة التاريخ أن يتذوق الشعر لكي يفهم ملكة الخلق والابتكار، ويلزمه أن يقرأ شيئاً من القصص الأدبي لكي يتعلم فن عرض

الموضوع، وإبراز الحوادث الهامة وبحث الشخصيات الأساسية والثانوية، ووضع التفاصيل والجزئيات في المكان الملائم، وإحكام الإطار العام للموضوع الذي يدرسه، وإثارة انتباه القارىء، وجعله قادراً على استيعاب ما يقدم إليه وتذوقه. ويحسن بدارس التاريخ كذلك أن يلم بشيء من مذاهب النقد الأدبي، إذ إن دراسة حياة الأدباء، وتحليل آثارهم وتذوقها، ونقدها من ناحية اللفظ والموضوع والمعنى تقدم للمؤرخ ذخيرة قيمة تعينه في دراسته التاريخية».

عرف مؤرخو العرب والمسلمون عن كثب الرابطة القوية التي تربط الأدب بعلم التاريخ، لذا ركزوا في بحوثهم التاريخية على هذا الجانب الحيوي؛ لأن المصادر الأدبية كانت تمدهم بفيض من المعارف التاريخية التي كانوا في أمس الحاجة إليها. والجدير بالذكر أن الشعر العربي كان ولايزال من المناهل الهامة للدارسين لعلم التاريخ؛ لأنه يحتوي على صورة واضحة وصادقة لحياة العرب الاجتماعية والدينية علاوة على وصف طباعهم وأخلاقهم وأنسابهم ومآثرهم.

يقول **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر: «عرف العرب الكثير عن تاريخهم وحياتهم الاجتماعية من خلال الشعر الجاهلي، والأدب الجاهلي القديم، كما أن أبحاث فقهاء اللغة العربية في القرن الثاني والثالث للهجرة كانت سبباً في تحسين أسلوب التدوين التاريخي، فضلاً عن أن كثيراً من الأحداث التاريخية نقلت من الخطب التي كان يلقيها الحكام العرب والمسلمون، وغيرهم. ويمكن الرجوع إلى كتب الأدب العربي القديم لمعرفة مدى تأثر التاريخ بها، بل إن كتاباً مثل «الأغاني» للأصفهاني، و «العقد الفريد» لابن عبد ربه وهي من كتب الأدب تعتبر مصادر تاريخية هامة في التدوين التاريخي.. ومعرفة هذه الأمور تفيد قارىء وباحث التاريخ».

وخلاصة القول: لاشك أن الأدب بنوعيه النثر والشعر له صلة قوية جداً بسائر العلوم، ولكنه يمتاز بعلاقته المتينة بعلم التاريخ. فالأدب مرآة العصور؛ لأنه يعطي صورة حقيقية لآراء وعواطف الناس حينئذ، كما أنه يُعبر عن

أمانيهم وأحلامهم بدقة وصدق، فالأدب يُعتبر بحق العمود الفقري للتحصيل الثقافي، لذا نرى أن الباحثين في حقل علم التاريخ يبذلون جهوداً عظيمة في دراساتهم تأثير الأدب على مجريات الأحداث التاريخية، لذا يمكن القول: إن الأدب هو رمز الأمة وصدى حضارتها وتاريخها.

علاقة علم الاقتصاد بعلم التاريخ الإسلامي:

يتطلب من الباحث في ميدان علم التاريخ أن يأخذ بمفهوم علم الاقتصاد ويتعرف على أساليبه وتطبيقاته؛ لكي يتمكن من إغناء دراسته التاريخية، وهذا بالضبط الأسلوب الذي اتبعه مؤرخو العرب والمسلمين. الحقيقة أن اطلاع المؤرخ على البحوث الاقتصادية يفيد الدراسة عمقاً ويعطيها دفعة إلى التكامل المطلوب، لذا رأى مؤرخو العرب والمسلمين الأوائل أنه من الضروري التعاون بين المؤرخين والاقتصاديين؛ لأن المعرفة الإنسانية بوجه عام متداخلة ومتشابهة، وليس بالاستطاعة القيام بدراسة تاريخية متكاملة بمعزل كامل من علم الاقتصاد.

لقد وضَّح **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر العلاقةَ القوية بين علمي التاريخ والاقتصاد وذلك بقوله: «الاقتصاد من العلوم الأساسية التي يساعد الإلمام بها على دراسة التاريخ، إذ إن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعّال في سير التاريخ، فالثروة الطبيعية في بلد ما تحدد نوع الإنتاج الزراعي والصناعي، ونوع التبادل التجاري ومدى نشاطه. وطريقة توزيع الثروة الطبيعية أو الأموال ومدى تركزها في طبقة أو طبقات معينة، أو مستوى توزيعها بين فئات أكثر عدداً، يؤثر في السياسة الداخلية لدولة ما، ويؤثر في نظام الحكم بها، وفي مستوى الرخاء أو الفقر، وفي حياة الشعب، وفي علاقة طوائفه بعضها ببعض، ويؤثر في مستوى العمران ونهوض الحضارة أو تدهورها، وتؤثر الظروف الاقتصادية في علاقة الدولة بالعالم الخارجي، سواء أكان ذلك في الناحية الاقتصادية البحتة، أم في العلاقات السياسية، وكذلك تؤثر في

مستوى قوتها العسكرية ومركزها في المجتمع الدولي.. نجد أن الانقلاب الصناعي الذي حدث في أوربا في القرن الثامن عشر الميلادي نتيجة للمخترعات الحديثة، قد أحدث ثورة في النظم الاقتصادية، مما أملى على دول أوربا الغربية سياسة التوسع والاستعمار للحصول على المواد الخام، ولإيجاد أسواق لتصريف المنتجات الصناعية».

فسّر مؤرخو العرب والمسلمين التنقل الذي حدث لبعض أفراد الأمة العربية والإسلامية في فترة ازدهار حضارتهم لسببين رئيسيين: الأول: نشر الدعوة الإسلامية، والثاني: التجارة التي كانت تمدهم بالعملات الصعبة لإنعاش اقتصادهم الداخلي. والمعروف عبر التاريخ أن الاهتمام بمنطقة ما يكون لمكانتيها الاقتصادية والاستراتيجية، فمثلاً اهتمام الغرب بمنطقة الخليج العربي عائد لكثرة احتياطي النفط فيها ولموقعها الاستراتيجي العظيم، لذا فهم مستعدون أن يبذلوا كل غال للدفاع عن هذا الجزء الحيوي من العالم. الآن يتضح للقارىء أن علم الاقتصاد ضروري للباحث في علم التاريخ، حيث لا يمكن تفسير ظاهرة اجتماعية أو حقيقية تاريخية بدون العودة إلى الظروف الاقتصادية. والجدير بالذكر أن جميع الحروب التي تمت بين شعوب العالم كان سببها الأول والأخير الهيمنة على المصادر الاقتصادية للدول الضعيفة.

يؤكد أيضاً **محمد عواد حسين** على مكانة علم الاقتصاد وعلاقته القوية في مظاهر الحركة التاريخية، فيقول في مقالة له تقدم ذكرها: «وينبغي للمؤرخ أن يلم بعلم الاقتصاد إلماماً يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ، فنحن نعرف أن السياسة الداخلية لدولة من الدول تعتمد اعتماداً كبيراً على مدى ثرائها الطبيعي ونشاطها التجاري، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية في بلد ما تحدد عادة نوع الحكم فيها ومستوى الرخاء العام بها وعلاقة طوائفها ببعضها، لا في النواحي الاقتصادية فحسب وإنما في النواحي السياسية أيضاً. فكثير من الحروب والغزوات، والحروب

الاستعمارية، كان الدافع إليها دافعاً اقتصادياً بحتاً، ومكانة الدول في عالمنا الحديث تتوقف قبل كل شيء أيضاً على أوضاعها الاقتصادية».

وخلاصة القول: يتبين للقارىء أن لعلم التاريخ صلة قوية جداً بعلم الاقتصاد، وعليه عني العرب والمسلمون بهذا الجانب الحيوي لحاجتهم الماسة للتفسيرات والشروح الاقتصادية التي ساعدتهم على تسيير الأمور المالية للدولة، ولمعرفتهم التامة بأن العوامل الاقتصادية هي التي تحدد مصائر الشعوب. والثابت تاريخياً أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من وضع ديوان الخراج الإسلامي ـ الذي كان يحتوي على واردات بيت المال من المصادر المختلفة مثل الغنائم والزكاة والتبرعات والجزية وغيرها ـ لكي ينظم اقتصاد الدولة الإسلامية حينئذ. ولاشك أن العرب نالوا شهرة عظيمة في تجارتهم الخارجية منذ العصور القديمة جداً، فكانوا يتنقلون بين المشرق والمغرب في الصيف والشتاء لإتمام صفقاتهم التجارية التي كانوا يعتمدون على مردودها المالي في حياتهم اليومية، لذا نستطيع أن نقول وبصراحة: إن العرب والمسلمين لهم السبق على غيرهم في استخدام الحقائق والأفكار الاقتصادية لشرح بعض الظواهر الاجتماعية الصعبة.

لقد بذل علماء العرب والمسلمين مجهودات كبيرة للوصول إلى درجة عالية من الرقي الاقتصادي؛ لأنهم يعرفون تمام المعرفة أن هذا العلم هو الذي يسيطر على الحكومات والشعوب في العالم، وعليه ازدهرت الحضارة العربية والإسلامية، وصار للأمة الإسلامية مكان مرموق بين الأمم. ومما تقدم يظهر للقارىء اللبيب أن الأمة الإسلامية كان لها دراية متينة في مجال علم الاقتصاد، وقد استمرت على ذلك عبر العصور الإسلامية، وليس كما يدعيه الغرب أنهم هم فقط أهل علم الاقتصاد، وأن جميع الأفكار والنظريات الاقتصادية من ابتكاراتهم.

علاقة الآثار المعمارية بعلم التاريخ الإسلامي:

من معالم العمارة الإسلامية العقود والقباب والقبوات والمآذن التي تمتاز به، كما تبرز فيها الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والدينية، لذا تُعتبر العمارة الإسلامية المرآة الحقيقية التي تعكس قدرة وذوق وفلسفة المهندسين المعماريين المسلمين. وهكذا تصور المنشآت المعمارية بوضوح وجلاء أماني وآمال الشعوب. والحقيقة أن الآثار المعمارية وعلم التاريخ متلازمان؛ لأن كلاً منهما يهتم بالماضي الذي يُساعد الحاضر في التخطيط الباسم. إذن نستطيع أن ننوه هنا أن الإلمام بتاريخ الآثار المعمارية مهم جداً للباحث في مجال علم التاريخ.

العمارة الإسلامية تقدم صوراً صحيحة للمستوى الحضاري التي وصلت إليه الأمة الإسلامية، وهذا التصور يمكن الباحث في ميدان علم التاريخ بفيض من المعارف عن حياة الأمة العربية والإسلامية، الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية. وفي بعض الأحيان تكون المنشآت المعمارية هي المصدر الوحيد الذي يستند إليه المؤرخ في كتابة تاريخ أمة لم تخلف شيئاً مكتوباً.

يقول **توفيق محمد عبد الجواد** في كتابه «تاريخ العمارة والفنون الإسلامية» ـ الجزء الثالث ـ: «كلنا نعلم بل العالم كله يعترف بأن مهد الحضارة كان مقره الشرق العربي، وأن الشرق علم شعوب العالم أجمع في الماضي، كيف تكون الحضارة؟ وكيف تكون العمارة؟ وهذه هي حقيقة التاريخ الصحيح الذي لا يكذب، والعمارة هي توأم التاريخ، فهي أيضاً لا تكذب. إن العالم العربي يزخر حقاً بثروات طائلة من العلوم والثقافة والأدب والتراث الإنشائي والطابع المعماري، كما يزخر أيضاً بكنوز وثروات مادية ظاهرة وباطنة، وأن مفاتن الشرق لا تحصى ولا تُعد.. ومن الحقائق الثابتة أن العمارة كانت دائماً هي الصادقة والتعبير الدقيق لحضارة الإنسان وتطوره، وسارت حضارة الإنسان مع العمارة في تطور هادىء ورزين لا يفارق طابعها المميز، وكانت العمارة دائماً

تتميز بصفتين متلازمتين لا يمكن فصلهما، فإلى جانب الوجود المادي المستمد من مواد البناء وطرق الإنشاء. هناك المحتوى الحسي للمبنى وهو ما يتمتع به المبنى من صفات فنية، وهي الغرض والوظيفة بأسلوب خاص وتعبير معين.. والعمارة معرضة للنقد والتحليل، شأنها في ذلك شأن أي عمل فني أو عمل أدبي، ولكن يظهر ذلك النقد بوضوح في العمارة، وهي المرآة التي تنعكس عليها ثقافة الشعب ونهضته وتطوره ورقيه. هي الحياة التي عاشت في عالم الأمس، والتي تعيش اليوم، والتي ستبقى حية في المستقبل».

لقد تأثرت العمارة الإسلامية في طفولتها بالأفكار والنظريات المعمارية الفارسية والسريانية والبيزنطية، حيث أخذت منها ما يتفق تماماً والعقيدة الإسلامية، ولكنها سرعان ما ترعرعت ونمت حتى قوي عودها، ووصلت إلى أن تكون فناً معمارياً إسلامياً بحتاً. والجدير بالذكر أن المنشآت المعمارية التي بقيت شامخة يأتي إليها ويذهب جيل إثر جيل، أصبحت عنصراً هاماً في حياة الناس وفكرهم؛ لأنهم يستلهمون تاريخهم منها. والمتواتر أن المؤرخ الناجح هو الذي يستطيع أن يستنبط الأفكار التاريخية من خلال المنشآت المعمارية؛ لأن الآثار المعمارية تُعتبر بحق مرآة ناصعة للحضارة الإسلامية.

ويؤكد **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه «التاريخ والمؤرخون العرب» أن الآثار المعمارية من أهم المصادر التي يستند إليها المؤرخ فيقول: «تُعتبر الآثار الباقية كالمنشآت المعمارية من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في كتابته التاريخية، ذلك لأن الوثائق المكتوبة لا تكفي وحدها لهذا الغرض، إما لندرتها، أو لتناقض ما جاء فيها، أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير.. فالنفوذ الأندلسي على المغرب الأقصى في عصر دولة بني أمية في الأندلس يتجلى بصورة واضحة في مسجد القرويين والأندلس بمدينة فاس، وسيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس يُعبر عنها الأسلوب الفني المشترك السائد في كل من المغرب والأندلس في هذين العصرين، وغلبة الطابع

الغرناطي على آثار المغرب كله منذ أوائل القرن الرابع عشر، يُعبر عن أثر العلاقة السياسية بين بني مرين وبني الأحمر في الفنون المعمارية والصناعية، كما يُعبر أيضاً عن حقيقة تاريخية ثابتة، هي هجرة الفن الأندلسي الغرناطي إلى المغرب بعد انتهاء دولة الإسلام في الأندلس».

وخلاصة القول: إن العرب والمسلمين أوْلوا الآثار المعمارية اهتماماً خاصاً لارتباطها الوثيق بحياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، لذا استطاعوا وبكل جدارة أن يعملوا من الفن المعماري طرازاً إسلامياً خاصاً بهم؛ لأنهم يعرفون تمام المعرفة أن العوامل والبواعث في المنشآت المعمارية هي أساس الحركة التاريخية.

لقد أثبت المهندس المعماري المسلم براعته الفريدة في بناء القباب والمساجد والمآذن العالية والأعمدة والقصور الضخمة والقلاع الهائلة، إضافة إلى تفننه في تحديد طبوغرافية الموقع والعناصر البيئية به مثل البحار والأنهار والجبال والغابات والصحاري وغيرها. كما حاول بنجاح المهندس المعماري المسلم أيضاً أن يجعل العمارة الإسلامية خاضعة لثوابت الدين الإسلامي، لذا أصبحت العمارة الإسلامية من أعظم المظاهر الحضارية لخدمة العقيدة الإسلامية السمحة.

علاقة علم قراءة الخطوط القديمة بعلم التاريخ الإسلامي:

يعتبر علم قراءة الخطوط القديمة ـــ كالخط المسماري الذي استعمل في تدوين حضارة وادي الرافدين، والخط الهروغليفي الذي كتب به حضارة وادي النيل وخطوط أخرى مثل اليوناني والروماني والعربي ـ من العلوم الهامة جداً للبحث في ميدان علم التاريخ؛ لأنه يعين المؤرخ اللبيب للوصول إلى المعارف التاريخية الضرورية لإكمال دراسته العلمية في مجال علم التاريخ القديم. ومما لاشك فيه أن الإلمام بعلم قراءة الخطوط القديمة هو الوسيلة الفريدة والناجحة لتجنب ضياع الوقت والوقوع في أخطاء تاريخية خطيرة، ولذا تهتم الكثير من

الجامعات العريقة في العالم بهذا الجانب اهتماماً بالغاً، وتجعله من المتطلبات العامة لنيل الدرجات العالية في علم التاريخ القديم، وعليه برز المستشرقون في قراءة الخطوط القديمة ومن ثم بدؤوا تحقيق التراث العلمي العربي الإسلامي، فأدخلوا عليها التحريفات الكاذبة، وأصبح أصحاب التراث من مؤرخي العرب والمسلمين يتلقون تاريخهم على أيدي شرذمة من المستشرقين الحاقدين على العرب والمسلمين، فماذا نتوقع؟

يقول كل من **طه باقر** وزميله **عبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «كما أن خط العصر الواحد يختلف في أطرزته من كاتب لآخر، الأمر الذي يقتضي من الباحث التاريخي أن يكون على معرفة بأشكال خطوط الوثائق التاريخية وتطورها، ويتفرع من علم البيلوغرافيا العام فرع خاص يسمى بمصطلح ابيغرافيا، ويتعلق بحل رموز الخطوط القديمة ويدخل ضمنه معرفة وفحص المواد المختلفة التي استعملت في التدوين في العصور الماضية، كالألواح الطين والأحجار وأوراق البردي (البابيروس والرقوق وأنواع الورق المختلفة من بعد اختراعه في الصين منذ القرن الثاني الميلادي). ومع أنه بإمكان الباحث التاريخي الذي يبحث في حقبة تاريخية معينة أن يستعين بالترجمات الموثوق بها التي وصفها المختصون، بيد أنه مع ذلك يستحسن أن يكون على شيء من الإلمام بالنصوص القديمة التي يجمع منها مادة بحثه ليكون على دراية بمعاني ترجماتها والمصطلحات الخاصة المستعملة في ذلك».

لقد اشتهر الخط العربي بزخرفته الرائعة، حيث إن أشكال حروف اللغة العربية تمتاز بسيقانها وأقواسها ونقاطها ومداتها، وهذه الصفات النادرة التي اختصت بها اللغة العربية تعطي الخط العربي حسناً وجمالاً، لذا صار الخط العربي يرى على المباني والتحف وغير ذلك، وهذه الظاهرة التي تميز بها الخط العربي دفعت المؤرخ العربي المسلم أن يدرس عن كثب جميع أشكال الخط العربي، مثل الكوفي والنسخ والثلث والرقعة والديواني والفارسي والمغربي

والغبار والطومار والقيرمة وغيرها؛ لكي يتحقق من أصالة وصحة المعلومات التاريخية التي تحتوي عليها الوثائق المكتوبة بهذه الخطوط، لذا يجب على المؤرخ ليكون ناجحاً أن يتعلم ويتدرب على بعض أشكال الخط العربي والخطوط الأخرى وإلا ستبقى معارفه التاريخية قاصرة وناقصة.

ويؤكد **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر أن علم قراءة الخطوط من العلوم الرئيسة للباحث في علم التاريخ، فيقول: «علم قراءة الخطوط من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ، منذ أقدم العصور حتى أزمان متأخرة، وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الشرقية تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها. ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتجنبه الوقوع في كثير من الخطأ. ويتضح أهمية هذه الدراسة في فروع عديدة مثل تاريخ مصر القديم، وتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام، وتاريخ اليونان وتاريخ الرومان، وتاريخ العصور الوسطى، والتاريخ الأوربي الحديث جزء من القرن السابع عشر، وتاريخ الشرق الأدنى حتى القرن التاسع عشر، وذلك بالنسبة للغات التي تتعلق بهذه الموضوعات. أما بعد ذلك فتصبح الخطوط واضحة مقروءة. ولقد نمت الخطوط العربية ـ مثلاً ـ وتطورت وكتبت بأشكال مختلفة. فمنها الطومار، ومنها النسخي والرقعة والثلث والكوفي والفارسي والمغربي والغبار.. وفي الشرق الأدنى العثماني ـ حيث كانت اللغة التركية تكتب بالحروف العربية ـ كتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط، مثل الخط الديواني، وخط القيرمة. وتستلزم قراءة هذين الخطين تعليماً خاصاً، وخط القيرمة مثلاً خط معقد كثير الزوايا والثنايا، ويمكن أن تكتب به معلومات كثيرة في حيز ضيق، فضلاً عن الأرقام الخاصة به. ولقد أوجده العثمانيون لتحرير الشؤون الإدارية والمالية؛ ولكي يحيطوا محفوظاتهم بالكتمان والسرية».

وخلاصة القول: ستبقى الحقائق التاريخية الهامة كالرموز والطلاسم في بطون الوثائق؛ لأنها تحتاج إلى المتخصصين في علم قراءة الخطوط القديمة

لفكها وتحقيقها وتحليلها تحليلاً علمياً. وإذا لم يتجه بعض أبناء الأمة العربية والإسلامية إلى دراسة علم قراءة الخطوط القديمة دراسة أكاديمية متأنية، فسنظل نتلقى تاريخ الأمة العربية والإسلامية عن طريق المستشرقين الذين يشتغلون ليلاً ونهاراً في هذا الميدان؛ لكي يقدموه بطريقتهم الخبيثة المشوهة؛ لأن مؤرخي العرب والمسلمين المعاصرين أعطوهم هذه الفرصة الذهبية، لذا آن الأوان أن يعي شباب الأمة العربية والإسلامية خطورة الموقف ويبدؤوا بدراسة علم قراءة الخطوط القديمة، ليتمكنوا من تحقيق التراث العربي والإسلامي تحقيقاً علمياً أميناً (ماحك جلدك مثل ظفرك).

المعروف أن الخط في أي لغة يحصل عليه بعض التغيرات عبر العصور، لذا يلزم الباحث في مجال علم التاريخ القديم والوسيط أن يكون على دراية تامة بذلك حتى يستطيع أن يستفيد من الوثائق التاريخية القديمة. والجدير بالذكر أن المتخصص في علم قراءة الخطوط القديمة يمكنه بجدارة أن يحدد مؤلف وتاريخ وثيقة بمجرد النظر إلى خطها الذي دُوِّنت به.

علاقة علم النميات بعلم التاريخ الإسلامي:

من مصادر علم التاريخ الهامة جداً العملات القديمة المعروفة باسم علم النميات أو علم النقود والمسكوكات، حيث تمثل هذه النقود المسكوكة الفترة الزمنية التي صنعت فيها، لذا يستطيع المؤرخ الفطن أن يستخلص معارف تاريخية نادرة من هذه النقود القديمة مثل الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وأسماء الحكام. والجدير بالذكر هنا أن التعامل بالنقود والمسكوكات بدىء بعد القرن السابع قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام، لذا يتبين للقارىء أنها قديمة جداً، أما بالنسبة للأمة الإسلامية فأول من أمر بضرب المسكوكات محلياً الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أما الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٧ هجرية) فهو أول

من ضرب المسكوكات العربية الخالصة، وأطلق عليها اسم كل من الدينار والدرهم والفلس. وعليه في سنة (٧٧ هجرية) استقلت العملة العربية والإسلامية تماماً عن العملتين البيزنطية والساسانية. والمتفق عليه لدى المؤرخين الكبار أن النقود والمسكوكات (النميات) من الوثائق التاريخية القديمة التي يصعب جداً الطعن في صدقها وقيمتها التاريخية.

ويقول كل من **طه باقر** وزميله **عبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «وكثيراً ما اكتشف الباحثون من دراستهم المسكوكات أسماء ملوك وحكام ومدن مجهولة لم يرد ذكرها في التاريخ ولم يعرف عنها أشياء مهمة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر في اتساع الصلات التجارية القديمة العثور على مسكوكات عربية في شمال أوربا، الأمر الذي يشير إلى اتساع التجارة العربية أو اتساع التعامل العالمي في النقود العربية.. وتُعتبر المسكوكات أيضاً وثائق عظيمة في تثبيت أو نقض الكثير من الأخبار التي وصلت إلينا عن طريق المدونات التاريخية المختلفة وحتى الوثائق الرسمية منها، فنحن نعلم أن الكثير من الحوادث التاريخية قد تجيء مخالفة لما هو واقع وأن الكثير منها قد جاءت عن طريق السماع أو متأخرة نسبياً، ومن تلك الحوادث مثلاً تحديد زمن حكم بعض الملوك والخلفاء أو تثبيت تاريخ ثورات أو انقضائها وغيرها من الحوادث التاريخية. فالنقود إذاً وثائق هامة يمكن الاعتماد عليها إلى درجة عظيمة في استنباط الحقائق.. ومما تجدر ملاحظته أن الألقاب الفخرية التي تظهر على المسكوكات الإسلامية لها أهمية كبيرة إذا ما أوليت دراسة أصولها وتطورها وما يحيط بها من ظواهر اجتماعية وسياسية ودينية وما تقدمها أو لحق بها من ظروف تاريخية عامة».

لاشك أن النقود والمسكوكات (علم النميات) تفيد الباحث في ميدان علم التاريخ كثيراً؛ لأنها تحمل في أغلب الأحيان صورة وأسماء الملوك والأمراء للدولة التي كانت تحكم حينئذ بهؤلاء، من ذلك يستطيع المؤرخ أن يستخلص

مادة دسمة يمكنه استخدامها في بحوثه التاريخية، مثل تحديد تاريخ وجود الدولة التي تمتلك هذه العملة، كذلك مكانتها الاقتصادية والاجتماعية والتجارية. والمعروف أن أعداداً هائلة من المجموعات السياسية لم تعرف إلا عن طريق نقودها التي كانت متداولة في ذلك الوقت. كما أن النقود والمسكوكات تفسر بوضوح تام مقام الدولة المجاورة لها. إذن نستطيع القول: إن النقود والمسكوكات تعطي فكرة واضحة لا غبش حولها عن مركز الدولة صاحبة العملة بين دول العالم.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وعلم النميات أو النومات؛ أي علم النقود والمسكوكات من العلوم الهامة في دراسة نواح من التاريخ، فالعملة والأنواط بما تحمله من صور الملوك والأمراء وأسمائهم وذكر الحوادث التاريخية وسنوات ضربها تقدم للباحثين مادة تاريخية قيمة بالنسبة للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب على السواء، فالعملة اليونانية مثلاً تكشف عن كثير من الحقائق في تاريخ الجماعات السياسية التي كانت ذات كيان خاص، مكنها من أن تسبك هذه العملة ولم يعرف وجود بعض هذه الجماعات إلا عن طريق عملتها التي حفظها التاريخ من الضياع، وتساعد العملة والمسكوكات بعامة في دراسة تاريخ الأساطير والعبادات والفنون والعلاقات السياسية ونشاط التجارة أو فتورها.. ونجد مثلاً آثار العملة الصينية في شرق أفريقيا، وآثار العملة العربية في شمال غربي أوربا، وآثار العملات الإيطالية في المشرق؛ دليل على مدى نشاط التجارة بين هذه الأنحاء المتباعدة من العالم في أثناء العصور الوسطى».

وخلاصة القول: إن النقود والمسكوكات تهدي إلى تاريخ بعض الحوادث التاريخية الهامة، وإلى دور ضربها وإلى أسماء حكامها، وإلى مدى اتساع رقعة حكم الدولة صاحبة العملة. ويذكر شيخ علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته: «أن ضرب النقود في العالم الإسلامي من اختصاص رئيس الجماعة

السياسية خليفة أو سلطان أو أمير أو والي أو حاكم» لذا أصبح علم النميات من المناهل الضرورية للمؤرخ في مجال التاريخ السياسي.

يرتبط علم النقود والمسكوكات ارتباطاً قوياً بالحالة الاقتصادية للدولة التي يرغب الكتابة عنها، حيث إن العوامل المالية لها تأثير عظيم في توجيه دقة علم التاريخ. كما يساعد علم النقود والمسكوكات على تفسير بعض الأساطير والديانات القديمة، لهذا اهتمت أقسام علم التاريخ ببعض الجامعات الشهيرة بعلم النميات؛ لأن هذا العلم يمكن المؤرخ بالضبط من معرفة تاريخ ومكان بعض الحوادث التاريخية الهامة، كما يقود أيضاً إلى بعض المعلومات التاريخية التي أغفلها المؤرخون الكبار.

علاقة علم السياسة بعلم التاريخ الإسلامي:

نظم القرآن الكريم والسُنة النبوية بوضوح كامل قوانين وأنظمة كل من علم التاريخ وعلم السياسة في محيط الأمة الإسلامية. وللثقافة العامة درس مؤرخو العرب والمسلمين الأنظمة السياسية لجيرانهم الفرس والسريان والبيزنطيين. لذا كان لكل من علم التاريخ وعلم السياسة أثر عظيم على مجريات الأحداث المختلفة التي كانت تؤثر تأثيراً عظيماً في الحركة التاريخية.

والمعروف أن مادة علم السياسة هي المادة المفضلة للباحث في مجال علم التاريخ من بين العلوم المساعدة لهذا العلم الحيوي، ولا يمكن فهم علم التاريخ جيداً دون الوقوف على ماتم من الأحداث في علم السياسة. ومن جهة أخرى فإن علم التاريخ يعتبر بحق مخزن تجارب الأمم، لذا فهو الموجه بل المدرسة النظامية لعلم السياسة. إذن نستطيع القول: إن علم التاريخ يعتني بالماضي بينما علم السياسة يختص بما قدمه التاريخ لدراسة الحاضر والتخطيط للمستقبل.

يقول **قاسم يزبك** في كتابه آنف الذكر: «أما السياسة، فهي كالأخلاق والفلسفة والاقتصاد والفن، أجدّ المرامي الإنسانية الكبرى. ولها معضلاتها

المميزة، إذ لكل مرمى من المرامي الإنسانية معضلاتـه الخاصـة بـه. ومما يقـرر هذه المعضلات أمران:

(١) طبيعة الظواهر الأولية التي تدخل معالجتها في نطاق هذا المرمى.

(٢) والمغترب الذي ينظر من زاويته إلى هذه الظواهـر، بغيـة التعـرف إلى ميزاتها. وتقييم هذه الميزات وربطها إذا أمكن بما هو ذو علاقة بها.

ومن هنا يتضح أن أهمية التـاريخ بالنسبة لعلـم السياسـة أصبحـت أمـراً تقليدياً، فلا أساس لعلم السياسة بدون علم التاريخ، ويضـاف إلى هـذا الأمـر أن لاثمرة للتاريخ بدون علم السياسة... وهكذا يتبين أن التاريخ ذاكرة الجنس الإنسـاني بكاملـه، وذو صلـة كبـيرة بالسياسـة بـل هـو مسـتودع السـوابق السياسية. وإضافة إلى ذلك فإن فائدته كبيرة في توسيع المدارك وتصوير الناس والإنصاف في الحكم».

كان الانطباع السـائد لـدى القليـل جـداً مـن علمـاء العـرب والمسـلمين الأوائل أن علم السياسة يحتوي على بعض النصائح الخاصـة بالسـلاطين والملـوك والأمراء والولاة والحكام، لذا من الصعب على المؤرخ المتخصـص الاعتمـاد علـى علم كهذا ليكون مصدراً من المصادر الرئيسة للبحث في مجال علم التاريخ. وعليه كان مؤرخو العرب والمسلمين يحثون زملاءهم المؤرخين المبتدئين أن يبذلوا جهـداً كبيراً في دراسـة مؤلفـات علـم السياسـة، وفحصهـا بدقـة متناهيـة ونقدهـا لكـي يتمكنـوا مـن اسـتخلاص المعـارف الصحيحـة الدقيقـة الـتي يحتاجونهـا؛ لأنهـم يعتقدون أن علم التاريخ هو مدونـة الأمـة وصـدى حضارتهـا، وهدفـه الأول والأخير جلاء الماضي والكشف عن الحقيقة الناصعة.

الثابت أن علم التاريخ يشرق ويزهو عندما تزدهر الحضارة وتظهر العدالة واضحة وجلية في ميدان علم السياسة. ومع هذا كله كان هناك ارتباط وثيق بـين علمي التاريخ والسياسة. ومن الإنصاف أن يعرف القارىء أن كثيراً مـن علمـاء

السياسة الأوائل كانوا على مستوى علمي عال، ويتضح ذلك من مؤلفاتهم التي تمتاز بعمق البحث الذي بذل لإخراجها. ولاشك أن المتخصصين في كل من علم التاريخ وعلم السياسة استفادوا فائدة عظيمة وجليلة من هذه المصنفات الرائعة؛ لأنهم استطاعوا استنباط الحقائق التاريخية النادرة.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «كتبت منذ القرن الثالث الهجري وبدون انقطاع سلسلة من الكتب الفكرية السياسية، ذات جذور ومستند من التاريخ الإسلامي والأحداث التي مرت به وبغيره. ولكنها تهدف إلى هداية الملوك والأمراء سواء السبيل في الحكم على الأساس الإسلامي القويم، وقد سميت هذه الكتب أحياناً بآداب السلطان وأحياناً بسياسة الملوك، ويزعم صاحب كل مؤلف فيها وضع نظرية سياسية تطبيقية، متكاملة أو شبه متكاملة على أساس من العقيدة الإسلامية لسياسة الحكم، على أن هذه الكتب ظلت جميعاً في إطار النصيحة والموعظة لم تجاوزها إلى إيجاد النظرية السياسية الكاملة.. الرابطة الوحيدة التي كانت تربط هذه الكتب بالتاريخ وتجعل منها نوعاً من فلسفة التاريخ السياسي أو تنظير الحكم هي الأمثلة العديدة التي كانت تلتقط من التاريخ حسب المناسبات للتدليل على صحة الرأي المقترح. وكانت تشتمل أحياناً على مختصرات للتاريخ الإسلامي».

وخلاصة القول: يتبين الآن للقارىء أن علم التاريخ يعتمد اعتماداً كبيراً على الحقائق التاريخية التي مصدرها الأول والأخير الإنسان صاحب الحس المرهف والعاطفة الإنسانية. وعليه يجب على المؤرخ الناجح أن يتوخى الدقة في نقل وتحليل المعلومات التي يتناولها سواء كان المصدر علم السياسة أو غيره، وأن يضع نصب عينيه هدفاً واضحاً، وهو أن هناك ارتباطاً شديداً بين العقيدة الإسلامية وعلم التاريخ، لذا يلزم أن تبرز في كل حدث أو تفسير أو تأويل معالم العقيدة الإسلامية السمحة.

لقد كانت العلاقة بين علمي التاريخ والسياسة قوية جداً إلى درجة أنهما أوشكا أن يندمجا، وهذا قاد المؤرخين إلى ابتكار علم جديد يسمى (التاريخ السياسي) غايته الاطلاع على المعارف المتنوعة عن طريق تسلسل الأحداث لا عن طريق صنع القوانين المجردة. كما يلزم القارىء أن يعرف أيضاً أن كلاً من علم التاريخ وعلم السياسة علمان خبريان، ولا يمكن أبداً أن يقدما الحقيقة الثابتة المبنية على اليقين مثل العلوم الرياضية.

علاقة علم الاجتماع بعلم التاريخ الإسلامي:

في كثير من الأحيان يوجه مستوى الحياة الاجتماعية الأحداث التاريخية، لذا يظهر واضحاً ما توصل إليه شيخ علم الاجتماع عبدالرحمن بن خلدون ـ الذي يعتبر علم التاريخ من العلوم الهامة جداً ـ من أن أسباب تدهور الدول؛ الترف والمجاهرة بالفسق والفجور، والظلم. والمعروف أن بعض الظواهر الاجتماعية تكشف الكثير من الحقائق التاريخية الثمينة، والجدير بالذكر أن عبد الرحمن بن خلدون ذكر في مقدمته: أن المجتمع كائن حي يبدأ طفلاً (البداوة) ثم ينمو ويكتمل (العمران) وأن العرب أهل كبر وعصبيات، ولكن الدين الإسلامي صقلهم وجعلهم خير أمة، ولذا فإن من الصعب جداً حكمهم والسيطرة عليهم إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية السمحة، من هنا يتضح أن الحياة الاجتماعية لها دور بارز في تسيير الحركة التاريخية، وأن علم الاجتماع من العلوم الموصلة لدراسة علم التاريخ.. وعليه نرى أنه يلزم المؤرخ الذي يستهدف الفهم الكامل لعلم التاريخ عن كثب أن يدرس علم الاجتماع وأن يتغلغل في أعماق المجتمع وأن يشعر مشاعرهم وأن لايكون في عزلة عنهم.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «من الضروري للباحث في علم التاريخ ألا يكتفي بتحصيل ثقافته العامة أو الخاصة من الكتب والمراجع فحسب، دون دراسته وخبرته بالحياة العملية ذاتها، سواء أكان ذلك في دائرة

أهله وعشيرته أم كان في نطاق قومه وبلده أم في محيط دوائر أوسع وأعم في المجتمع الإنساني، وأن الخبرة التي يكتسبها الباحث بالملاحظة والممارسة العملية بحسب ظروفه، من شأنها أن تجعله أقدر على فهم أعمال الإنسان في الزمن الماضي، وتقدير الظروف التي أحاطت به والتي أدت إلى اتخاذ مسالك معينة في مواجهة تيارات أو مؤثرات محدودة، ولا يجوز لدارس التاريخ أن يكون في عزلة عن البشر، حتى يصبح أقرب إلى فهمهم والكتابة عنهم مهما بعد بينه وبينهم الزمان، إذ إن الرابطة البشرية قائمة على الرغم من اختلاف الزمان والمكان».

أدرك علماء العرب والمسلمين في مجال علم التاريخ العلاقة القوية بين علمي الاجتماع والتاريخ، حيث إن علم الاجتماع يمدهم بتصور رائع للمراحل التاريخية، ويقدم لهم أيضاً أفكاراً علمية راقية، تتعلق في دراسة نماذج المجتمع وذلك بعرض التفاعل الحقيقي بين الشخصية والقوى الاجتماعية، لذا اتجهت الدراسات التاريخية في العصور الإسلامية إلى الاهتمام بجميع العوامل الاجتماعية التي تؤثر على حياة الإنسان على كوكب الأرض، وعليه نرى أنه ليس في وسع المؤرخ أن يعمل بعيداً عن علم الاجتماع؛ لأن الأخير فعلاً يساعد على البناء التاريخي لموضوع أي بحث.

وتظهر ملامح ارتباط علم التاريخ بعلم الاجتماع في قول عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته: «فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو لها الأقوال وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول النطاق فيها

والمحال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق، وأن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها».

وخلاصة القول: لقد تبين أن علم الاجتماع يهتم بدراسة الإنسان من خلال علاقته بالمجتمع، كما أن علم التاريخ يعتني أيضاً بهذا الجانب الحيوي، لذا يمكن القول: إن كلاً من علم التاريخ وعلم الاجتماع متلازمان، ولهذا السبب اندفع العلامة عبد الرحمن بن خلدون وأسس علم الاجتماع الذي يختص بدراسة المجتمع البشري من حيث نشوءه وتطوره وانحلاله. والجدير بالذكر أن مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل كانوا ملمين بمبادئ علم الاجتماع غير أنهم اعتبروه مقدمة لعلم الأنساب.

أما عبد الرحمن بن خلدون فقد قام بدور رائع حيال علم الاجتماع، حيث فصله تماماً عن علم الأنساب، وجعله علماً مستقلاً وأرسى قواعده وقوانينه، فهو بحق مؤسس علم الاجتماع دون منازع، ولقد اهتم المؤرخون المعاصرون لابن خلدون والتابعون له بهذا الفن؛ لأنه يهتم بالجوانب الاجتماعية التي تعين الباحث في مجال علم التاريخ على تفسير وتحليل بعض الحركات التاريخية.

اللغات وعلاقتها بعلم التاريخ:

تمتعت اللغة العربية (لغة الاشتقاق) بمكانة مرموقة بين لغات العالم، ففي الدولة الأموية كانت لغة السجلات المالية والخراج والدواوين والأعمال الإدارية والسياسية والاجتماعية، أما في الدولة العباسية فقد وصلت إلى درجة عالية جداً ليس فقط عند العرب ولكن بين الأعجام أيضاً؛ لأنها كانت لغة

القرآن والسُّنة النبوية والعلم والتجارة والحياة الاجتماعية. وكذلك لتفوقها بمفرداتها وأفكارها ومصطلحاتها وتعبيراتها الرائعة عن أي لغة في المعمورة آنذاك، لذا عكف المستشرقون على تعلمها وإتقانها؛ لكي يتمتعوا بجمالها وعذوبتها وليصلوا إلى فهم المعارف الأولية التي دوّنت بها عن الدولة الإسلامية العظيمة. نمت الحضارة الإنسانية على يدي كبار مفكريها، ولأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم لكي يسيطروا على الأفكار العلمية الرئيسة لأي موضوع تحت الدراسة لابد لهم أن يعرفوا عن كثب اللغة المكتوب بها.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «أن فهم نصوص الوثائق التاريخية التي تكون مادة البحث التاريخي، يتوقف على معرفة الباحث التامة باللغة المدونة بها، واللغات كما هو معروف تتطور وتتغير معاني مفرداتها من عصر إلى آخر ومن كاتب إلى آخر. كما أن استعمالات المفردات اللغوية لمصطلحات فنية تتغير من عصر إلى آخر. وتعين الاستعمالات اللغوية إذا أخذ بعين الاعتبار أزمان تطورها على تعيين زمن الوثائق التي هي غفل من التاريخ لانخرامها، وتساعد على تعيين اسم مؤلفها في حالات كثيرة.. ولكن ما يؤسف عليه أن المعجمات العربية لا تذكر تاريخ استعمال المفردات اللغوية أو الفن أو العلم الذي استعملت فيه كمصطلحات، وأن هذا النقص خطير يتوجب على الباحثين في التاريخ كثيراً بالنسبة إلى تعيين أزمان المخطوطات العربية بدلالة المفردات والمصطلحات اللغوية الواردة فيها».

لا ريب أن تعلم اللغة الأجنبية التي كتب بها أي بحث معد للدراسة تعتبر ضرورية للباحث؛ لأنها السبيل الفريد للوصول بسهولة متناهية إلى معرفة صفات أهل البحث المقصودة من حيث كل من ثقافتهم ومعارفهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. كما أن إجادة هذه اللغة الأجنبية توسع مدارك الباحث وتمنحه القدرة الفياضة على البحث والتنقيب والاستقصاء ليس

فقط للبحث المُعد للدراسة ولكن لجميع البحوث التي استعملت فيه هذه اللغة الأجنبية. لذا لايجوز أبداً أن تمر الفرصة على المؤرخ النابه دون أن يجني الثمرات العلمية التي تقدمها اللغة الأجنبية التي دون بها البحث الذي أعد للدراسة.

وبواسطة اللغة الأجنبية الخاصة بموضوع أي بحث مقدم للدراسة سيتعلم المؤرخ آفاقاً واسعة حول هذا البحث. والجدير بالذكر أن الرجوع إلى الترجمة لبعض المراجع لا تشبع الفضول لدى الباحث ولا تفي تماماً بالمطلوب لمن أراد أن يتعمق في دراسته للحصول على الفائدة القصوى، والمتعارف عليه لدى المؤرخين الكبار أن استخراج المعلومات التاريخية من الوثيقة بلغتها الأصلية تُعتبر مستنداً أولياً، وهذا بحد ذاته يُعتبر من المعايير الهامة لأصول البحث العلمي.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «واللغات من أهم العلوم المساعدة التي ينبغي أن يتزود بها الباحث في علم التاريخ. فلابد أولاً من معرفة اللغة الأصيلة الخاصة بالموضوع التاريخي المراد بحثه والكتابة عنه؛ لأن الترجمات التي تكفي لتحصيل الثقافة العامة لا تفي حاجة المؤرخ للتوفر على تفهم الناحية التي يريد أن يتناولها، والراغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ اليونان القديم لابد له من معرفة اللغة اليونانية القديمة، والراغب في الكتابة عن موضوع من تاريخ العصور الوسطى في أوربا يلزمه أن يكون عارفاً بلاتينيتها، ومن يرغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ عصر النهضة فلابد له من معرفة اللغة الإيطالية وهكذا.. إذ لابد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصر التاريخي المعين. وليست اللغة علامات جبرية أو أرقاماً حسابية تستخدم كما في العلوم الطبيعية للدلالة على معان نسبية أو متغيرة أو متضادة، وقد تدل كلمة واحدة على معان متفاوتة أو مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه وتبدو هذه الظاهرة شديدة الأهمية في دراسة التاريخ، كما في غيره من الدراسات وعلى الأخص في الدراسات الأدبية. وبذلك

فلابد من معرفة اللغة التي يقرأ فيها دارس التاريخ، فضلاً عن الدراية بما نال ألفاظها من المعاني المتفاوتة أوالمختلفة، حتى لا يفسر ما يقرأ على غير حقيقة».

وخلاصة القول: يجب على الباحث في علم التاريخ أن يركز على معاجم اللغة التي كتب فيها البحث المقرر دراسته؛ لأن بعض هذه المعاجم يعطي تاريخ استعمال كل من المصطلح العلمي والمفردات ولبعض التعبيرات العلمية التي تهم المؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية الناصعة. والمتواتر أن المؤرخ الناجح هو الباحث الذي لديه القدرة العلمية التي تمكنه من تحديد تاريخ الوثيقة بدلالة المفردات والمصطلحات اللغوية التي وردت فيها. والجدير بالذكر أن معاجم اللغة العربية لا تولي ذكر تاريخ استعمال المفردات أو المصطلحات أو التعبيرات أي اهتمام، ولكن المعاجم الأجنبية مثل معجم أكسفورد الإنجليزي الموسع يهتم بهذا الجانب اهتماماً بالغاً؛ لأنه بهذا يساعد الباحث ويوفر له الوقت الثمين، لذا يجب على شباب الأمة العربية والإسلامية أن ينتبهوا لهذه النقطة الخطيرة محاولين تعديلها خدمة للباحثين في مجال علم التاريخ.

علاقة علم الآثار بعلم التاريخ:

بدأ مؤرخو العرب والمسلمين البحث عن الحقائق التاريخية بكل تفان وجدية عن طريق المكتبات والمتاحف، ثم أخيراً اهتدوا إلى استخدام الحفريات لاستخراج المخلفات الماضية وبقاياها الأثرية مثل الأبنية والفنون والزخارف والآلات المختلفة والمدونات الخطية من باطن الأرض، ونجحوا بذلك نجاحاً باهراً، ثم أطلقوا على هذه الآثار العظيمة اسم علم الآثار الذي أصبح في مقدمة العلوم اللازمة لدراسة علم التاريخ، وعليه صار هذا العلم من أهم وأصدق العلوم التي يرجع إليها الباحثون في ميدان علم التاريخ؛ لأنه عن طريقه يستطيع المنقبون الآثاريون أن يحددوا أزمان الطبقات الأثرية.

يقول كل من **طه باقر** وزميله **عبدالعزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن علم الآثارArchaeology أوثق وسيلة لجمع مصادر التاريخ الأصلية، التي لايمكن أن يتطرق الشك إلى أصالتها والاعتماد عليها، ومع قصر عمر هذا العلم لا يقل في أهمية منجزاته واكتشافاته العلمية عن العلوم الأخرى، فقد استطاعت معاول المنقبين أن تكشف عن حضارات وأقوام قديمة لم تكن تعرف عنها شيئاً حتى أسماءها، فاتسعت بذلك آفاق المعرفة البشرية عن ماضي الإنسان وتطوره في سلم الحضارة منذ فجر حياته في الأطوار الهمجية في عصور ما قبل التاريخ التي شغلت زهاء ٩٩٪ من حياته على هذه الأرض، وكيف تدرجت المجتمعات البشرية في تطورها الحضاري إلى أن تحققت تلك الظاهرة العجيبة في ظهور أولى الحضارات الناضجة في أرجاء الوطن العربي، وفي مقدمتها حضارتا وادي الرافدين ووادي النيل قبل أكثر من خمسة آلاف عام.. فإن الطرق والأساليب العلمية المضبوطة التي اهتدى إلى استنباطها الباحثون في حقل الدراسات الأثرية، مثل تعيين أزمان الطبقات الأثرية وضبط الأدوار التاريخية وتسلسلها وأساليب دراسة وتصنيف المواد الأثرية التي تكشف في أثناء التنقيبات كل ذلك وغيره من منهج البحث الأثري يمكن الباحث التاريخي من الاستعانة بها في جمع مادته ومصادره والإفادة منها في دراساته التاريخية».

لاشك أن علم الآثار في الآونة الأخيرة يُعتبر من المصادر الضرورية للباحث في مجال علم التاريخ، حيث إنه مرجع محايد ومعاصر للأحداث الماضية التي يحاول المؤرخون الوصول إليها بوسائل متنوعة، والحقيقة أن علم الآثار يمتاز بأصالته التاريخية؛ لأنه لم يتغير من مصنف إلى مصنف آخر أو من راو إلى راو. كما أن علم الآثار يكشف بوضوح وجلاء عن الواقع والحقائق التاريخية لأصحاب الآثار، التي وجدها المنقبون بحفرياتهم في باطن الأرض

محبوسة منذ آلاف السنين (قبل أكثر من مئتي ألف عام). كما يقدم علم الآثار تفسيراً رائعاً ودقيقاً عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الدينية والتربوية. والجدير بالذكر أن المؤرخين في المعمورة يصرون وبشدة على أنه يجب اعتبار علم الآثار شاهداً مادياً ثابتاً للمستوى الحضاري الذي وصلت إليه الحضارة الإنسانية، ولذا فإن معظم علماء دول العالم يعملون على قدم وساق في مجال علم الآثار، وقد نجح الكثير منهم نجاحاً هائلاً، حيث حققوا بواسطة حفرياتهم المتقدمة بعض أنواع التقنيات والأدوات التي تدل بوضوح على حصيلة حضارية راقية.

ويذكر **زكي محمد حسن** في بحث له تحت عنوان: «دراسات في منهج البحث في التاريخ الإسلامي» ـ نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة (١٣٧٠هجرية) ـ، جاء فيه: «إن دراسة الآثار أصبحت ضرورية جداً لبعض الدراسات التاريخية، مثل كل من التاريخ السياسي والحضاري والتربوي، وعالم الآثار يهتم بترتيب مخلفات وبقايا الحضارات القديمة، وبتفسيرها تفسيراً علمياً، واستنباط الحقائق التاريخية الناصعة منها، والباحث في علم الآثار لا يقف في دراسة هذه المخالفات عند ما له قيمة فنية منها فقط، بل إنه يفحصها جيداً ويعمل على معرفة تاريخها، وتحديد مستوى الحضارة التي أنتجتها، والأغراض التي كانت تستعمل فيها، وهو يصل إلى هذا كله بأساليب علمية متقدمة جداً، قوامها المشاهدة والمعاينة والمقارنة والاستنباط».

وخلاصة القول: لقد اتجه علماء التاريخ إلى دراسة علم الآثار دراسة علمية متأنية في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وذلك ليتمكنوا من الحصول على دلالات تاريخية عن أوضاع الماضي السحيق، لذا أخذوا يحفرون في المناطق التي كانت كثيفة بالسكان ثم هجرت، بأسلوب علمي دقيق، فوجدوا مخلفات مادية كثيرة توحي بحقائق ومعارف تاريخية هامة من حيث الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والدينية.

أعطت اليقظة الإسلامية بين شباب العالم الإسلامي دفعة قوية لعلم الآثار في الاتجاه الصحيح، حيث بدأت الحفريات الحديثة تنقب ليلاً ونهاراً في جميع المناطق التي كانت آهلة بالناس، والتي ترجع في تاريخ طبقات الاستيطان فيها إلى ما بعد القرن السابع قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام، لذا حصلوا على نتائج رائعة أثبتت تفوق أجداد العرب والمسلمين الأوائل في كل من العلوم الأساسية والتطبيقية والفنية على غيرهم من الأمم، ولقد كان الأجداد رواداً في جميع العلوم؛ لأن لهم شخصيتهم وطباعهم وأسلوبهم، وهكذا ستبين الأيام المقبلة الكثير من الحقائق المجهولة حيال جهابذة الحضارة الإنسانية؛ لأن معظم إنتاجهم الفني والعلمي مغمور في باطن الأرض ينتظر المهتمين أن ينتبهوا لأهميته في البحوث التاريخية، فينبشوه في حفرياتهم المتطورة لكي يقدموه للعالم أجمع.

علاقة علم الأختام بعلم التاريخ الإسلامي:

المعروف أن علم التاريخ له اتصال عظيم بعدد كبير من العلوم الإنسانية التي تُعتبر علوماً مساعدة لعلم التاريخ؛ لأن علم التاريخ يتناول في الحقيقة جميع نشاطات الإنسان على كوكب الأرض، ومن بين هذه العلوم المساعدة لعلم التاريخ علم الأختام (والمعروف أحياناً بعلم الطمغات)، لذا يلزم من يتصدى للكتابة في ميدان علم التاريخ القديم أن يكون على دراية قوية بعلم الأختام؛ لأن هذا المتطلب سيكسب المؤرخ ثقافة عامة في المعرفة التي ستكون دون ريب مصدراً هاماً للباحث في البناء التاريخي الذي هو بصدد إنجازه.

يوصي الباحثون في مجال علم التاريخ ألا يكتفي المؤرخ أبداً بمراجعه التاريخية البحتة، بل لابد له أن يدرس عن كتب العلوم المساعدة لهذا العلم العظيم مثل علم الأختام، ولاشك أن العلوم المساعدة لعلم التاريخ تساعد على تعمق الأضواء الكاشفة عن طبيعة الحدث التاريخي ودوافعه وأهدافه. من هنا ستنفتح أمام عيني المؤرخ آفاق عظيمة من الحقائق التاريخية التي هو في

أمس الحاجة إليها. والمعروف أن أختام الدول وتواقيع ولاة الأمر، تظهر على الوثائق التي تعطي أسماء وألقاب كل من الملوك والسلاطين والحكام والأمـراء. أما الرنوك؛ وهي الأختام التي توضع علـى الـدروع وملابس النبلاء والجنود فهي ذات أهمية كبيرة؛ لأنه عن طريقها يثبت المـؤرخ صحـة نـوع الأسلحة والدروع التي كانت تستخدمها الدولة التي تحت الدراسة.

يقول كل من **طه باقر** وزميله **عبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكـر: «ومـن الموضوعـات الفنيـة المهمـة الـتي تُعـد مـن العلـوم المسـاعدة في البحـث التاريخي ما يعرف بمصطلـح الأختـام أو الطمغـات Sphragistics المختـص بدراسة الشارات والأختام (والرنوك) والتواقيع، حيـث كـانت طـرز التواقيـع والطمغات والرموز والرسوم المصاحبة لها تختلف من عصر إلى آخـر، وبذلـك يستعين الباحث التاريخي في تحديد زمن الوثيقة التاريخيـة الخاليـة مـن التـاريخ، هذا بالإضافة إلى ما يستنتجه عن العهد الذي يبحـث فيـه مـن ناحيـة ألقـاب الحكام والملوك والأمراء وشعاراتهم، والعبـارات الخاصـة الـتي يسـتعملونها في تواقيعهم، والأمثلة كثيرة على ذلك ومنها تواقيع الخلفاء العباسـيين والعبـارات الخاصـة بكـل منهـم.. ويلحـق بهـذا النـوع الشـارات الـتي تنقـش علـى الدروعHeraldy والأعلام وملابس النبلاء والجُند والفرسان والمحاربين. وقـد استخدمت هذه الشارات والإشارات في الحضارات القديمة أيضاً وفي العصـور الوسطى والعصور الإسلامية وفي العهد العثماني».

في بادىء الأمر كان علم الأختام جزءاً لا يتجزأ من الوثائق التاريخية، ولكـن مالبث أن استقل وصار علماً له حيثياته وقواعده العلميـة، وأصبحـت الوثـائق التاريخية الهامة تمر به للتأكد من أختامها؛ لأن لكـل دولـة أختامـاً خاصـة بهـا مصنوعة من الفخار أو الشمع أو الرصاص أو الذهب، لذا باسـتطاعة المـؤرخ الموهوب أن يعرف بجلاء تام تواريخ وأسماء الوثائق التي بين يديه عن طريق معرفته لأختامها. وعليه نستطيع القول: إن علم الأختام (الطمغات) يكـاد يكـون علمـاً

ضرورياً للدراسات التاريخية القديمة. كما أن هناك بعض الأسلحة والدروع الهامة جداً لا يوجد عليها تاريخ الإنتاج، ولكنها تحتوي على الرنوك، بهذا يستطيع المؤرخ المدرب على معرفة الرنوك أن يحدد تاريخ صنعها على ضوء الرنوك الموجودة.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وتتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام التي تمهر بها، وهي ذات أنواع وأشكال مختلفة. وقد شاع استخدام أختام الشمع منذ أزمان بعيدة ولا تزال مستخدمة حتى اليوم. ووجدت الأختام المعدنية وخاصة من الرصاص، واستخدمها البابوات والملوك والأمراء بخاصة في أزمنة مختلفة، ووجدت أختام الذهب بخاصة عند ملوك الكارولنجيين في أثناء العصور الوسطى، وظلت تستخدم عند بعض الأسر الحاكمة حتى أزمنة حديثة.. ومعرفة أنواع الأختام تفيد الباحث في التثبت من صحة الوثائق التي يقوم بدراستها. ومن العلوم المساعدة في دراسة التاريخ علم الرنوك Heraldy وهو الشعر أو العلامات المميزة التي تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس النبلاء والجُند أو على الأعلام.. وإن معرفة الباحث في التاريخ بهذه الرنوك تجعله قادراً على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع والأسلحة أو الوثائق أو ما شاكل ذلك. وفي الوثائق مثلاً قد يمحى الإمضاء أو التاريخ، وفي هذه الحالة تساعد العلامة الواضحة على الختم - إن وجدت - في التعريف على شيء أو أشياء من حقيقتها».

وخلاصة القول: من الضروري أن يتصف المؤرخ بثقافة واطلاع واسعين، لذا يُستحسن أن يكون ملماً بمعظم العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ؛ لأن البحث التاريخي بوجه عام يشتمل على جميع النشاطات التي يقوم بها الإنسان، وعليه يجب أن يستعمل المؤرخ جميع الفحوصات الممكنة للتثبيت من أصالة الوثائق التي يريد استخدامها في بحثه التاريخي، ومنها على سبيل المثال لا الحصر التعرف على الأختام التي تفيد كثيراً في معرفة كل من

التواريخ والأسماء والألقاب والمعتقدات والمذاهب والمكانة المادية والنفوذ السياسي وغيرها. والحقيقة أننا لسنا بحاجة إلى الإسهاب في القول عن أهمية الأختام والرنوك في الدراسات التاريخية القديمة.

علاقة علم النفس بعلم التاريخ الإسلامي:

لقد درج باحثو علم التاريخ على أن الإنسان نفسه هو موضوع البحث. لذا درسوا عن كثب وضعه النفسي ودور هذا الجانب الحيوي في صناعة علم التاريخ. والمعروف أن علم التاريخ يُساعد الأمة على معرفة حقيقة نفسها عن قرب وكذلك حقائق غيرها من الأمم المتحضرة. وعليه يجب أن يسلح المؤرخ نفسه ولو بقسط قليل من علم النفس؛ لكي يتمكن من دراسة الظواهر التاريخية دراسة علمية لها الشمول البعيد المادي.

وقد قدم **محمد الطالبي** دراسة جيدة عن التاريخ ومشاكل اليوم والغد، نشرها في مجلة «عالم الفكر» سنة (١٣٩٤ هجرية)، يقول فيها: «إن التاريخ من أهم مقومات الشخصية. فالفهم الصحيح له يعين على بنائها. ووقايتها من الذوبان الذي يهددها، وعلاجها من الأمراض النفسية التي تعثر منها، وتشل طاقاتها، فكما أن الانسان يحتاج إلى ذاكرة، فهو يحتاج إلى تاريخ؛ لأن التاريخ هو ذاكرته القومية، وعلماء النفس يعلمون الاختلال الذي يطرأ على التوازن العقلي، والنفسي إذا ما فقد المرء ذاكرته، فكما يمرض الأفراد لفقدان الذاكرة أو اضطرابها، كذلك تمرض الشعوب لضياع تاريخها أو دخول التشويش عليه».

أعطى المؤرخون اهتماماً خاصاً لموضوع علم النفس وعلاقته القوية بعلم التاريخ؛ لأنهم يعتقدون أن العواطف الإنسانية من العوامل المسيرة لكل من الأحداث والظواهر التاريخية، واستدلوا على ذلك بأعمال بعض السياسيين الذين استطاعوا وبجدارة أن يحركوا الجماهير من حولهم، لذا لا عجب إذا ركز المؤرخون العرب وركز المسلمون على دراسة الشخصية التاريخية من حيث تركيبتها النفسية؛ لأنه اتضح لهم أن علم النفس ذو صلة وثيقة جداً بعلم التاريخ.

والمتواتر عبر التاريخ أن دراسة المؤرخ للجوانب النفسية لأي فرد لها مردودها؛ لأن ذلك سيمكنه من تفسير قدراته العلمية وسلوكه وعلاقاته الشخصية والرسمية مع الآخرين. وهذا دون شك سيساعده على دراسة علم التاريخ والتعمق فيه، وسيجعله بالحقيقة قادراً على إثبات صحة ما يقع تحت يده من معلومات تتعلق بتصرفات الإنسان، وعليه يستطيع المؤرخ أن يفسر بوضوح الأحداث والظواهر التاريخية تفسيراً علمياً مقنعاً.

يقول كل من **عادل حسن غنيم** و **جمال محمود حجر** في كتابهما «منهج البحث التاريخي»: «علم النفس من العلوم المساعدة التي يحتاجها المؤرخ، فدراسة العوامل النفسية والنوازع البشرية ومحاولة التوصل إلى المكونات النفسية لشعب من الشعوب أو جماعة من الناس تساعد ولاشك في فهم كثير من الأحداث التاريخية، كما أنه من الصعب الكتابة عن شخصية تاريخية هامة دون دراسة تركيبته النفسية والعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي أسهمت في تكوين نوازعه ومشاعره، والأسباب الذاتية والعامة التي دفعته إلى اتخاذ قراراته الهامة أو الإقدام على بعض مواقفه، أو اتباع أساليب معينة في سياسته الداخلية والخارجية، وهو ما يسهم دون شك في إيضاح كثير من المواقف والقرارت التي اتسم بها عهده، بغض النظر عن النتائج التي تمخضت عن تلك المواقف أو القرارات».

وخلاصة القول: يجب أن يكون المؤرخ مثقفاً ثقافة عالية، لديه معرفة جيدة بالعلوم المتصلة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بعلم التاريخ؛ لأنها تعينه في جمع مراجعه وفهمها وتمحيصها ونقدها، فعلم النفس يُعتبر بحق من العلوم الضرورية لدراسة علم التاريخ لارتباطه القوي بملكات وعقلية الإنسان الذي يُعتبر العمود الفقري لعلم التاريخ.

ومما لاشك فيه أن علم النفس يساعد المؤرخ على تفسير ظواهر متنوعة في حياة الإنسان، فبواسطته يستطيع أن يحلل عناصر علم التاريخ الظاهرة

والباطنة، وهذا سيقوده إلى رؤية أكثر وضوحاً لكل من منعطفات وامتداد آفاق علم التاريخ. والجدير بالذكر أن علم التاريخ ينفرد من بين العلوم الأخرى بكثرة العلوم العملية التي يلزم المؤرخ أن يلم بها أو على الأقل يكون على علم بها. وهذا يرجع إلى طبيعة علم التاريخ نفسه الذي يخوض في جميع ميادين النشاط الإنساني والمعرفة الإنسانية.

من هنا نستطيع القول: على الباحث في مجال علم التاريخ الذي يريد أن يعمل بحوثاً متكاملة فيه أن يبذل كل ما في وسعه ليتزود في معرفة العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ، وفي مقدمتها علم النفس. وعليه سيتيسر له الكشف عن الحقائق الضرورية التي يجب أن يستخدمها في بحثه التاريخي.

ويقول كل من **عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر** في كتابهما المذكور آنفاً: «ويقصد بالتفسير النفسي للتاريخ أن يكون لمشاعر الزعماء أو الجماعات أو الشعوب ردود فعلها النفسية التي تترك آثارها على حركة التاريخ. ويضرب المؤرخون أمثلة عديدة على أهمية التفسير النفسي للتاريخ. منها تلك العصبية الجاهلية، وحملات المسيحيين لتخليص قبر المسيح في فلسطين من أيدي المسلمين كما يعتقدون، والآثار الكبيرة التي تركها سقوط القسطنطينية عام (١٤٥٣ ميلادية) على الممالك الأوربية بشكل خاص، وإقدام اسرائيل على إحراق المسجد الأقصى أو انتهاك حرمته، إلى غير ذلك من الأمثلة».

علاقة علم المنطق بعلم التاريخ الإسلامي:

يرى المؤرخون أن علم المنطق موضوع مهم جداً للباحثين في مجال علم التاريخ؛ لأن له علاقة وثيقة في كل من تنظيم التفكير وعرض ونقد الحجج الاستدلالية. كما أن هناك أيضاً علاقة قوية بين علم النفس وعلم المنطق، بل في الحقيقة يصنف علم المنطق امتداداً لعلم النفس الذي يُعتبر من العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ. والمتواتر لدى المؤرخين في المعمورة أن علم المنطق يؤهل

المؤرخ أن يقيم المفردات العلمية التي يمكن أن يستعملها لإقناع الجمهور. إذن نستطيع القول: إن علم المنطق هو العلم الذي يمد الباحثين بالأدوات والطرق التي تمكنهم من تحليل وتفسير نتائجهم التاريخية.

ويعرض **فؤاد حسن زكريا** باختصار في كتابه «المنطق وفلسفة العلوم» مكانة علم المنطق في طريقة التعبير المنطقي عن وجهة النظر، فيقول: «أما المنطق فإنه ينظر إلى المحتوى النفسي نظرة انتقائية وتقديرية. أما أنه ينظر إلى ذلك المحتوى نظرة انتقائية، فذلك لأنه لا يستبقي من الفعل الذهني إلا ما يسمو منه إلى أعلى مستويات العقل. وما كان القصد منه بلوغ الحقيقة. وهكذا كان المنطق لا يتخذ له موضوعاً إلا من الأحكام الجادة الواعية، التي تهدف إلى مطابقة الواقع، والاستدلال ينبغي أن يخلو من كل نية للخداع، وألا يكون له هدف سوى الإقناع، وبينما يكتفي علم النفس بالوصف والربط فإن المنطق يقوّم، ويميز الحكم أو الاستدلال الصحيح أو الصائب من الباطل أو المخطىء».

إذا كان المؤرخ يدرس بصدق وأمانة التجربة الإنسانية أو جانباً منها على كوكب الأرض، فإنه يحتاج إلى وسيلة علمية يستطيع بواسطتها أن يقنع القارىء بأهمية هذه الدراسة، لذا لابد له من استخدام علم المنطق الذي يحقق له ذلك بسهولة ويُسر. إن المؤرخ الناجح يمكنه عرض الظواهر والأحداث التاريخية التي توصل إليها بطريقة منطقية مقنعة للجمهور؛ لأن المؤرخ حقيقة ليس فقط مسجلاً لأحداث الماضي، ولكنه صاحب الإنسان في حاضره ومستقبله. والجدير بالذكر أن كلاً من جمع المادة التاريخية وتسجيلها وترتيبها يحتاج إلى استعمال علم المنطق وأدواته الرمزية لكي يكتمل البناء التاريخي الذي يسعى المؤرخ اللبيب إلى تحقيقه. على كل حال يجب عدم المغالاة في الاعتماد على علم المنطق وحده؛ لأن علم المنطق ليس إلا وسيلة تساعد المؤرخ في معرفة كل من البناء العلمي لعلم التاريخ ومكانته بين العلوم

الأخرى، ومن دون شك فإن علم المنطق يؤهل المؤرخ أن يفسر بعض الحقائق التاريخية بطريقة منتظمة رائعة.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه «التاريخ والمؤرخون»: «يجب أن يتصف المؤرخ بالأمانة والصدق وحُسن استخدام النص، واستخراج كل ما فيه من الحقائق والمعاني، وعدم تحميل النصوص فوق مادتها، وتجنب الاعتماد على الفروض وبناء الأحكام عليها، أو استخراج أحكام تقوم على المنطق وحده ثم اعتبارها حقائق ثم البناء عليها، وتركيب استنتاجات وآراء تقوم في قاعدتها على غير أساس. ولابد بعد ذلك من التزام المنطق، فإن التاريخ علم بلا قواعد، ولكنه علم يحكمه المنطق، فكل حادثة لها أسبابها وعللها ولها نتائجها، وهذه كلها لابد من مراعاة التماسك الموضوعي لا الشكلي بينها... ويجمع أصحاب التاريخ اليوم على أن التاريخ علم بمنهجه وفن بأسلوب عرضه، فنحن نتبع في دراسته كل أصول البحث العلمي وقواعده في جمع الأصول واستخراج المادة العلمية السليمة منها، ثم يبدأ الجانب الفني أو التأملي أو المنطقي، وهو طريقة العرض والصياغة».

وخلاصة القول: إن التاريخ الطويل لعلم المنطق لدى علماء العرب والمسلمين والذي يزيد امتداده عن ألف سنة لعب دوراً هاماً جداً في علم التاريخ؛ لأن مؤرخي العرب والمسلمين اهتموا قبل كل شيء بتقييم الإنسان في كل من مسيرته وتفاعله مع الأحداث التاريخية بطريقة منطقية، بهذا استطاعوا وبكل جدارة عقد قران بين علم التاريخ وعلم المنطق. كما أجبروا كلاً من الأحداث والظواهر التاريخية للإطار المنطقي؛ لكي يتمكن الباحثون في مجال علم التاريخ من فهم الحقائق التاريخية عن كثب وبوضوح تام.

والحقيقة التي يجب إبرازها أن مؤرخي العرب والمسلمين مدينون لفلاسفة اليونان في حقل علم المنطق، ولكن ليس بالطريقة التي يعرضها المستشرقون: «إن علم المنطق بلغ مع أرسطو الكمال والختام». أي إن فلاسفة العرب

والمسلمين لم يعملوا إلا مجرد ترجمة وشرح علم المنطق اليوناني. وهذا في الحقيقة فيه إجحاف بحق فلاسفة العرب والمسلمين، الذين مدوا المؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في العالم أجمع بأدواتهم المنطقية، ليستعملوها في حقل علم التاريخ منذ وقت مبكر جداً.

علاقة علم الجيولوجيا بعلم التاريخ:

إن الانسان منذ بدأ حياته على وجه البسيطة وهو يدرس ويتمعن في الأرض وتطوراتها، لذا استفاد المؤرخون مثلاً بنتائج فحص عظام الحيوانات التي حصلوا عليها في تحديد أزمنتها التي تُعتبر مادة تاريخية هامة، أما علماء العرب والمسلمين فقد اتجهوا إلى التأمل والاستنتاج والبحث عن الحقائق التاريخية بالطرق العلمية الصحيحة، لذا نجحوا نجاحاً باهراً في تفسير وتحليل الظواهر الطبيعية، ودراسة الصخور والجبال والمعادن التي بدورها أفادتهم في بحوثهم التاريخية، والمعروف أن علم الجيولوجيا علم نظري وعملي في نفس الوقت، فالباحث في هذا المجال لا يكتفي أبداً في معرفة تاريخ الأرض بل لابد له أن يعرف أيضاً مصادر المعادن.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «يستعين الآثاريون بالبقايا الجيولوجية لعظام الحيوانات القديمة المتحجرة منها وغير المتحجرة، والطبقات الصخرية في تحديد أزمان الآلات والأدوات الحجرية من عصور ما قبل التاريخ، ولا سيما ما يسمى بالعصور الحجرية مثل العصر الحجري القديم الذي يقع زمنه الدهر الجيولوجي المسمى (بلايستوسين) وهو آخر العصور الجيولوجية قبل نحو مليون عام، ومع قصر هذا العصر الجيولوجي بالمقارنة مع الدهور الجيولوجية التي سبقته والمتناهية في أطوالها، يبدو أن أنواعاً وفصائل حيوانية ونباتية عاشت فيه ولكن انقرض بعضها وعاش بعضها في النصف الأول من ذلك العصر والبعض الآخر في

النصف الثاني، فاستخدمت بقايا هذه المواد العضوية التي يعثر عليها في الطبقات المختلفة من الأدوات الحجرية وسائل مهمة لتعين أزمانها بأزمان تلك البقايا الجيولوجية».

ومن دراسة علماء العرب والمسلمين المفصلة لخواص علوم الأرض، استطاعوا وبجدارة أن يعللوا كثيراً من الظواهر الجيولوجية، مثل الزلازل والبراكين والمد والجزر وتكوين الجبال والوديان والسيول والأنهار والجداول والمعادن والصخور وغيرها، ولاشك أن هذه الظواهر الجيولوجية كانت عوناً كبيراً للباحثين في ميدان علم التاريخ؛ لأنها تعطي فكرة واضحة عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي والتربوي لشعوب تلك المناطق، وعليه دوّن علماء العرب والمسلمين خبراتهم في هذا المجال لتكون رصيداً للتابعين لهم، وتكون أيضاً مادة تاريخية دسمة وضرورية لإثراء علم التاريخ، الذي في أمس الحاجة لمثل هذه المعلومات العلمية الراقية.

يقول **فاروق صنع الله العمري** في كتابه «تاريخ علوم الأرض»: «أما تاريخ تفسير الإنسان للظواهر الجيولوجية حوله، فنعتقد أنه يعود إلى تاريخ الإنسان القديم أيضاً، فالمعتقد أنه حاول أن يفسر بعض تلك الظواهر وخاصة أن قسماً من تلك الظواهر كانت مرعبة ومدمرة كالفيضانات والزلازل، وقد لاحظ علماء الآثار أن بعض هياكل الإنسان القديم كانت معها بعض أصداف الحيوانات البحرية، ويعلل هؤلاء العلماء بأنه ربما كان الإنسان القديم يعتقد أن لهذه الأصداف قوة سحرية تشفي المرض».

لقد تخلل دراسات العلماء الأوائل لعلوم الأرض بعض الخرافات والشعوذة والأساطير، لكن علماء العرب والمسلمين حاربوا هذه الخزعبلات وأرسوا دعائم البحث العلمي، وذلك بتفسيرهم لبعض نظريات علوم الأرض تفسيراً علمياً، لذا استطاعوا أن يستغلوا دراساتهم التحليلية لبعض الأفكار الجيولوجية التي حصلوا عليها من أعمالهم الميدانية ليس فقط في حقل علم التاريخ، ولكن أيضاً في

معرفة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية لبعض الشعوب القديمة، لذا تمكن علماء العرب والمسلمين من بلورة وتطوير كل من علم الجيولوجيا وعلم التاريخ.

يقول **عدنان النقاش** في كتابه «الجيولوجيا عند العرب» (الموسوعة الصغيرة): «أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى جمود في العلوم بصورة عامة وفي الجيولوجيا بصورة خاصة لقرون عديدة في أوربا، عندئذ حمل العلماء العرب مشعل العلم في وقت كانت فيه أوربا غارقة في ظلمات الجهل،فكانت الجيولوجيا عند العرب تعتمد على التأمل والملاحظة والتفسير للظواهر الطبيعية، بحيث إن العلوم الجيولوجية الحديثة تبدو وكأنها امتداد منهجي للعلوم الجيولوجية العربية .. والمقصود بالعرب هنا أولئك الذين ضمتهم الإمبراطورية العربية والوطن العربي الذي امتد يوماً من مشارف الصين شرقاً إلى مشارف فرنسا غرباً.. والعلماء العرب هم كل من نشأ في تلك البلاد التي اعتنقت الإسلام وتكلم اللغة العربية وكتب وألف بها».

وخلاصة القول: ومن جهْل وغطرسة علماء الغرب أنهم يدّعون كذباً أن مادة علوم الأرض تُعتبر جديدة على شخصية العربي البدوي الذي يقضي حياته متنقلاً بالصحراء باحثاً عن الكلأ والماء، لذا فإنهم يعتقدون بأن الحضارة الغربية المعاصرة هي التي طورت علوم الأرض.. نسي علماء الغرب أن الإنسان العربي بشخصيته البدوية عرف عبر التاريخ بمحاولاته للتعرف على أنواع الصخور والجبال وما تحتويه الأرض من مياه جارية أو غائرة ومعادن، وأن للعربي البدوي شهرة مرموقة بتجواله في مناكب الأرض باحثاً عن الرزق لكي يعيش بكرامة وأنفة، وهذه الصفة النبيلة تكاد تكون غريزة في نفسه لازمته مدى الحياة، وهي التي قادته بالنهاية إلى معرفة الظواهر الطبيعية التي تُعتبر مادة هامة للباحثين في مجال علم التاريخ.

كما أن العربي المسلم كان يعي تماماً أن علوم الأرض تشترك مع علم التاريخ في دراسة الماضي وربطها بالحاضر وهذا يتضح من قول ف. هرنشوا في كتابه «علم التاريخ» (ترجمة عبد الحميد العبادي): «إن علم التاريخ ليس علم تجربة واختيار، ولكنه علم نقد وتحقيق، وإن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به علم الجيولوجيا، فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته؛ لكي يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضي والحاضر على السواء، ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار الأول إلى أن يفسر العامل البشري الإرادي الانفعالي، حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية».

ويظهر للقارىء مما تقدم عظمة ثقافة العرب والمسلمين في علم الجيولوجيا، فهم الذين ضربوا بأسهمهم في شتى مجالات المعرفة، وخلفوا لنا تراثاً عظيماً في كل من علوم الأرض وعلم التاريخ نفخر به. أرجو من الله جل وعلا أن يكون الاستعراض السريع عن علاقة علم الجيولوجيا بعلم التاريخ منشطاً لهمم شباب أمتنا العربية والإسلامية؛ لكي يكرِّسوا جهودهم في دراسة هذه العلاقة الهامة».

علاقة علم الفلك بعلم التاريخ:

المتواتر أن لعلماء العرب والمسلمين اليد الطولى في تقدم علم الفلك. فقد نقلوا عن كل من علماء اليونان والهند والفرس بعض الأفكار الأولية في ميدان علم الفلك. وصححوا ما ثبت خطؤه بواسطة المراصد التي أقيمت لهذا الغرض في معظم أرجاء الدولة الإسلامية، كما توسعوا في مباحث الفلك وزادوا عليه ما شاهدوه أثناء رصدهم لحركات الكواكب والنجوم. والحق أن علماء العرب والمسلمين قد عملوا أيضاً إضافات جوهرية أدهشت وأعجبت علماء الغرب المنصفين، الذين اعترفوا بدور علماء العرب والمسلمين في هذا المجال الحيوي.

ومن المعروف أن هناك اعتقاداً سائداً لدى الأوائل أن لحركات الكواكب

والنجوم علاقة قوية بالحوادث التاريخية من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم، مما جعل المؤرخين الأوائل يدرسون بكل دقة وعناية هذه التخمينات الفاسدة، إضافة إلى تشجيعهم الباحثين في ميدان علم التاريخ أن يدرسوها، علماً بأن هذه التكهنات الباطلة حرمها الدين الإسلامي؛ لأنها عبارة عن خزعبلات خطيرة.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «لقد أخذ المؤرخون المسلمون الأوائل من الفلكيين حساباتهم المتعلقة بتاريخ الدنيا وتاريخ ما قبل الإسلام. لكنهم لم يستخدموا هذه المواد بشكل أساسي في مؤلفاتهم بل أشاروا إلى بعض الصدف التي تحققت فيها النبوءات، وهذا ما أشار إليه علي ابن يحيى المنجم عندما قال: «كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتاباً من كتب الملاحم، فوقفت على موضع من الكتاب فيه أن الخليفة العاشر يقتل في مجلسه، فتوقفت عن قراءته وقطعته، فقال لي: مالك قد وقفت؟ قلت: خير، قال: لابد وا لله من أن تقرأه. فقرأته وحدت عن ذكر الخليفة، فقال المتوكل: ليت شعري من هذا الشقي».

حاول مؤرخو العرب والمسلمين في القرون الوسطى أن يقللوا من أهمية وتأثير دور الظواهر الفلكية على الباحثين في حقل علم التاريخ؛ لأن بعضهم يعتبرون هذه الخرافات من تراث الجاهلية العقيم. كما أن معظم مؤرخي العرب والمسلمين يعتقدون في النهاية أن جهد الإنسان والعلم في الغالب ينتصران على الأفكار التاريخية البالية التي تعتمد على العوامل الفلكية.

لقد دوّن علماء العرب والمسلمين في مصنفاتهم الفلكية بعض المعارف التاريخية التي قد بنيت على حقائق علمية واضحة، مثل استخدام الأزياج في تحديد تاريخ وقت الحوادث التاريخية. لذا تعتبر مصنفات علماء العرب والمسلمين في حقل علم الفلك من المصادر العلمية التي رجع إليها الباحث التاريخي. وذلك لأنها تشتمل على مادة تاريخية هامة يمكن بواسطتها تفسير تاريخ وأوقات بعض

الأحداث والظواهر التاريخية التي كانت تحير المؤرخ اللبيب.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «وعلاقة التاريخ بالنجوم والفلك نجمت عن امتداد المنجمين أنفسهم على ميدان التاريخ. وإخوان الصفا يجعلون مما ينبغي على المنجم معرفته: (معرفة التواريخ والبدايات والملل والدول وتبدل الأشخاص على سير الملك والحروب والفتن والحوادث والكائنات من الغلاء والرخص والخصب والجذب والوباء والأمراض.. وحوادث الأيام..إلخ).. فكأنما عمل المنجم هو التاريخ، ولكن المستنتج من الأفلاك لا المروي من قبل الناس. وهكذا فإن كتب النجوم كانت تحوي بعض المادة التاريخية ... مما يجعل القفز بينها وبين التاريخ والنقل عنها إليه ميسور للمؤرخين ومغرياً لهم. وهكذا فقد كان من شأن انتشار علم الفلك والنجوم أن استخدمت الأزياج والعلوم الفلكية في تاريخ الأحداث وتحديد أوقاتها وأحياناً في تعليلها. ولعل من أقدم الأمثلة على هذا التأثير (العلمي) في التاريخ كتاب : «الآثار الباقية» لأبي ريحان البيروني (٤٤٠ ـ ١٠٤٨م). على أننا نجد الكثير من التحديدات الفلكية للأحداث بالأبراج وغيرها لدى حمزة الأصفهاني في تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، واليعقوبي، والمسعودي المطهر المقدسي وابن حوقل، وابن ميسر في مصر، وابن القلانسي في دمشق، وابن العديم في حلب».

وخلاصة القول: لقد ثبت أن لعلم التاريخ علاقة وثيقة بعلم الفلك منذ الأزل. وهذا يتضح من أن معظم كتب علم الفلك تحتوي على مادة علمية دسمة في مجال علم التاريخ. وكما هو معروف فإن التعاون بين كل من علماء علم التاريخ وعلماء علم الفلك كان قائماً لأن المعرفة الإنسانية متشابهة ومشتركة، ولاشك أن المؤرخين في بعض الأحيان يحتاجون إلى حقائق فلكية لكي يفسروا بعض الحوادث التاريخية، وكذلك لتوسيع آفاق مداركهم وليحصل أيضاً التكامل في بحوثهم التاريخية.

والمشهور بين العلماء في المعمورة أن علم الفلك نما وترعرع بصحبة علم التاريخ منذ أمد طويل جداً، وهما في الحقيقة شديدا الصلة ببعض؛ لأن علم الفلك يعرض تصوراً كاملاً للمؤرخ حول الاعتقادات القديمة التي بدورها تساعده على تحليل الحوادث التاريخية، كما أن المؤرخين الأوائل تمكنوا من استيعاب كثير من الحقائق التاريخية من خلال دراستهم لعلم الفلك الذي أسهم في تطويره علماء العرب والمسلمين إسهاماً رائعاً.

وأضاف **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر قائلاً: «ولقد أخذ بعض المؤرخين عن أصحاب النجوم والفلكيين حساباتهم المتعلقة بتاريخ الدنيا وتاريخ الأمم فيما قبل الإسلام، يقول حمزة الأصفهاني: (ولم أجد لتواريخ سني (القبط) ذكراً في الكتب إلا في الزيجة) وبهذه الوسيلة توفر لهم مقدار من المادة التاريخية الهامة.. وكثيراً ما كانت معرفة النجوم والطوالع سبيلاً إلى تعليل بعض الأحداث. كمقاتل بعض الناس أو خلود بعض المدن أو ميلها إلى الفتن أو تفسير بعض الكوارث الطبيعية من فيضانات وأوبئة ومجاعات».

لقد اهتم مؤرخو العرب والمسلمين بدراسة علم الفلك ليس فقط للاستفادة منه في بحوثهم التاريخية، ولكن أيضاً لمعرفة أنواع النجوم الثابتة والمتحركة؛ لأن علماء العرب والمسلمين بوجه عام كانوا مغرمين بدراسة الأجرام السماوية ومراقبة النجوم ومعرفة أسمائها وأماكنها ومنازل القمر التي قسموها إلى ثمانية وعشرين قسماً. والجدير بالذكر أن بعض مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل يعتقدون أن بعض النجوم والكواكب تؤثر بشكل أو بآخر على الفكر التاريخي، وتعين الباحث في علم التاريخ على فهم وتحليل بعض الحوادث والظواهر التاريخية، وعليه لا عجب إذا اعتبر علم الفلك من العلوم المساعدة لعلم التاريخ.

صفات المؤرخ المسلم

تميز المؤرخ المسلم بكل من رأيه وبصيرته السديدين. فهو لا يصدق تماماً كل مصادره، بل يفحص مصادره التاريخية جيداً وبطريقة استقرائية مرموقة قبل أن يقبلها، ليستخدمها في بحوثه التاريخية، واشتهر المؤرخ المسلم بعمله الجاد الذي يقوم به بصمت وتفان، مبتعداً عن كسب الألقاب البراقة والظهور؛ لأن مثل هذه الأمور تخلق عنده الغرور وتجنبه الحقيقة، فالمؤرخ الناجح هو الشخص الذي يقوم على أكتافه ازدهار الحضارة الإنسانية. والمتواتر أن مؤرخي العرب والمسلمين يمتلكون ظاهرة الفراسة الطبيعية، حيث تفوقوا بمعرفتهم بسهولة الغث والسمين من المعارف التاريخية التي تصل إليهم لدراستها والاستفادة منها في بحوثهم التاريخية.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وينبغي على المؤرخ أن يكون أميناً شجاعاً مخلصاً، فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق أصحاب الجاه والسلطان، ولا يخفي الواقع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان، والتي قد لا ترضيه أو لا ترضي قومه. إذ إنه لا رقيب عليه غير ضميره، ومن يخرج على ذلك لا يمكن أن يعد مؤرخاً. ولا ريب أن الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه تفيد إلى حد كبير في السعي إلى تجنب عوامل الخطأ في الحاضر، وعدم الكشف عنها يعد تضليلاً وبُعداً عن التبصر والمصلحة الوطنية، وقد يكون إخفاء الحقيقة التاريخية عملاً وطنياً في بعض الظروف، كما تفعل كل الأمم، ولكن لابد من ظهور الحقيقة بعد زوال الضرورة التي دعت إلى إخفائها، حتى يمكن استخلاص أكبر قسط من الحقيقة التاريخية، ولا يمكن أن يكتب التاريخ بغير التوصل إلى الوقائع الصحيحة».

لقد كان مؤرخو العرب والمسلمين أصحاب ثقافة واسعة، حيث تمكنوا وبجدارة من قراءة آثار المؤرخين الكبار. لقد حازوا رضاء المثقفين في

المعمورة؛ لأنهم تجنبوا التحيز وتفهموا الجلد والمثابرة. كما حاولوا أن يلتمسوا الأعذار لبعض الزلات البسيطة التي ارتكبها المؤرخون الأوائل، لذا ذاع صيتهم بين معاصريهم والتابعين لهم لمقدرتهم النادرة على نقل الأخبار التاريخية بكل ثبات وأناة، وبفراستهم العلمية استطاعوا بكل بساطة التمييز بين المقبول والمفروض من الوثائق التاريخية، وعليه استمروا في البحث والتنقيب والاستقصاء للكشف عن أسرار التطور الاجتماعي، واستنتاج الأطر الضرورية التي تحكم الحركة التاريخية بمذاهبها المتنوعة.

ويذكر العلاّمة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته: أن المؤرخ اللبيب يجب أن يتصف بالصفات الآتية:

١ ـ الصدق والإحساس والتسامح وإنكار الذات وبُعد النظر.

٢ ـ الإلمام بنواميس العمران.

٣ ـ تجنب المغالات والمغالطات للوصول إلى الحقيقة، بل يلزم أن يمحص الأخبار التاريخية تمحيصاً دقيقاً ويتحقق من صحتها وصدقها.

٤ ـ تعليل الحوادث التاريخية لمعرفة كيفية حدوثها وأسباب وقوعها.

٥ ـ العلم بأسباب قيام الدول والقائمين عليها وأسباب ازدهارها وانحلالها.

٦ ـ الخبرة العلمية في عادات ومذاهب الأمم قديمها وحاضرها.

٧ ـ البُعد عن مزج علم التاريخ بأخبار الكهانة والمنجمين؛ لأنه علم عزيز المذهب وجم الفائدة.

وخلاصة القول: يجب أن يكون لدى المؤرخ المسلم إلمام جيد في العلوم الشرعية لئلا يقع في المهالك، وأن يكون أيضاً مصحوباً بالورع والتقوى وحسن الخيال والتصور، والحقيقة أن المؤرخ صاحب الخيال والقدرة الأدبية هو شريك أصيل في صراع الإنسان مع بيئته من الناحية الطبيعية والزمانية والاجتماعية.

والجدير ذكره أن المؤرخ المسلم يولي الظواهر والأحداث التاريخية جل عنايته. وهذا يظهر واضحاً عن طريق دراسته النقدية الموضوعية التي توحي بالشجاعة والأمانة والصدق. والمعروف أن علم التاريخ لا يحتوي على قوانين مجردة مثل العلوم الرياضية، لذا لابد أن يتحرر المؤرخ من الميل والهوى، ويعتمد على الاستدلال النزيه الذي يُعتبر الأساس في صياغة علم التاريخ صياغة علمية.

والحقيقة المعروفة أن الإنسان بطبيعته ميّال إلى معرفة ماضيه معرفة جيدة، وذلك ليفهم كيف كان أجداده يعيشون؟ وما هي أساليب حياتهم اليومية؟ لذا كان مؤرخو العرب والمسلمين يهتمون بتقديم وجبة تاريخية دسمة؛ لأنهم يعتقدون أن الإنسان المتحضر لابد له أن يعرف ماضيه وحاضره ويخطط لمستقبله. والذي يجهل ماضيه يكون شخصاً متخلفاً مبتوراً لا جذور له، لذا يرون أن المؤرخ يحتاج إلى المواهب الفطرية والمكتسبة لكي يكون المؤرخَ الناجحَ الحسنَ الظنِّ والنزيه الذي لديه القدرة العلمية على القياس والاستخلاص.

وأضاف **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «أنه من الضروري أن يكون المؤرخ ـ كغيره من رجال العلم ـ ذا عقل واع مرتب منظم؛ لكي يستطيع أن يميز بجلاء بين الحوادث، وينسق أنواع الحقائق، ويفيد بها في الموضع المناسب؛ ولكي يكون قادراً على تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ في الزمان والمكان، ويربط بينها على اتساق وتوافق، وبغير ذلك تختلط الحوادث أمام المؤرخ وتضطرب تفصيلاتها ويعجز عن الربط بينها، ويفقد صفته كمؤرخ. ومن الصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيز، فعليه أن يحرر نفسه بقدر المستطاع من الميال أو الإعجاب أو الكراهية لعصر خاص أو لناحية تاريخية معينة، وهو بمثابة القاضي الذي لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذي يصل إليه من البُعد عن التحيز والهوى».

صانعو التاريخ الإسلامي

باديء ذي بدء إن عظماء الرجال والنساء هم الذين أشادوا صرح علم التاريخ الإسلامي وجعلوه في حركة دائمة، والحق أن لهم الريادة ليس فقط في العلوم الإنسانية مثل كل من علم التاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد والآثار وغيرها، لكن أيضاً في العلوم الأساسية والتطبيقية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فلو أخذنا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه البحر الزاخر بالمعرفة الشاملة، لرأينا أن جميع صفات الزعامة تتوفر في شخصيته البارزة التي تميزت فيها عناصر الوراثة والقوة الفردية.

وصدق **عباس محمود العقاد** عندما قال في كتابه «عبقرية عمر»: وكفى من كلمات عمر الدالة عليه، أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير؛ لأن (الذي لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه)، وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول: (أعقل الناس أعذرهم للناس) وأنه هو القائل: (احترسوا من الناس بسوء الظن) وهو القائل مع ذاك: (أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر) و (أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه)، وكما وصف نفسه: (ليس بالخب ولكن الخب لا يخدعه)، ويوافق في هذه الأقوال بين سهر الحاكم الذي لا ينبغي أن تخفى عليه خافية، وبين عدل القاضي الذي لا ينبغي أن يحكم بغير بينة ظاهرة.

إذا عدنا لصانعي التاريخ الإسلامي وجدناهم رجالاً جمعوا بين صفات رجال الدولة البارزين والتفوق العلمي، لذا فإن الكثير من الملوك والأمراء والوزراء في العصور الإسلامية خدموا علم التاريخ خدمة جليلة، حيث جعلوه سمة من سمات الثقافة الراقية للمتعلمين في جماهيرهم الغفيرة. وعليه صار علم التاريخ الإسلامي من المقررات المنهجية الهامة جداً التي تدرس لجميع طبقات مجتماعتهم. والجدير بالذكر أن الباحث في علم التاريخ الإسلامي يلزمه معرفة

كل من تاريخ الفرس والرومان معرفة جيدة؛ لكي يتمكن من إبراز مكانة وفضل الدين الإسلامي الحنيف على جميع الأديان، من هنا يتضح أن علم التاريخ الإسلامي يساعد على الحفاظ على كل من جوهر العقيدة الإسلامية والحماس لصانعي التاريخ الإسلامي.

ينقل **فرانز روزنثال** في كتابه «علم التاريخ عند المسلمين» ـ ترجمة صالح أحمد العلي ـ: «إن دراسة التاريخ كانت خير وسيلة لتعليم الحكمة السياسية لمن يؤمل أن يكونوا حكاماً في المستقبل.. ولم يكن دور التاريخ في تربية الأمراء أمراً عفوياً، بل كان وثيق الصلة بالتقاليد الشرقية التي تحث على التاريخ كمصدر رئيس للإلهام السياسي للملوك والحكام، وقد ظل هذا التقليد حياً في الإسلام.. لقد ذكر برنامج الحياة اليومية للخليفة معاوية: يدخل بيته فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل ليلة».

بعظماء الرجال والنساء احتل علم التاريخ مكانه المناسب في مجموعة المعارف البشرية، فالمؤرخ المسلم يهتم تماماً في التأمل التاريخي؛ لأنه يكتب لجماهير الناس ويبحث نتائج تاريخية مفيدة والتي تعود على كل من طالب العلم والباحث في المنفعة، لذا أخذ على عاتقه تقدير واحترام علم التاريخ الإسلامي كعلم؛ لأنه معادل في القيمة العلوم الأخرى وإن اختلف عنها في الشكل. والجدير بالذكرأن المؤرخ الناجح هو الشخص الذي يركز على تعليل النزعات الحضارية، ويبتعد كل البعد عن دعم سياسة معينة، بل يجب عليه أن يكون محايداً صريحاً في تفسيره وتحليله للأحداث التاريخية، ويكتب التاريخ للتاريخ، ويعترف بفضل صانعي التاريخ من الزعماء والمفكرين.

يقول كل من **عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر** في كتابهما آنف الذكر: «ولا شك أن لعظماء الرجال والنساء دورهم في صنع التاريخ، لكن هذا الدور ليس دوراً مجرداً غير متأثر بما حوله من أوضاع داخلية وخارجية، وإنما هو محصلة لتفاعل عدد من المؤثرات تجسدت في النهاية في دور هذا الزعيم أو ذاك. وهناك شروط لابد من توفرها لظهور الزعيم وحسن أدائه لدوره:

أولاً: أن يكون العصر الذي يظهر فيه الزعيم عصراً يسمح بتفوق بعض الأفراد على غيرهم.

ثانياً: أن تتجمع ظروف موضوعية مختلفة ـ داخلية وخارجية ـ تهيئ الجو المناسب لبروز الزعيم.

ثالثاً: أن يتمكن فرد معين من تفهم الظروف واستشعار آمال أمته وآلامها، وليس ضرورياً أن تكون صفات القائد صفات إيجابية أو خلقية، فبينما كان عدل عمر بن الخطاب هو أبرز صفاته، فإن همجية تيمور لنك ودكتاتورية هتلر وروح تشرشل الاستعمارية كانت كلها عوامل أساسية في بروزهم، لكن تلك الصفات السلبية كانت في النهاية نفس العوامل التي قضت على مطامعهم ومخططاتهم».

وخلاصة القول: إن الأعمال الجليلة التي قام بها عظماء الرجال والنساء في الحقيقة هي التي عملت علم التاريخ الإسلامي قابلاً للتطور والرقي وفي حركة مستمرة في هذا الاتجاه الحيوي، ولا يخفى على القارىء أن الظروف الموضوعية لها أهمية عظيمة في نبوغ الزعيم أو المفكر، لذا من الضروري جداً أن تتوفر في صانعي التاريخ صفات القيادة لكي يحققوا النتائج المرجوة، فمثلاً الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عادلاً رحيماً لمن يستحق ذلك ولكنه أيضاً كان خشناً قاسياً على العصاة والظلمة، لذا وصلت الأمة الإسلامية في عهده أوج عزها وتقدمها.

عُرِفَ أيضاً الخليفة العباسي المأمون بثقافته الواسعة واحترامه للعلماء، لذا وصل بيت الحكمة في بغداد في عهده الذي أسسه الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى مكانة علمية نادرة، حيث صار طلاب العلم والباحثون يأتون من كل صوب وحدب للبحث والدراسة فيه؛ لأنه كان يضم كلاً من جهابذة الفكر في العلوم ومكتبة مليئة بكنوز الكتب في شتى المجالات العلمية والتاريخية والأدبية، من هنا استطاع صانعو التاريخ الإسلامي أن يكتبوا تاريخ الأمة الإسلامية شاملاً للحياة العقائدية والأخلاقية والعلمية والأدبية.

طبيعة علم التاريخ الإسلامي

طبيعة علم التاريخ الإسلامي أن لايكون ماثلاً أمام الباحث، لذا يحتاج في دراسته إلى التعمق في دراسة العلوم المساعدة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر مخلفات الإنسان وآثاره المتنوعة، وذلك ليتمكن من التحري والبحث واستخلاص الحقائق التاريخية وتنظيمها وتفسيرها وعرضها بالطريقة العلمية التي توحي بالحركة والحياة، فالجيولوجي يدرس أوضاع الأرض الماضية ليعرف أسرار الظواهر الجيولوجية الحاضرة، لذلك يعمل المؤرخ بجد واجتهاد في جمع حقائق وأحداث الماضي، ليقف على ما يحدث في الحاضر؛ لأن الحاضر يعتبر بحق وليد الماضي، كما أن المستقبل وليد الحاضر، ومن ليس له ماض ليس له حاضر ولا مستقبل.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «من البديهي أن المؤرخ لا يستطيع أن يعيد أو يستعيد الحوادث الماضية التي زالت وانمحت و لم تترك لها إلا أصداء في البقايا التاريخية من آثار ووثائق مدونة ـ كما في العلوم الرياضية ـ بل إنه يبحث فيما خلفه الإنسان لمعرفة أحداث الماضي. ولعل أحسن ما يوصف به التاريخ بصفته علماً أنه من العلوم الوثائقية؛ أي العلوم التي تعتمد على الوثائق التي خلفها الماضي سواء كانت بقايا مادية أم مدونات تاريخية، وهذه هي مصادره ومادته الأولى، ويهدف من وراء ذلك إلى فهم تطور الإنسان والقوانين التي تتحكم في هذا التطور، وبعبارة أخرى معرفة الإنسان.. فإن الحادثة التاريخية مهما بلغت من البساطة إنما تقع بفعل سلسلة متشابكة من الأسباب والعلل بخلاف الطبيعية التي بحث فيها علماء الطبيعة، حيث تكون أسبابها والعلاقات ما بينها سهلة الاكتشاف إذا ما قيست بالحوادث التي يبحث فيها المؤرخ فإنها أفعال تصدر من فاعلين يتصفون بالفكر والقصد والحوافز المعقدة».

يهتم المؤرخ بالحوادث البشرية؛ لأنها محصلة ما يطرأ على كوكب الأرض من مجموعة تجارب ومعطيات لها اتصال مباشر أو غير مباشر في حياة الإنسان، والحقيقة أن الحياة بطبيعتها مستمرة في التغير، وهذا التغير يعتمد عليه المؤرخ اعتماداً كبيراً في دراساته التاريخية؛ لأنه فعلاً المادة التاريخية الدسمة التي تمده بالحيثيات التاريخية التي لا يستطيع أن يستغني عنها. كما أنه معروف لدى المؤرخين في المعمورة أن مكونات علم التاريخ ثلاثة: الإنسان والزمان والمكان، وبإرادة الله سبحانه وتعالى الإنسان هو المسيطر على الزمان والمكان، لذا يكون الإنسان هو المحرك لعلم التاريخ الذي يحتوي على تجاربه التي لا تزال مستمرة بحلقاتها المتصلة، إذن نستطيع القول: إن علم التاريخ هو الحافظ لجذور الأمة.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «فإذا كان التاريخ في حقيقته هو الحوادث، وكانت الحوادث هي التغيرات، والتغيرات وليدة الزمان أو سير الزمان، انتهينا إلى أن التاريخ هو الزمان، ويكون ميدان اهتمام المؤرخ على هذا هو دراسة كل تغير طرأ على الكون والأرض وكان له تأثير على حياة البشر، ثم دراسة كل تغير طرأ على حياة البشر أنفسهم، مهما كان هذا التغير صغيراً أو غير ظاهر الأهمية. فالحقيقة أنه لا توجد حوادث صغيرة وأخرى كبيرة؛ لأن الحوادث الكبيرة إنما هي تجمع حوادث صغيرة بعضها إلى بعض في نطاق مكاني وزماني ضيق. وكما أن السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار، فإن وقوع حرب عالمية مدمرة يكون في الغالب نتيجة تجمع مشاكل بشرية وسياسية وتراكمها في دولة من الدول أو أكثر، وفي نفس الوقت تتراكم الخصومات والحزازات وتصطدم المصالح والأهواء مرة بعد أخرى. وكل حادثة صغيرة تخلف وراءها في النفوس أثراً يتراكم مع مرور الزمن، فيؤدي هذا التجمع والتراكم إلى الاحتكاك ثم الانفجار، وكذلك الحال بالنسبة لمن نسميهم علماء الرجال، فهم في ذاتهم لا قيمة لهم إلا بالرجال الذين ساروا وراءهم وأيدوهم، وما قيمة نابليون بدون جنوده،

وما قيمة المتنبي بدون قرائه؟».

وخلاصة القول: من طبيعة علم التاريخ أنه يسجل الهزات التاريخية بكل أمانة وصدق ودقة، لذا صار المؤرخ يبذل جهداً كبيراً ليقف على أسبابها البعيدة وأسرارها الدفينة؛ لأنه بمثابة الحكم، وأيضاً يعرف تمام المعرفة أن تطور ونشوء وارتقاء الحياة يحتاج إلى تفسير وتحليل لمثل هذه الألغاز الخطيرة، والثابت لدى المؤرخين أن الماضي في امتداد مستمر ومتواصل للحاضر والمستقبل. إذن يمكن القول: إن علم التاريخ هو علم نمو وتطور الإنسان عبر التاريخ بلا توقف على مدى الزمان الذي يعتبر وعاءه، وعليه فإن طبيعة علم التاريخ الإسلامي ليس سرد الأحداث والظواهر التاريخية كما يتصوره البعض، بل مهمته الرئيسية ربط العلل بالمعللات والأسباب بالمسببات؛ لأن علم التاريخ الإسلامي صرح منطقي يستند على الحقائق التاريخية الخالية من مزالق الخيال.

من هنا يجب أن نشحذ إمكانيات أبنائنا الفكرية ليستفيدوا من تاريخ أمتنا العظيم، ولكي يقفوا موقف الواثقين من أنفسهم ليصيروا سداً منيعاً أمام الصراع القائم بين المسلمين والغربيين (أعداء الإسلام)، وبهذا سيتمكنون بحول الله وقوته من الحفاظ على قيمنا الحضارية من التفتت والذوبان والهرطقة، ومن المشهور أن من طبيعة علم التاريخ الإسلامي أنه يمتاز بأنه محصلة ثمرات العقول الإسلامية التي عرفت الثقافة الواسعة والخبرة الوطيدة، وعليه يجب في عصر التقنية أن يرتبط شبابنا بتاريخهم العريق ارتباطاً وثيقاً لكي يحموه من عبث المستشرقين وهجوم المهاجمين واعتداء المعتدين.

التركيب للتاريخ الإسلامي

الباحث في علم التاريخ هو الإنسان الذي يجمع الحقائق التاريخية من مصادرها المختلفة بعد التأكد من صحتها؛ لأن كثيراً من المؤرخين في العالم يتباينون في الدقة والرواية، كما يشترط على المؤرخ أن لا يتسرع في الحكم على المعلومات التاريخية التي أمامه، بل يجب أن يتحلى بالصبر والجلد والأناة وسعة الصدر؛ لكي يتمكن من الإحاطة بجميع دقائق المادة التاريخية المتيسرة قيد الدراسة.

ويبدأ المؤرخ في التركيب التاريخي (أي البناء التاريخي) وهو التنسيق والربط بين أجزاء البحث المتنوعة وصياغتها بطريقة عملية تضمن وحدة المادة وتخليصها من الشوائب التي لحقت بها في الماضي والحاضر، كما يلزمه أن يكتب أفكاره وتفسيراته بأسلوب سهل ممتع، متجنباً كلاً من الإيجاز الشديد الذي يخل بالمعنى، والشرود والإيهام بالمعرفة؛ لأن علم التاريخ له قواعده وطرائق بحثه وأغراضه المتعددة، وله أيضاً مكانته العلمية العالية بين حقول المعرفة، وبدونه لا يمكن فهم أحداث الحاضر والتخطيط للمستقبل.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «يقع على المؤرخ واجب ثقيل في استخلاص تاريخ مفهوم ومسبب لإظهار آرائه وشخصيته، من حيث بيان ما يرتئيه من تفسيرها وتقديم ما يرتئيه من أسباب وتفسيرات يتوصل إليها في تحليل الأحداث والوقائع التي جمعها ونقدها، وينبغي عليه أن يعرض مادته بأسلوب متناسق واضح يستند إلى التسلسل المنطقي في العرض وترتيب مادة بحثه ترتيباً فنياً وبأسلوب لغوي واضح سلس بعيد عن التعقيد في التعبير، ففي بحوث الاختصاصي يسير المؤلف في عرض وجهات النظر المختلفة عن الموضوع وإجلاء الغوامض والإكثار من التفسيرات والتعليلات. أما الكتب التي تؤلف لجمهور القراء

فالهدف المتوخى منها بث الثقافة التاريخية العامة بين الجمهور، فليس من الضروري أن يحمل بالنصوص وجهات النظر المختلفة المتعارضة، كما لا يلزم الإكثار من الهوامش وتحاشي التعابير والمصطلحات الفنية المعقدة بل توخي السلاسة وسهولة التعبير والبساطة في العرض كلما أمكن ذلك».

تمكن المؤرخ المسلم بجدارة أن يبتعد عن مزالق المبالغات التاريخية التي وقع فيها الكثير من المؤرخين في العالم، حيث ركز على دراسة فعاليات الأمة الإسلامية بأكملها، مستخدماً بذكاء وحكمة طريقة الربط بين العناصر المختلفة والتسلسل المنطقي متجنباً طريقة سرد الروايات والأحداث التاريخية. وكما حاول بنجاح أن يبرز شخصيته فيما كتب بطريقة علمية رائعة، فلم يظهر فيها مبالغة أو إعجاب بنفسه وإنجازاته، بل ترك الحكم لغيره، وحرص المؤرخ المسلم أن لايدون الأفكار المتباينة بدون تفسير وتعليل، بل عمل اللازم وذلك بترجيح الصحيح منها، وبهذا استطاع تحقيق البناء التاريخي المطلوب (المشهور باسم التركيب التاريخي)، والحق أن علم التاريخ ليس من العلوم المضبوطة مثل العلوم الرياضية التي تخضع لقوانين واضحة ومضبوطة لا تقبل الاجتهاد والتأويل، على الرغم من ذلك تمكن المؤرخ المسلم أن يكشف حقائق تاريخية خطيرة وأن يعلق عليها بوضوح وأمانة وتجرد ويجعلها خاضعة لمنهج البحث التاريخي.

ولخص كل من **عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر** في كتابهما آنف الذكر، حول المنهج في كتابة التاريخ: «الأسس التي يدور حولها التركيب التاريخي بالنقاط التالية:

أ ـ تصنيف الحقائق التاريخية التي أمكن التوصل إليها، بحيث تصبح كل مجموعة من تلك الحقائق مرتبطة بمرحلة تاريخية من مراحل البحث.

ب ـ عقد المقارنات بين حقائق كل مجموعة على حدة ومحاولة الربط بينهما، وإبراز مضمونها وإيضاح ما أضافته إلى الحقائق المعروفة.

جـ ـ سد الثغرات التي تظهر للباحث عند قيامه بعملية البناء التاريخي.

د ـ تحقيق الوحدة المطلوبة للبحث ـ سواء كان تقسيم الخطة زمنياً أو موضوعياً ـ بالربط بين الظواهر سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية.

هـ ـ أن تكون الاتجاهات الرئيسة للموضوع واضحة أمام المؤرخ خلال قيامه بعملية البناء التاريخي، وأن يكون قادراً على وضع المادة التاريخية في خدمة تلك الاتجاهات وليس إغراق نفسه وموضوعه في خضم المادة التي جمعها».

وخلاصة القول: لقد أثبت المؤرخ المسلم بوضوح تام ضرورة دراسة علم التاريخ دراسة نقدية، لاعتقاده أنها الطريق السوي لمعرفة العلاقة بين البيئة والنشاطات العمرانية التي يقوم بها الإنسان. كما تواتر أيضاً أنه طور في التركيب التاريخي ليكون منهجاً يستند على الاختبار والتحقيق والنقد العلمي فلم يخضعه لآرائه الشخصية بل على العكس حاول أن يكون نبراسه الصدق والأمانة العادلة، وهكذا استطاع المؤرخ المسلم أن يتبع في جميع دراساته منهجاً خالياً من الأهواء الشخصية؛ لأن علم التاريخ هو الوسيلة الموثوق بها لتثقيف الشعوب المتحضرة.

تفوق المؤرخ المسلم في طريقة بنائه لمادة التاريخ على غيره من المؤرخين في المعمورة؛ لأنه يتحقق من بنائه الأحداث التاريخية التي أمامه للدراسة وينظمها تنظيماً واضحاً ويقدم لها الشروح والتحليلات العلمية المقنعة. والجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين مستمرون في الخلاف في الرأي مع بعض المؤرخين في العالم وهذا الاختلاف بين المؤرخين في الرأي والتحليل يثري علم التاريخ ويعطيه الحركة والحياة، بدونه سيسيطر على علم التاريخ الجمود والركود، وعليه يتضح للقارئ تميز المؤرخين المسلمين في مجال التركيب التاريخي الذي يُعتبر القاعدة الأساسية للربط بين العناصر المختلفة لمادة علم التاريخ.

ضرورة دراسة علم التاريخ

المعروف أن علم التاريخ عبارة عن مجموعة من الحقائق والظواهر المنتظمة المتشابهة التي تصدر على صيغة تعليمات أو قوانين بواسطتها يستطيع المؤرخ المدرب أن يتنبأ حوادث أو ظواهر مماثلة، لذا يجب على المؤرخ أن يعتمد على المصادر المكتوبة والروايات الشفوية الموثوق بها؛ لأنها ستساعده على فهم تطور الجنس البشري عبر التاريخ، والثابت أن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين وضعوا الأسس الراسخة لدراسة علم التاريخ؛ لأنهم اهتموا والتزموا في التعرف على تجارب الأمم التي لها باع في نشأة الكتابة التاريخية النزيهة، وعليه تعتبر دراسة علم التاريخ ضرورية؛ لأنه جزء لا يتجزأ من الثقافة الإنسانية وبدونه يصعب فهم واستيعاب الفعاليات والتطورات الثقافية الأخرى.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «وإنما نحن ندرس التاريخ لذاته، ندرسه لنعرف ماضينا وما مر بنا من التجارب، وكيف وصلنا إلى ما نحن فيه، فتزداد ثقافتنا بهذا العلم غنى، وتتسع آفاق فكرنا وإحساسنا، ويزداد الفكر خصوبة وعمقاً والإحساس شفافية، وعندما ندرس تاريخ أمتنا تزداد معرفتنا بها وبتجاربها.. ونحن لا ندرس التاريخ لنتعظ به، بل لكي يزداد إحساسنا بأخوة البشر وبقيمة الإسلام والعلم، وبما يعود علينا وعلى غيرنا من الخير إذا نحن وجهنا جهودنا نحو الأعمال المثمرة البناءة وعملنا على تقوية شجرة الحرية؛ لأن التجربة علمتنا أن الحرية لب الحياة، وهي للجماعات الإنسانية كالهواء والضوء والماء للنبات. وبدون حرية فلا حضارة ولا تقدم ولا نهوض».

ولقد بلور علم التاريخ بطريقة واضحة وجلية للعلماء المتميزين في العالم أن إخوانهم الذين بذلوا جهداً عظيماً، لكي يبتكروا أسلحة الدمار الشامل، كان الأحرى بهم أن يتجهوا إلى اكتشاف المعدات المتقدمة من حيث التقنية التي تفيد الإنسان في حياته اليومية بدلاً من تقديم نظرياتهم العلمية لصنع القنابل بأنواعها الفتاكة. والمتواتر أن منهج علم التاريخ يفرض على المؤرخ أن

ينتقي مادته التاريخية، ويقدمها بصورة متزنة وبأسلوب يمتاز بالسهولة والصراحة، وعليه لا عجب أن يتناول علم التاريخ موضوعات في غاية الحساسية كالاكتشافات العلمية المتقدمة التي قصد بها دمار الجنس البشري. كما اشتهر مؤرخو العرب والمسلمين في تبنيهم مثل هذه الأحداث التاريخية والكتابة عنها بحياد ودقة، ولذا صارت مؤلفاتهم تمثل مزيجاً راقياً من الخطة والمادة العلمية. كل ذلك لأنهم يعتقدون أن علم التاريخ هو ذاكرة الشعوب والتي تتناقلها الأجيال، فإن أسماء كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب ومحمد بن موسى الخوارزمي وابن سينا وابن البيطار والجلدكي وغيرهم من جهابذة الفكر، تعتبر أسماء معاصرة نتحدث عنهم كل يوم؛ لأننا نعي تاريخ أمتنا المشرق.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «إن التاريخ هو نهر الحياة فإن هذا النهر متصل السير قبلنا وفي زماننا وبعد زماننا، وإذا قلنا: إننا عندما نكتب التاريخ فمعنى ذلك أننا نسجل التجربة الإنسانية، فإن هذه التجربة ما زالت سائرة متصلة الحلقات، والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل؛ لأننا إذا دققنا النظر تبينا لا شيء في الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن. وفي علم الطبيعة يقولون: إن المادة لا تفنى، أما في علم التاريخ، فنحن نقول: لا شيء يزول زوالاً تاماً إنما هي الأشياء نفسها تأخذ مع الأيام صوراً شتى».

من الصعب جداً أن يصل المؤرخ إلى الحقيقة الصادقة. ولكن بجده واجتهاده ودراسته العلوم المساعدة لعلم التاريخ، يمكنه أن يصل بحول الله جل وعلا إلى الحقيقة الصحيحة نسبياً، لذا يجب على المؤرخ اللبيب أن يركز في دراسته على الحقيقة الكامنة حول تطور الأمم من حيث رفعتها وما حل بها من هبوط وتدهور وانحلال، معتمداً بذلك على مختلف الأصول والمصادر على أن يكون أهمها تركة الإنسان وآثاره العلمية الموجودة في المكتبات والمتاحف في جميع أنحاء العالم.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وينبغي علينا أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلى الحقيقة المطلقة، إذ إن هذا الأمر غير مستطاع لعوامل مختلفة مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار، ومثل الأغراض والمصالح. ومن ذا الذي يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلقة في الماضي والحاضر. وهل يمكن للإنسان أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة بالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبياً، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح بالمعنى الصحيح في حدود إمكانه، وحينما يعكف المؤرخ على دراسة التاريخ لن يجد الوقائع أو الحوادث ماثلة أمامه، وعليه عندئذ أن يتجه إلى دراسة وفحص مخلفات الإنسان وآثاره من كتابات ونقوش ومصنوعات ومنشآت، وآثار الإنسان كلها تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ، وأحياناً قد يعثر المؤرخ على وثائق مزيفة سواء أكان ذلك قصد الدعاية أم الدفاع عن فكرة معينة أم من أجل الشهرة أم للإيجار والكسب، وعلى ذلك ينبغي أن تدرس آثار الإنسان ومخلفاته بروح النقد والحذر».

وخلاصة القول: لقد تفنن ونجح مؤرخو العرب والمسلمين في جمع كل من الروايات التاريخية وآثار الإنسان حيث اتبعوا منهج التدقيق والانتقاء، وذلك باستخدام موضوع الإسناد الذي يعتبر عصب علم التاريخ، كما فهم مؤرخو العرب والمسلمين فهماً جيداً تداخل وتشابك العلوم المختلفة بعضها ببعض، وأنه لايمكن أبداً دراسة أي علم من العلوم دراسة علمية متكاملة بمعزل عن العلوم الأخرى، وعليه يكون علم التاريخ هو العلم الوحيد الذي يجمع بين العلوم المختلفة، وهو أيضاً العلم الذي يقدم دراسة علمية لسلوك الإنسان في الماضي، وبذلك يمكن العثور على العناصر المشتركة بين مشاكل الحاضر والمستقبل التي يمكن حلها حل الذكي البارع.

كيف يجب أن يدرس علم التاريخ الإسلامي

من المعروف أن على أستاذ علم التاريخ واجبات كثيرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن يجعل محاضراته ملتقى علمياً للتحليل والمقارنة التاريخية، وأن ينتج طلاب علم في هذا الميدان الحيوي لديهم القابلية على كل من الاستقراء والتحليل والمقارنة والمناقشة الهادئة؛ لأن علم التاريخ مشهور بسعة مساحته وعمق أغواره. كما يجب على أستاذ علم التاريخ أن يركز على عوامل رقي الحضارات الإنسانية وأسباب سقوطها أيضاً، وفوق كل هذا كله يجب أن يتصف أستاذ علم التاريخ بحُسن الخلق والاستقامة والتدين والعفة والمرونة والمروءة، وأن يحث طلابه ألا يقتصروا على قراءة الموضوعات التاريخية الصرفة، بل من المستحسن أن يتعدوها إلى دراسة البحوث شديدة الصلة بعلم التاريخ لكي يكونوا طلاباً متميزين بآفاق واسعة في هذا المجال.

يقول **عماد الدين خليل** في كتابه «في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج والتحليل»: «وما من شك في أن أبسط مفاهيم التعليم التاريخي هي تخريج مثقفين معتزين بتاريخهم وأمتهم وحضارتهم، شاعرين في قرارة نفوسهم بالاستعلاء الثقافي والحضاري على بقية الأمم والتواريخ والحضارات، لاسيما وأن الشرق عامة والأمة الإسلامية خاصة تمثل في حضارتها لقاءات معطاءة بين السماء والأرض، وتنبثق في معظم الأحيان عن مصادر عليا للمعرفة والتوجيه لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وأن هذه النقطة بالذات هي ما يجب أن توضح دائماً في عملية التعليم لكي نغرس في كيان المثقفين مشاعر الاستعلاء، وإبعاد أي شعور بالنقص تجاه الحضارات الأخرى، وقطع الطريق على أية محاولة لتكريس التبعية الفكرية لدى هؤلاء.. إن هناك طلاباً يمتلكون معرفة فطرية للمعاني الكامنة وراء الأحداث، وأن على الأستاذ أن ينمي هذه القدرة؛ لأنه بهذا سوف يتيح للشرق أن يشهد في يوم من الأيام دراسات

تاريخية عملاقة كتلك التي قدمها توينبي واشنبغلر وغيرهما. كما أنـه بهـذا يؤكـد علـى القيـم الروحيـة في فهـم التـاريخ ويحطـم الجـدران المادية الضيقـة الـتي تخنـق الدراسات التاريخية وتمنع من النفاد إلى الأعماق».

وللأستاذ بوجـه عـام مكانـة مرموقـة في أحضـان الحضـارة العربيـة والإسلامية؛ لأنـه هـو العمـود الفقـري لتطويـر العمليـة التربويـة في العـالم الإسلامي، فمثلاً أستاذ علم التاريخ هو وحده الـذي يستطيع بعقلـه الراجـح وحكمته أن ينظر للأحداث التاريخية نظـرة أفقيـة بكـل إيجابياتهـا وسـلبياتها، وهو أيضاً الذي لديـه القـدرة العلميـة أن يقـدم علـم التـاريخ لطلابـه بطريقـة مملوءة بالحيوية المتدفقة. وقد خص الله تبارك وتعـالى دور الأسـتاذ العظيـم في كتابه القرآن الكريم عندما قال: ﴿يَرْفَعِ الله الذينَ آمنوا مِنكـمْ والذيـنَ أُوتُـوا العِلْمَ درجاتٍ﴾ [سورة المجادلة/ آية ١١]. كما مـيّز الله جـل وعـلا الأسـتاذ العالم على غيره مـن البشـر درجـات حينمـا قـال: ﴿قُـلْ هـل يَسْتَوي الذيـنَ يَعلَمونَ والذينَ لا يَعْلَمونَ﴾ [سورة الزمر/ آية ٩] ومن هـذا التوجيـه الجليـل قام العرب والمسلمون بما يلزم حيال الأساتذة العلماء، حيث جعلوا لهم مكانـة خاصة رفيعة تليـق في مكـانتهم العلميـة. ويكفـي الأسـتاذ فخـراً واعـتزازاً أن صفوة الخلق رسول الله ﷺ قال: «إنما بُعثت معلماً»، وصدق الخليفة الراشد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه عندما قال ـ وهو يتكلم مـع أبـي الأسـود الدؤلي ـ: «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك».

يقول كل من **محمد جاسم العبيدي ومالك الدليمي** في بحث لهما قدمـاه في ندوة مركـز الـتراث العلمـي العربـي بجامعـة بغـداد تحـت عنـوان: «مكانـة الأستاذ في الـتراث العربـي الإسـلامي» وذلـك سـنة (١٤٠٨ هجريـة): «لقـد كانت الخصائص والخصال العظيمة في تراث أمـة العـرب منـاراً مشـعاً للأمـم الأخرى، سواء أكـان في مجـال الاهتمـام بـالعلم أو لنظـره أو تطبيقـه، وكـان العامل المشترك في النقل والتعليم هو المعلـم الأسـتاذ العـالم الشـيخ إلى مختلـف

التسميات التي نالها القائم بالعلم وبالتعليم، وقد أعطى المجتمع العربي الإسلامي مكانة متميزة للأستاذ، وخاصة بعد ظهور الإسلام في بلاد العرب وما عقبه من دور الأستاذ في نشر الرسالة والتأكد في طلب العلم وإجلال العلماء، فقد تنافس بعض الخلفاء في أن يكون مجلسهم من المعلمين والمؤدبين والأساتذة والفقهاء وأهل الفنون. كان الأستاذ أبو معاوية الضرير يأكل مع الخليفة هارون الرشيد طعاماً على مائدة واحدة، فلما قام الأستاذ أبو معاوية لغسل يديه، نهض هارون الرشد وأخذ الإبريقة، وصب الماء على يدي أبي معاوية الضرير - وهو لا يدري - ثم قال له: أتدري من يصب الماء على يديك؟! قال: لا، فقال الرشيد: أنا، قال الضرير:أنت يا أمير المؤمنين! قال: نعم إجلالاً للعلم والعلماء».

وخلاصة القول: إن آراء أساتذة علم التاريخ الإسلامي صارت حججاً لا تقرع، حيث كانوا من أعمق المؤرخين في العالم تفهماً لروح علم التاريخ وأبعدهم تصوراً للأحداث التاريخية، لذا جاءت بحوثهم التاريخية غنية بالمصطلحات عميقة في تحليلها لمشاكل المجتمعات الإسلامية يومذاك، وعليه فقد تركوا آثاراً خالدة تشكل مصدراً رائعاً للراغبين في البحث في مجال علم التاريخ، لذا نستطيع القول: إن أساتذة علم التاريخ في العالم الإسلامي قد دربوا أبناءهم الطلاب على البحث العلمي التاريخي المرموق الذي فيه مكنوهم من تقديم خدمة جليلة لأمتهم التي هي الأخرى في أمس حاجة إلى مجهوداتهم العلمية المكتسبة.

لقد حارب أساتذة علم التاريخ في العالم الإسلامي بكل قوة يمتلكونها أمام طلابهم النظرة العقيمة إلى علم التاريخ كعلم جامد مسطح وإحداثة عمودية بالية أكل عليها الدهر وشرب. والحقيقة أن علم التاريخ هو بحق الضوء الكاشف عن كل من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والعلمية والدينية أي هو المعول لنشاط البشر على كوكب الأرض.

تطور علم التاريخ الإسلامي

المؤرخون في الماضي كانوا يبحثون بدقة متناهية فيما خلفه الإنسان ليعرفوا وقائع الماضي دون ربطها بالحاضر؛ لكي يفهموا حقيقة الحاضر وماذا سيتم في المستقبل؟، ولذا لم يبلغ علم التاريخ التطور المرجو، ولكن عندما انتشر الإسلام في معظم بقاع العالم ظهر مؤرخو العرب والمسلمين الذين استطاعوا بكل جدارة أن ينقلوا كلاً من خبراتهم وخبرات الأوائل إلى الأجيال اللاحقة؛ لأن تجاربهم ومهاراتهم العقلية والمادية زادت زيادة ملحوظة، حيث تمكنوا من استخدام العلوم المساعدة بكل ذكاء وبصيرة؛ لكي يطلعوا على علم التاريخ عن قرب، وعليه أسسوا المنهج العلمي لدراسة علم التاريخ، وذلك بربط الأحداث التاريخية بالحاضر والتخطيط بوضوح وحكمة للمستقبل المشرق.

يقول كل من **عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر** في كتابهما آنف الذكر: «فلقد كانت الكتابة التاريخية في أول أمرها عملاً أدبياً يتناول أحداث الماضي، لكن هذا العمل على أهميته كان يتم، وهنا كانت المرحلة الثانية من تطور الكتابة التاريخية التي تهتم وتركز على دراسة هذه القوى التي تعمل وتؤثر في حياة الناس، ومن آثار تلك المرحلة ظهور المذاهب التاريخية المعروفة التي أرجع أصحابها حركة التاريخ إلى عوامل روحية أو ذاتية أو طبيعية أو اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية أو غيرها».

لقد أصر مؤرخو الغرب بغطرستهم المعهودة على أن علم التاريخ يجب أن يقتصر على أعمالهم الغثة؛ لأن في اعتقادهم أن ما عملوه فيه الكفاية، وهذا التصرف بالحقيقة هو آفة الفكر الغربي الفاسد؛ لأنهم بهذا التصرف لا يعطون فرصة للآخرين ليس فقط مؤرخي العرب والمسلمين ولكن مؤرخي كل من الهنود والفرس وغيرهم، علماً أن إنتاجهم في مجال علم التاريخ ضحل ومملوء بالكذب والمبالغة والنفاق والتملق، بينما علم التاريخ عند العرب

والمسلمين احتل مكاناً مرموقاً بين العلوم الأخرى لأنه أقرب إلى قلوب الناس. وكما أنه نما وترعرع في بيئة علم، بل نبت في تربة علم الحديث الذي أسس على الإسناد والضبط الصادقين اللذين يعتبران أساس قيمة البحث العلمي في ميدان علم التاريخ. ولقد اشتهر مؤرخو العرب والمسلمين في تقويمهم السليم للحوادث التاريخية تقويماً علمياً دقيقاً مبنياً على البحث والتنقيب والاستقصاء عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة لمثل هذه الحقائق التاريخية، فإليهم يرجع الفضل في تقنين البحث العلمي وإبراز الإبداعات العقلية العربية والمسلمة دون الإسراف والمبالغة والخروج عن القصد والمألوف، وعليه صاغوا علم التاريخ صياغة علمية تخضع للتجربة الصحيحة وترفض الخرافة.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «كل تاريخ لتطور علم التاريخ نقرؤه في كتاب غربي لابد أن يكون بالضرورة ناقصاً، إذ إن هذه الكتب تسقط من الحساب ـ كلياً أو إلى حد كبير ـ الدور الضخم الذي قام به المؤرخون المسلمون في تطوير هذا العلم، وما نقول هذا مجاملة منا للسابقين من مؤرخينا بل نقوله لأنه حق، وإذا كان من الممكن الجدل في قيمة ما وصل إليه علماء العرب في الطبيعة والكيمياء بالنسبة لحالة هذين العلمين اليوم، فإنه لا جدال في أن ما وصل إليه الغربيون إلى أواخر القرن التاسع عشر على الأقل.. بدأ مؤرخو المسلمين على طريقة المحدثين المدققين الذين لا يروون خبراً إلا اعتماداً على سند متين موصول من رواة ذوي صدق وأمانة، وساروا بعد ذلك على مناهج علمية جديرة بكل تقدير ولهم ـ نتيجة لهذا ـ فضل كبير جداً في تطوير هذا العلم، ولكن مؤرخي الغرب ساروا على مبدأ أن العلم كله غربي».

وخلاصة القول: لقد استطاع مؤرخو العرب والمسلمين أن يسجلوا المآثر التاريخية الجبارة ـ التي وصلت إليهم عن طريق مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل ـ بطريقة علمية تمتاز بالبساطة والسهولة والوضوح والسلاسة والعمق، وبهذا جعلوا علم التاريخ صرحاً علمياً هائلاً لكل من العلوم البحتة والإنسانية؛

لأنهم في الحقيقة بذلوا جهوداً عظيمة في قراءة مختارات من آثار المؤرخين الأوائل والمعاصرين لهم بطريقة تمتاز بالإخلاص والصبر والمثابرة، وعليه نستطيع القول: إن مؤرخي العرب والمسلمين قد خلقوا مدرسة علمية صحيحة تعتمد على المقارنة والتحليل الدقيقين مع المحافظة على التقاليد التاريخية.

لاشك أن المنهج الذي تبناه مؤرخو العرب والمسلمين ساعدهم على تأصيل معلوماتهم التاريخية تأصيلاً منيعاً وصائباً، حيث استنبطوا معنى الحوادث التاريخية وخلدوا وحددوا معالمها الرئيسة. بهذا ابتعدوا عن العشوائية والتخبط والخرافة، وأصبح منهجهم يستند على الإسناد والبحث والضبط واستجلاء المعارف والاستدلال الصادق، كل هذا صار لأنهم اعتمدوا على رصيد قيم من التجارب الفكرية والنفسية والعقيدية التي خلفها لهم مؤرخو العرب والمسلمين الأوائل.

الفائدة المجنية من علم التاريخ

لو نظرنا بتمعن لوجدنا أن كثيراً من المشاكل المعاصرة لا نستطيع تفسيرها تفسيراً مقبولاً إلا بالرجوع إلى علم التاريخ؛ لأن علم التاريخ المصدر الوحيد الذي له اتصال قوي بالعصور القديمة والوسيطة والحديثة، وعليه درس مؤرخو العرب والمسلمين بكل اهتمام المعارف التي أسهمت في تكوين المادة التاريخية، والتي ساعدت أيضاً بدورها في تقدم علم التاريخ، لذا تمكن المؤرخ المسلم أن يجني بجدارة الفائدة التاريخية القائمة على الاستدلال العقلي الذي يُعتبر عصب التفكير العلمي الصحيح.

يقول **غازي حسين عناية** في كتابه «مناهج البحث العلمي في الإسلام»: «لقد بلور الإسلام أسلوب الاستدلال العقلي، وبناه على دلالات المنطق في الاستنباط والتأمل النظري لظواهر الوجود المتعدد، وصولاً إلى حقائق المعرفة المبتغاة كدلالة أن الصنعة تدل على الصانع وأن البعرة تدل على البعير، وأن الدخان يدل على النار، وأيضاً كدلالة أن الأسباب تؤدي إلى النتائج وأن الكل أكبر من الجزء...إلخ، فبالتأمل الفطري لظواهر الكون من مخلوقات وسماوات وأراض، وجن، وإنس، وماء، وهواء، وجماد، ونبات، استدل العقل الإنساني فطرياً على وجود الله الخالق لها».

لقد جمع الكثير من الفقهاء وأئمة المسلمين بين الفقه والتاريخ، حيث إنهم يعتقدون أن علم التاريخ الوسيلة المتميزة لفهم الفقه والعلوم الشرعية على الوجه الأكمل، كما أنهم عرفوا أن علم التاريخ مصدر قوي لتثقيف الناس، خاصة بعد ظهور المذاهب المتنوعة التي تشحذ الفكر البشري والتي دفعته إلى التحري والإبداع، اللذين يساعدان على تفسير بعض الحوادث التاريخية بطريقة علمية مقنعة، بهذا استطاع مؤرخو العرب والمسلمين من رسم صورة واضحة للإنسان الذي نبراسه العقيدة الإسلامية السمحة، ومرجعه كتب كل

من السيرة النبوية والفقه والحديث والطبقات والتراجم والبلدان والفتوح والخطط وغيرها من الكتب التي تهتم بالجانب الإسلامي.

يقول **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه «مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية»: «ارتبطت الكتابة منذ بدايتها في صدر الإسلام بالعلوم الدينية ارتباطاً وثيقاً، فكان المؤرخون الأولون يكتبون في السيرة النبوية وفي المغازي وفي نسب قريش وفي الطبقات وفي التراجم لرجال العلم والفقه والحديث، ومما لاشك فيه أن القرآن الكريم أكد أمثلة الشعوب الماضية البائدة لما تنطوي عليه هذه الأمثلة من عبر دينية ومواعظ خلقية. كما جاء القرآن بنظرة عالمية إلى التاريخ ممثلة في تتابع النبوات، وكان لهذه النظرة أثرها العميق في اهتمام كتاب العرب بدراسة تاريخ الرسل والأنبياء. يضاف إلى ذلك أن القرآن نص على أن سيرة الرسول مثل للمسلمين يقتدون بها، وكان لهذا التأكيد أثره في عناية كتاب العرب بدراسة السيرة النبوية ودراسة حياة الرسول. وقد سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول باسم المغازي».

شهد المؤرخون في العالم بصراحة لمؤرخي العرب والمسلمين بكل من النزاهة والحيطة والمقدرة على الاستقراء في ميدان علم التاريخ، بهذا فهم الذين أرسوا قواعده المبنية على حقائق تاريخية هامة، لذا يعرفون تمام المعرفة أن علم التاريخ هو المصدر الفريد المعبر عن جميع أوجه نشاطات الإنسان المتنوعة والظروف التي لابستها. كما أنه كان واضحاً لهم أيضاً أن علم التاريخ يمتلك صيغة لها أبعاد كثيرة، وعليه أصبح علم التاريخ الإسلامي موضوع دراسة علمية راقية بالمعنى الدقيق.

يقول **عماد الدين خليل** في كتابه آنف الذكر: «فإذا ما انتقلنا إلى التاريخ الإسلامي بالذات هو تاريخنا، والزاوية التي يجب أن ننطلق منها لفهم تاريخ العلم.. التاريخ الإسلامي الذي يتميز عن غيره من التواريخ بمعالم وسمات أصيلة تهبه شخصية مستقلة، والذي يعبر أكثر من غيره عن حصيلة

أعظم لقاء بين السماء والأرض، وعن طموح الإنسان المؤمن لإعادة سير التاريخ في مجراه الطبيعي وانطلاقه نحو هدفه المرسوم في الكون.. التاريخ الذي يصور لنا الجهود العملاقة التي بذلها المسلمون لتشكيل مصير العالم وفق منهج متفرد يجمع في إطار واحد، الظاهر والباطن، والحضور والغياب، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والمادة والروح.. ويفتح أمام الإنسان الطريق لتقديم أقصى ما عنده من طاقات في بناء حضارة غير متأرجحة ولا مزورة».

وخلاصة القول: إن التفكير التاريخي ناتج عن تفاعل الإنسان مع بيئته، ولقد ثبت بما لا يقبل الشك أن البيئة لها أثر عظيم في صناعة علم التاريخ، فعلم التاريخ الإسلامي أشرق بصوره المتعددة النافعة؛ لأنه نما وترعرع في أحضان الشريعة الإسلامية، فكما أن كتاب الله القرآن الكريم عرض أمثلة تاريخية كثيرة مشحونة بالعظاة والحوادث التي استفاد منها المؤرخون، والتي لا يستغنون عنها بأي حال من الأحوال. ومن فوائد علم التاريخ أنه يعطي فكرة واضحة حول كل من أسباب ونتائج الغارات والحروب ومقومات الحضارة الإنسانية، لذا يكون الباحث في مجال علم التاريخ لديه المعرفة العميقة لكل من التجارب والخبرات والأدوار التي مر بها الإنسان عبر الزمان، وهذا بحد ذاته يلزمه أن ينقل هذه المعارف القيمة إلى الأجيال القادمة بكل صدق وأمانة.

ركز علماء العرب والمسلمين على دراسة علم التاريخ؛ لأنه يحتل مكانة مرموقة وسط العلوم الإنسانية، ويتضح ذلك الاهتمام من آلاف الكتب التاريخية التي ألفوها والتي تناولت شتى الميادين. كما أنه لم يعرف بوضوح الإصلاح التاريخي الذي يقصد به الإنسان والزمان وما يطرأ على أحوال الإنسان إلا في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

علم التاريخ الإسلامي
مناظرة بين الماضي والحاضر

الرؤية التاريخية تختلف من عصر إلى آخر، فهي في الحقيقة ليست ثابتة كما يظن البعض، بل مستمرة في التغير عبر الزمان، وهذا التغير يعرف لدى المؤرخين بالمناظرة بين الماضي والحاضر، لذا شمخت ونمت أصول علم التاريخ. ومما لاشك فيه أن المؤرخ يستنير من اطلاعه على ماتم في الماضي لكي يستوعب وقائع الحاضر، ومنه يستطيع بجدارة أن يبرز الأخطاء التي وقع فيها الأجداد فيبتعد عنها وينصح معاصريه أن يعملوا المثل. والحقيقة أن المناظرة بين الماضي والحاضر هي التي تقود إلى التخطيط للمستقبل المشرق، ومن دونها سيكون علم التاريخ جامداً وعبارة عن سجل للأحداث التاريخية التي أكل عليها الزمان وشرب. والجدير بالذكر أن مؤرخي العرب والمسلمين تميزوا في تقديم نتائج دراستهم التاريخية المبنية على التقصي لحقائق المعرفة البعيدة كل البعد عن ظواهر العاطفة في التفكير والبحث والصياغة.

ينقل **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «يقول كثير من العلماء: إن كل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظره؛ لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له، يختلف عن تقدير العصر الآخر، وكل عصر كذلك يحاول أن يرى الماضي من خلال اهتماماته والأفكار السائدة فيه، ومن هنا قال كثيرون من المؤرخين: إن التاريخ حوار بين الحاضر والماضي، وهذا في ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة في الدراسة التاريخية، فإن التاريخ بطبعه ـ كدراسة للإنسان وأعماله ـ تتأثر صورته التي يراها المؤرخ تأثراً واضحاً بالأحوال المادية والمعنوية في الوسط الذي كتبت فيه، وليس في هذا عيب أو مأخذ على التاريخ، فكل العلوم الاجتماعية تخضع لهذا التأثير،

وصورة المتنبي كما يرسمها مؤرخ أدب في القرن الثامن عشر مثلاً تختلف عن صورته كما يرسمها مؤرخ أدب اليوم، وكذلك الحال مع الدولة الأموية مثلاً فإن تصوير الجاحظ لها يختلف تماماً عن تصويرنا نحن لها».

للعرب والمسلمين فضل عظيم في تطوير علم التاريخ وجعله علماً قابلاً لمسايرة الحضارات المختلفة وأقلمتها، فهم الذين طوّروا الفكر الاجتماعي والاقتصادي في الحياة الإسلامية وجعلوه يخضع تماماً لعلم التاريخ. من هنا تمكنوا من التعرف على الأحداث التاريخية التي كانت لهم عظة وعبرة. لقد تميز مؤرخو العرب والمسلمين في تحليلهم الظواهر التاريخية تحليلاً علمياً أدى إلى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر التاريخية والأسس التي قامت عليها الحيثيات التي مرت بها. والحق أن العقيدة الإسلامية ساعدت على إضفاء المميزات الروحية السامية على علم التاريخ الإسلامي، لذا أصبح علم التاريخ عبارة عن مناظرة علمية بين الماضي والحاضر أعانت الأمة الإسلامية على إدراك حقيقتها وحقائق غيرها من الأمم. نستطيع أن نقول الآن: إن علم التاريخ الإسلامي قنديل يضيء لنا منعطفات وخنادق الحاضر والسبيل المستقيم للمستقبل. وعليه يجب أن يدرس المؤرخ علم التاريخ بطريقة مرنة لكي يتسنى له الحصول على الحقيقة الناصعة التي تساعد معاصريه على محاربة الخرافات والأساطير؛ لأن علم التاريخ في طبيعته له لذة عظيمة عند السماع وعبرة عند التفكير.

يقول **حسين مؤنس** في مقالة له تحت عنوان: «ماهية التاريخ ولماذا ندرسه؟» ـ نشرت في مجلة عالم الفكر عام (١٣٩٤ هجرية) ـ: «وبديهي أن أي مؤرخ ذكي يتحرى دائماً أن يكتب ما يكتب من التاريخ على صورة تنفع معاصريه أو تكون ذات قيمة ونفع لهم على الأقل، ومن هنا كانت كتابة سير عظماء الرجال موضوعاً مطلوباً دائماً؛ لأن النفس الإنسانية تميل دائماً إلى معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال، ولهذا فكتب التراجم دائماً كتب ذات

معنى للحاضر، والهدف الرئيس من الحوار التاريخي أو مـن النظـر إلى التـاريخ كحوار بين عصرنا والعصور الماضية هو أن نرى أين الخطأ لكي لا نقـع فيمـا وقعوا فيه..ومن هنا يجوز لنا أن نقول: إن الماضي كما يراه جيلنا يختلـف عـن نفس الماضي كما رآه الجيـل السـابق لنـا، وكمـا سـيراه الجيـل الـذي سيأتي بعدنا، ومن هنا يصدق القول: بأن للأمـة الواحـدة أكـثر مـن تـاريخ، ولابـد ـ لهذا ـ لكل عصـر أن يكتـب التـاريخ مـن وجهـة نظـره.. وإذا نحـن اعتبرنـا التاريخ حواراً بين أجيالنا والأجيال السـابقة، فينبغـي أن تتسـع مـائدة الحـوار حتى يكون فيها لكل قوم من أهل الأرض مقعد وصوت. وهنا فقط يمكن أن يقال: إننا نستطيع كتابـة تـاريخ عـالمي. أمـا أن يكـون التـاريخ العـالمي قصـة الصراع بين دول أوربا على سيادة العالم فهذا زيف مقصود أو غير مقصود».

وخلاصة القول: إن علم التاريخ الإسلامي مصدر عظيـم لتوسـيع آفـاق المؤرخ المسلم، ويتضح ذلك لتميزه عن غيره من المؤرخـين في العـالم بسـبب كل من: (١) ثقافته الواسعة (٢) قدرته على الاستقلال في التحليل والمقارنـة. (٣) إمكانياته الفريدة على تفنيد الأفعال والأحداث التي تحدث على كوكـب الأرض. (٤) معرفته العالية بالمعارف التي لها صلـة وثيقـة بعلـم التـاريخ. (٥) تنسيقه المعلومات المتنوعة وجعلها مترابطة تتسم بالصدق والأمانـة. ومـن هنـا استطاع المـؤرخ المسـلم أن يُـبرز ويُفسـر كـل الأحـداث والظواهـر التاريخيـة متقمصاً منهج المناظرة بين الماضي والحاضر.

لقد ظهرت مذاهب متعددة في مجال علـم التـاريخ تفسـر كـل الأحـداث والظواهر التاريخية. ولاشك أن هذه المذاهـب شـحذت ذهـن المـؤرخ المسـلم ودفعته إلى اكتشاف اتجاهات جديدة في ميـدان علـم التـاريخ تناسـب وتعـزز موقف معاصريه، ومن هنا تبلورت المناظرة بـين المـاضي والحـاضر وصـار لهـا صداها الفاعل، وبدونها سيصبح علـم التـاريخ عبـارة عـن مخـزن للأحـداث التاريخية القديمة البالية.

علم الأنساب

كان لعلم الأنساب مكانة مرموقة بين القبائل العربية قبل إشراق الدين الإسلامي، وعليه حاول علماء العرب والمسلمين بكل ما يملكون من قوة أن يخففوا من تأثيره ويجعلوا الرابطة الإسلامية تحل محله، وبذلك أوشكوا على النجاح، إلا أنه ظل الشعور نحو القبيلة متأصلاً، حيث تبلور واستمر تفاخر الحكام ورؤساء القبائل بأجدادهم، مما جعل تدوين علم الأنساب يسبق بكثير علم التاريخ، وعليه فقد ظهرت أعداد كثيرة من الكتب القيمة في هذا المجال؛ لأن علماء العرب والمسلمين كانوا يعتقدون أن الكتابة أهم وأخلد ذكراً من الآثار والبنيان والحجارة وغيرها. من هنا أصبح علم الأنساب جزءاً لا يتجزأ من علم التاريخ الذي خدمه علماء العرب والمسلمين خدمة جليلة عبر العصور.

يقول **أحمد أمين** في كتابه «ضحى الاسلام» ـ الجزء الثاني ـ : «عني مؤرخو المسلمين بالأنساب، وذلك أن العرب كانت بحكم طبيعتها تعيش قبائل، وتعد القبيلة وحدة كوحدة الأسرة، وتمحى فيها شخصية الفرد إلى حد كبير، فالمحمدة يأتيها الفرد محمدة للقبيلة، والعار يرتكبه الفرد عار للقبيلة، والشاعر يشعر للقبيلة، والخطيب يخطب للقبيلة، والوفود تفد باسم القبيلة، وهكذا ملكت عليهم القبيلة أنفسهم وتفكيرهم، فلما جاء الإسلام أراد أن يحل الأخوة الدينية محل الرابطة القبلية، ووجدت الرابطة الدينية فعلاً وكانت قوية شديدة، ولكن لم تمح العصبية القبلية، فظل المسلمون ينحازون في القتال إلى قبائل، ولما دوّن عمر بن الخطاب ديوان الخراج بدأ بالعباس عم النبيﷺ ثم ببني هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة، فراعى الاعتبار الديني والاعتبار القبلي معاً، وفخر القبائل بما كان لها من مواقف في قتال فارس والروم.. وعاش الأمويون عيشة عربية يقاتلون بالعصبية القبلية ويتخذونها سلاحاً لهم».

لقد أخذ المؤرخون باهتمام العرب في الجاهلية بعلم الأنساب، لذا صار هذا العلم شكلاً من أشكال التعبير التاريخي المحبب للنفس، بهذا احتفظ علم الأنساب بمكانته بعد الفتوحات الإسلامية الأولى، ويتضح ذلك من عناية بني أمية بهذا الجانب، فهم الذين وضعوا القواعد العلمية لتسجيله لكي يكون صورة من صور التاريخ الإسلامي، من ناحية أخرى حارب بنو العباس علم الأنساب مدعين أنه لم يثبت أبداً أن الشعر الجاهلي قد تعرض لكل من قبيلتي عدنان وقحطان، ولم يعثر أيضاً في النقوش اليمنية أو الثمودية أو الصفوية ما يتعلق بهذا الموضوع، لذا اعتبره نوعاً من الشعوبية المرفوضة، وعلى الرغم من هذا كله بقي الباحثون في العصر العباسي يدرسون علم الأنساب عن كثب. وهذا يظهر واضحاً من المؤلفات الرائعة التي كتبت في هذا الميدان لكل من أبي اليقظان والنسابة هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هجرية) والهيثم بن عدي (٢٠٦ هجرية) ومصعب بن الزبير (ت ٢٣٣ هجرية) والبلاذري (ت ٢٧٩هجرية) وغيرهم.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه «نصوص ودروس في نشأة علم التاريخ عند العرب»: «خدمت دراسات الأنساب علم التاريخ في المادة وفي خطة الكتابة. فقد تجددت العناية بالأنساب في الإسلام. وجاء إنشاء (الديوان) بدافع جديد للاهتمام بها. وقد شجع الأمويون ابتداء من معاوية مثل هذه الدراسات، ويروى أن الوليد الثاني أمر بعمل سجل واف بالأنساب. ثم إن الحاجات الإدارية كتنظيم العطاء وإسكان القبائل في الأمصار أدت إلى وضع سجلات بالأنساب وعززت الاهتمام بها، يضاف إلى ذلك الخصومات القبلية وأثر الأوضاع السياسية على وضع القبائل، وظهور ارستقراطية جديدة في الإسلام، والعوامل الاجتماعية، وكل هذه شجعت دراسات الأنساب، وأخيراً فإن المناقشات مع الشعوبية وتهجم هؤلاء على الأنساب أدت إلى تأكيد جديد على دراسة الأنساب».

وخلاصة القول: استطاع الشعوبيون في العصر العباسي أن يثيروا مثالب كل قبيلة عربية، مما دفع المؤرخين إلى الاهتمام الحقيقي في علم الأنساب. من هنا أصبح علم الأنساب فرعاً من فروع علم التاريخ على الرغم من أن بعض علماء المسلمين المشهورين حاولوا جادين أن تحل الأخوة الإسلامية محل التعصب القبلي؛ لأن العقيدة الإسلامية هي التي أعطت تصوراً واضحاً للكون منذ الخلق حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ليس من العيب أن يلم الإنسان بأخبار القبائل العربية الأصيلة، ولكن العيب التفاخر بذلك. لقد تواتر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان نسابة وله باع طويل في معرفة تاريخ القبائل العربية، ولكنه أبعد الناس من العصبية المنتنة. والشيء المحزن أن الأمويين كانوا يحاربون الشعوب بالعصبية القبلية، مما أعطى الحكام والأمراء ورؤساء القبائل الفرصة لأن يتباروا في هذا الميدان، ويجعلوا علم الأنساب القوة المحركة للعلم التأريخي، لذا كتبت المصنفات العديدة التي تعنى بتراجم وسير أشراف العرب حسب أنسابهم. ولا شك أن علم الأنساب كان له دور عظيم في الأندلس؛ لأن الصراعات كانت قائمة على أشدها بين العرب والبربر والصقالبة، لذا صار علم الأنساب حقلاً أساسياً من حقول علم التاريخ.

الباب الثالث

المدارس التاريخية في العالم الإسلامي

المدارس التاريخية في العالم الإسلامي

في بادىء الأمر اهتم علماء العرب والمسلمين اهتماماً بالغاً بعلم التاريخ، مما جعلهم يفكرون في إنشاء مدرسة تاريخية، لذا أسسوا المدرسة الأولى لعلم التاريخ في المدينة المنورة التي بقيت عبر التاريخ من المصادر الضرورية للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ الإسلامي، وصار طلاب العلم يفدون إليها من جميع أرجاء البلاد الإسلامية للدراسة والبحث. والجدير بالذكر أنه لم يمض وقت طويل حتى انتشرت المدارس التاريخية في العالم الإسلامي.

كانت لمدارس بغداد التاريخية في العصر العباسي الأول صولة وجولة في العالم الإسلامي، بل هي المدارس التاريخية المعروفة آنذاك، ولكن بدأت معالم الشيخوخة عليها عند مطلع القرن الرابع الهجري، لذا ظهر الحماس للمدارس التاريخية الإقليمية في الأقطار الإسلامية الأخرى من العالم الإسلامي، لذلك انتشرت المدارس التاريخية في كل من مصر والمغرب والأندلس وإيران والشام واليمن، وهذه المدارس التاريخية صارت تمتلك رأياً تاريخياً مستقلاً عن مدارس بغداد التاريخية التي كانت تعتبر في السابق مصدراً للمعارف التاريخية لجميع البلدان الإسلامية. ومن هنا أنتجت هذه المدارس التاريخية مؤرخين كباراً لهم باع طويل في علم التاريخ ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن أيضاً في العالم أجمع. ولاشك أن هذه المجموعة من فطاحل علم التاريخ شُيِّدت على أكتافهم الحضارة الإسلامية، وهم الذين أرسوا قواعد البحث في ميدان علم التاريخ.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «ومن هذا وذلك توزعت الأقطار الإسلامية تدوين التاريخ مرة أخرى، ولكن على أساس جديد لعبت فيه القوى السياسية الدور الأول؛ بمعنى أن المدارس الجديدة إنما كانت تقوم وتتوطد حيث تظهر الدول المنقطعة. قامت في الأندلس والمغرب حيث ظهرت إِمارة ثم خلافة الأمويين وظهرت إِمارة الأدارسة والأغالبة.. وقامت

في مصر حيث ظهر الإخشيديون بعد الطولونيين ثم الفاطميون ثم الأيوبيون، وقامت في إيران الزرادشتية.. أما الشام واليمن فلأنهما على ما يبدو ظلا قُطرين تابعين تارة للخليفة العباسي وولاته، وتارة أخرى لخليفة مصر الفاطمي وولاته فإن مدرستهما التاريخية ظلت أضعف في القوى غير مشهورة المؤلفات ولا كثيرة المؤلفين نسبياً.. كان الاهتمام المحلي بالأمور التاريخية الإقليمية ينبع: (١) من حب الموطن والتعصب له والتفاخر برجاله. (٢) من الحاجة الحياتية لمعرفة التجارب السياسية المحلية والاستفادة منها. (٣) من الرغبة في تمجيد الحكام المحليين لأغراض سياسية أو نفعية. (٤) من قرب المعلومات وأصحابها إلى المؤلفين والاهتمام بالقريب أكثر من البعيد. (٥) ومن أسباب سياسية واقتصادية شتى تتعلق بتحول الأحداث الهامة مع الأيام من منطقة إلى أخرى».

لقد تبلورت بين المؤرخين المسلمين آنذاك ظاهرة أن كل مؤرخ أدرى بأحوال بلده وأقرب لفهم حوادثه التاريخية من غيره، لذا كثرت المدارس التاريخية الإقليمية في أرجاء العالم الإسلامي. ومن هنا انتشرت فكرة معرفة الإنسان لأخبار منطقته أهم بكثير من معرفة أخبار بلاد أخرى. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين يرون أن هذا الحدث نتيجة التفكك السياسي الذي صار بين القرن الرابع والقرن السابع الهجريين، حيث بقي كل بلد يحاول أن يبرر الانفصال عن الخلافة العباسية في بغداد بأنه يريد إثبات شخصيته داخلياً وخارجياً، وعليه تعددت المذاهب السياسية في العالم الإسلامي منذ ذلك الوقت.

يقول **الحافظ أبو بكر بن أحمد بن علي الخطيب البغدادي** في كتابه «تاريخ بغداد» ـ الجزء الأول ـ: «أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسى بن عبد العزيز البزار بهمذان قال: سمعت أبا الفضل صالح بن أحمد بن محمد التميمي الحافظ يقول: (ينبغي لطالب الحديث ومن عنى به، أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله، وتفهمه، وضبطه حتى يعلم صحيحه وسقيمه، ويعرف

أهل التحديث به وأحوالهم معرفة تامة إذا كان في بلده علم وعلماء قديماً وحديثاً، ثم يشتغل بعد بحديث البلدان والرحلة فيه)».

وخلاصة القول: لقد بدأت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية على قدم وساق في العصر الأموي والعباسي، مما ساعد على قناعة كل من ولاة الأمر وقادة الفكر آنذاك على تأسيس مدارس تاريخية لإنقاذ الإنتاج العلمي للحضارات القديمة لكي تستفيد الأجيال التالية منها. وعليه أنشئت مدارس تاريخية في بغداد تبنت مسارين عامين، الأول: يختص بأهل الحديث، أما الثاني: فركّز على كل من الأنساب والروايات الشفهية والمدونة للأحداث التاريخية.

والمعروف أن جميع المدارس التاريخية التي قامت في العصر العباسي الأول كانت تستلهم معارفها من المدارس التاريخية التي كانت منتشرة في بغداد، ولكن الأمر لم يستمر طويلاً، بل في مطلع القرن الرابع الهجري ظهرت بوادر رغبة بعض المدارس التاريخية في العالم الإسلامي في الانفصال عن المدارس التاريخية في بغداد، لذا أقيمت مدارس تاريخية إقليمية هامة في معظم الأمصار الإسلامية؛ وهذا ناتج من تحمس المؤرخين المسلمين الأوائل لمثل هذا الاتجاه معتقدين أنه سينعش الحركة العلمية في الأمة الإسلامية.

وليس هناك في الحقيقة فروق كبيرة بين المدارس التاريخية في الأقطار الإسلامية، لأن الأسس الفكرية والعقائدية والاتجاهات العلمية تكاد تكون متشابهة، إلا أن الصفة الإقليمية الصغيرة جداً كانت تظهر في بعض الأحيان، حيث إن المدرسة التاريخية الإقليمية أعرف وأقرب بمفكريها وبالأحداث التاريخية المحلية، وعليه أنشئت المدارس التاريخية في جميع الأمصار الإسلامية.

مدرسة المدينة المنورة التاريخية:

نشأ التاريخ الإسلامي مستقلاً عن كل من التاريخ اليوناني والتاريخ الروماني والتاريخ الفارسي، بل استمد قواعده من القرآن الكريم الذي حثّ المسلمين على الاهتمام بتاريخهم لكي يتجنبوا الأخطاء التي وقعت فيها الأمم

السابقة لهم. والقرآن الكريم يحتوي على معارف رائعة حول مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

بدأت مدرسة المدينة المنورة التاريخية على شكل حلقات دراسية تعقد أغلبها في المساجد وهي مفتوحة لجميع طلاب العلم. وقد ركز الأساتذة في بادىء الأمر على تدريس كل من القرآن الكريم ويليه أخبار الرسول ﷺ . وهذا عائد لبداية التأليف في ميدان التاريخ الإسلامي الذي كان يعتمد تماماً على كل من القصص القرآنية وسيرة الرسول ﷺ وأخبار غزواته ومن ساهم فيها. والجدير بالذكر أنه عندما يجتاز طالب العلم الحلقة الأولى ينتقل إلى الحلقة الثانية، وهكذا حتى تتولد لدى أستاذه قناعة استحقاقه الإجازة العلمية فإذا منح الإجازة العلمية يمكنه أن يزاول التدريس وغيره.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «عند العرب بدأت الدراسات التاريخية وغير التاريخية في حلقات للدراسة، تحيط كل حلقة بأستاذ، وقد كانت حلقات الدراسة مفتوحة، وقد يبرز طالب العلم في حلقة من الحلقات حيث يجتازها إلى حلقة أخرى، وكانت الروايات تسير في سلسلة، ولما كانت المدينة عاصمة الرسول والخلفاء الأول، ومركز تجمع الصحابة، ولما كانت البلد الذي نزل فيه الدين الجديد، تولدت حاجة ملحة عند المسلمين الجدد الذين انتشروا في بقاع بعيدة واسعة إلى معرفة أكثر عمقاً بالدين الجديد وبصاحب الرسالة، كما تولدت لديهم حاجة أخرى لمعرفة الأحكام الإسلامية والحديث والسُنن والتفسير وتفاصيل الهجرة والمغازي. ولما كانت المدينة الموطن والمقر لعلماء المسلمين وهم يومئذ القراء والحفاظ من الصحابة، كان من الطبيعي أن يتوجه طلبة العلم إلى مدينة الرسول، حيث تصدى لإيضاح ذلك أبناء الصحابة أنفسهم، فكان أن تعددت حلقات الدراسة، مشكلة النواة لنشوء مدرسة التاريخ في المدينة. وقد تميزت هذه المدرسة التاريخية بالمعرفة التاريخية الإسلامية وتحديداً في الحديث و (المغازي) وفي الفقه».

كانت أخبار الجاهلية منتشرة بين سكان المدينة المنورة، وبقوا يتناقلونها بينهم ويحبون السماع إلى الخرافات والأساطير الجاهلية البالية، إلى أن دخلوا في الإسلام وقويت عقيدتهم، فتركوا أخبار الجاهلية العقيمة جانباً واتجهوا إلى كل من قراءة القرآن ودراسة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته والبحث العلمي، لذا أشرقت الحركة العلمية في المدينة المنورة، ومن هنا بدأت فكرة مدرسة المدينة المنورة التاريخية النظامية تتبلور، وفيها ركّز المؤرخون المسلمون على دراسة كل من تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأخبار غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم التي رواها الصحابة والتابعون ومن بعدهم بالأسانيد القوية الموثقة، وهكذا صارت مدرسة المدينة المنورة التاريخية متخصصة بهذه الميادين، لذا اعتبرها المؤرخون المسلمون مصدراً هاماً جداً للباحثين في مجال التاريخ الإسلامي، ونتيجة لذلك أصبح طلاب العلم يأتون من الأمصار الإسلامية إلى المدينة المنورة لهدفين: زيارة مسجد رسول الله ﷺ وطلب العلم.

يقول **أحمد أمين** في كتابه آنف الذكر: «أول ما عنيت به مدرسة المدينة التاريخية سيرة النبي ﷺ وما يتبعها من مغاز، وإن هذا النوع من التاريخ اعتمد على شيئين: الأول: ما كان دائراً بين العرب عن أخبار الجاهلية كأخبار جرهم ودفن زمزم، وأخبار قصي بن كلاب وغلبته على أمر مكة وجمعه أمر قريش، ومعونة قضاعة له، وقصة سد مأرب ونحو ذلك، والثاني: أحاديث رواها الصحابة والتابعون ومن بعدهم عن حياة النبي ﷺ من ولادته ونشأته ودعوته إلى الإسلام، وجهاده مع المشركين وغزواته، وعلى الجملة أخباره إلى حين وفاته، وقد أضافوا إلى أخبار الجاهلية والإسلام الأشعار التي رويت في هذه الموضوعات، مما يصح بعضه و لم يصح بعضه عند الثقات».

وخلاصة القول: لقد ركز المؤرخون المسلمون في مدرسة المدينة المنورة التاريخية على دراسة القرآن الكريم وحياة الرسول ﷺ وغزواته وحروبه

بشكل تفصيلي والذي خدم كلاً من العقيدة الإسلامية وعلم التاريخ الإسلامي، لذا أدخل المؤرخون المسلمون على دراسة علم التاريخ الإسلامي سلسلة الرواة (الإسناد) الذي ولد قاعدة التبحث والتحري. إذن نستنتج من هذا أن بداية التأليف العلمي في التاريخ الإسلامي كان شديد الصلة بكل من القرآن الكريم وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله وأعمال الصحابة وأخبار الغزوات والجهاد.

المعروف أن المؤرخين المسلمين كانوا يعتمدون على الروايات الشفهية الموثوقة مثل المحدثين الذين يروون أحاديث صفوة الخلق رسول الله ﷺ ، وعليه يمكن استخلاص أن المحدثين يهتمون بالروايات التي تعطي قواعد فقهية أو خلقية، أما المؤرخون فيعنون بالروايات التي تمدهم بسرد الأحداث. إذن نستطيع القول: إن علم التاريخ الإسلامي سار على الطريقة التي سلكها الحديث.

مدرسة الشام التاريخية:

عندما كثرت الفتوحات الإسلامية برز شعور قوي نحو دراسة علم التاريخ والتعمق فيه، وذلك ليستفيدوا من الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية للشعوب القديمة الذين عاشوا على كوكب الأرض، نتيجة لذلك بدأت مجموعة كبيرة من الصحابة رضوان الله عليهم ومن المثقفين العارفين بأخبار العالم العربي في الجاهلية، يتحدثون عن الحركة التاريخية لدى الأوائل وينوهون عن محاسن وفضل الإسلام على حكام البلاد التي فتحها المسلمون والتي اعتنق مواطنوها الإسلام، حيث صار للمسلمين الحكم والسيادة على جميع الأمصار التي افتتحوها. من هنا أشرقت فكرة مدرسة الشام التاريخية؛ لكي يتذكروا فيها أخبار الأمم ويقارنوا بينها وبين وضع الأمة الإسلامية العادل. ولاشك أن الدولة الإسلامية حينئذ في أمس الحاجة إلى المعرفة التاريخية، لذا اهتمت مدرسة الشام التاريخية في هذا الجانب، وتفوقت فيه.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «بدأت مدرسة الشام التاريخية تستقطب عدداً من العلماء الأخباريين وتخرج عدداً آخر منذ أيام معاوية. وكانت جاذبية العاصمة السياسية من جهة، ورغبة البيت الأموي في الثقافة التاريخية اعتباراً من معاوية حتى آخر الأمويين هما اللتان تفتحان الطريق لهذه المدرسة التي عنيت بالأنساب وبالتاريخ الجاهلي عنايتها بعهد الرسالة والفتوح على السواء، فكانت وسطاً في هذه المواد بين المدرستين: المدنيّة والعراقية، ولئن كانت في رجالها أكثر ميلاً إلى المغازي والغبر والفتوح منها إلى الأنساب والأيام، فإنها تميزت عن المدرستين فيما يظهر بعنايتها بأمر الفتوح خاصة والمغازي والمقاسم وتخصصها بها.. وكان معروفاً لدى الناس في ذلك العصر اختصاص المدارس التاريخية الإقليمية كل منها بميدانها، فلمدرسة المدينة المغازي ولمدرسة الشام معها الفتوح أيضاً وللعراق الأيام والأنساب».

كانت مدينة دمشق حاضرة الدولة الإسلامية في العصر الأموي، لذا صارت المركز الثقافي البارز في الدولة الإسلامية. والمعروف أن حكامها وأعيانها كانوا يحبون التسامر والحديث عن الأمم القديمة وأيامهم وأخبارهم، وعليه تأسست مدرسة الشام التاريخية في دمشق التي فيها أصبح المؤرخون المسلمون يدرّسون طلاب العلم حياة الرسول ﷺ وغزواته والفتوحات الإسلامية. كما اهتموا اهتماماً بالغاً بالثقافة التاريخية، بهذا حاولوا بجدارة ربط الماضي بالحاضر لكي يصلوا إلى المستقبل الباسم، ومن هنا أشرقت في مدينة دمشق الحركة التاريخية وتخرج في مدرسة الشام التاريخية علماء كبار ليس فقط في علم التاريخ ولكن أيضاً في كل من الحديث والفقه وتفسير القرآن الكريم. وبهذا أصبحت تنافس مدرسة المدينة المنورة التاريخية. ولم يستمر ازدهار مدرسة الشام التاريخية، بل تعثرت كثيراً، وذلك عندما صارت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية في العصر العباسي، حيث اتجه جهابذة الفكر إلى مركز الحركة العلمية في مدرسة العراق التاريخية؛ لكي يتمكنوا من تحقيق طموحاتهم العلمية.

ويقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «الأصول الأولى لمدرسة الشام التاريخية أموية. وقد وصل نموها ورجالها القمة. وإذا كان العهد العباسي وانتقال مركز ثقل الدولة الإسلامية من الشام إلى العراق قد سلب هذه المدرسة الكثير من الديناميكية التي تتمتع بها العواصم ومن الإمكان المادي ومن الرفد الخارجي الذي يزيد في غناها الفكري، وردها للعيش على هامش الحياة السياسية والحضارية الموّارة في بغداد، إلا أن هذا كله لم يلغ هذه المدرسة. قصارى ما نجم عنه أنه منعها فترة طويلة من أن تطلع بسبب نقص (التغذية) المادية والحضارية والفكرية سوى النبت الصغير المحدود ليس فيه الدوح الباسق ولا الإنتاج الوارف الظل البعيد الجذور إلا في نهاية الفترة».

وخلاصة القول: حين نزل عدد كبير من الصحابة رضوان الله عليهم في بلاد الشام، وبدؤوا يحدثون الناس عن كل من حياة صفوة الخلق ﷺ وغزواته، ويعلمونهم أمور دينهم ازدهرت الحركة العلمية في بلاد الشام، وقامت مدرسة الشام التاريخية في دمشق تستقبل طلاب العلم من جميع أرجاء العالم الإسلامي، وفيها اعتبر المؤرخون المسلمون كلاً من القرآن الكريم والأحاديث النبوية وغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم المصادر الرئيسة بل الضرورية للدارسين والباحثين في علم التاريخ. كما اشتهرت مدرسة الشام التاريخية في تفوقها في موضوع الفتوحات الإسلامية وتركيزها على معرفة ماضي البشرية بإيجابياتها وسلبياتها، والعناية بالإيجابيات وتسليط الضوء على هذا الجانب في جميع الدراسات التي تم فيها. وللأسف الشديد أن هذه المدرسة العظيمة تأثرت في العصر العباسي، حيث تحولت الحركة الفكرية من الشام إلى العراق، وأصبحت بغداد مركز الزعامة الإسلامية، لذا انتقل كبار المفكرين والعلماء من الشام إلى بغداد، وبالرغم من هذا كله حافظت مدرسة الشام التاريخية إلى حد ما على كوادرها العلمية وبقيت مدرسة لها كيانها.

مدرسة العراق التاريخية:

بدأت مدرسة العراق التاريخية إقليمية متوزعة بين الكوفة والبصرة، ولكن عندما أنشأ الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مدينة بغداد وصارت عاصمة العالم الإسلامي، أشرقت مدرسة العراق التاريخية في أحضانها وعملت مستقلة تماماً عن كل من مدرسة المدينة المنورة التاريخية ومدرسة الشام التاريخية، وركز مؤرخوها في بادئ الأمر على موضوع القبلية، حيث تحمس هؤلاء المؤرخون للحفاظ على التقاليد العربية الأصيلة الخاضعة للمبادئ الإسلامية السمحة، ولم يهملوا أبداً دراسة الحوادث التاريخية بوجه عام، ولكنهم بذلوا جهداً كبيراً في جمع القصص القبلية ووثقوها بالإسناد، حيث إن الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام كانت تدعي صراحة أن العلماء وكبار المفكرين في العالم الإسلامي منهم. وهذا الشيء لم يوافق عليه المؤرخون المسلمون بل أنكروه جملة وتفصيلاً، مستخدمين حقيقة واضحة لا تقبل الجدل أو التأويل، وهي: أن الوحي نزل على سيد البشرية نبينا محمد ﷺ وهو أساس كل معرفة صحيحة وهو عربي أصيل.

يؤخذ على مؤرخي مدرسة العراق التاريخية تبنيهم الأفكار الإقليمية والقبلية التي أثرت على اتجاههم التاريخي. وصارت مدرسة العراق التاريخية تنعت باتجاهها القبلي وإن كان هذا الاتجاه قد ساعد على إبراز المنهجية النقدية في علم التاريخ الإسلامي، حيث اضطر بعض المؤرخين المسلمين أن يعرضوا الروايات المعارضة أو المقابلة للروايات التي دوّنت حول موضوع كل من الإقليمية والقبلية، وعلى الرغم من الصراعات التي دارت في مدرسة العراق التاريخية، إلا أنها تميزت في دراستها العلمية حول كل من حروب الردة والفتوحات الإسلامية العظيمة والشورى في الإسلام والفتن وأسباب وقوعها وغيرها.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «إن علم التاريخ عند العرب جزء من الثقافة العربية، ولا يمكن فهمه إلا بالإشارة إلى الفعاليات والتطورات الثقافية الأخرى .. سارت الدراسات التاريخية في بداياتها في اتجاهين عامين متميزين الواحد عن الآخر: اتجاه أهل الحديث، والاتجاه القبلي الذي كان إلى حد ما استمراراً للفعاليات القبلية السابقة. وهذان الاتجاهان يعكسان تيارين أساسيين في مجتمع صدر الإسلام - الاتجاه الإسلامي والاتجاه القبلي - أثراً في مختلف جوانب الحياة، وتمثل النشاط في كل من الاتجاهين في مصر من الأمصار. فكانت المدينة مهد الإسلام المركز الأول لاتجاه أهل الحديث، بينما كانت البصرة والكوفة مقري الحاميات القبلية وموطني التقاليد القبلية؛ المركز الأول للاتجاه القبلي. وكانت المدينة والكوفة والبصرة مراكز الحياة الثقافية في صدر الإسلام».

تطورت الكتابة التاريخية تطوراً ملحوظاً في مدرسة العراق التاريخية؛ لأن اللغة العربية كانت لغة الدولة والدين، لذا اتجه المؤرخون المسلمون إلى ضبط أنساب العرب وأيامهم، بالإضافة إلى العناية التامة بكل من القرآن الكريم والحديث والفقه ومعرفة أسباب ونتائج غزوات رسول الله ﷺ .. نتيجة لذلك كانت الثقافة التاريخية في مدرسة العراق التاريخية عالية جداً، ولها تأثيرات عظيمة على المجتمعات الإسلامية في جميع أرجاء الدولة الإسلامية.. ومن هنا نمت الحركة العلمية في العالم الإسلامي، بدأت مسيرتها في مدرسة المدينة المنورة التاريخية مارة في مدرسة الشام التاريخية، ولكنها تبلورت وعظمت في مدرسة العراق التاريخية.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «وقد تطورت الكتابة التاريخية مع مطلع القرن الثاني للهجرة بوجود شيوخ متضلعين بأنساب قبائلهم ومآثرها، وبوجود كتب تحوي أنساباً وشعراً وربما أخباراً لبعض

القبائل، ومن المحتمل أن تكون هذه الكتب قد جمعت من قبل بعض الرواة، لكنها كانت تعتبر ملكاً مشتركاً للقبيلة، فالشاعر يشير إلى كتاب تميم، وحماد الراوية كانت لديه كتب قريش وثقيف (الأصفهاني ـ الأغاني)، وقد وفر هؤلاء الرواة برواياتهم المدونة مادة تاريخية استعان بها المؤرخون فيما بعد ... وحوالي منتصف القرن الثاني للهجرة نجد رواة وأخباريين ونسابين ولغويين علماء، خلفوا مؤلفات تاريخية تعتبر ثروة من الروايات التاريخية، وتعتبر تلك الفترة فترة علماء رواد في شتى حقول المعرفة بدءاً بالشعر مروراً بالأخبار والحديث وصولاً إلى ما وصلنا من المؤلفات الأولى في السيرة».

وخلاصة القول: لقد كان في مدينة العراق التاريخية في بادىء الأمر ثلاثة تيارات: ثقافية إسلامية وفارسية وهيلينية، ولكن اضمحل كل من التيار الفارسي والتيار الهيليني وبقي على الساحة التيار الإسلامي ينمو ويترعرع في مدرسة العراق التاريخية، ويتضح ذلك النمو من إنتاج علمائها في مجال كل من الأنساب والمغازي والسير لرجال الإسلام والفتوحات الإسلامية العظيمة، فقد وفر علماؤها مؤلفات كثيرة في هذه الحقول خدمت طلاب العلم والباحثين.

لقد اعتنى مؤرخو مدرسة العراق التاريخية بتدوين الأنساب العربية، ولكنهم أيضاً خرجوا أعداداً كثيرة من الرواة الذين جعلوا اهتمامهم منصباً على أخبار الأمة الإسلامية لا على أخبار القبائل العربية وحدها، لذا استطاعوا أن يجمعوا معلومات قيمة مصدرها كل من الشعر والحديث والأنساب. إذن يمكن القول: إن كلاً من مدرسة المدينة المنورة التاريخية ومدرسة الشام التاريخية برزتا في كل من المغازي والفتوحات الإسلامية، أما مدرسة العراق التاريخية فتخصصت في كل من الأخبار والأيام والأنساب، وتفنن مؤرخوها بجمع الروايات التاريخية ليس لقبيلة معينة، ولكن للقبائل العربية جميعها.

مدرسة مصر التاريخية:

عندما دخل صحابة رسول الله ﷺ ، مصر بدأوا يحدثون الناس عن الدين الإسلامي الحنيف وغزوات المصطفى ﷺ، والفتوحات الإسلامية العظيمة التي خدمت الدين الإسلامي، لذا تمكنوا من إشعال الحركتين الدينية والعلمية الواسعتي النطاق هناك، لذا رأوا أنه من الضروري تأسيس مدرسة مصر التاريخية؛ لكي يتولى أساتذتها تبليغ رسالة نبينا محمد ﷺ، ويدرسوا التاريخ الإسلامي الحافل بالأحداث التاريخية القيّمة لأبناء الأمة الإسلامية، فكان أول أستاذتها من الصحابة رضوان الله عليهم الذين جاؤوا لفتح مصر، ورغبوا بالبقاء في أرض الكنانة فاستوطنوها. كما استمرت مدرسة مصر التاريخية في التطور والرقي، حتى صارت مرجعاً من المراجع الهامة لمعرفة التشريع الإسلامي. ومن هنا برزت للملأ معالم تاريخ مصر الحقيقي الخالي من الأساطير والخرافات.

يقول **أحمد أمين** في كتابه آنف الذكر: «تكونت مدرسة مصر التاريخية وكان أول أساتذتها الصحابة، فأخذ عنهم التابعون وأخذ عن التابعين تابعوهم، وقد عد هؤلاء الصحابة مصريين لنزولهم في مصر واستيطانها، ولذلك يلقبهم المحدثون بالمصريين، وقد أخذت أحاديث هؤلاء المصريين من الصحابة والتابعين، ووردت في كتب الحديث الستة المشهورة، وهذه المدرسة بدأت ساذجة بسيطة، يسمع أحدهم الحديث فيحفظه أو يكتبه، ثم نمت بالتدريج فتخصص قوم للعلم يتدارسونه، يدرسون القرآن ويدرسون الحديث ويستنبطون منهما الأحكام، ونبغ من هذه المدرسة المصرية جماعة كبيرة من العلماء المجتهدين».

اشتهر مؤرخو مدرسة مصر التاريخية بقدرتهم النادرة على إقناع سكان مصر بتقبل أصول السيرة النبوية التي تُعتبر بحق قنديل الحضارة العربية والإسلامية، والسبب في هذا التقبل المفرح يعود إلى صدق وأمانة هؤلاء

المؤرخين، فهم في الحقيقة كانوا يحملون في صدورهم الأفكار التاريخية العظيمة التي تعبر عن معرفة إنسانية علمية خالية من الخزعبلات البالية، ولاشك أن التطورات الثقافية التي صارت في مدرسة مصر التاريخية، أدت إلى الكتابة التاريخية النزيهة العادلة، التي تتعلق بكل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية وغزوات رسول الله ﷺ والأخبار والشعر والحث القوي على تبني فكرة الأمة الإسلامية الموحدة، حيث إن العرب أصحاب رسالة عالمية مضمونها الإسلام السمح. والحقيقة أن هذا الاتجاه قضى على اقتصار الأخبار والقصص على القبائل العربية، بل تعداها ليشمل جميع أفراد المجتمع، وعليه أصبحت أرض الكنانة «مصر» رائدة كبيرة من رواد الحضارة العربية والإسلامية، وبقيت محافظة على هذه المكانة عبر العصور.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: عناصر المادة التاريخية التي كان يرويها الفاتحون المسلمون لمصر تتناول بخاصة السيرة النبوية والمغازي وما يتصل بعصر الرسالة والصحابة، وكذلك الفتوح وبخاصة ما يتصل منها بفتح مصر بالذات ثم فتح المغرب وأخيراً الأندلس، والتقى المنبعان منذ وقت مبكر جداً، لتكوين المادة الأولية، والنواة التاريخية لمدرسة مصر التاريخية، ولم يكن قد مضى على الفتح قرن واحد حتى تبين أن هذه المدرسة قد اختارت مادتها الخاصة اختياراً، أهملت جانباً مما أتيح لها من المادة التاريخية واهتمت بجانب، ويتمثل ما اهتمت به في كل من:

- بعض جوانب المغازي النبوية.
- فتوح مصر والمغرب ثم الأندلس.
- القصص الوعظي.

وما من شك في أن عوامل كثيرة قد عملت على هذا التخصص في مدرسة

مصر التاريخية، منها شخصية مصر التاريخية ـ الجغرافية المميزة ـ ومنها القلة النسبية في أعداد الصحابة والتابعين ورجال القبائل العربية التي نزلت بها، بالمقارنة مع الأعداد الضخمة التي نزلت منهم في العراق والشام خاصة، ومنها تباعد الثقافة العربية والإسلامية الناشئة عن التراث التاريخي الوثني وما يتصل به.

وخلاصة القول: لقد تأثرت الحركة الفكرية في مصر تأثراً عظيماً بعد الفتح الإسلامي، حيث اعتنقت الإسلام الأغلبية العظمى من الشعب المصري، ولاشك أن سكان مصر استفادوا من معطيات الدين الإسلامي الحنيف، لذا صارت لهم شخصية معتمدة في ميدان علم التاريخ، كما أنهم لم يهملوا أيضاً المعلومات التاريخية التي حصلوا عليها من تاريخ مصر القديم.

الحقيقة أن مصر لم تبدأ من فراغ ثقافي، بل كانت لديها معارف قيمة ورثتها عن كل من الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم، ونتيجة لذلك تولدت لدى مؤرخي مدرسة مصر التاريخية القناعة أن المعلومات التاريخية ضرورية لتطوير المعرفة الإنسانية الخالية من أخبار السحر والطلاسم والأرواح الوهمية التي أنكرها الدين الإسلامي جملة وتفصيلاً.

وهكذا أصبحت مدرسة مصر التاريخية مصدراً هاماً جداً لطلاب علم التاريخ ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن أيضاً في جميع أرجاء المعمورة عبر التاريخ.

مدرسة اليمن التاريخية:

بدأت مدرسة اليمن التاريخية كامتداد للتيارات الجاهلية العارمة التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية، ولكن المؤرخين فيها ركزوا على كل من

قصص أهل الكتاب والأساطير والخرافات وتاريخ أهـل اليمـن بوجـه خـاص. والحقيقة أن المؤرخ اليمـني آنـذاك كـان عبـارة عـن قصـاص يقـص الروايـات التاريخية التي تشتمل على كثير من الخزعبلات، والتي تتناقلها الأجيال دون أي نقد. لذا استمرت هذه الروايات تحتوي على الخرافات والأساطير الباليـة مـدة طويلة من الزمن بلا تنقيح وغربلة.

كانت الروايات اليمنية المتوارثة والمتداولة حينئذ تدرس في مدرسة اليمـن التاريخية ومعظمها عبارة عن قصص تحتوي على مزيج من القصـص الشـعبية والإسرائيليات. والجديـر بـالذكر أن مؤرخـي مدرسـة اليمـن التاريخيـة كـانوا يتغنون بكـل أمجـاد وبطـولات عـرب اليمـن وكـانوا يدرّسـون هـذه الأفكـار والمبـادىء لطلابهـم في مدرسـة اليمـن التاريخيـة، بهـذا أرسـوا في منـاهجهم الدراسية موضوع الأسطورة والأخبار الموضوعة على تاريخ اليمـن، لـذا رأى بعض المؤرخين في العالم أن مؤرخي مدرسة اليمن التاريخيـة تنقصهـم صفـات المؤرخين المتفق عليها دولياً، وعليه يمكن اعتبـارهم قصّاصين.

لقد اعتمد مؤرخو مدرسـة اليمـن التاريخيـة في مؤلفـاتهم علـى كـل مـن الروايات الشفوية.. التي كانوا يتلقونها من مشايخ القبائل، وأحاديث الأنبيـاء والعبيد وأحاديث بني إسرائيل وأخبار ملوك حمير، والواضح أن معظم أعمـال مدرسة اليمن التاريخية كانت امتداداً لفترة ما قبـل الإسـلام، ولكـن عندمـا دخـل اليمن في الإسلام تغير الوضع تماماً لدى مؤرخي مدرسـة اليمـن التاريخيـة، حيـث تقمصـوا شـخصية المؤرخ المسـلم الـذي كـان يكتـب في ميـدان التـاريخ الإسلامي؛ أي أن الاهتمام أصبح منصباً على القـرآن الكريـم وعلـم الحديـث وما يتصل به من سيرة رسول الله ﷺ وغزواته والفتوحات الإسلامية.

ويقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «وجاء الإسلام فحسم ذلك الصراع كله لمصلحة الدين الإسلامي ولغة عرب الشمال «اللغة العربية الحالية» وأدخل اليمن وأهلها عنصراً من عناصر الحضارة العربية الإسلامية الناشئة، معطياً إياهم سبيلاً جديداً في التاريخ على أنه بكل تأكيد لم يمح بلمسة سحرية من ذاكرة الناس ولا من مسطور كتبهم ومن متواتر الروايات كل ما كانوا يعرفون ويتداولون من معارف التاريخ ومن أخبار الماضيين، حيث إنها معلومات تاريخية تتعلق بتاريخ اليمن ودوله من سبأ أو قتبان ومعين وأوسان وحمير، ومن أخبار المكارب والآثار القائمة والمعابد والمحافد والسدود والقصور ومحطات التجارة ومن عقائد الدين.. وبالرغم من وجود هذه الخلفية التاريخية الواسعة في اليمن تساندها الآثار من جهة والنصوص الدينية من جهة أخرى وبالرغم من أن كلمة (التاريخ) قد تكون مأخوذة من اللغة اليمنية القديمة، ومن أن التقويم الهجري قد يكون تأثر في ظهوره بوجود تقويم خاص قديم في اليمن فإن كل ذلك الفكر التاريخي السابق قد توقف بعد ظهور الإسلام ليتبنى خطاً جديداً ووجهاً جديداً ضمن إطار الدين الجديد».

وخلاصة القول: إن إشراق الدين الإسلامي في اليمن خلق عند الشعب حُب الاستقرار. لذا استوطنت القبائل في المدن الكبيرة، وأقبل أفرادها على القراءة والكتابة في مجال علم التاريخ فنبغت أعداد كبيرة. فكان لمدرسة اليمن التاريخية نصيب الأسد من هذه الحركات العلمية التي كان يعتبرها المؤرخون في العالم ثورة ثقافية، حيث بدأ طلاب العلم يأتون إلى مدرسة اليمن التاريخية لدراسة علم التاريخ من كل صوب وحدب؛ لأن أساتذتها كانوا متفوقين ليس فقط بتاريخ العرب في الجاهلية ولكن أيضاً بتاريخهم في الإسلام.

خلال القرن الثاني الهجري حدث تقهقر ملحوظ في مكانة مدرسة اليمن التاريخية، وسبب ذلك النزوح البشري من اليمن إلى كل من العراق وخراسان وجنوب الشام ومصر والأندلس وراء طلب العلم. لذا كتب معظم تاريخ اليمن على يد علماء كبار من اليمن كانوا يعيشون في الخارج.. ولهذه المجموعة الفضل بعودة النشاط السياسي والاقتصادي والتعليمي إلى اليمن خلال القرن الثالث الهجري وهكذا بدأت الحركة العلمية من جديد. والجدير بالذكر أن مؤرخي مدرسة اليمن التاريخية لم يحاولوا ربط تاريخ اليمن بتاريخ الأمصار الإسلامية الأخرى، بل بقي تاريخاً محلياً خليطاً من الطبغرافيا والأنساب والتاريخ الحضاري.

ويقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «الملاحظ أن مدرسة اليمن التاريخية إذا لم تتأثر في غير الشكل بالمدارس التاريخية الإسلامية الأخرى، فإنها لم تتلق أي تأثير من التواريخ الأجنبية كالتأثيرات البيزنطية أو الفارسية، فظلت في تكوينها الفكري أكثر المدارس التاريخية في الإسلام محافظة لا على محليتها فقط ولكن على طابعها العقائدي السياسي أيضاً».

مدرسة فارس التاريخية:

بدأت مدرسة فارس التاريخية إقليمية بحتة، حيثُ بذل أساتذتها جهداً كبيراً بتعريف أبناء فارس بمكانة أجدادهم في التاريخ، كي يقفوا وقفة شجاعة أمام الزحف الروماني الذي خسّر الفرس كلاً من مكانتهم السياسية العالمية وديانتهم الزرادشتية، لذا كتبوا مؤلفات قيمة في لغتهم آنذاك البهلوية، وبقيت هذه المؤلفات بين يدي مثقفيهم. ولكن عندما فتح قادة المسلمين الأشاوس بلاد فارس وأرسوا قواعد الدين الإسلامي هناك بين الصغير والكبير، انحسر

دينهم الخرافي أمام الدين الإسلامي الحنيف، وعليه اتجهوا إلى نقل معلوماتهم التاريخية والعلمية من لغتهم البالية إلى اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة سيد البشرية محمد بن عبد الله ﷺ . ومن هنا أصبحت بلاد فارس قطراً إسلامياً قوياً جداً، حيث دخل الدين الإسلامي إلى أعماق الحياة الفارسية. ولاشك أن علماء فارس قدموا إنتاجاً علمياً غزيراً في كل من اللغة العربية واللغة الفارسية خدموا به الحضارة الإسلامية خدمة جليلة.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «بدأت مدرسة فارس التاريخية في الواقع منذ القرن الهجري الأول، أيام الأمويين، وبدأت بترجمة ماالديها إلى العربية لا بكتابة التاريخ، لم يكن لديها ما تكتبه، والحكم والملك والدين للعرب، فاكتفت الجموع الفارسية بأن تدلي بدلوها في معترك الثقافات. وانقضى القرن الثاني وشطر كبير من القرن الثالث، وليس ثمة من مؤلف خاص أو تاريخ إقليمي يحكي غير قصة التاريخ الفارسي القديم السابق للإسلام. أما بعد الإسلام: فلم يكن لهم فيه كبير مجد، فلم يكتبوه ولا اهتموا بذلك، غير أن الفتح العربي خلال القرنين الأولين كان قد استطاع أن يفعل مالم تفعله قرون طويلة من التماس والتمازج الثقافي بين الفرس والروم. الثقافة اليونانية (الهلينية والهلينستية) لم تلامس من الحياة الفارسية إلا السطوح، ظلت غريبة عن العقلية الفارسية وعن ثقافة الناس في إيران، أما الفتح العربي فقد استطاع أن ينفذ تدريجياً إلى أعماق الحياة الفارسية، وإلى جذورها الأولى بما قدم لها من دين ولغة وحكم .. وكان اللقاء (العربي ـ الفارسي) من أندر اللقاءات الخصيبة بين الشعوب».

استمر الفرس يحاولون إثبات هويتهم في عهد الدولة العباسية، ولـذا نمت مدرسة فارس التاريخية نمواً كبيراً، حيث اتجهوا إلى التأليف بكل من اللغة العربية واللغة الفارسية الحديثة مستخدمين المصادر الفارسية القديمة المكتوبة

باللغة البهلوية. كما نقلوا تاريخ فارس القديم الذي يحتوي على الدين الزرادشتي إلى اللغة العربية. والمعروف أن الفرس كانت لديهم الرغبة القوية في المعرفة العلمية عبر العصور، وبهذا استطاعوا بكل جدارة أن يستفيدوا من الحركة العلمية العظيمة في بغداد أيام الدولة العباسية، لذا صار تبادل واختلاط ثقافي بين الأمة العربية والإسلامية وبلاد فارس المسلمة لم يحدث له مثيل، من هنا انصب جهود جهابذة الفكر في فارس على التأليف في اللغة العربية لغة القرآن الكريم، لذا توطدت اللغة العربية بين كبار العلماء في فارس، على الرغم من استمرار الحفاظ على اللغة الفارسية الحديثة، وعليه نستطيع القول: إن بلاد فارس بقيت مدة طويلة ثنائية اللغة.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «إن اللغة البهلوية التي كانت في العهد الساساني هي اللغة الرسمية للدولة وللدين الزرادشتي تراجعت وأهملت بعد الفتح الإسلامي تاركة مكانها للغة محكية مشتقة منها يدعوها الباحثون باللغة الفارسية الحديثة مقابل الفارسية القديمة السابقة للبهلوية والتي تُعتبر كالأم بالنسبة إليها وقد قضت هذه اللغة الفارسية المحكية عدة قرون قبل أن تصبح لغة كتابة وأدب وشعر وتأليف في أواخر القرن الرابع الهجري. وخلال هذه القرون تعرضت بنتيجة الاتصال بالإسلام والحكم العربي لتأثير واسع من اللغة العربية أدخل عليها الكثير الكثير من مفرداتها وأساليبها الأدبية.. ظلت الثقافة في فارس أكثر من ثلاثة قرون ثنائية اللغة، وكبار ممثليها كانوا يؤلفون بالفارسية والعربية على السواء».

وخلاصة القول: لم يستمر تأثير اللغة العربية في مدارس فارس التاريخية كما كانت، بل في مطلع القرن الرابع الهجري برزت حركة قومية عارمة في بلاد فارس تطالب وبقوة باستخدام اللغة الفارسية كلغة قومية، لذا ترجمت

معظم المؤلفات القيمة مـن اللغـة العربيـة إلى اللغـة الفارسية، وأصبحـت لغـة مدرسة فارس التاريخية اللغة الفارسية، لذا ركز المؤرخون والكتاب هناك على الكتابة باللغة الفارسـية كلغـة عالميـة أيضـاً، وليسـت كمـا كـانت لغـة محليـة محدودة. والجدير بالذكر أن المؤرخين الفرس تميزوا بالقدرة الجيدة على الربـط ما بين التنجيم والتاريخ، حيث استعملوا الأزياج في حساباتهم. ولقـد اشـتهر الفـرس بتغنيهـم في تـاريخهم القديـم الـذي كـانوا يعتبرونـه الحـامي النفسـي والمفخرة لكل فرد منهم.

الباب الرابع

تراجم لبعض علماء العرب والمسلمين في علم التاريخ

كعب الأحبار

هـو **كعـب الأحبـار بـن مـانع اليمـاني**، يُكنـى **بـأبي إسـحاق**، ويلقـب **بالأحبار**؛ وهذا الاسم يُطلق عادة على العالم عند اليهـود، وهـو أعلـى مركـز علمي وديني يمكن أن يصل إليه الإنسان اليهودي، والثابت أن أصله من يهـود حمير من آل ذي رعين، نما وترعرع في بيئة يهودية متعصبـة في اليمـن، وكـان أبو إسحاق كعب الأحبار من كبار علماء اليهـود في الجاهليـة، ولكنـه أسـلم وحسُن إسلامه على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الفاروق رضـي ا لله عنه، وانتقل من اليمن إلى المدينة المنورة للإقامة فيهـا لكـي يتـم لـه الاختـلاط بأهلها عن صدق وحُسن نية، لذا ذاع صيته وانتشر في الآفـاق ذكـر تواضعـه وزهده وورعه وخشوعه بعد دخوله في الإسلام. كـان مرجعـاً موثوقـاً بـه في الروايات التاريخية عن كل العرب في الجاهلية والديانـة اليهوديـة، وعليـه أخـذ عنه صحابة رسول ا لله ﷺ أخبار العرب الأوائل خاصـة الذيـن عاشـوا قبـل الإسلام في اليمن، كما أنه استفاد في دراسـاته وبحوثـه التاريخيـة مـن القـرآن الكريم والسُّنة الطـاهرة وروايـات صحابـة رسـول ا لله ﷺ . والحقيقـة أننـا لا نعرف بالضبط متى ولد في اليمن، ولكن الثابت أنه تـوفي سـنة (٣٢ هجريـة) في مدينة حمص السورية التي اسـتوطنها في آخـر أيـام حياتـه في فـترة خلافـة الخليفـة الراشد عثمان بن عفان رضي ا لله عنه. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين يروون أنه مات عـن عمـر ينـاهز المئة وأربـع سـنين. إذن يتضـح للقـارىء أن السـنوات الأخيرة مـن حياتـه الطويلـة قضاهـا بـين المدينـة المنـورة وحمـص الشـامية، وهـذه السنوات كلها خير وبركة له شخصياً وللدين الإسلامي.

ينقل **محمد بن سعد** في كتابه «الطبقات الكبرى» ـ الجـزء السـابع ـ عـن سعيد بن المسيب أنه قال: «قال العباس لكعب، ما منعك أن تسلم على عهـد رسول ا لله ﷺ وأبي بكر حتى أسلمت الآن على عهد عمر؟ فقـال كعـب:

إن أبي كتب لي كتاباً من التوراة ودفعه إليّ وقال: اعمل بهذا، وختم على سائر كتبه وأخذ عليّ بحق الوالد على ولده أن لا أفض الخاتم، فلما كان الآن ورأيت الإسلام يظهر ولم أر بأساً، قالت لي نفسي: لعل أباك غيب عنك علماً كتمك فلو قرأته ففضضت الخاتم فقرأته فوجدت فيه صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلماً، فوالى العباس».

ليس لكعب الأحبار إنتاج مكتوب كما تبين لنا من أقوال مؤرخي الإسلام، ولكن المتواتر أن المؤرخين المسلمين الأوائل نقلوا عنه الكثير من معلوماتهم عن كل من عرب الجاهلية واليهود شفوياً؛ لأنه كان الراوي الدقيق لأخبار كل من اليهود والأنبياء وأهل اليمن، ولقد اشتهر بين زملائه بسعة اطلاعه وثقافته العالية، لذا حذر المسلمين من أساطير اليهود والنصارى وخزعبلاتهم البالية، وهكذا يقف أبو إسحاق كعب الأحبار عملاقاً بين المؤرخين للحضارة الإسلامية، حيث صار بعد إسلامه حجة قوية بل هو سد منيع ضد مقولات وأكاذيب أعداء الإسلام.

ينقل **شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه «أعلام النبلاء» ـ الجزء الثالث ـ قصة توحي بخشية وصدق إسلام أبي إسحاق كعب الأحبار: «فروى محمد بن سيرين فقال: خرجنا إلى الشام، وصحبنا شيخ على حمار بين يديه مصحف يقرؤه، ويبكي، فقلت: ما أشبه هذا المصحف بمصحف شأنه كذا وكذا، فقال: إنه هو. قلت: فأين تريد؟ قال: أرسل إليَّ كعب الأحبار عام أول فأتيته ثم أرسل إليَّ فهذا وجهي إليه، قلت: فأنا معك، فانطلقنا حتى قدمنا الشام فقعدنا عند كعب، فجاء عشرون من اليهود فيهم شيخ يرفع حاجبيه بحريرة فقالوا: أوسعوا أوسعوا، فأوسعوا وركبنا أعناقهم فتكلموا، فقال كعب: أتجيب هؤلاء أو أجيبهم؟ قال: دعوني حتى أفقه هؤلاء ما قالوا، إن هؤلاء أثنوا على أهل ملتنا خيراً، ثم قلبوا ألسنتهم، فزعموا أنا بعنا الآخرة بالدنيا، هلم فلنواثقكم، فإن جئتم بأهدى مما نحن عليه اتبعناكم وإلا فاتبعونا

إن جئنا بأهدى منه، قال: فتواثقوا، فقال كعب: أرسل إليَّ ذلك المصحف فجيء به فقال: أترضون أن يكون هذا بيننا؟ قالوا: نعم لا يحسن أحد أن يكتب مثله اليوم، فدفع إلى شاب منهم فقرأ كأسرع قارىء، فلما بلغ إلى مكان منه نظر إلى أصحابه كالرجل يؤذن صاحبه بالشيء ثم جمع يديه فقال: به فنبذه، فقال كعب: آه، وأخذه، فوضعه في حجره فقرأ فأتى على آية منه فخروا سجداً وبقي الشيخ يبكي، قيل: وما يبكيك؟ قال: ومالي لا أبكي، رجل عمل في الضلالة كذا وكذا سنة ولم أعرف الإسلام حتى كان اليوم».

وخلاصة القول: عندما أشرق الدين الإسلامي كان من المهم جداً عند قادة المسلمين معرفة الأوائل والأحداث التاريخية المتعلقة بهم، والمعروف آنذاك أن كثيراً من أهل التاريخ هم اليهود والنصارى الذين دخلوا في الإسلام، بدأ بعضهم يبثون تاريخهم وخرافاتهم العقيمة بين المسلمين حسب توصيات آبائهم، لذا أخذ كعب الأحبار بعد اعتناقه الإسلام على عاتقه مسؤولية نشر محاسن الدين الإسلامي وإبراز عيوب الديانة اليهودية، وذلك خلال المقارنة العلمية والتعليل المنطقي الخالي تماماً من التحيز؛ لأنه كان يعرف بوضوح تاريخ اليهود وأخبار حوادثهم حسبما وردت في كتابهم التوراة، وهكذا قدم أبو إسحاق كعب الأحبار خدمة جليلة للحضارة العربية والإسلامية، حيث صارت أحاديثه من المصادر القوية للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ.

لأبي إسحاق كعب الأحبار آراء ونظريات في سياسات وأخلاق اليهود نبه عليها المسلمين بطريقة دبلوماسية تدل على حكمته ومقدرته العلمية، فهو بحق عالم متميز، أخذ عنه المؤرخون المسلمون ليس فقط أخبار اليهود التاريخية، ولكن أيضاً قصص الأنبياء وسير وآثار العرب في الجاهلية. إذن يمكن القول: إنه واسع الاطلاع مستقل في آرائه واتجاهاته الإسلامية في جميع الموضوعات التي تناولها، والمتواتر أنه أكبر العلماء الذين سرّبوا أخبار اليهود إلى المسلمين فلله دره.

والمعروف أن لأبي إسحاق كعب الأحبار آثاراً خالدة في علم التاريخ، نقلها عنه كبار المؤرخين في العالم الإسلامي مثل ابن سعد والذهبي والثعالبي والكسائي والطبري وغيرهم، ولحسن الحظ بقيت هذه المعارف محفوظة في مؤلفاتهم؛ لأنه لم يثبت أنه خلف شيئاً مكتوباً باسمه في ميدان علم التاريخ، كما ذاع صيته بأنه من أصحاب الكفايات الجيدة ومن مفكري القرون الوسطى في رأي الكثير من المؤرخين في المعمورة. لذا يُعتبر كعب الأحبار من الراسخين في مجال علم التاريخ، وما نقل عنه يبرهن على علمه بالثقافة اليهودية وأساطيرها البالية.

عبيد بن شرية

هو **عبيد بن شرية الجرهمي** ويلقب **باليماني**، والبعض يسمونه عبيد بن سارية الجرهمي، ولكن هناك شبه إجماع على أن اسمه الحقيقي عبيد بن شرية الجرهمي اليماني. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أن الله تبارك وتعالى أمد بعمره في الجاهلية والإسلام، وأسلم وحسُن إسلامه، ولكن لم يتمكن من رؤية صفوة الخلق مُحمد بن عبد الله ﷺ . اختلف المؤرخون في أصله، ولكن المتفق عليه أنه من اليمن، حيث نشأ وترعرع في صنعاء، وتوفي سنة (٦٧ هجرية).

قدم عبيد بن شرية إلى دمشق من صنعاء والتقى بالخليفة معاوية بن أبي سفيان وأعجب به الخليفة كثيراً، لذا طلب منه أن يقدم له معلومات مفصلة عن ملوك كل من العرب والفرس؛ لأنه كان مؤرخاً وقصاصاً، ففرح عبيد بن شرية بهذا التكليف والتكريم وعمل عملاً رائعاً في هذا المجال الهام، ووضعه بين يدي الخليفة معاوية بن أبي سفيان فسر به وشكره على ذلك، وأمر أن يدوّن ذلك رسمياً باسم عبيد بن شرية الجرهمي، ونتيجة لهذا الحدث العظيم خرج كتابه: «الملوك وأخبار الماضين»، الذي يحتوي على بعض القصص والأخبار التي تتصف بالطابع الخيالي والأسطوري، كما يشتمل أيضاً على معلومات في غاية الأهمية في ميدان كل من الجغرافية والتاريخ القديم.

ينقل **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه آنف الذكر عن مصادر كثيرة أن المؤرخين: «اختلفوا في أصله، فروي أنه كان من أهل صنعاء، وقيل: إنه من الرقة بالعراق، والأرجح أنه كان يمنياً وجرهمياً بالذات. وكان قصّاصاً أخبارياً، أدرك النبي ﷺ ، ولكنه لم يسمع منه شيئاً، ثم وفد على معاوية بن أبي سفيان، وبرز في بلاطه، وذكروا أنه كان يسمع معاوية كل ليلة شيئاً من أخبار العرب وأيامها، وأخبار العجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وأنه ألف

له كتاب «الملوك وأخبار الماضين» الذي طبع في ذيل (كتاب التيجان في ملوك حمير) المنشور في حيدر آباد دكن في الهند (سنة ١٣٤٧ هجرية) بعنوان: (أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) لأبي محمد بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٣هـ). وكتاب ابن شرية يتضمن كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية، كما يشتمل على كثير من الأشعار التي وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة. كذلك يضم الكتاب بعض أخبار بني إسرائيل، ويغلب على جميع هذه الأخبار طابع القصص الشعبي المتأثر بالإسرائيليات. وقد أفاد الهمداني في كتابه «الإكليل» من أخبار عبيد بن شرية، فنقل نتفاً منها».

اشتهر عبيد بن شرية باهتمامه بكل قديم، فقد درس الكثير جداً من قصص وأساطير القبائل العربية، محاولاً بذلك إبراز الشخصية اليمنية، ونتيجة لذلك نما عنده حب المسامرات. فعندما زار دمشق مَثَلَ أمام الخليفة معاوية ابن أبي سفيان، وعندئذ عمل معه حواراً طويلاً عن الحياة الاجتماعية والسياسية؛ لأن معاوية بن أبي سفيان يعرف تمام المعرفة أن عبيد بن شرية موسوعة متحركة في كل من أخبار وأساطير وقصص العرب المكتوب منها والشفوي، وخاصة المأخوذة عن العصور القديمة. والجدير بالذكر أن عبيد بن شرية تفنن في ميدان الإسرائيليات لاتصاله المباشر بأهل الكتاب ولبحثه الطويل في الكتب المقدسة.

ينقل **ياقوت الحموي** في كتابه «معجم الأدباء» ـ الجزء الثاني عشر ــ : «اللقاء الودي الذي صار بين معاوية بن أبي سفيان وعبيد بن شرية، قال معاوية: أخبرني عن المال أيه أحسن في عينيك؟ قال: أحسن المال في عيني أنفعه غناء وأقله عناء، وأجداه على العامة، عين خرارة في أرض خوَّارة (قابلة لامتصاص الماء) إذا استودعت أدت، وإذا استحلبتها درت وأفعمت، تعول ولا تعال. قال معاوية: ثم ماذا؟ قال: فرس في بطنها فرس تتبعها فرس، قد

ارتبطتَ منها فرساً. قال معاوية: وأي النعم أحب إليك؟ قال: النعم لغيرك يا أمير المؤمنين. قال: لمن؟ قال: لمن فلاها بيده، وباشرها بنفسه. قال معاوية: حدثني عن الذهب والفضة، قال: حجران إن أخرجتهما نفدا، وإن خزنتهما لم يزيدا. قال معاوية: فأخبرني عن قيامك وقعودك، وأكلك وشربك ونومك.. قال: أما قيامي: فإن قمت فالسماء تبعد، وإن قعدت فالأرض تقرب، وأما أكلي وشربي: فإن جعت كلبت، وإن شبعت بهرت، وأما نومي: فإن حضرت مجلساً حالفني، وإن خلوت أطلبه فارقني».

وخلاصة القول: يتضح للقارىء أن عبيد بن شرية الجرهمي اليماني كان رجلاً حكيماً حاضر البديهة لديه ثقافة شاملة، لذا يُعتبر بحق من الأساطين المشهورين في مجال قصص وأساطير العرب بالجاهلية. والمعروف أنه توخى في جميع أعماله التاريخية والأدبية والعلمية الدقة في النقل. وله إسهامات تاريخية جيدة ظهرت في كل من مؤلفيه: كتاب «الأمثال» وكتاب «الملوك وأخبار الماضين» اللذين بقيا من المراجع الضرورية للباحثين في ميدان علم التاريخ العربي من العهد الجاهلي إلى أيام عبد الملك بن مروان.

والحقيقة التي يلزم ذكرها هنا أن جميع القصص والأساطير التاريخية التي رواها المؤرخ والقصصي والأسطوري عبيد بن شرية في إنتاجه التاريخ تدل على صدقه وأمانته؛ لأنه كان دائماً يعيدها إلى أصحابها دون ستثناء. ولاشك أن عبيد بن شرية أسدى بدراسته التاريخية خدمة جليلة للباحثين والدارسين في حقل تاريخ العرب قبل الإسلام؛ لأنه كشف بطريقة علمية أبعاداً جديدة في ميدان القصص والأساطير التاريخية التي كانت منتشرة حينئذ، علماً أنه لم يقتصر عمله على تاريخ العرب قبل الإسلام، بل له أيضاً إسهامات قيمة في التاريخ الإسلامي، ولذا اعتنى به الخليفة معاوية بن أبي سفيان عند زيارته لدمشق وقربه منه.

عبد الله بن العباس

هو **عبد ا لله بن عباس بن عبد المطلب القرشي**، ابن عم رسول ا لله ﷺ ، يلقب **بالبحر** لكثرة علمه، ويُكنى **بأبي العباس**، ولد في مكة المكرمة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة بثلاث سنوات، كان ملازماً لصفوة الخلق رسول ا لله ﷺ ، لذا روى عنه أحاديث كثيرة جداً، قيل إنها تصل (١٦٦٠ حديثاً). اشتهر بفصاحته وتواضعه وكرمه، وأنه ترجمان القرآن الكريم، عاش أبي النفس عازفاً عن الدنيا وحطامها وملذاتها. أبعد نفسه تماماً عن السياسة، واكتفى بالبحث والتنقيب والاستقصاء في كل من علم التفسير والفقه واللغة والتاريخ والأدب والحساب وغيرها من العلوم الشرعية والأساسية، ولكن ذاع صيته في الروايات التاريخية التي حرص كل الحرص فيها على الإسناد الموثق. كما دعا له رسول ا لله ﷺ ، فصار عنده ذاكرة عجيبة يحفظ بها ما يقال ولو مرة واحدة. وهناك قول مأثور يتناقله المؤرخون: أن عبد ا لله بن عباس أعلم الناس بالقرآن الكريم بينما علي بن أبي طالب أعلمهم بالمبهمات. لاشك أن أبا العباس علامة العصور وإن لم يخلف كتاباً مكتوباً، ولكنه بالحقيقة ترك إرثاً ثميناً من المعارف مدوّن بصحائف احتفظ بها طلابه حيث أصبحت من الوثائق الهامة جداً للمؤرخين عبر العصور. وفي آخر أيام حياته فقد بصره وانتقل إلى مدينة الطائف، واستوطنها وتوفي هناك عام (٦٨ هجرية) عن عمر يناهز ٧١ سنة.

ينقل **محمد بن سعد منيع الهاشمي البصري** المعروف بابن سعد في كتابه آنف الذكر: «أن عبد ا لله بن العباس قال: دعاني رسول ا لله ﷺ ، فمسح على ناصيتي، وقال: «اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب» وعن عبد ا لله بن عبد ا لله عن عتبة قال: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم وسيب ونائل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول ا لله ﷺ منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا تفسير

القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقف رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه الفقه ويوماً التأويل ويوماً الشعر ويوماً أيام العرب، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً» .

تميز عبد الله بن العباس بعلمه وحكمته، لذا إذا صار خلاف بين صحابة رسول الله ﷺ في مسألة شرعية كانوا يروونها إليه لكي يقدم لهم الحكم الشرعي فيها، ولهذا سمي «حبر الأمة» الإسلامية دون منازع. والجدير بالذكر هنا أنه تحمس لدراسة السيرة النبوية؛ لأنه يعتقد أنها المرشدة للأخلاق الكريمة والزاجرة عن الدناءة والرذيلة، وقد شارك مشاركة فاعلة في فتوحات إسلامية كثيرة. وله صولة وجولة أيضاً في تاريخ كل من العرب البائدة والإسرائيليات والمغازي. والحقيقة أن أبا العباس ترك صحفاً كثيرة لورثته تحتوي على معارف قيمة جداً تُعتبر أصولاً تاريخية نادرة.

يقول **أنور الجندي** في كتابه «أعلام الإسلام»: «وقد بلغ من عمق فهمه للسياسة أنه عارض الحسين في الخروج، ونصحه بعدم السفر، وقال: إنه لا يستبعد أن يكذبوك أو يخذلوك. وكان قد أبعد نفسه عن معارك الساسة، واكتفى بالعلم والفقه، وكان معاوية يقدره رغم اختلافه في الرأي، وقد أشركه في الجيش الذي أعده لفتح القسطنطينية عام (٤٨ هجرية)، وقد كان محباً لعثمان، وكان عثمان يثق به، وقد اشترك في فتح مصر وأبلى بلاءً حسناً، وكان حريصاً على أن يعفر وجهه بتراب الغزو في سبيل الله، كما أرسله عثمان في فتح بلاد طبرستان بقيادة سعيد بن العاص. وقد ولاه على البصرة فانتقل إليها بعلمه، وكان على ميسرة جند علي بن أبي طالب في صفين. قال عنه عمر بن الخطاب: إنه فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول. وقال علي بن أبي طالب: إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق لعقله وفطنته».

وخلاصة القول: اهتم علماء العرب والمسلمين الأوائل اهتماماً بالغاً في طلب العلم والحث عليه بطرق مختلفة؛ لأنهم يعتقدون أن العلم هو الوسيلة الوحيدة إلى الرقي والتقدم، وبدون العلماء لا يمكن أن يكون للأمة شأن، والمعروف لدى الصغير والكبير أن التاريخ للعلماء والأفذاذ، وكان عبد الله ابن العباس يرى أن البحث والدراسة شرف وفضيلة، وكان دائماً يقول لطلابه: «خُير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطي المال والملك معه». وهكذا عرف علماء المسلمين الأوائل أن الأمم لا تقاس بعدد أفرادها وإنما تقاس بعلمائها الذين يشقون لها الطريق السوي ويرسمون لها أيضاً المنهاج العلمي القويم.

ولقد أوقف عبد الله بن العباس حياته على خدمة كل من العلوم الشرعية والتاريخ الإسلامي. كما صرف كل وقته في نصرة دينه الحنيف، حيث حمل بكل شجاعة لواء الدفاع عن العقيدة الإسلامية باستخدام عقله وجسده، واستطاع بالفعل أن ينجح في هذه المهمة مستعملاً الحجة والبرهان. والحقيقة أن عبد الله بن العباس لم يكن مغموراً ومجهولاً عن أهل عصره، بل على العكس كان عملاقاً يشهد له بتفوقه في معظم فروع المعرفة وفي مقدمتها تفسير القرآن الكريم والفقه والتاريخ واللغة، وعليه جعل طلابه يعملون ليلاً ونهاراً لجمع مادته العلمية التي خلفها لهم. لذا يذكر **مصطفى بن عبد الله** الشهير **بحاجي خليفة** في كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» ـ المجلد الثاني ـ : أن أبا بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن أمير المؤمنين المأمون قد جمع فتاوى عبد الله بن العباس في عشرين مجلداً. وأضاف أيضاً **عمر رضا كحالة** في كتابه: «معجم المؤلفين» ـ الجزء السادس ـ: أنه يُنسب لعبد الله بن العباس كل من تفسير القرآن الكريم، ومسند الحديث. وهكذا يقف عبد الله بن العباس في الصف الأمامي لجهابذة الفكر في الحضارة الإسلامية.

لا ريب فابن العباس عالم فذ يكــلّ القلـم عـن وصفـه، حيـث إنـه غزيـر المعرفة عالي الهمة، تفنــن في فهـم القـرآن الكريـم وتفسـيره، كمـا أنـه اعتمـد اعتماداً كبيراً على الإسناد في رواية الحديث. والمتواتر أنــه مسـتقل التفكـير في غربلته الروايات والأقاويل، فينفي ما يشك فيه ويثبت ما يرتـاح إليـه، وعنـده أسلوب رائع في الكتابة يمتاز بالسهولة والجزالة والوضوح، وهـذا كلـه نتيجـة سعة اطلاعه على الأدب وأشعار وأخبار العرب.

عروة بن الزبير

هو **عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي**، يكنى **بأبي عبد الله**، ويلقب **بعالم المدينة المنورة**، اختلف على تاريخ ميلاده، ولكن المتفق عليه أنه ولد سنة (٢٣ هجرية) في المدينة المنورة، نما وترعرع في المدينة المنورة وأخذ الحديث عن صحابة رسول الله ﷺ. كان صالحاً أميناً رائقاً، شقيق الشهيد عبد الله بن الزبير. كان خلوقاً يكره المجاملات الكاذبة، وأمه أسماء ابنة أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها التي لازمها وتفقه بها، ذاع صيته بين معاصريه بأسلوبه السلس الصريح البعيد عن التحيز، كان يقرأ ربع القرآن الكريم كل ليلة، ينتسب إلى بيت من أشرف وأنبل بيوت العرب، ولذا كان لهذا الأثر الكبير في طموحاته ورواياته التاريخية. كان أيام إمارته على المدينة المنورة (٨٧ - ٩٣ هجرية) ويُعتبر أيضاً من القواد الأشاوس ومن كبار مفكري الحضارة العربية والإسلامية. زار مصر سنة (٤٨ هجرية) وتزوج منها واستوطنها سبع سنين، توفي بعد قطع رجله في ثماني سنين وهو صائم في قريته فرع بالقرب من المدينة المنورة سنة (٩٤ هجرية). وفي نفس السنة التي قطعت فيها رجله توفي ابنه عبد الله فحزن حزناً شديداً على فراقه.

أما قصة قطع رجل عروة بن الزبير عندما كان في الشام عند الخليفة الوليد ابن عبد الملك بن مروان. فقد تناقلها المؤرخون على الصيغة الآتية: «كان عروة ابن الزبير قد قصد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي جمع له الأطباء من كل مكان ليداووه من داء في ساقه، وكان أن قرروا قطع هذه الساق، ولكن كيف! عرضوا عليه الخمر ليسكروه فلا يحس بالألم فرفض، وقال: لا أستعين على قضاء الله بمعصية، وأرادوه على أن يشرب المرقد (البنج) فقال: لا، وقبل أن يقطعوا ساقه وهو يصلي! قال لهم: سأدخل في ذكر الله، فإذا رأيتموني استغرقت، فشأنكم بها. فلما رأوه استغرق قطعوا اللحم بالسكين المحماة

بالنار، حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار وهو يكبر، ثم عمدوا إلى تعقيم ساقه فحموا الزيت في مغارف الحديد. وقال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط، وقال: اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفاً وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت».

كما يروي **أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان** في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ـ الجزء الثالث ـ رواية هامة تدل على تواضع وزهد وورع عروة بن الزبير منذ نعومة أظفاره وهي: «اجتمع في المسجد الحرام كل من عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة فقال بعضهم: هلم فلنتمنه، فقال عبد الله بن الزبير: منيتي أن أملك الحرمين وأنال الخلافة. وقال مصعب: منيتي أن أملك العراقين وأجمع بين عقيلتي قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة. وقال عبد الملك بن مروان: منيتي أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية. فقال عروة: لست في شيء مما أنتم فيه، منيتي الزهد في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة وأن أكون ممن يروى عنهم هذا العلم. فقال عبد الملك بن مروان لذلك: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير».

وخلاصة القول: اهتم المؤرخون المسلمون بدراسة وتدريس السيرة النبوية؛ لأنها مرجع تاريخي ضروري للباحثين في التاريخ الإسلامي، من هنا ركّز عروة بن الزبير على جمع مادته من المصادر الأولية صحابة رسول الله ﷺ وفي مقدمته والده الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة. لقد تفنن عروة بن الزبير في كتابة السيرة النبوية، لذا يُعتبر أول من كتب عن حياة الرسول ﷺ بوضوح وبروايات صحيحة مستمدة من منابعها الأصلية، وعليه يرى بعض المؤرخين أن التدوين الحقيقي للتاريخ الإسلامي بدأه عروة بن الزبير.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «وأسلوب عروة في التأليف بسيط بعيد عن الإنشاء، في حين أن نظرته واقعية صريحة وخالية من المبالغات. وقد مكنته منزلته الاجتماعية من الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية وخاصة عن عائشة وآل الزبير، أسرته، وقد حصل على بعض الوثائق، كما أنه أشار إلى آيات قرآنية تتصل بالحوادث. وقد أمضى عروة حياته بين الدرس والتدريس، فكان يتبع الحديث والعلم وروى عن أعلام المدينة من رجال ونساء مثل عائشة وعمر وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمرو ابن العاص وأبي هريرة وعبد الله بن عباس. وأصبح من فقهاء المدينة السبعة ومن أعلام محدثيها حتى قال عمر بن عبد العزيز عنه: (ما أحد أعلم من عروة ابن الزبير). وقال الزهري: (كان عروة بحراً لا يكدره الدلاء)».

ولقد اعتمد معظم من كتب في السيرة النبوية على روايات عروة بن الزبير؛ لأنه يعتبر بحق من الطبقة الأولى من مؤرخي السيرة، حيث تناول جوانب متعددة من حياة صفوة الخلق الرسول ﷺ . كما أنه أيضاً أعطى اهتماماً خاصاً للمغازي، فله الفضل الجزيل في تقديم معلومات ناضجة ومفيدة للغاية عنها للدارسين والباحثين. إذن ليس بغريب أن يعتبر عروة بن الزبير مؤسس مدرسة المغازي، فهو أول من ألف كتاباً فيها.

كان عروة بن الزبير عالماً في خفايا السيرة النبوية متقناً لها متفنناً في كتابتها، قادراً بذكاء وصواب رأي أن يشرح غوامضها ومعانيها، وعليه يجمع المؤرخون أنه بحر لا ينزف في العلوم الشرعية، وأن ما كتبه في مجال السيرة النبوية يعتبر أقدم وآصل معلومات في حياة سيد البشرية الرسول ﷺ ، لذا بقيت جميع أعماله في السيرة من المصادر الهامة جداً للباحثين في هذا المضمار الحيوي.

أبان بن عثمان بن عفان

هو **أبان بن عثمان بن عفان** الذي اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته، ولكن الأكثر أنه ولد في المدينة سنة (٢٠ هجرية)، نما وترعرع في بيئة علم ووقار وجاه، فأبوه الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثالث الخلفاء الراشدين، وهكذا نهل من المعارف المختلفة في صباه، صحب أبان بن عثمان بن عفان عائشة رضي الله عنها في معركة الجمل وهو في ريعان شبابه وذلك سنة (٣٥ هجرية)، ذاع صيته بين زملائه بكل من ثقافته العالية في العلوم الشرعية ومعرفته الواسعة في مجال المغازي. وقد عينه عبد الملك بن مروان ـ الذي نقل دواوين الدولة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وضرب العملة الإسلامية ـ والياً على المدينة المنورة لمدة سبع سنين. تميز بالصدق والأمانة والتواضع والورع، ويعتبر بحق محدثاً موهوباً، مرض مرضاً عضالاً في المدينة المنورة، وتوفي فيها سنة (١٠٥ هجرية).

يقول **محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري** المعروف بابن سعد في كتابه آنف الذكر: «كان يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أمية على المدينة عاملاً لعبد الملك بن مروان، وكان فيه حمق، فخرج إلى عبد الملك وافداً عليه بغير إذن من عبد الملك، فقال عبد الملك: ما أقدمك عليّ بغير إذني؟ من استعملت على المدينة؟ قال: أبان بن عثمان بن عفان. قال: لاجرم لا ترجع إليها، فأقر عبد الملك أباناً على المدينة، وكتب إليه بعهده عليها.. وكانت ولاية أبان على المدينة سبع سنين، وحج بالناس سنتين، وعزل عبد الملك بن مروان أباناً عن المدينة وولاها هشام بن إسماعيل».

اعتنى أبان بن عثمان بن عفان في دراسة المغازي لأنها تجمع بين الحديث والتاريخ، من هنا أشرقت بحوث المغازي في مدرسة المدينة المنورة التاريخية على يد أبان بن عثمان بن عفان، حيث لم تكن معروفة في الأقطار الإسلامية

الأخرى إلا في القرن الثاني الهجري. والجدير بالذكر أن أبان تفنن في بحوثه في هذا المجال الحيوي، ولكنه أبدع في سيرة الرسول ﷺ ، وعليه تمكن من تقديم أعمال جليلة في كل من الحديث والمغازي والفقه، وهكذا يقف أبان ابن عثمان عملاقاً في حقل أخبار غزوات صفوة الخلق الرسول ﷺ والذين اشتركوا فيها من الصحابة الأبرار رضي الله عنهم.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «وقد اهتم **أبان بن عثمان ابن عفان** برواية المغازي التي رواها عنه مالك بن أنس وابن سعد والطبري.

فهو مرحلة بين دراسة الحديث وبين تدوين التاريخ، ولعله لهذا روت عنه كتب الحديث كثيراً».

وخلاصة القول: اهتم علماء العرب والمسلمين الأوائل في دراسة المغازي دراسة عميقة وموثقة. وقد عرف أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» ـ الجزء الثاني ـ المغازي بأنها: جمع مغزى ومغزاة، وكلاهما معناه موضع الغزو أو الغزو نفسه، ثم توسعوا في معناها فأطلقوها على مناقب الغزاة وغزواتهم، ثم نجدهم استعملوها استعمالاً واسعاً للدلالة على حياة الرسول ﷺ حتى جعلوها مرادفة للسيرة، لذا اتجه أبان بن عثمان بن عفان إلى البحث في كل من علم الحديث والمغازي وتفوق فيهما تفوقاً ملحوظاً، حتى صارت أعماله في هذين المجالين من المصادر الهامة جداً للباحثين والدارسين في ميدان علم التاريخ، والحقيقة أن أبان بن عثمان بن عفان كان يمثل مدرسة كل من الحديث والمغازي، حيث تفنن فيهما، وأصبح في المدينة المنورة إماماً لطبقات مؤرخي السيرة.

وليس بغريب أبداً أن يبرز أبان بن عفان بين زملائه بكل من علمه وخلقه وبصيرته، فأبوه الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي وصلت الفتوحات الإسلامية في عهده شرقاً إلى أقصى بلاد فارس حينئذ وشمالاً إلى

أرمينية التابعة للدولة البيزنطية، وفي فترة خلافته تكونت أول قوة بحرية لصد أساطيل الأعداء عن سواحل كل من مصر والشام، وبواسطة هذه القوة البحرية نجحت الجيوش الإسلامية في وقعة ذات الصواري سنة (٣٤ هجرية)، وهذا يوحي بتفوق البحرية الإسلامية على جميع بحريات دول البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

لقد تواتر أن أبان بن عثمان بن عفان كان يقول لأصحابه: «من قال لا إله إلا الله العظيم سبحان الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوة إلا بالله عوفي من كل بلاء يومئذ». وهذا دون شك يدل على صلاحه وصدق مقاصده. والجدير بالذكر هنا أنه حارب دون هوادة الأساطير والقصص الفاسدة، وركّز في جميع أعماله على مصدرين هامين القرآن الكريم والسُّنة الطاهرة، ولذا عرف باسم إمام الحديث وعلومه، وقد عاش أبان بن عثمان بن عفان حياة متواضعة بعيدة كل البعد عن المظاهر والغرور مترفعاً عن الحسد متعالياً عن الأصولية، عف النفس أبي الخلق، كان يحمل كل هذه الصفات الحميدة؛ لأنه كان متأثراً بأخلاق والده الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

تميز أبان بن عثمان بن عفان في بحوثه في كل من الفقه والسيرة والمغازي والفتوحات الإسلامية. والمعروف في ذلك الوقت أن المحدث مؤرخ. وعليه تمكن من جمع مادته العلمية في ميدان السيرة النبوية من قراءاته وسماعه لروايات أصحاب رسول الله ﷺ ، لذا صار إنتاجه في مجال السيرة النبوية مرجعاً هاماً للمؤرخين ليس فقط في السيرة النبوية ولكن أيضاً في علم التاريخ، فالمؤرخ الكبير محمد الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هجرية) اعتمد اعتماداً كبيراً على ما كتبه أبان بن عثمان بن عفان في السيرة النبوية في تأليفه كتابه الشهير: «تاريخ الأمم والملوك». بهذا نستطيع أن نقول: إن أبان بن عثمان بن عفان قد أمدنا بمعلومات تاريخية قيمة عن كل من المغازي والحديث والفتوحات الإسلامية.

وهب بن منبه

وهو **وهب بن كامل بن منبه اليماني الصنعاني**، يكنى **بأبي عبد الله** ويلقب **باليماني** الأخباري، ولد في ذمار القريبة جداً من صنعاء العاصمة عام (٣٤ هجرية) وتوفي في مدينة صنعاء سنة (١١٤هجرية)، بدأت عليه بوادر الذكاء في سن مبكرة، ولذا نبغ في كل من العلوم الاجتماعية التي من بينها علم التاريخ والعلوم الشرعية. وتفوق على إخوانه الثلاثة: همام ومعقل وغيلان في مجال العلوم. كما اشتهر بورعه وزهده، فكان يحترم ويجل مخلوقات الله تبارك وتعالى بأنواعها المختلفة.

يقول **عمر رضا كحالة** في «معجم المؤلفين» ـ الجزء الثالث ـ: «وهب ابن منبه اليماني (أبو عبد الله) إخباري، من التابعين، له معرفة بأخبار الأوائل وأحوال الأنبياء وسير الملوك. أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، وأمه من حمير. ولد بصنعاء، وصحب عبد الله بن عباس وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، وتوفي بها. من آثاره: تصنيف في ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم في مجلد، قصص الأنبياء، قصص الأخيار، كتاب القدر، وكتاب الإسرائيليات».

كان **أبو عبد الله وهب بن منبه** واسع الاطلاع صاحب ثقافة عالية. والمعروف أن عنده إلماماً جيداً في الكتب القديمة، ولذا يعتبر من المتخصصين في الإسرائيليات، حيث نقل نقلاً كثيراً من الإسرائيليات في مؤلفاته، ولقد درس عن كتب أخبار الأولين وخاصة الملوك والسلاطين عن طريق الروايات الشفوية والمكتوبة، كما تفنن في رواية القصص والأساطير الخاصة في كل من المسيحيين واليهود واليمنيين، وعليه عرف باسم الأخباري صاحب القصص، فاستطاع بحكمته وعقله أن يدخل منهج القصص على التاريخ عند العرب قبل الإسلام. ونقل عنه الكثير جداً من مؤرخي العرب، فإنتاجه العلمي يعتبر بحق مصدراً هاماً للباحثين في مجال علم التاريخ القديم.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «وفي النهاية قد نتفق مع جمهرة المؤرخين الذين اعتبروا وهب في عداد الأخباريين الذين رووا تاريخ العرب قبل الإسلام، إضافة إلى روايتهم أخبار غير العرب وتحديداً الأخبار التي استقوها من الكتب المقدسة وسواها، بل ترانا نضيف أن «وهب» كان قد أدخل عنصر القصة إلى حقل التاريخ».

كان وهب بن منبه يجيد عدداً من اللغات مثل العربية والسريانية واليونانية والحميرية، لذا تمكن من فهم كل من التوراة والإنجيل جيداً، حيث له تأملات رائعة فيها. كما ذاع صيته بين زملائه بقدرته الفائقة على قراءة المؤلفات القديمة التي لا يستطيع قراءتها غيره من العلماء. وللأسف استغل وهب بن منبه قدرته العلمية بأن قدم قصصاً وأساطير عن اليمن تميل إلى المبالغة والخيال بطريقة تبين انحيازه لليمن.

يقول **أبو الحسن علي المسعودي** في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ـ الجزء الثالث ـ: «وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال: لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحاً من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعرض على جماعة من أهل الكتاب، فلم يقدروا على قراءته، فوجه به إلى وهب بن منبه، فقال: هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام، فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا ابن آدم لو عينت ما بقي من يسير أجلك، لزهدت فيما بقي من طول أملك».

نال وهب بن منبه شهرة عظيمة من أقواله وحكمه التي أعجبت عدداً كبيراً من المؤرخين، ونقل بعضها شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي في موسوعته آنفة الذكر من مصادر مختلفة وهي:

ـ إياكم وهوىً متبعاً، وقرين سوء، وإعجاب المرء بنفسه.

ـ العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيّمه، والصبر أمير جنوده، والرفق أبوه، واللين أخوه.

ـ المؤمن ينظر ليعلم، ويتكلم ليفهم، ويسكت ليسلم، ويخلو ليغنم.
ـ ثلاث من كن فيه أصاب البر: السخاء، والصبر على الأذى، وطيب الكلام.
ـ استكثر من الإخوان ما استطعت، فإن استغنيت عنهم لم يضروك، وإن احتجت إليهم نفعوك.
ـ إذا سمعت من يمدحك بما ليس فيك، فلا تأمنه أن يذمك بما ليس فيك.

خلاصة القول: كانت هناك مشكلة قائمة بين حكومة اليمن والأحباش الذين دخلوا اليمن عنوة، لذا قرر كسرى فارس **أنوشروان** أن يساعد حكومة اليمن لإخراج الأباض من اليمن، فأرسل جيشاً إلى اليمن كان من ضمنه والد وهب بن منبه الذي أعجبه اليمن وأهله، فاستوطنه وصار مواطناً صالحاً، وأنجب وهب بن منبه الذي يُعتبر من عباقرة العرب والمسلمين. والجدير بالذكر أن والد وهب بن منبه اعتنق الإسلام في حياة سيد البشرية محمد بن عبد الله ﷺ. وعليه نما وهب بن منبه وترعرع في اليمن مسلماً يدافع عن العقيدة الإسلامية السمحة، إذن فهو يماني المولد والثقافة وأصله فارسي.

ولقد تمكن وهب بن منبه اليماني أن يدخل القصة بنجاح في حقل علم التاريخ، وذلك عن طريق كلامه عن كل من الشعوب البائدة وملوك اليمن ودخول الأحباش اليمن وحالة العرب المزرية قبل الإسلام والمعتقدات المسيحية واليهودية الفاسدة، كما أبرز بطريقة فنية مكانة اليمن التاريخية، حيث حاول أن يوحي للقارىء العادي أن عرب الجنوب كانوا متفوقين على عرب الشمال، وهذا بلا شك يعكس تحيز وهب بن منبه الواضح تجاه مسقط رأسه اليمن، على الرغم من أن الأخبار المتواترة أن المؤرخين كانوا يشيدون بصدقه وأمانته وتقواه وزُهده وورعه. والجدير بالذكر أن هناك إجماعاً بين المؤرخين في المعمورة أن عرب الشمال لهم السبق على عرب الجنوب بمآثرهم العلمية العظيمة وإنجازاتهم الرائعة في مجال علم التاريخ، فعرب الشمال هم الذين أعادوا الأمل والثقة لشباب الأمة العربية والإسلامية.

عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان

هو **عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الظفري الأوسي**، يكنى **بأبي عمر**، ويلقب بكل من **الأنصاري والظفري والأوسي**. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه نما وترعرع في المدينة المنورة، كما انتقل إلى دمشق واستوطنها ردحاً من الزمن ليعلم الناس هناك أصول الدين الإسلامي، ولكنه عاد إلى مسقط رأسه المدينة المنورة عام (١٠١ هجرية)، وبقي فيها يعلم المواطنين ما ينفعهم ويحذرهم عما يضرهم، وهكذا ذاع صيته كقنديل من قناديل الحضارة الإسلامية، حيث كان من الرواة الثقات في موضوعي السيرة النبوية والمغازي. وعليه أصبح إنتاجه من المصادر الهامة للمؤرخين في كل من السيرة النبوية والمغازي ومناقب صحابة رسول الله ﷺ، لذا استند على إسهاماته في هذه المجالات الثلاثة كل من ابن إسحاق والواقدي في مؤلفاتهما المشهورة.

لقد تربى عاصم بن عمر بن قتادة في بيت علم وشجاعة، فجده قتادة الصحابي المتوفى سنة (٢٣ هجرية) شهد مع رسول الله ﷺ كلاً من بدر وأحد وفتح مكة المكرمة، واشتهر بين معاصريه بأنه من الرماة المتميزين، أما أبو عاصم عمر بن قتادة، فكان من رواة الحديث المعروفين، لذا أخذ عنه ابنه عاصم أحاديث كثيرة جداً، نقل بعضها عن أبيه قتادة بن النعمان. إذن لا غرابة أن يتفوق الابن عاصم بن عمر بن قتادة في كل من السيرة النبوية والمغازي ومناقب الصحابة. اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، ولكن المتفق عليه أنه توفي سنة (١٢٠ هجرية) بالمدينة المنورة.

يقول **محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري** والمعروف بابن سعد في كتابه آنف الذكر: «وكانت لعاصم بن عمر بن قتادة رواية للعلم، وعلم السيرة، ومغازي رسول الله ﷺ، وروى عنه محمد بن إسحاق وغيره من

أهل العلم، وكان ثقة كثير الحديث عالماً، كما وفد عاصم بن عمر على عمر ابن عبد العزيز في خلافته في دين لزمه قضاه عنه عمر، وأمره له بعد ذلك بمعونة، وأمره أن يجلس في جامع دمشق، فيحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه، وقال: إن بني مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه، فأجلس فحدث الناس بذلك، فقفل، ثم رجع إلى المدينة، فلم يزل بها حتى توفي سنة عشرين ومئة في خلافة هشام بن عبد الملك».

وخلاصة القول: كان خلفاء المسلمين يحرصون كل الحرص على أن يسندوا لكبار العلماء تدريس الناس بالمسجد لكل السيرة النبوية والمغازي، ومناقب صحابة رسول الله ﷺ إضافة إلى بعض الأمور التي تتعلق في حياتهم اليومية، وذلك لأنهم كانوا يخافون أن يسمع الناس البسطاء لبعض المتعصبين ضد الإسلام، أو أن يأخذوا عن الذين لم يتحلوا بروح الدين الإسلامي الحنيف. والملاحظ أنه دائماً يوجد بين المسلمين عبر العصور الذين يعملون ليلاً ونهاراً على تثبيط عزائم وهمم المسلمين، وإدخال اليأس في قلوبهم. لذا كلف الخليفة الزاهد عمر بن العزيز العالم عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان أن يعلم الناس أمور دينهم في مسجد دمشق، امتثالاً لقول رسول الله ﷺ : «أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء، فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله». وعليه بذل عاصم بن عمر بن قتادة قصارى جهده للتأكد من أن المواطنين حينئذ يعرفون تمام المعرفة أن الإسلام غايته المثلى التوحيد، وأن القرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة في كل آية من آياته الطاهرات، كما ركز على أن المسلم لن يصل إلى غايته المطلوبة إلا بنصرة دين الله سبحانه وتعالى.

والحقيقة أن علماء المسلمين كانوا يرون أن العلم ضروري للإنسان بل إنه كالماء والهواء يجب ألا يمنع عن أحد، كما يلزم كل من تعلم علماً نافعاً أن يعلمه للآخرين طوعاً، ونتيجة لهذا المبدأ السامي صار طلاب العلم يأتون من كل حدب وصوب لتلقي تعليمهم العالي في البلاد الإسلامية؛ لكي ينهلوا من

ينابيع المعرفة وليتغذوا من أفكار جهابذة الفكر الإسلامي في كل من العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها والتاريخ والعلوم الأساسية والتطبيقية، وغيرها من العلوم النافعة.

ولقد اعتمد عاصم اعتماداً كبيراً على مصادره العائلية في رواية كل من أحاديث رسول الله ﷺ ومغازيه وأخبار الصحابة؛ لأنه في معظم الحالات يروي الأحداث والأخبار عن أبيه عمر عن جده قتادة، لذلك تميزت جميع رواياته التاريخية، كما اعتنى اعتناء تاماً باستقراء الوقائع التاريخية استقراءً علمياً دقيقاً، لذا لعب دوراً تاريخياً واسعاً في كل من السيرة والمغازي، مما جعل فطاحل التاريخ يستندون إلى إسهاماته في هذين المجالين الحيويين في كتابة كتبهم التاريخية، حيث ثبت لهم أن معرفته بكل من السيرة النبوية والمغازي ومناقب الصحابة وافية، بل يُعتبر بحق من الرواة الثقات في هذين الميدانين، وهكذا يقف عاصم بن عمر بن قتادة عملاقاً بين المؤرخين المسلمين.

محمد بن مسلم الزهري

هو **محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري**، يكنى **بأبي بكر** ويلقب **بالزهري** نسبة إلى بني زهرة القبيلة العربية القرشية العريقة، والتي منها آمنة أم رسول الله ﷺ ، وعلى الرغم من هذا كانت عائلته فقيرة، ولكنها اهتمت بعلم الأنساب اهتماماً بالغاً، لذا تفنن أبو بكر الزهري بتسجيل نسب قومه. كما كتب كتاباً في نسب قريش فكان من المصادر الهامة للباحثين في هذا الميدان. عرف أبو بكر الزهري بأنه أحد كبار الفقهاء والمحدثين والمؤرخين في صدر الإسلام، بل يُعتبر أول من دوّن أحاديث رسول الله ﷺ، ولد في مكة المكرمة سنة (٥٨ هجرية)، ونما وترعرع فيها، وتلقى تعليمه على جهابذة الفكر هناك. لقد اشتهر بذاكرته القوية حيث كان يحفظ عن ظهر قلب أكثر من ألفي حديث. انتقل إلى الشام واستوطن مدينة دمشق ردحاً من الزمان، ولكنه لم ينقطع أبداً عن الحجاز، حيث كان مستمراً بزياراته لمسقط رأسه، كما عمل مع كل من عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وكانوا يكنون له كل تقدير. والجدير بالذكر أنه حج مع هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦ هجرية)، وعمل قاضياً شرعياً في دمشق في عهد يزيد بن عبد الملك، واختلف في تاريخ وفاته ولكن الثابت أنه توفي سنة (١٢٤ هجرية).

كان أبو بكر الزهري من أوعية العلم ليس فقط في علم الأنساب ولكن أيضاً في كل من علم التاريخ والفقه والحديث. كما ذاع صيته بين معاصريه بدقته في نقل الروايات التاريخية، لذا اعتبر من الثقات في رواياته التاريخية التي تتصف بالصراحة والطابع الإنساني، وهذا يظهر واضحاً من عرضه الوافي لدور الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في إنشاء الدواوين وتنظيم الأعطيات، وكذلك العمل الذي قام به الخليفة الراشد عثمان بن عفان حول كل من جمع

القرآن الكريم والفتوحات الإسلامية التي تمت في عهده. وقد عرف عن أبي بكر الزهري قوة الإسناد، حيث كان يكتب جميع ما يسمع على الألواح والصحف ليساعد ذاكرته المتميزة، ونتيجة لذلك تفوق على جميع علماء عصره في ميدان كل من السيرة النبوية والمغازي والفقه، وإليه يرجع الفضل في رسم الخطوط العريضة للسيرة النبوية.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «قام أبو بكر الزهري ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها وكتب ما كان يسمع ليعين ذاكرته، وقد محص تلك الروايات ووضعها في إطار متين واضح. ودراسة رواياته التي وصلتنا تجعلنا نميل إلى أنه كان أول من أعطى (السيرة) ـ وهو التعبير الذي استعمله ـ هيكلاً محدوداً ورسم خطوطها بوضوح. وتبدأ خطته للسيرة بذكر بعض المعلومات عن قبل الإسلام والتي تتصل بحياة النبي محمد ﷺ . ثم يتناول النواحي الهامة من الفترة المكية من حياة الرسول ﷺ، ثم الهجرة إلى المدينة. ويتناول المغازي وفتح مكة، وبعض السفارات التي أرسلها الرسول والوفود التي قامت عليه، ويتحدث عن فعاليات أخرى للرسول ثم مرضه وانتقاله من هذه الحياة، وراعى الزهري التسلسل التاريخي في حوادث السيرة وأعطى تواريخ الحوادث المهمة، كان همه أن يحصل على (العلم) أو الأحاديث ويضمنها الأحاديث التاريخية، وهو يرى أن العلم ضرورة اجتماعية ودينية إضافة إلى أنه من أعمال التقوى، وبالتالي فإنه يكسب صاحبه شرفاً ومنزلة اجتماعية سامية».

خلاصة القول: يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «محمد بن مسلم بن شهاب الزهري الذي أسس المدرسة التاريخية في المدينة وفي الشام.. كان أول مدوني التاريخ الإسلامي، كتب مغازي الرسول وأعطى السيرة النبوية إطارها الذي نعرف إلى اليوم، وتناول عهد الراشدين ومطلع الأيام الأموية بأسلوب تقصى فيه الأخبار من أصحابها، ومحص الروايات وجمع

أسنادها في سند جمعي واحد، وراعى التسلسل التاريخي، وأبرز الأحداث الهامة وابتعد رغم حبه للشعر عن الشعر وعن القصص؛ أي أنه كتب التاريخ، ويظهر من مقتطفات الطبري عن الزهري أن هذا المؤرخ لم يعالج الفترة الأموية وإن كان أجاب الوليد عن أسئلة ألقاها إليه تتعلق بأعمار الخلفاء الأمويين وكتب أسنانهم ومدة حكم كل منهم. وتناول الزهري فترة الراشدين بالتفصيل يكشف عن أن الاهتمام بتجارب الأمة الإسلامية الأولى كان عاملاً آخر له أهميته في نشأة الكتابة التاريخية».

وأولى المؤرخون المسلمون الأوائل عناية خاصة لدراسة ومتابعة كل من السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ والحالة الاجتماعية والسياسية للعرب قبل الإسلام وبعد دخولهم في الإسلام. مما جعل أبا بكر محمد الزهري يصر على تأسيس مدرسة المدينة المنورة التاريخية؛ لكي تتولى هذه المدرسة الجانب الحيوي من تاريخ الأمة الإسلامية (السيرة النبوية ومغازي رسول ﷺ). المشهود لأبي بكر الزهري أنه كان واقعياً فيما يكتبه في مجال علم التاريخ الإسلامي، حيث كان يحاول أن يبتعد عن المبالغة والتحيز في رواياته للحوادث التاريخية، ولهذا وقف أبو بكر الزهري في مقدمة مؤرخي صدر الإسلام يشار إليه بالبنان.

ويتضح للقارىء أن أبا بكر الزهري خصب القريحة، وصاحب ثقافة عالية، وأن معظم معلوماته التاريخية مأخوذ من السيرة النبوية والمغازي، وأن له أيضاً كتابات رائعة حول مغازي رسول الله ﷺ، ولاشك أن إنتاجه في مجال علم التاريخ مهد تمهيداً جيداً لوضع البحوث التاريخية على أساس ثابت، وذلك لأنه اهتم اهتماماً بالغاً بكل من تجارب وخبرات الأمة العربية والإسلامية.

موسى بن عقبة

هو **موسى بن عقبة بن أبي عياش**، يكنى **بأبي محمد**، ويلقب **بالمدني**، لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاده، ولكن الثابت أنه ولد في المدينة المنورة، وتوفي فيها (سنة ١٤١هـ)، عرف بين زملائه باسم الإمام، حيث كان يفتي، ولكنه اشتهر بتفوقه بمغازي رسول الله ﷺ . وينقل الإمام **الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني** في كتابه «تهذيب التهذيب» قول الإمام مالك بن أنس: «عليكم بمغازي ابن عقبة وهي أصح المغازي». أما **خير الدين الزركلي** فيقول في كتابه «الأعلام»: «موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي ... عالم بالسيرة النبوية، من ثقاة رجال الحديث، من أهل المدينة...، له (كتاب المغازي). قال الإمام ابن حنبل: (عليكم بمغازي ابن عقبة فإنه ثقة)». وكان مولى لآل الزبير، وتتلمذ على يد محمد بن شهاب الزهري مؤسس مدرسة المدينة المنورة التاريخية، لذا استفاد من علمه الغزير.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «الواقع أن ابن عقبة تميز بفكر تاريخي منهجي منظم سمح له، وهو يبحث مغازي الرسول وأخبار الراشدين والأمويين:

أ ـ أن يفكر بوضع قوائم بأسماء الصحابة المهاجرين إلى الحبشة أو المشاركين في بيعة العقبة وغيرهم.

ب ـ أن يضع بدوره ـ مثل ابن أبي حزم ـ مادته التاريخية في تسلسل زمني حولي. وهكذا قامت مدرسة المدينة بعمل هذين المؤرخين أهم الخدمات لتطوير التدوين التاريخي.

وقد لقي كتاب «المغازي» لابن عقبة الكثير من الاهتمام فيما بعد لدقته واستيفائه، واستخدمه الكثيرون ومنهم أبو نعيم الأصفهاني الذي كتبه بخطه،

فاستخدم هذه النسخة نفسها بعد قرنين ياقوت الحموي. وجمع قطعة منه ابن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي. (وتوفي سنة ٧٨٩هجرية/ ١٣٨٧ ميلادية). ثم جاء ابن حجر فاحتفظ لنا في كتاب «الإصابة» بقطع من هذه المغازي تزيد في العدد على ٢٢٥ قطعة تمثل القسم الأكبر منها. وقد اختصرها قبل ذلك ابن عبدالبر في كتابه «الدرر في اختصار المغازي والسير». واقتبس منها الكثير ابن سيد الناس في كتابه «عيون الأثر» وبقي منها إلى اليوم قطع مخطوطة في برلين ترجم بعضها المستشرق سخاو، ودرسها شاخت وإن لم تنشر بعد».

وذاع صيت موسى بن عقبة بين معاصريه بتدريسه كلاً من الفقه والحديث والسير النبوية والمغازي في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة. وقد اتبع منهج مدرسة المدينة المنورة التاريخية في جميع كتاباته التاريخية خاصة التي تتعلق بالسيرة النبوية والمغازي وأخبار كل من الخلفاء الراشدين وبني أمية، حيث اهتم اهتماماً بالغاً بالإسناد لتدوين الحوادث التاريخية. ولم يهمل أبداً الروايات الشفوية التي وصلت إليه عن طريق ثقات القوم آنذاك.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «اتبع موسى بن عقبة بدقة أسلوب مدرسة المدينة، فنجده يعكس تزايد تأكيد المحدثين على الإسناد، ويبدي اهتماماً خاصاً بذكر تواريخ الحوادث. وقد استفاد من مواد مكتوبة (وخاصة من آثار أستاذه الزهري) بالإضافة إلى الوثائق والروايات الشفوية، ولكن الاعتماد في الروايات المكتوبة بقي على الراوي لا الكتاب. وقد استند موسى بن عقبة بالدرجة الأولى إلى الزهري وأضاف إلى ذلك بحوثه الخاصة وبذلك أضاف مادة إلى تراث المدرسة».

وخلاصة القول: عندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، شعر قادتها بضرورة دراسة مغازي رسول الله ﷺ عن كثب، لما تحتويه من معجزات حول الانتصارات التي تحققت في عهده ﷺ ، محاولين بذلك تعريف الأعداد

الهائلة من الشعوب المختلفة ذوات التاريخ التي دخلت في الإسلام، وبدون شك فإن مغازي رسول الله ﷺ لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً هاماً جداً في مجرى التاريخ الإسلامي، لذا ركز المؤرخ موسى بن عقبة على الانتفاع بكل الدلائل التي تشتمل عليها المغازي. وهكذا أخذت مغازي صفوة الخلق رسول الله ﷺ مكانها اللائق بها في مجموعة المعارف التي ظهرت أمام الإنسان.

ولقد حاز أبو محمد موسى بن عقبة على شهرة عظيمة بين زملائه، نتيجة كل من نجاحه الباهر في طريقة تدريسه لشباب الأمة الإسلامية في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة العلوم الشرعية، ومعلوماته الغزيرة في مجال مغازي رسول الله ﷺ . والجدير بالذكر أن كبار المؤرخين اعتمدوا على كتابه «المغازي» في كتاباتهم في هذا الموضوع الحيوي، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن أبا محمد موسى بن عقبة كان واسع الثقافة، ويظهر ذلك واضحاً من إسهاماته الجليلة في ميدان كل من الفقه والحديث والسيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ . والمشهود أن له آثاراً رائعة في الأخبار التاريخية التي دوّنها عن كل من الخلفاء الراشدين وبني أمية، والتي بقيت من المصادر الضرورية للباحثين في ميدان التاريخ الإسلامي عبر العصور.

محمد بن إسحاق

هو **محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار**، ولد (سنة ٨٠ هجرية) في المدينة المنورة، وكان من أصل فارسي، نما ابن إسحاق وترعرع في المدينة المنورة، وتلقى تعليمه على جهابذة الفكر فيها أيضاً، ونبغ في مجال كل من السيرة النبوية والمغازي، لذا عرف باسم صاحب المغازي والسير، وكان يلقب **بالعلامة الأخباري وعميد مؤرخي السيرة**، ويكنى **بأبي بكر** أو **بأبي عبد الله** والمعروف أن جده من سبي عين التمر البلدة القريبة من الأنبار التي تقع غرب الكوفة.

قام أبو بكر بن إسحاق سنة (١١٥ هجرية) بزيارة لمدينة الإسكندرية باحثاً عن الأحاديث التي لها صلة قوية بمغازي رسول الله ﷺ ، ولكنه لم يبق طويلاً هناك، بل عاد إلى مسقط رأسه المدينة المنورة. وعندما اشتد عود الدولة العباسية في العراق قرر الرحيل إليه، وذلك في أول أيام حكم أبي جعفر المنصور. وعليه استوطن الكوفة والجزيرة والري وقضى فيها ردحاً من الزمن، ولكنه قضى آخر أيام حياته في بغداد التي توفي فيها سنة (١٥١ هجرية). والجدير بالذكر أن أبا بكر بن إسحاق تمكن من ربط صداقة قوية بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان من المغرمين في مغازي رسول الله ﷺ ، ولذا أهدى له كتابه المعروف باسم: «سيرة ابن اسحاق» الذي بقي من المصادر الهامة لمؤرخي السيرة النبوية.

ينقل **الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر أقوالاً لبعض العلماء الكبار تدل على أن أبا بكر بن إسحاق كان علامة عصره، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الآتي:

١) كان ابن إسحاق ثقة، حسن الحديث.

٢) لا يزال بالمدينة علم جم ما دام فيهم ابن إسحاق.

٣) من أراد أن يتبحر في المغازي، فهو عيال على محمد بن إسحاق.

٤) لا يزال في الناس علم ما عاش محمد بن إسحاق.

٥) محمد بن إسحاق أمير المحدثين لحفظه، وفي رواية: أمير المؤمنين في الحديث.

٦) ابن إسحاق رجل قد اجتمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه.

٧) قد اختبر ابن إسحاق أهل الحديث فرأوا صدقاً وخيراً.

٨) محمد بن إسحاق ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد.

٩) إذا جلس العلماء إلى ابن إسحاق، فأخذوا في فن من العلم، قضى مجلسه فيه.

١٠) كان ابن إسحاق أول من جمع مغازي رسول الله ﷺ .

ذاع صيت أبي بكر بن إسحاق بين معاصريه بأسلوبه ومنهجه الرائعين في الكتابة، حيث جمع فيهما بين منهج المحدثين والأخباريين. ولقد كان له ميل سياسي وديني، حيث كان يستعين كثيراً بالآيات القرآنية لتعزيز رواياته التاريخية، كما كان يستخدم بدقة الوثائق والروايات المكتوبة والشفوية، بهذا استطاع أن يقنع الكثير من المؤرخين في العالم الإسلامي أنه أوسع ثقافة من سابقيه ومعاصريه، لذا يعتبر بحق من رواد الحضارة العربية والإسلامية ومن أبرز علماء مدرسة المدينة المنورة التاريخية.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «فقد جمع ابن إسحاق بين أساليب المحدثين والقصاص في كتاباته، واستفاد من مختلف نواحي الاهتمام بالمغازي وتواريخ الأنبياء، فجمع بين الأحاديث والروايات التاريخية والإسرائيليات، والقصص الشعبي مع كثير من الشعر الصحيح والموضوع،

ولذا فإن مصادر معلوماته تكون خليطاً يجلب الانتباه، ففي المبتدأ روى ابن إسحاق عن (أهل الكتاب) وعن الداخلين حديثاً في الإسلام وأخذ كثيراً عن وهب بن منبه، وعن العجم، وروى قصصاً عربية قديمة، وأقاصيص من أصل يماني. أما رواياته عن فترة الرسالة، فترجع في جوهرها إلى أساتذته في المدينة، مع إضافات حصل عليها ببحوثه، وفي بعض الحالات لا تتعدى رواياته أن تكون شرحاً لآيات قرآنية نقله عن غيره أو عمله هو».

خلاصة القول: أولى المؤرخون المسلمون السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ عناية خاصة؛ لأن هدفهم الرئيسي معرفة كل من أصول دينهم وتاريخهم، والسيرة النبوية تحمل خفايا الحقب التاريخية وتحذر من السلبيات، وتحث على التمسك بالتجارب السابقة التي عملها صفوة الخلق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، لذا بذل أبو بكر بن إسحاق جهداً كبيراً في دراسة كل من السيرة النبوية والمغازي، مما جعله يتعدى حدود مدرسة المدينة المنورة التاريخية، حيث كان يجمع في كتاباته التاريخية بين منهج كل من المحدثين والقصاص. وعليه تعلم الكثير من تواريخ الأنبياء، ولكنه استعمل طريقة واضحة المعالم في تحديد الجوانب الفعلية لغزوات رسول الله ﷺ . وهكذا تمكن أبو بكر بن إسحاق من تأسيس مبادىء الكتابة التاريخية التي تعتمد على الإسناد والتعليل العلمي المنطقي.

ولقد اهتم أبو بكر بن إسحاق اهتماماً بالغاً بجمع الأحاديث النبوية، وخاصة التي لها صلة بمغازي رسول الله ﷺ ، لذا ظهر كتابه الشهير «سيرة ابن إسحاق» عبارة عن موسوعة في علم الحديث، علماً أن معظم هذه الأحاديث حصل عليها عن طريق أساتذته في كل من المدينة المنورة ومصر، والمعروف أن كتاب (سيرة ابن إسحاق) أول كتاب يصل إلى القراء في مجال المغازي، وهو يشتمل على ثلاثة أقسام، المبتدأ: ويتناول تاريخ الوحي قبل الإسلام، والمبعث: ويختص بحياة رسول الله ﷺ في

مكة المكرمة، أما المغازي: فهي تدور حول حياة رسول الله ﷺ في المدينة المنورة. ولقد تفوق أبو بكر ابن إسحاق بكتابة «سيرة ابن إسحاق» الذي نقحه ابن هشام وأصبح يعرف باسم «سيرة ابن هشام» ولحُسن الحظ تبين أخيراً أنه توجد نسخة مخطوطة لسيرة ابن إسحاق في بلاد المغرب، وفوق هذا كله فإن الفضل يعود لابن إسحاق في ترتيب وتبويب الأحاديث الصحيحة التي نقلها من مصادرها الأولية، لذا يقف أبو بكر بن إسحاق عملاقاً بين المؤرخين المسلمين.

حماد الراوية

هو **حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد الديلمي** من موالي بني بكر بن وائل، يكنى **بأبي القاسم** ويعرف بالراوية وأصله من الديلم ولذا سمي الديلمي ويلقب **بالكوفي**؛ لأنه ولد في الكوفة سنة (٩٥ هجرية) ونما وترعرع فيها وتلقى معظم تعليمه هناك. تنقل كثيراً في البادية لجمع الشعر وللاختلاط مع رجالها، وزار بلاد الشام لنفس الغرض النبيل، وتوفي في بغداد سنة (١٥٥ هجرية)، له سمعة عالية جداً بين زملائه في الشعر والأخبار والأنساب العربية، واشتهر كذلك بحافظته القوية. ويقول **فرانز روزنتال في** كتابه: «علم التاريخ عند المسلمين» : «كان حماد الراوية أخبارياً علامة خبيراً بأيام العرب وأنسابها ووقائعها ولغاتها وشعرها». ومما يجدر ذكره أنه لم يكن لأبي القاسم حماد الراوية عند بني العباس المكانة العالية التي احتلها عند بني أمية، لذا بقي محدود النشاط في عهد الخلفاء العباسيين، ويقال: إنه ظل حياً يرزق إلى أيام الخليفة العباسي المهدي الذي كان يستنشده كثيراً.

وينقل **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر حواراً تم بين الوليد بن يزيد بن معاوية وحماد الراوية: قال الوليد بن يزيد لحماد الراوية: بم استحققت هذا اللقب، فقيل لك الراوية؟ فقال: بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروي لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه و لم تسمع به، ثم لا أنشد شعراً لقديم ولا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث. فقال: إن هذا لعلم وأبيك كبير، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: كثيراً؛ ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام، قال: سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد فأنشد حتى ضجر الوليد، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسع مئة قصيدة للجاهلين، وأخبر الوليد بذلك، فأمر له بمئة ألف درهم.

كان لأبي قاسم حماد الراوية صولة وجولة في عالم الشعر، علماً أنه لم يخلف دواوين مكتوبة ولا مؤلفات في أخبار وأنساب العرب، ولكن الشعراء والمؤرخين رووا عنه وصنفوا الكتب بعده. وشهرته المرموقة في ميدان كل من الشعر وأخبار وأنساب العرب جعلت خلفاء وأمراء بني أمية يحتظونه، ويحافظون على صحبته كنديم لهم في مجالسهم الخاصة، ولقد تأثر كثير من معاصريه بوفاته، لذا رثاه أعداد كبيرة من الشعراء وفي مقدمتهم أبو يحيى محمد بن كناسة، وينقل محمد بن إسحق بن النديم في كتابه «الفهرست» بعض الأبيات التي قالها محمد بن كناسة فيه وهي:

أبعدت من نومك الغرار فما جاوزت حتى انتهى بك القدر
لو كان ينجي من الردى حذر نجاك مما أصابك الحذر
يرحمك الله من أخي ثقة لم يك في صفو وده كدر
فهكذا يفسد الزمان ويفنى العلم فيه ويدرس الأثر

خلاصة القول: بقيت الروايات القبلية حول غزوات العرب ومعاركهم قبل الإسلام يطلق عليها (أيام العرب) وصار يتناقلها الناس شفوياً مدة طويلة من الزمن، كما سيطر عليها الشعر فأعطاها أهمية عظيمة؛ لأن الشعر عبر العصور له نكهة خاصة عند العرب في الجاهلية، حيث أن هناك أعداداً هائلة كانوا يحفظونه ويتبادلونه في مجالس الحكام والأمراء ورؤساء القبائل آنذاك، واستمر الوضع بعد ظهور الإسلام حتى القرن الثاني الهجري الذي جمعت وصنفت فيه الروايات التاريخية، لذا عني قادة الأمة الإسلامية بالشعر الجاهلي عناية بالغة؛ لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنه إحدى الطرق الواضحة التي يمكن من خلالها استخلاص تاريخ العرب قبل الإسلام، وعليه اهتم حماد الراوية بجمع أشعار العرب مثل المعلقات ـ التي كانت تعلق على الكعبة لعلو قيمتها ـ التي لها صلة وثيقة في أيام العرب؛ لأن أخبار العرب قبل الإسلام احتلت

مكاناً كبيراً في النماذج الشعرية التي خلدها شعراء العرب الكبار مثل امرىء القيس. وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمة، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، والنابغة الذبياني، وأعشى قيس، وعنترة العبسي وغيرهم.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «ولحماد الراوية يعود الفضل في جمع المعلقات وجمع أشعار أكثر القبائل وأكثر شعراء بني أمية، وجعل شعر كل قبيلة أو شاعر في كتاب.. فكان عنده كتاب لشعر قريش وآخر لشعر ثقيف وآخر لغيرهما، لكنها ضاعت كلها ولم يذكر منها صاحب «الفهرست» شيئاً، وإنما روى الناس عنه وصنفت الكتب بعده، وإذا ما حاولنا تتبع آثاره نجدها في ثنايا كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني وفي كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان وغيرهما».

ويبدو أن الشعر الجاهلي كان يحظى باهتمام المؤرخين لما له من تأثير في الأوضاع السياسية والاجتماعية، كما ثبت أن فيه مادة تاريخية تغني الباحث في أحوال العرب قبل الإسلام. والحقيقة أن الشعر الجاهلي حفظ المعلومات الخاصة في أسباب الحروب التي تمت بين القبائل العربية وأعدائها، وأبرز بوضوح المستوى العسكري الذي بلغته القبائل العربية في الجاهلية.

أدرك حماد الراوية عن كثب مكانة الشعر في المعادلة القبلية وتأثيره على أفراد القبيلة، لذا تخصص بحفظ الشعر العربي حتى صار المرجع لزملائه حينئذ؛ لأنه كان أعلم الناس بأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم، وهو الذي جمع كلاً من المعلقات التي بين أيدينا وأشعار القبائل، بهذا كله يقف أبو القاسم حماد الراوية بصف المفكرين العرب الذين قدموا خدمة عظيمة للحضارة الإنسانية.

أبو مخنف الأزدي

هو **لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي**، يكنى **بأبي مخنف**؛ لأن جده مخنف كان صحابياً ومن أصحاب علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ويلقب **بالكوفي** لأنه من أهل الكوفة، لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه توفي سنة (١٥٧ هجرية)، وذاع صيته بين معاصريه لاهتمامه بالكتابة عن الأحداث والظواهر التاريخية التي تمت في صدر الإسلام. وتجدر الملاحظة أنه عني عناية جيدة بأنساب العرب، كما اعتمد في معظم دراساته على الروايات القبلية. والملاحظ أنه ركز في جميع دراساته وبحوثه على الفترة الممتدة منذ عهد أبي بكر الصديق حتى أواخر العصر الأموي. والمتواتر أن مؤلفاته وصلت إلى اثنين وثلاثين كتاباً ضاع مع الأسف معظمها. ومادة هذه الكتب تدور حول موضوع كل من الردة والفتوح الإسلامية والشورى في الإسلام ومعركة صفين والخوارج. كما بذل جهداً عظيماً بجمع المعلومات الضرورية للأحداث التاريخية التي كانت في العراق خلال عهد الأمويين.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «أبو مخنف أخباري كوفي له اهتمام بالأنساب. وقد كتب عن الردة، وعن فتوح الشام والعراق، والشورى، وصفين وعن الحوادث التالية في العراق حتى نهاية العصر الأموي وخاصة الثورات والمعارك وعن الخوارج، ووضع ذلك في كتب تجاوزت الثلاثين. ويُعتبر أبو مخنف من أميز الأخباريين في العراق، واستعمل الروايات العائلية خاصة عن صفين، واعتمد بكثرة على روايات قبيلته الأزد. كما أنه استفاد من الروايات الكوفية الأخرى، فمثلاً يأخذ عن الشعبي، وعن رواة من قبائل أخرى كتميم وهمدان وطي وكندة، ثم إنه أتمها بروايات من المدينة. ونلاحظ أن سلاسل رواياته كثيرة وتتبدل بتبدل الحوادث، وهذا طبيعي في أخباري من الأولين. ويورد أبو مخنف عادة الصورة العراقية (الكوفية)

للحوادث. فهو أميل للعراق تجاه الشام نتيجة اعتزاز القبائل بمصرها، كما أن اعتزاز القبائل بمآثرها ينعكس أحياناً في رواياته، ولكن أخباره على العموم ليست متحزبة».

اشتغل أبو مخنف الأزدي في ميدان علم التاريخ ولا سيما فيما يتعلق بالأنساب العربية، وتفوق في ذلك إلى درجة جعلت علماء زمانه يحترمونه ويجلونه. والجدير بالذكر هنا أن مؤلفاته الكثيرة لم تقتصر على علم التاريخ؛ لأن له باعاً طويلاً في مختلف فروع المعرفة، وهذا يظهر واضحاً في مؤلفاته التي وردت في المصادر التاريخية المختلفة، والتي من بينها كتاب «فوات الوفيات» والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي الذي ذكر منها: كتاب الردة وكتاب فتوح الشام، وكتاب فتوح العراق، وكتاب الجمل، وكتاب صفين، وكتاب النهروان، وكتاب الغارات، وكتاب الخريت بن راشد وابن ناجية، وكتاب مقتل علي رضي الله عنه، وكتاب مقتل حجر بن عدي وأصحابه، وكتاب مقتل محمد بن أبي بكر والأشتر ومحمد بن أبي حذيفة، وكتاب الشورى، وكتاب مقتل عثمان رضي الله عنه، وكتاب المسور بن علقمة، وكتاب مقتل الحسين رضي الله عنه، وكتاب المختار بن أبي عبيد، وكتاب وفاة معاوية وولاية يزيد ووقعة الحرة ومقتل عبد الله بن الزبير، وكتاب سليمان بن صرد وعين الوردة، وكتاب مرج راهط ومقتل الضحاك بن قيس الفهري، وكتاب مصعب بن الزبير والعراق، وكتاب حديث وادي الجماجم ومقتل عبد الرحمن ابن الأشعث، وكتاب نجدة الحروري، وكتاب الأزارقة، وكتاب حديث روستقياذ، وكتاب نجيب الحروري وصالح بن مسرح، وكتاب المطرف بن المغيرة، وكتاب يزيد بن المهلب ومقتله بالعقر، وكتاب خالد القسري ويوسف بن عمر وموت هشام وولاية الوليد، وكتاب زيد بن علي ويحيى بن زيد، وكتاب الضحاك الخارجي، وكتاب الخوارج والمهلب بن أبي صفرة، وكتاب مقتل عبد الله بن الزبير، وله غير ذلك.

وخلاصة القول: اهتم حكام بني أمية بالمؤرخين اهتماماً بالغاً لاعتقادهم القوي أن علم التاريخ يحتوي على مادة تاريخية محددة الأبعاد لكل من الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية القديمة والمعاصرة لهم، كما أنهم فهموا فهماً جيداً أن علم التاريخ ضروري لمعرفة الحاضر والتخطيط للمستقبل. وعليه عني أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي بتاريخ صدر الإسلام حتى معركة صفين المشهورة، ولكنه ركز في دراساته وبحوثه على الحوادث التاريخية التي صارت في العراق حتى نهاية العصر الأموي، وهكذا لمع أبو مخنف الأزدي بين زملائه في مجال علم التاريخ، وإبراز ولع خلفاء بني أمية بسماع علم التاريخ.

ونستطيع أن نقول الآن: إن أبا مخنف الأزدي خصب القريحة وقوي العقل ودقيق الملاحظة، وهذا يظهر واضحاً للقارىء من مؤلفاته الكثيرة في حقل علم التاريخ، والتي تعطي انطباعاً جيداً أنه كان أستاذاً ناجحاً في هذا المجال الحيوي، ومبرزاً في أنساب العرب.

والحقيقة التي لا تحتاج إلى تفسير أن أبا مخنف الأزدي كان منصرفاً إلى العلم، ولكن يبدو لأول وهلة أن معظم كتبه تشبه الرسائل، ولكنها في مجموعها تكون تاريخاً متكاملاً للفترة الممتدة من عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى أواخر العصر الأموي. ولاشك أن إنتاج أبي مخنف الأزدي يمثل أثراً من الآثار الخالدة التي تركها للأجيال، والتي كانت من أهم عوامل تقدم علم التاريخ والقرب منه.و الجدير بالذكر أن أبا مخنف الأزدي لم يصل إلى هذه المكانة العلمية الجيدة إلا بالتدرج في أخذ المعارف التاريخية، وعليه وصل في مسعاه إلى مبتغاه.

أبو معشر السندي

هو **نجيح بن عبد الرحمن السندي**، يُكنى **بأبي معشر**، ويُلقب **بالسندي** لأن أصله من السند، والمتواتر أنه كان ألكن، فعندما يتكلم يقلب حرف الكاف قافاً. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه توفي ببغداد سنة (١٧٠ هجرية)، ولكنه نما وترعرع في المدينة المنورة، وتفنن فيها في علم التاريخ وخاصة ما يتعلق بمغازي رسول الله ﷺ ، حيث جمع مادته التاريخية من مصادر موثوقة، لذا تمكن وبجدارة من تأليف كتاب قيم في مجال المغازي. ذاع صيت أبي معشر السندي بين زملائه بأنه أخباري متمكن، ويُعتبر من علماء المدينة المنورة المتميزين. فقد اعتمد على كتابه في المغازي كبار المؤرخين في الحضارة العربية والإسلامية مثل كل من الواقدي وابن سعد والطبري، وهذا كله يظهر واضحاً من مقتبساتهم منه في مؤلفاتهم المشهورة بين الدارسين والباحثين في حقل علم التاريخ.

عندما زار الخليفة العباسي المهدي المدينة المنورة سنة (١٦٠ هجرية) التقى بأبي معشر السندي، وأعجب بسعة ثقافته وكثرة علمه في التاريخ والحديث، فاستصحبه معه إلى بغداد وبقي فيها مشاركاً جهابذة الفكر هناك حتى انتقل إلى جوار ربه سبحانه وتعالى. ويذكر محمد بن إسحاق ابن النديم في كتابه آنف الذكر: أن نجيح المدني (المعروف باسم أبي معشر السندي) عارف بالأحداث والسير وأحد المحدثين، وتوفي أيام الخليفة العباسي الهادي، وله من الكُتب كتاب المغازي. وعليه حصل على الذكر الحسن والسمعة المحترمة.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «كان يحاول أبو معشر السندي أن يكون محدثاً، ولكن شهرته في الحديث بقيت محدودة واشتهر بالتاريخ، وبأنه (بصير بالمغازي) كما قال أحمد بن حنبل، وقد احتج الأئمة

بتاريخه. ويظهر من المقتطفات الباقية في الكتب عنه أنه مؤلف في المغازي، روى سيرة الرسول ﷺ جميعاً وتراجم الصحابة، كما يظهر أنه ألف تاريخاً، عرف باسم تاريخ الخلفاء، على الحوليات، تناول فيه التاريخ الإسلامي حتى سنة (١٧٠ هجرية).. ولعله من المناسب أن نلاحظ هنا أن مدرسة المدينة التاريخية قد تحولت في مركزها منذ مطلع العهد العباسي إلى العراق. لقد انتقل ابن إسحاق منها وقد انتقل أبو معشر، وقد ظهر آخر ممثليْن لهذه المدرسة، يمثلان نهاية تطورها وقمة ذلك التطور في العراق أيضاً وهما الواقدي وابن سعد».

وخلاصة القول: في القرن الثاني الهجري صار الأمر ملحاً جداً عند المسلمين لمعرفة مغازي رسول الله ﷺ؛ لأنها تحتوي على معارف متنوعة عن الحروب، وهم كانوا في أمس الحاجة إليها لكي يهتدوا بها في حروبهم مع الكفار الخونة، لذا ركّز أبو معشر السندي على دراسة علم التاريخ. وفرغ نفسه للدراسة والبحث في مجال المغازي التي يقول عنها أحمد أمين في كتابه آنف الذكر: «أصل المغازي جمع مغزى ومغزاة، وكلاهما معناه موضع الغزو أو الغزو نفسه، ثم توّسعوا في معناها فأطلقوها على مناقب الغزاة وغزواتهم، ثم نجدهم استعملوها استعمالاً واسعاً للدلالة على حياة النبي ﷺ حتى جعلوها مرادفة للسيرة».

وكان أبو معشر السندي متميزاً في المغازي ومتفنناً فيها ومتفقهاً في الدين الإسلامي، وصاحب أفكار جليلة ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في العلوم الأخرى. والحقيقة أنه برز بروزاً عظيماً بين زملائه في مجال مغازي رسول الله ﷺ، لذا كان الخليفة العباسي المهدي يأتمنه ويثق بآرائه ويحترمه كثيراً، فكان يطلعه على أمور الدولة الخطيرة ويستشيره ويأخذ برأيه في أكثر الأحيان؛ لأنه كان رجلاً صحيح العقل وحكيماً يعطي رأياً قائماً على الحقائق التاريخية المنقحة والناجحة، ولاشك أن له أفكاراً تاريخية تدل على قوة معرفته في مغازي صفوة الخلق رسول الله ﷺ واطلاعه الواسع على دقائقها.

جميع المراجع التي ترجمت لأبي معشر السندي لم تقدم لنا معلومات عنه تشفي الغليل، بل عرضت نذراً يسيراً عن سيرته وحياته وإنجازاته التاريخية لا تُسمن ولا تُغني من جوع، مع العلم أنه كان معتنياً بجميع الكُتب التي لها علاقة بالمغازي والنظر فيها وتحقيق ما ذكره المتقدمون من تحليلات ودراسات حول هذا الموضوع الحيوي. والجدير ذكره هنا أن كبار المؤرخين المسلمين أجمعوا على أنه عالي الثقافة إلى جانب معرفته التامة بالمغازي، حيث اقتبسوا الكثير من معارفهم عن المغازي من إسهاماته الثمينة في هذا الميدان الحيوي. وأخيراً أتمنى من أعماق قلبي أن يتحمس أحد أبناء الأمة العربية والإسلامية في تقصي أعمال أبي معشر السندي المدني في مجال علم التاريخ، ويخرجها في ثوب جديد إلى مؤرخي القرن العشرين.

سيف التميمي

هو **سيف بن عمر الأسدي التميمي**، ويلقب **بالتميمي** لأنه من قبيلة بني تميم المشهورة بدينها وشجاعتها وكرمها، فهم الذين يقول عنهم رسول الله ﷺ : «بنو تميم هم أشد أمتي على الدجّال». لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاده، ولكن الثابت أنه نشأ وترعرع وتلقى تعليمه الأولي في المدينة المنورة، ثم غادرها إلى العراق، حيث تنقل بين مدن العراق؛ لكي يتتلمذ على كبار علماء العرب والمسلمين هناك، فنبغ في علم التاريخ وخاصة الجزء الخاص بالتراجم، حيث كانت التراجم أقدم نماذج التعبير التاريخي وأثبتها وأصدقها. استقر مدة طويلة بمدينة الكوفة، ولذا ذاع صيته بأنه كان أخبارياً وكوفياً، حيث أخذ عن شيوخ الكوفة الكثير من معارفه الأدبية والشرعية. اختلف في تاريخ وفاته، فقيل: إنه توفي سنة (١٨٠ هجرية)، وروي أيضاً أنه مات سنة (٢٠٠ هجرية)، ولكن الراجح أنه انتقل إلى رحمة الله تبارك وتعالى ببغداد سنة (١٨٠ هجرية). كان من العلماء المتحمسين لدراسة كل من التراجم والفتوحات الإسلامية، والردة ومسير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والخليفة الراشد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. والمشهور بين المؤرخين للأمة الإسلامية أن جميع معلوماته التاريخية مستقاة عن طريق قبيلته (قبيلة بني تميم)، وهذا بلا شك يؤكد ميوله القبلي، ولكنه عرف بصدقه وأمانته في النقل، حيث كان حريصاً جداً على الإسناد عند جمعه مادته التاريخية التي حصل معظمها بالنقل عن قبيلة بني تميم، إذن لا عجب أن يكون سيف بن عمر التميمي من المؤرخين المعتمدين في ميدان علم التاريخ الإسلامي، لذا نقل عنه كبار المؤرخين للحضارة العربية والإسلامية. ويذكر إسماعيل باشا البغدادي في كتابه «هداية العارفين» (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين): «أن سيف بن عمر الأسدي التميمي من أصحاب السير، توفي ببغداد في خلافة هارون الرشيد

سنة (٢٠٠ هجرية)، له كتاب الجمل ومسير عائشة وعلي، وكتاب الفتوح الكبير والردة».

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «نشأ سيف بن عمر التميمي (توفي ١٨٠ هجرية/ ٧٩٦ ميلادية) في المدينة وبها تثقف، ثم رحل إلى العراق، وزار الكوفة ورأى الخليفة المنصور، وعنه أخذ أهل الكوفة أحاديث عروة عن عائشة. وكان أهل المدينة يضنون بها، وليس لسيف كُتب كثيرة، والكتابان المرويان عنه أحدهما عن الردة والفتوحات، والثاني عن الفتنة ووقعة الجمل، وأخباره في الكتابين مستقاة من روايات قبيلته تميم، ولهذا ظهر فيها نظرتها القبلية والميول العراقية بشكل عام، كما يظهر فيها القصص العاطفي على أسلوب الأيام، ويبدو من الروايات التي نقلها الطبري عن سيف التميمي أنه كانت له كُتب أخرى، ولكنها ضاعت. وسيف بن عمر متهم كمعظم الأخباريين في رواية الحديث ولكنه عند الطبري موثوق في الأخبار».

وخلاصة القول: في البداية عني بعض مؤرخي العرب والمسلمين في تراجم طائفة معينة من الشخصيات الإسلامية الذين أسهموا إسهامات مرموقة في دفع عجلة الحضارة العربية والإسلامية. واستمروا في هذا الاتجاه حتى قوي عودهم، فبدؤوا في تصنيف المعاجم المتقنة لرجال الفكر ولفروع العلوم المختلفة، فأصبحت هذه المعاجم من المراجع الهامة جداً للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ الإسلامي، وذلك لاحتوائها على مادة دسمة عن جهابذة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية. وعليه اهتم سيف بن عمر التميمي اهتماماً بالغاً في الكتابة عن العلماء الكبار في سائر الفنون الإسلامية بجانب عنايته المعروفة في الفتوحات الإسلامية.

ولقد حرص بعض المؤرخين المعاصرين لسيف بن عمر التميمي على الكتابة عن الفتوحات الإسلامية، وذلك لإبراز شجاعة أفراد قبائلهم الذين أبلوا بلاء حسناً في تلك الفتوحات، لذا صارت القبائل تروي وقائعها لكي

تتناقلها الأجيال اللاحقة، وكل هذا كان يحدث عن طريق كل من الروايات القبلية والشعر المشحون بالفخر والاعتزاز، لكن المؤرخ سيف بن عمر التميمي يختلف تماماً عن زملائه؛ لأنه تميز في نظرياته وتأملاته التاريخية التي توحي بمعرفة واسعة في الفتوحات الإسلامية، حيث تمكن من ربط الأحداث التاريخية بعضها ببعض بطريقة فنية عجيبة، واستطاع أيضاً من إسناد جميع رواياته التاريخية التي كان مصدرها قبيلته تميم بإخضاعها لمنهج الإسناد العلمي المعتمد آنذاك، لذا كان ثقة وأميناً فيما رواه، وعليه اعتمد على إنتاجه كبار المؤرخين مثل الطبري.

هناك حقيقة يجب أن لا تغيب عن القارئ ألا وهي أن المؤرخ سيف بن عمر التميمي استفاد فائدة عظيمة من الأخبار التي نقلها من علماء المدينة المنورة عندما كان هناك. وقد نوّه عن ذلك في مؤلفاته التي ضاعت، ولم يبق منها إلا ما اقتبسه المؤرخ المعروف محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هجرية) الذي أثنى على كل من أفكاره التاريخية القيمة وأسلوبه القوي المؤثر. كما تواتر أنه من المعجبين في قبيلته تميم. وهذا قاد بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن عنده ميولاً قبلياً.

الواقدي

هو **محمد بن عمر بن واقد المدني**، ويكنى **بأبي عبد الله**، ويُلقب **بالواقدي** وأحياناً بأمير المؤمنين في الحديث لتفوقه في علم الحديث.. ولد في المدينة المنورة سنة (١٣٠ هجرية) في عهد الخليفة مروان بن محمد، وتلقى تعليمه فيها على جهابذة الفكر الإسلامي، لذا نبغ في علوم كثيرة وفي مقدمتها علم التاريخ. والجدير بالذكر أن أبا عبد الله الواقدي اشتغل في التجارة مدة طويلة، ولكنه لم يوفق في هذا الميدان، بل خسر خسارة فادحة، مما جعله يرحل إلى العراق سنة (١٨٠ هجرية) ليعمل مع الخليفة العباسي هارون الرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكي، لذا ولاه هارون الرشيد قضاء الجانب الشرقي من بغداد، وثبته ابنه الخليفة العباسي المأمون على ذلك. فكان قاضياً ناجحاً، وبقي يزاول مهنة القضاء في العراق حتى توفي سنة (٢٠٧ هجرية) في عهد الخليفة العباسي المأمون. عرف الواقدي بكرمه وسخائه بين زملائه، من هنا اهتم الخليفة المأمون في إكرامه وإعطائه الكثير من المال ليرد اعتباره ومكانته بين العلماء؛ لأنه وقع في مصيدة الديوان.

يقول **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان** في كتابه آنف الذكر: «وكان المأمون يكرم جانب أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم ويبالغ في رعايته، وكتب إليه مرة يشكو ضائقة لحقته وركبه بسببها دين، وعين مقداره في قصته، فوقع المأمون فيها بخطه: فيك خلتان سخاء وحياء، فالسخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت، والحياء حملك أن ذكرت لنا بعض دينك، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت، وإن كنا قصّرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك، فإن خزائن الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة، وأنت حدثتني حين كنت على قضاء الرشيد أن النبي ﷺ قال للزبير: «يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش، ينزل الله سبحانه وتعالى للعباد أرزاقهم على قدر

نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل عليه»، قال الواقدي: وكنت نسيت الحديث، فكانت مذاكرته إياي أعجب إلي من صلته».

برز **أبو عبد الله الواقدي** في علم التاريخ الإسلامي لمقدرته الخارقة للعادة في تحديد وشرح مكان المعركة، وذلك عن طريق معاينته الموقع الجغرافي المتصل في الحديث التاريخي الذي كان يريد الكتابة عنه، لذا لا عجب أن يكون ألمعياً في ميدان علم التاريخ. لقد اشتهر أبو عبد الله الواقدي بين المؤرخين والمستشرقين في العصر الحديث بسبب سعة اطلاعه بكل من المغازي والسير والطبقات والفقه والحديث والتفسير، كما كان يستند كثيراً في كتاباته التاريخية على الوثائق وفيما كتب في الصحف والكتب في زمنه.

ويصف **عبد العزيز الدوري** منهج أبي عبد الله الواقدي في تناوله الأحداث التاريخية في كتابه آنف الذكر قائلاً: «فهو منتظم ومنطقي في تناول مادته، إذ يعرض أولاً إطار الموضوع ثم يعقبه بذكر التفاصيل، ويبدأ بقائمة لمصادره الأساسية وبقائمة بمغازي الرسول وتواريخها، وحين يذكر الغزوات واحدة بعد أخرى حسب تسلسلها التاريخي ويبدي اهتماماً خاصاً بالتواريخ، وهو في أسلوبه أكثر دقة من ابن إسحاق في استعمال الإسناد، وفي تحقيق تواريخ الحوادث، وفي نظرته للشعر، إذ يقتبس منه باعتدال، وفي تقليصه لعنصر القصص الشعبي في مادته، وقد استعمل طريقة الإسناد الجمعي بانتظام تقريباً ليعطي المواد الأساسية عن كل غزوة، ثم يورد بعد ذلك روايات فردية ليعطي تفاصيل أخرى أو روايات مباينة، وهذا الأسلوب يدل بوضوح على أن الواقدي يعطي بالإسناد الجمعي روايات مدرسة المدينة، ثم يضيف إليها ما وصل إليه، ويظهر أثر بحوثه الشخصية في المادة الإضافية التي يقدمها، وفي ضبط التواريخ، وفي تقديم إطار أوضح للغزوات، وفي اهتمامه بالتفاصيل الجغرافية التي تتصل بمواقع المعارك».

وخلاصة القول: شعر علماء العرب والمسلمون الأوائل بالحاجة الماسة لمعرفة أخبار كل من الأجيال الغابرة عن كثب، وخاصة الأحداث التي تمت في عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين؛ لأنهم يعتبرونها القناديل المتوهجة التي كانت تضيء لهم الطريق في حياتهم السياسية والاجتماعية، ونتيجة لذلك قضى أبو عبد الله الواقدي مدة طويلة من حياته، يدرس ويبحث ويستقصي في هذا المجال الحيوي، حتى أصبح من كبار علماء كل من التاريخ والحديث والمغازي والسير والطبقات والفقه، ولكنه ذاع صيته بين زملائه كمتخصص في علم التاريخ الإسلامي.

وكان **أبو عبد الله الواقدي** بعيداً كل البُعد عن التحزب والتحيز، بل اشتهر بصراحته في رواياته وعباراته التاريخية، لذا صارت مؤلفاته التي بلغت ٢٨ كتاباً ـ كما تناقلها المؤرخون في العالم ـ من المصادر الضرورية جداً للمؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن أيضاً في جميع أرجاء المعمورة، وبهذه المناسبة نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر: المغازي النبوية، وفتح إفريقية، وفتح العجم، وفتح مصر، وأخبار مكة، وتاريخ الفقهاء، والتاريخ الكبير، وكتاب الطبقات، وكتاب السقيفة وبيعة أبي بكر، وكتاب الردة والدار، وكتاب حزب الأوس والخزرج، وكتاب يوم الجمل، وكتاب صفين، وكتب فتوح الشام، وكتاب القبائل ومراتبها، وغيرها.

لقد نال أبو عبد الله الواقدي تقدير معاصريه من علماء العرب والمسلمين الأوائل لمواقفه القضائية المشرفة، والجريئة، خصوصاً عندما كان قاضياً بعسكر المهدي في عهد المأمون، ومما يجدر بالملاحظة أن صاحب الترجمة ألمَّ عن كثب بصعوبة الكتابة في مجال علم التاريخ؛ لأنه يعرف تمام المعرفة أن المؤرخ يحتاج إلى اطلاع واسع في كثير من فروع المعرفة ليكون مؤرخاً مثالياً، يجمع بين ملاحظة العالم ونزاهته، وعليه حفظ أعداداً كبيرة جداً من الأحاديث النبوية في سن مبكر، كما كان أيضاً يعي أن علم التاريخ ثمرة من ثمرات الثقافات الأصلية، وهكذا أصبح الواقدي من ألمع وأقدم المؤرخين في الإسلام لاتباعه هذه الفلسفة الصادقة.

أبو محمد بن قتيبة

هو **عبد ا لله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكـوفي**، يكنـى **بـأبي محمـد**، ويُلقب **بالدينوري** لأنه كـان قاضيـاً في دينـور مـدة مـن الزمـن، أمـا تسـميته الكوفي فهذا عائد لأنه سكن في الكوفة ردحاً من الزمن، عندما كان في ريعان شبابه. والمتواتر أنه وُلد ببغداد سنة (٢١٣ هجريـة) مـن عائلـة متعلمـة، فوالـده مسلم بن قتيبة كان من فقهاء المسلمين، الآن نستطيع القول: إن أبا محمد عبد ا لله بن قتيبة نما وترعرع في بيئة علم وجاه، حيث تتلمذ الابـن عبدا لله علـى يد والده، ولكنه نبغ ليس فقط في العلوم الشرعية بل في كل من علم التـاريخ والنحو والأدب والشعر، لـذا اشـتهر شـهرة عظيمـة بـين معاصريـه، مما دفـع بالوزير الفتح بن خاقان أن يقربه منه ويستعين به في النواحي العلمية وخاصـة في علمي التاريخ والنحو، إذن ليس بغريب أن يقـول **محمـد بـن إسـحاق بـن النديم** في كتابه آنف الذكر: «كان أبـو محمـد عبـد ا لله بـن مسـلم بـن قتيبـة الدينوري صادقاً فيما يرويه عالماً باللغة والنحو والشعر وغريب القرآن ومعانيه والفقه». أما الحافظ **أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي** فيقول في كتابه آنف الذكر: «كان عبد ا لله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ثقة ديّناً فاضلاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة والكتب المعروفة منها: غريـب القـرآن، وغريـب الحديـث، ومشـكل القـرآن، ومشـكل الحديـث، وأدب الكـاتب، وعيـون الأخبار، وكتاب المعارف وغير ذلك. سكن ابن قتيبة بغداد وروى فيها كتبـه إلى حين وفاته». وتوفي ببغداد سنة (٢٧٦ هجريـة) عـن عمـر ينـاهز الثـلاث والستين سنة.

بذل أبو **محمد عبد ا لله بن قتيبة** جهداً لا يُستهان به في الدراسة والبحث في مجال التاريخ والنحو، وهذا يظهر من مؤلفاتـه الكثـيرة الـتي وصـل عددهـا ٤٦ مؤلفاً، والحقيقة الواضحة أنـه أسـهم إسـهامات عظيمـة في إثـراء المكتبـة العربية والإسلامية. ولقد تناقل المؤرخـون في مؤلفـاتهم مجموعـة مـن مؤلفاته

ومنها: طبقات الشعراء، وكتاب الخيل، وكتاب الأنواء، وكتاب المسائل والجوابات، وكتاب الميسر والقداح، وكتاب الأشربة، وكتاب إصلاح الغلط، وكتاب التفقيه، وكتاب إعراب القرآن الكريم. ولكن الثابت أن أهم مؤلفاته، هما: كتاب عيون الأخبار وكتاب المعارف. لقد خصص كتاب عيون الأخبار لتراجم بعض الأعيان وعرض أعمالهم السياسية والحروبية والفروسية. أما كتاب المعارف فهو كتاب تاريخي عالمي يبدأ بالخليقة وينتهي في عصر الخليفة العباسي المعتصم با لله، ويشتمل على تاريخ الأنبياء والسيرة النبوية الطاهرة والصحابة الأفاضل والخلفاء وأنساب العرب وأصحاب الرأي والفكر، ويعتمد في جمع المعلومات على المصادر المكتوبة المتواجدة لديه آنذاك، وعلى بعض الروايات الشفهية. فبهذا الكتاب تمكن أبو محمد عبد ا لله بن قتيبة أن يجمع بين فكرة التاريخ العالمي وفكرة الوحدة الثقافية في تاريخ العرب والمسلمين.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «فكتاب ابن قتيبة (المعارف) هو دائرة معارف تمتزج فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية، إذ نجد فيه فكرة كتابة تاريخ عالمي يبدأ بالخليقة وينتهي بأيام المعتصم، وتظهر فيه وجهة أصحاب الأخبار والأنساب في كتابة التاريخ، كما يتناول (أيام العرب) بإيجاز، ويبدو فيه اهتمام الفقيه بطريقة الفتح هل هي صلحاً أم عنوة، وأعتقد أن الكتاب وضع ليسد حاجة الكتاب إلى المعلومات التاريخية الأساسية، استفاد ابن قتيبة في كتابه (المعارف) من مصادر مكتوبة ومن الروايات الشفوية، وسلك سبيل انتقاء معلوماته التاريخية بعد نقد مصادره.. وكان ابن قتيبة أول من رجع إلى (العهد القديم) ليأخذ منه مباشرة عن بدء الخليقة وعن تاريخ الأنبياء. وتتميز مادته التاريخية بالحياد وبالتأكيد على الحقائق، ومع أنه يورد الآراء السائدة أحياناً إلا أنه يعطي أحكاماً خاصة طريفة في بعض الأحيان».

خلاصة القول: كان لعلم النحو نكهة خاصة عند العرب والمسلمين على

اختلاف اهتماماتهم وتخصصاتهم، حيث كانوا يعتقدون أن علم النحو هو الفرع الوحيد من المعارف الإنسانية الذي لا يمكن أن يستغني عنه أي باحث سواء في علم التاريخ أو في غيره، لذا أنشئت مدرسة النحويين بمدينة بغداد، وصار رئيسها أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، وكانت لهذه المدرسة سمعة عالية بين الباحثين في العالم العربي والإسلامي، وذلك خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين؛ لأنها كانت مصدراً من المصادر الهامة جداً في العالم العربي والإسلامي في مجال علم النحو، وعليه ذاع صيت أبي محمد ابن قتيبة في العالم لإسهاماته العظيمة ليس فقط في علم النحو ولكن في كل من علم التاريخ والفقه والشعر والأدب، والحقيقة أنه حاز على مكانة مرموقة جداً في علمي النحو والتاريخ بين زملائه؛ لأنه عمل كل مافي وسعه أن يبسط معلوماته التاريخية والأدبية لكي تصل إلى عامة الناس، ونجح بذلك نجاحاً باهراً.

ولقد نهل أبو محمد عبد الله بن قتيبة من العلوم الشرعية واللغوية الكثيرة في ريعان شبابه على يد والده الفقيه، كما طالع أعداداً هائلة من الكتب في مكتبة والده حينئذ، لذا كان الابن عبد الله بن قتيبة عالماً فاضلاً ومشاركاً في أنواع كثيرة من العلوم التاريخية والأدبية واللغوية والشرعية والاجتماعية، واشتهر بصدقه وأمانته فيما رواه وما كتبه حول الأحداث التاريخية، وإنه أيضاً بذل جهداً عظيماً في مؤلفاته لتكون سهلة وواضحة المعالم لكي تسد حاجة السواد من الناس.

حاول **أبو محمد عبد الله بن قتيبة** أن يجمع مادته التاريخية من قراءاته المتنوعة ومن سماعه للأشخاص المتخصصين، لذا استطاع وبكل جدارة أن يسخّر كلاً من الأدب واللغة والشعر والأخبار لعلم التاريخ. والمعروف أن كتاباته في ميدان علم التاريخ تمتاز في استنباط الحقائق وعرض الآراء المنتشرة، ولكنه أيضاً لا يخفي رأيه الصريح فيها، لذا نجد أن جميع المعلومات التاريخية التي وردت في مؤلفاته والتي يعود تاريخها إلى بدء الخليقة منقحة لا غبار عليها. إذن لا عجب أن يعتبر عبد الله بن قتيبة من أئمة علم التاريخ.

أحمد البلاذري

هو **أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري**، وتواتر عن المؤرخين أنه سمي البلاذري نسبة لنبات البلاذر الذي ثمره شبيه بنوى التمر، ولبه يشبه تماماً لُب الجوز، وكان البلاذري يكثر من استعماله لأنه كان يعتقد أنه صالح لتقوية الحفظ، ويكنى بكل من **أبي الحسن وأبي بكر وأبي جعفر**، ويلقب **بالبغدادي**. لا نعرف بالضبط تاريخ ولادته، ولكن معظم المؤرخين يرون أنه من مواليد أواخر القرن الثاني للهجرة، والثابت أنه ولد بمدينة بغداد، وتوفي فيها سنة ٢٧٩هجرية. نما وترعرع في مدينة السلام (بغداد)، وتتلمذ على جهابذة الفكر هناك في كل من علم التاريخ والجغرافيا والأدب والشعر، ولكنه تفوق في علم الأخبار والأنساب.

تنقل أبو الحسن البلاذري في عدد كبير من مدن بلاد الشام مثل دمشق، وأنطاكية، وحمص، وحلب، والجزيرة، والرقة، وتكريت وغيرها، وعن طريقها حصل على معارفه التاريخية والعلمية والأدبية. وكان له علاقة قوية جداً في خلفاء بني العباس، وهذه الصلات ساعدته كثيراً على فتح المدارس وبناء المكتبات الضخمة في بغداد. والجدير بالذكر أن الفترة التي عاش فيها أبو الحسن البلاذري تُعتبر أخصب فترات الخلافة العباسية، حيث كان كل من النشاطات العلمية والثقافية والترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية على قدم وساق، لذا ترجم أبو الحسن البلاذري من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية أعداداً كثيرة من الكُتب الثمينة. ويقال: إن اهتمام البلاذري باللغة الفارسية يرجع إلى أن أصله كان فارسي.

يقول **حسان حلاق** في كتابه «مقدمة في مناهج البحث التاريخي»: «وكانت نشأة أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري في العهد العباسي في عهد ازدهار بغداد وتطورها في النواحي العلمية والثقافية والعمرانية. وكانت

بغداد عاصمة العواصم الإسلامية والعربية. فقد ارتادها طلاب العلم من الهند وفارس والشام ومصر وبلاد ما وراء النهر، ومن بين المميزات الخاصة في حياة البلاذري العلمية أنه كان رحّالة يرحل من بلد إلى آخر من أجل العلم، لذا أصبح بما اكتسبه في بغداد وخلال رحلاته مؤرخاً راوياً وأديباً ومحدثاً وشاعراً. ومن بين البلاد التي زارها حلب ودمشق وحمص ومنبج وأنطاكية والثغور الشامية ومدن شمال الشام وبلاد ما بين النهرين ومدن العراق الأخرى غير مدينة بغداد، وقد اكتسب في هذه الرحلات معارف علمية وأدبية متنوعة مما ضاعف عدد تلامذته ومريديه بعد عودته إلى بغداد، ولذلك فقد قسّم البلاذري وقته بين التدريس والتأليف، وأصبحت مؤلفاته موضع ثقة والمصدر الأساسي الجامع للتواريخ والموضوعات».

اعتكف أبو الحسن البلاذري على التأليف مدة طويلة من الزمن، فأنتج إنتاجاً هائلاً، ومن مؤلفاته كل من كتاب البلدان الصغير، وكتاب البلدان الكبير (لم يتمه)، وكتاب عهد أردشير (ترجمة)، وكتاب أنساب الأشراف وأخبارهم، وكتاب الاستقصاء في الأنساب والأخبار (لم يتمه). ولكن نال شهرة عظيمة من كتابه فتوح البلدان، الذي عرض فيه بطريقة جيدة الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي والإداري والمعماري والعلمي والتربوي والاجتماعي في البلدان المفتوحة، وتكلم بشيء من التفصيل عن الطريقة المثلى لفتح الأقاليم والأمصار دون المساس بالبنية الأساسية فيها، وتحدث أيضاً عن الحفاظ على الأنهار والبحار والظواهر الطبيعية. ولحُسن الحظ قام المستشرق (دي غويه) سنة (١٢٨٧ هجرية) بتحقيق ونشر كتاب فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري، لذا أصبح متواجداً في معظم مكتبات العالم كما طبع سنة ١٣١٩ هجرية في مصر، وصار الأكثر تداولاً بين طلاب العلم والباحثين في مجال علم التاريخ، مما شجَّع اللبنانيين أن يعيدوا طباعته عدة مرات في بيروت لأهميته.

ويمتدح **عبد العزيز الدوري** أبا الحسن البلاذري في كتابه آنف الذكر

فيقـول: «وطريقـة البـلاذري في الكتابـة هـي في أن ينتقـي المـادة بعـد الغربلـة والنقد، وأن يعطي صورة متزنة للحوادث، مع تجنـب إيـراد روايـات متعـددة حول الحادث، وهو يعتمد كثيراً على الروايـات المدوّنـة الـتي تتصـف بالحيـاد والدقة أكثر من غيرها، كما أنه استفاد بالدرجة الأولى مـن الروايـات المحليـة. وقد أورد البلاذري كثيراً من المعلومات القيمة عن النواحي الثقافية والاقتصاديـة والإدارية.. ويظهر أنه في انتقائه لمادته التاريخية أعطـى أهميـة خاصـة للروايـات الـتي تعـود للمنطقـة الـتي وقـع فيهـا الحـادث، وأتمهـا بروايـات أخـرى حـول الموضوع.. ورغم اتصاله بالعباسيين فإنه محايد في أخباره ومتزن، فهو يفسح المجال لكافة الروايات ويحاول بصورة جدية أن يكون موضوعياً في أخباره».

وخلاصة القول: عني مؤرخو العـرب والمسـلمين بالفتوحـات الإسـلامية عناية خاصة، مما جعلهم يركّزون على دراسة علم التاريخ الذي اعتبروه بـؤرة العلوم الإنسانية ومركز انطلاقها، من هنا أدرك أبو الحسن البـلاذري ضـرورة معرفة أسس منهج البحث التاريخي؛ لأنـه لا يمكـن للبـاحث الدقيـق أن يقـدم علـى الدراسـة لأي فـرع مـن فـروع المعرفـة دون اللجـوء إلى علـم التـاريخ. وعرف أبو الحسن البلاذري أن المؤرخ الناجح هو الإنسان الذي يبحـث عـن الحقيقة أينما وجدت ومهما كلفه ذلك من مشقة وجهد وعناء.

ولقد تفنن أبوالحسن البلاذري بجمع الروايات التاريخية الصحيحة والأحاديث الطويلة الموثقة ذات الطابع التاريخي؛ لأنـه حـاول في جميـع مـا كتبـه عـن التـاريخ الإسلامي أن يعتمد علـى كـل مـن القـرآن الكريـم، وأحـاديث رسـول الله ﷺ والأسانيد القوية والمشـاهدات العينيـة. كمـا اسـتخدم بكـل نجـاح منهـج المقارنـة والتعليل للظواهر التاريخية، وعليه تجنب التـاريخ الأسـطوري؛ لأنـه كـان يحـارب دون هوادة الخزعبلات التي بقيت يتناقلها الناس عبر التاريخ. ويجب بهذه المناسـبة أن يعرف القارىء أن أبا الحسن البلاذري سخّر بكل جدارة كـلاً مـن السياسـة والاقتصاد والإدارة والتربية والظواهر الطبيعية لعلم التاريخ.

والثابت أن أبا الحسن البلاذري في آخر أيام حياته تفرغ للبحث والتدريس تاركاً هموم السياسة ومشاكلها ومتطلباتها وراء ظهره، لذا تمكن من رصد معارف تاريخية نادرة قل وجودها في كتب السابقين له. كما أبرز بكل وضوح بمصنفاته الكثيرة أنه كان حيادياً فيما يكتبه سواء عن الأشخاص أو عن العادات والتقاليد. والمتواتر أنه كان يحب كثيراً الاستشهاد في بعض أبيات الشعر للحوادث التاريخية المشهورة. وعليه يقف أبو الحسن البلاذري بصف المؤرخين الذين صنعوا لجيلهم وللأجيال التابعة تاريخاً راقياً مزدهراً متجدداً لم تغرب الشمس عنه في يوم من الأيام.

أبو جعفر الطبري

هو **محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري**، يكنى **بأبي جعفر** ويُلقب **بالطبري** نسبةً إلى إقليم طبرستان الذي يقع جنوب بحر قزوين، ولد في مدينة آمل عاصمة إقليم طبرستان في سنة (٢٢٤ هجرية) وتوفي في بغداد عام (٣١٠ هجرية)، حيث استوطنها في آخر أيام حياته، لأنها كانت تعج بفطاحل العلم. والجدير بالذكر أنه بدأ دراسته الأكاديمية في آمل ثم في الري، وعندما نما وكبر واستوى عوده علمياً زار معظم المراكز الإسلامية الموجودة في كل من بغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر ليتلقى العلم على يدي كبار المفكرين آنذاك.

كما أنه عمل رحلة خاصة في ريعان شبابه إلى بغداد ليتتلمذ على شيخ الإسلام الكبير أحمد بن حنبل، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب وفاة الشيخ ابن حنبل رحمة الله عليه سنة (٢٤١ هجرية)، حينما كان أبو جعفر الطبري بالطريق إلى دار السلام، وهذا بدون أدنى شك يوضح حرص علامة الأمة الإسلامية الطبري على مجالسة جهابذة الفكر الإسلامي مثل الشيخ أحمد بن حنبل. ومن صفات أبي جعفرالطبري أنه كان يكره تماماً الإطراء، عفيفاً لم يتزوج لانشغاله بالعلم وتعليمه، وليس هذا عزوفاً عن الزواج الذي حث عليه صفوة الخلق رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ . والمعروف عنه أنه رجل ذكي جداً وواضح التفكير وفصيح اللسان، يحب الحوار حول جميع فروع المعرفة وخاصة كلاً من علم التاريخ والتفسير والفقه. ويرى المؤرخون الكبار في المعمورة أن الريادة انتهت إليه في كل من علم التاريخ الإسلامي والتفسير والفقه.

ينقل لنا **ياقوت الحموي** في موسوعته آنفة الذكر قول عبد العزيز بن محمد الطبري: «كان أبو جعفر يذهب في جل مذاهبه إلى ما عليه الجماعة من السلف، وطريق أهل العلم المتمسكين بالسنن شديداً عليه مخالفتهم ماضياً

على مناهجهم، لا تأخذه في ذلك ولا في شيء لومة لائم.. وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره، نظيفاً في باطنه، حسن العشرة لمجالسته، متفقداً لأحوال أصحابه، مهذباً في جميع أحواله، جميل الأدب في مأكله وملبسه، وما يخصه في أحوال نفسه، منبسطاً مع إخوانه، حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة.. وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكنه المكافأة عليها قبلها وكافأه، وإن كان مما لايمكنه المكافأة عليها ردها واعتذر إلى مهديها».

درس أبو جعفر الطبري كلاً من العلوم الأساسية والسياسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية دراسة مفصلة أبدع فيها، فظهر ذكاؤه الخارق للعيان. ومن صفاته الحميدة التي تميز بها أنه حارب الشعوبية التي كانت منتشرة بين الأعاجم، وهذا يعطي بُرهاناً على ورعه وتقواه. وهكذا بقي أبو جعفر الطبري منشغلاً بالعلم والدين والمعرفة، فلم يقبل المناصب الحكومية التي عرضت عليه، بل قسم وقته الثمين بين العبادة والتدريس والقراءة والتأليف، ونجح فيها كلها بجدارة مرموقة. وكان حينئذ يحصل على قوته من مزرعة كبيرة خلفها له والده بإقليم طبرستان. وعليه عاش عيشة مهيبة ومحترمة من الخلفاء والوزراء والعلماء، لذا كان الخليفة العباسي المقتدر با لله يقدره ويحترمه؛ لأنه كان زاهداً عازفاً عن الدنيا وحطامها. أما طلبته فكانوا يجلّونه كثيراً لعلمه وفضله، حيث استمروا يأتون إليه بأعداد هائلة من كل حدب وصوب للتتلمذ عليه.

يقول **عبد الرحمن حسين العزاوي** في كتابه «الطبري» (سلسلة نوابع الفكر العربي): «تمشياً مع مبدئه في الزُهد عن الدنيا والترفع عن بهارجها، ظل الطبري مشتغلاً بالعلم والدين والمعرفة، وهذا ما نلمسه بشكل واضح لرفضه هذه المناصب (قضائية كانت أو غيرها) تبعاً لمبدأيته أو تقديراً للموقف السياسي أو التأثير الديني آنذاك. وحينما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال فامتنع من قبوله وعرض عليه القضاء فأبى، وعرض عليه

المظالم فامتنع، فعاتبه أصحابه وقالوا له: (لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست، وطمعوا في قبوله المظالم وباكره ليركب معهم لقبول ذلك)، لكن الطبري انتهرهم وقال لهم: (قد أظن لو رغبت ذلك لنهيتموني عنه ولامهم)، وقد يكون سبب رفضه المناصب هذه اضطراب الحياة السياسية والاجتماعية ـ والتي لها أثرها الواضح في تفكير الطبري بعلمه بعدم جدوى الجهد الفردي في إصلاح الخلل العام وقد يكون أيضاً رفضه ـ فضلاً عما ذكرناه أنه جريء في الحق لا يخاف في الله لومة لائم، ومن شأن القاضي أن تعرض عليه منازعات يتصل بعضها بأمراء ذلك العصر وحُكامه وهو لا يستطيع أن يمالي أحداً أو يجامل وزيراً أو يحابي كبيراً فمن الخير له أن يكون بعيداً عنها وعنهم وأن يفرغ للعلم والتصنيف ولتلاميذه، ناعماً بحريته، وراحة ضميره».

وهكذا برز أبو جعفر الطبري بين المؤرخين في المعمورة بأسلوبه السلس الممتع وبأفكاره المتجددة وحكمته الناضجة. كما اشتهر بحبه النادر للكلمة ومتابعة تطوراتها عبر العصور، ونتيجة لذلك فقد مر في كثير من المنحنيات والمنعطفات المسدودة؛ لأنه قلما يتبع طريقاً واضح المحجة وساطع الضوء؛ لأنه فرغ نفسه للبحث والاستقصاء والتنقيب ليس فقط في مجال علم التاريخ ولكن أيضاً في جميع فروع المعرفة.

يتصف أبو جعفر الطبري بصفات نبيلة، فكان ظريف المظهر حسن المعشر، محباً لأصحابه ومجالستهم، وفياً مخلصاً لعمله، كما تنقل في معظم عواصم الأقطار الإسلامية لكي يلتقي ويتحدث مع كبار المفكرين من الذين لهم باع طويل في كل من التاريخ وتفسير القرآن الكريم والفقه والحديث واللغة العربية والنحو والشعر؛ كان يعتز ويعترف بفضل عائلته التي كرّمته، فعاش عيشة العلماء الكبار الذين نذروا حياتهم لخدمة العلم وطلابه، حيث إنه لم يحتاج أبداً لمساعدة أحد؛ لأنه كان يصرف من الدخل الذي يأتيه من مزرعة ورثها من والده. والجميع في العالم الإسلامي يعترفون أن أبا جعفر

الطبري فتح الطريق للمؤرخين والمفسرين والفقهاء بإنتاجه العلمي الغزير الذي يمتاز بما يحتويه من معارف قيمة ونادرة.

كان أبو جعفر الطبري ليس فقط شيخ المؤرخين، ولكن أيضاً رجل قانون وعلم، فهو من علماء الدين الإسلامي المتميزين. ولكن ذاع صيته بين المؤرخين في العالم في حولياته التي أخذت مكاناً بارزاً بين المؤلفات التاريخية في المكتبة العربية والإسلامية، والمعروف عن أبي جعفر الطبري الصدق في روايات المعلومات، لذا يُعد كتابه تاريخ الأمم والملوك مصدراً أساسياً في ميدان علم التاريخ الإسلامي.

ويقول **صالح موسى درادكة** في كتابه «بحوث في تاريخ العرب» قبل الإسلام: «ويعرض الطبري كتابه تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري على شكل حوليات، ويجمع مادته على طريقة المحدثين وأهل السير والمغازي، معتمداً أسلوب الإسناد في الرواية، ولا يكتفي برواية واحدة للخبر الواحد، بل يحشد كل الروايات التي تمكن من جمعها في الحادث الواحد مما جعل كتابه أغنى كتب التاريخ بالمادة التاريخية للفترة الإسلامية الممتدة على طول القرون الهجرية الثلاثة الأولى وعلى الرغم من أن الطبري اهتم بتاريخ الرسل والملوك، كما هو واضح من عنوان الكتاب إلا أن الباحث يجد كثيراً من الإشارات في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في ثنايا أخباره».

وخلاصة القول: إن تاريخ الطبري مصدر هام لا يستغني عنه مؤرخ التاريخ العربي قبل الإسلام والتاريخ الإسلامي حتى وفاته تقريباً.

دوّن أبو جعفر الطبري ـ الذي يُعتبر بحق أنه أول مؤرخ مسلم ـ في كتابه التاريخ الكبير المعروف باسم: «تاريخ الرسل والملوك وأخبارهم» أو تاريخ الأمم والملوك، أو تاريخ الطبري، حقائق تاريخية من بدء الخليقة إلى أيامه. وقد تحدث فيه عن الأحداث التاريخية القديمة المتعلقة بالبارزين من الأنبياء الأولين

وملوك الفرس والبابليين وأنبياء بني إسرائيل والمسيح وملوك الإغريق والرومان، ثم تاريخ المسلمين منذ ظهور الإسلام إلى عصره، وقد اعتمد على جمع معلوماته التاريخية القيمة على مصادر مختلفة أهمها الأخبار التي كان يتناقلها المؤرخون من مصادرها الشفوية والمكتوبة. وقد اتبع أبو جعفر الطبري في تأليف كتابه القيم المنهج الحولي المعتمد على السنين، والثابت أنه بذل جهداً كبيراً في دراسة وغربلة معارفه التي رصدها في كتابه الذي ظل من أهم المصادر في مجال التاريخ عبر العصور المتعاقبة.

يقول **أبو جعفر الطبري** في مقدمة كتابه «تاريخ الأمم والملوك» ـ المجلد الأول ـ: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيها، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا».

حاز أبو جعفر الطبري على سمعة مرموقة بمؤلفاته القيمة، ليس فقط في ميدان كل من التاريخ والتفسير والفقه؛ ولكن أيضاً في العلوم الأخرى. وللأسف ضاع أكثرها، ولكن معظم المؤرخين لأبي جعفر الطبري ذكروا في مؤلفاتهم بعضها وهي:

١ ـ تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الرُسل والملوك، أو تاريخ الطبري).

٢ ـ جامع البيان في تفسير القرآن (جمع البيان عن تأويل القرآن).

٣ ـ اختلاف الفقهاء.

٤ ـ تهذيب الآثار وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله من الأخبار (شرح الآثار).

٥ ـ تبصير أولي النهى ومعالم الهدى.

٦ ـ الرد على ذي الأسفار.

٧ ـ الخفيف في أحكام شرائع الإسلام.

٨ ـ صريح السُّنة.

٩ ـ رسالة البصير في معالم الدين.

١٠ ـ ذيل المذيل.

١١ ـ لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام.

١٢ ـ كتاب فضائل العباس.

١٣ ـ أدب النفس الجيدة والأخلاق النفيسة.

١٤ ـ كتاب في عبارة الرؤيا.

١٥ ـ بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام.

١٦ ـ كتاب مختصر مناسك الحج.

١٧ ـ كتاب القراءات وتنزيل القرآن.

١٨ ـ كتاب مختصر الفرائض.

١٩ ـ كتاب فضائل علي بن أبي طالب (ولم يكمله).

٢٠ ـ المسند المجرد.

٢١ ـ كتاب فضائل أبي بكر وعمر (ولم يكمله).

٢٢ ـ آداب القضاء.

٢٣ ـ كتاب في الرد على ابن عبد الحكم على مالك.

٢٤ ـ كتاب المسترشد.

٢٥ ـ كتاب الموجز في الأصول.

٢٦ ـ كتاب العدد والتنزيل.

المتفق عليه أن أبا جعفر الطبري باحث فريد من نوعه في ميدان علم التاريخ لايكل أبداً من العمل في هذا المجال الحيوي، بل لا يعرف التعب. ولقد مكث مدة طويلة جداً في تجميع وتحليل وتفسير المادة التاريخية التي ضمّنها كتابه المشهور «تاريخ الأمم والملوك». ولاشك أنه بهذا الكتاب جعل له من التأييد والخصومة الكثير، ولكن هذا لايتم إلا للجهابذة، والحقيقة أن كتاب «تاريخ الأمم والملوك» يعكس تماماً أخلاق أبي جعفر الطبري الذي يمتاز بكل من التفاؤل والحياد. والمتواتر عن كبار المؤرخين في العالم أن المعارف التاريخية المتأثرة باللمسة الإسلامية التي عرضها في تاريخه تُعد بحق من أصح المواد التاريخية الموجودة؛ لأنه كمحدث يحرص على السند (أي: إسناد الرواية إلى سلسلة من الرواة)، ولذا بقي كتاب: «تاريخ الأمم والملوك» مصدراً موثقاً يعتمد عليه الدارسون والباحثون في حقل علم التاريخ.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «يمثل كتاب: (تاريخ الرُسل والملوك) للطبري (ت٣١٠/٨٢٣م) قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب في فترة التكوين. فقد كان الطبري طالب علم لا يعرف الكلل، فدرس على أساتذة في الري وبغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر واستقر أخيراً في بغداد، وقد بلغ علمه بالروايات التاريخية والروايات الفقهية منزلة لا تبارى. إن نظرة الطبري إلى التاريخ وأسلوبه في كتابته متأثرة بدراسته وثقافته كمحدث وكفقيه. ولذا فإن طريقته في نقد الروايات تتجه إلى الإسناد. في

حين أن مصادره مؤرخون لهم منزلة موثوقة في حقولهم أو في الموضوعات التي كتبوا عنها، وهو يُعبر في كتابه عن فكرتين أساسيتين في التاريخ؛ وحدة الرسالات من جهة وأهمية خبرات الأمة واتصالها على الزمن من جهة أخرى، ومثل هذه الخبرات عظيمة الأهمية في سلوك الأمة في حالات الوحدة والاختلاف، وهي في الحالين توضح ما يصيب الأمة في تاريخها».

لقد أتى أبو جعفر الطبري بحقائق تاريخية نادرة في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» عن كل من الفرس واليونان والرومان تدعو إلى الدهشة لصحتها وحُسن ترتيبها وتبويبها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة أبي جعفر الطبري المرموقة في مجال علم التاريخ، ولذا حاز على شهرة عالية جداً كمنظم ومحلل وجامع لأطراف الحوادث التاريخية من البداية حتى سنة ٣٠٢هـ، وعليه اكتفى الجمهور في الدول الإسلامية بكتابه (تاريخ الأمم والملوك) عن كل ما سواه من المصنفات كمرجع لدراساتهم التاريخية.

يقول **نقولا زيادة** في كتابه «قمم من الفكر العربي الإسلامي»: «وقد جمع أبو جعفر الطبري الكثير من أخبار العرب في الجاهلية وبذلك حفظت من الضياع. ما أكثر ما نقل عنه لاحقوه في هذا الباب. أما أخباره عن العصور الإسلامية إلى أيامه فمن أثمن ما وصل إلينا، خصوصاً أن الكثير مما كتبه عمن سبقه ضاع، ولعله من الحق علينا أن نذكر أن تاريخ الفرس في الأزمنة السابقة للإسلام متوفر في كتاب الطبري ولا يوجد له مصدر سواه. ويقول محمد أحمد الحرفي: (قد تبين من البحث المفصل في تاريخ الروم أن الطبري دقيق فيما ذكره عنهم؛ لأنه نقل عن نصارى الشام وسمع منهم وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها إليه بأمانة) وتاريخ الطبري غني بالنصوص الأدبية فيها الشعر والخطب والمحاورات التي قد لاتوجد عند غيره».

خلاصة القول: في أواخر القرن الثالث الهجري انتشر العلم في الدولة الإسلامية، فتفنن أبناؤها في كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ، وكان

في مقدمة هؤلاء المفكرين أبو جعفر الطبري الذي حفظ القرآن الكريم وهـو في سن السابعة من العمر، وصلى إماماً في الناس وهو ابن ثماني سنين، وبدأ يكتب في ميدان علم التاريخ وهو في التاسعة من عمره، والمتواتر أنه نشأ وترعرع في بيت علم ودين. لقد تعلم أبو جعفر الطبري اللغة العربية وأجادها في بلد غير عربي، وهكذا نال شهرة عظيمة في علوم اللغة العربية، حيث ثبت أنه من المستحيل أن يلحن.

ولقد ظهرت أيضاً على أبي جعفر بوادر الذكاء والحكمة في سن مبكرة جداً، لذا حرص والده أن يسند تعليمه إلى معلمين مؤهلين، فنبغ في مجالات متعددة، ولكنه تفوق في كل من علم التاريخ الذي ألف فيه أكبر موسوعة تاريخية (تاريخ الأمم والملوك) وتفسير القرآن الكريم (جامع البيان في تفسير القرآن) الذي يشتمل على معلومات شاملة ومنظمة والفقه الإسلامي (اختلاف الفقهاء) الذي يحتوي على بعض الأحكام الفقهية بأدلتها المفصلة. كما درس عن كثب العلوم الأساسية ومنها كل من المنطق والحساب والجبر والمقابلة، وله ملاحظات مفيدة في ميدان العلوم الطبية. والحقيقة أن أبا جعفر الطبري عبارة عن موسوعة علمية تمشي على قدمين.

لقد تميز أبو جعفر الطبري بأفكاره الأصلية التي سبق بها عصره. وقد نال شهرته الكونية بكتابه تاريخ (الأمم والملوك) الذي يشتمل على نظريات وأبحاث في غاية الأهمية في علم التاريخ الإسلامي، حيث ذهب الباحثون في هذا المجال يغرفون ما طاب لهم من معارفه المتنوعة. وعليه صار الحديث الممتاز الممتع عن أبي جعفر الطبري سهلاً ومقبولاً لأن المؤرخين يعرفون الكثير عنه بحكم تخصصهم، ولاشك أنه رائد علم التاريخ دون منازع.

ولعل أحسن ما يقال في هذا المقام عن المؤرخ الكبير أبي جعفر الطبري ما ورد في مقدمة كتاب «الكامل في التاريخ» للشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير: «ولكن أقول: إنني قد جمعت في

كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبري. إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت مافيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها. وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد، كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شيء في مكانه فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه. وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقاً، الجامع علماً وصحة اعتقاداً وصدقاً ». ويدلنا كلام ابن الأثير هذا على أن أبا جعفر الطبري كانت له مكانة مرموقة بين المؤرخين، كما أن آثاره العلمية توحي باطلاع واسع وثقافة شاملة متميزة ويتضح أيضاً أن متعة الطبري في دنياه إنما كانت في الدأب على المعرفة والسعي في طلبها والبحث عنها في جميع مظانها.

أحمد بن عبد ربه

هو **أحمد بن محمد بن عبد ربه**، يلقب **بأبي عمر**، ويكنى **بالمرواني** القرطبي الأندلسي، وفي بعض الأحيان يُعرف باسم المؤرخ الأديب ابن عبد ربه، ولد سنة (٢٤٦ هجرية) بمدينة قرطبة، وتلقى تعليمه فيها على أيدي كبار المفكرين المسلمين، تربى وترعرع في بيت علم ووقار، فجده الأعلى سالم كانت له صلة قوية بالأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الذي اشتهر باسم الداخل مؤسس الأسرة الأموية بالأندلس، نبغ أبو عمر ابن عبد ربه في كل من علم التاريخ والشعر والنحو والأدب والفقه، ولاشك أن هذه المعارف نفسها اكسبته ثقافة واسعة، لذا ذاع صيته بين زملائه في كل من بلاد الأندلس والأقطار الإسلامية الأخرى، وعليه تمكن من إقامة علاقة وطيدة مع الأمير عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس. والمتواتر عن بعض المؤرخين في المعمورة أن أبا عمر بن عبد ربه كان يحب كلاً من السجع والسماع إلى الغناء. كما قضى وقتاً طويلاً جداً في البحث والتنقيب والاستقصاء عن أخبار كل من المؤرخين والأدباء في العالم الإسلامي، لذا أنتج إنتاجاً غزيراً في هذين المجالين الهامين. وفي آخر أيام حياته ابتلي بمرض الفالج ـ الله يعافينا منه ـ. وتوفي في قرطبة سنة (٣٢٨ هجرية) عن عمر يناهز ٨٢ عاماً.

يقول **علي أدهم** في كتابه «بعض مؤرخي الإسلام»: «وقد أجاد ابن عبد ربه دراسة علوم عصره من تاريخ وشعر ونحو ولغة وفقه ودين، وأثر هذه الدراسة العلمية المستوعبة الشاملة يتجلى في كل باب من أبواب كتابه (العقد الفريد)، وهذه الثقافة الكثيرة الجوانب أكسبته اعتدالاً في التفكير، وسعة في الرأي والنظر، وتجافت به عن الضيق والتعصب والتزمت، وهو يعول في مراجعه على علماء المشارقة، ويكثر من النقل عنهم، وعمدته أمثال المبرد

والأصمعي والمدائني وأبي عبيدة وابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة وغـيرهم مـن الأخباريين والنحاة والمحدثين والفقهاء».

أما كتاب «العقد الفريد» **لأبي عمر ابن عبد ربه** فقـد حـاز رضـاء كـل من المؤرخين والأدباء ليـس فقـط في العـالم الإسـلامي، ولكـن في جميـع أرجـاء المعمـورة لشـموله علـى معـارف نـادرة عـن مشـاهير علمـاء وحكـام العـرب والمسلمين وأخبار العرب في الجاهلية والإسلام، لـذا يُعتـبر هـذا الكتـاب بحـق المرجع الفريد في مجالي التاريخ والأدب، حيث وظف فيه المؤلف ثروته العلمية المتميزة التي حصل عليها ونّماها عبر خبرته العلمية الطويلة، ونتيجة لذلك فقـد خطا في كتابه خطوات علمية مدروسة. والجدير بالملاحظة هنا أن البيئـة الـتي عاش فيها المؤلف كان لها أثـر عظيـم علـى أسـلوبه وطريقـة عرضـه للأفكـار التاريخية والأدبية. وفي عهده كانت مدينة قرطبـة مـن أعظـم مـدن الأندلـس، حيث كانت تحتضن كبار المفكرين في العالم الإسـلامي، بـل إنهـا في الحقيقـة كانت حينئذ تضارع بغداد.

لقد ورد وصف جيد لكتاب «العقد الفريد» لأبـي عمـر ابـن عبـد ربـه في هامش معجم الأدباء ـ الجزء الرابع ـ لياقوت الحموي نصه: «أما العقد الفريد؛ فإنه من أجل كتب الأدب وأحواها، أو هو كخزانة حوت خلاصة علوم ذلـك العصـر، حتـى الطـب والموسيقى، فضـلاً عـن الأخبـار، والأنسـاب، واللغـة، والأمثال، والشعر، والعروض، وقواعـده، في ثلاثـة مجلـدات، تزيـد صفحاتهـا على ألف صحيفة كبيرة، وهو مقسّم حسب الموضوعات. وقد تـأنق صاحبـه في تقسيمه، وتسمية أبوابه، فسـمّاها بأسمـاء الحجـارة الكريمـة، تطبيقـاً لاسـم (العقد الفريد) ويشتمل الجزء الأول علـى: السـلطان، والحـروب، والأجـواد، والأصفاد، والوفود، والعلم، والأدب، والأمثـال، والمواعـظ. ويشـتمل الثـاني علـى: التعـازي، والمراثـي، والنسـب، وفضـائل العـرب، وكـلام الأعـراب، والأجوبة، والخطب، والتوقيعات، وأخبـار الكتبة. ويشتمل الجزء الثالث على:

أخبار زياد، والحجاج، والطالبيين، والبرامكة، وأيام العرب، ووقائعها، وفضائل الشعر، وعلم الألحان، والنساء، والمتنبئين، والمتمردين، والبخلاء، وطبائع الإنسان، وفي الطعام والشراب. وفي بعض هذه الأبواب فصول تاريخية لا تجد مثلها في كتب التاريخ».

وقال **أبو عمر ابن عبد ربه** في مقدمة كتابه «العقد الفريد»: «وقد ألفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختيار، وحُسن الاختصار، وفرش في صدر كل كتاب، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه، وقد قالوا: اختيار الرجل وافد عقله».

خلاصة القول: اهتم الكثير من أدباء العرب والمسلمين الأوائل بعلم التاريخ؛ لأنهم كانوا يعتقدون بضرورة معرفة أنسابهم وأخبار أمتهم وسيرة رسولهم محمد بن عبد الله ﷺ وأصحابه الكرام، لذا ركّز أبو عمر أحمد بن عبد ربه على دراسة علم التاريخ، وخاصة ما يتعلق بكل من مغازي رسول الله ﷺ والفتوحات الإسلامية المشرقة وتواريخ الخلفاء الراشدين. ونتيجة لذلك ألف كتابه الشهير الذي بعنوان: «العقد الفريد» والذي يحتوي على معلومات تاريخية رائعة ونادرة، والذي لا يزال من المصادر الهامة جداً للباحثين في ميدان علم التاريخ الإسلامي حتى يومنا هذا. والحقيقة أن كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه يُعتبر موسوعة أدبية وتاريخية، لا يستغني عنه باحث في كل من علم التاريخ والأدب العربي. والجدير بالذكر هنا أن معظم كتب الأدب القديمة تميزت باحتوائها على معارف قيمة جداً في حقل علم التاريخ الإسلامي، والمتواتر أن الشعر الجاهلي سجل ناصع للأحداث التاريخية.

ولقد بلور أبو عمر ابن عبد ربه بوضوح تام في جميع كتاباته التاريخية والأدبية تواضعه وزهده وسعة اطلاعه، وسهولة أسلوبه وحُسن اختياره

للموضوعات العلمية ووضوح المعنى والرؤية لديه وبعده عن التكلف. والجدير بالذكر هنا أنه لم يتوقف ببحوثه ودراساته على إنتاج علماء العرب والمسلمين، بل تعداها كثيراً وذلك باستخدامه بطريقة علمية أعمال كل من علماء اليونان والهنود والفرس، وهذا يظهر في مؤلفاته الكثيرة التي اشتهر منها كل من كتاب «العقد الفريد»، و «اللباب في معرفة العلم والأدب»، و«أخبار فقهاء قرطبة» كما عرف بإخلاصه وتفانيه في جميع أعماله، وخاصة في التراث العلمي العربي والإسلامي، فهو القائل: «إن الأمة التي لا تربط ماضيها بحاضرها تصبح من الأمم المقتلعة السطحية». وهكذا صار أبو عمر ابن عبد ربه بمنهجه وفلسفته وخلقه من كبار قادة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية.

لسان اليمن الهمداني

هو **الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني**، وكنيته **أبو محمد**، كما كان يُعرف أيضاً بابن الحائك، ولقبه **الهمداني** نسبة لقبيلته همدان الشهيرة باليمن، والمتواتر أنه كان يسمي نفسه لسان اليمن. أما والده أحمد الهمداني فكان من تجار الذهب المعروفين، لذا كانت صلة أسرة الهمداني قوية مع التجار في كل من البصرة والكوفة وبغداد وعمان ومصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، لذا استطاع بسهولة أن يزور أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني هذه المدن الشهيرة التي كانت مراكز للعلوم الشرعية والعلوم التجريبية والأساسية. وكما قضى ردحاً من الزمن في رحاب مكة المكرمة، وقد ساعده على ذلك أيضاً مكانة عائلته التي كانت تنقل حجاج اليمن إلى البوادي اليمنية، حيث كان يتمتع في قصصهم وشعرهم، وقد أقام في صعدة عشرين عاماً كان يستقبل طلابه لكي يزودهم بما عنده.

لا نعرف بالضبط متى ولد الحسن الهمداني، ولكن القرائن توحي أنه ولد سنة (٢٨٠ هجرية) تقريباً في مدينة صنعاء، وتوفي في سجنها سنة (٣٣٤ هجرية)، مع العلم أن بعض المؤرخين يرون أنه لم يتفرغ للبحث والتأليف إلا بعد خروجه من السجن (أي أنه لم يمت بالسجن)، والمعروف أنه نشأ وترعرع في مدينة صنعاء، ثم رحل إلى مكة المكرمة بعد أن اشتد عوده في العلم والتحصيل، وذلك لأداء فريضة الحج، ولكي يستمع إلى العلماء الأفاضل هناك، لذا نبغ في كل من الحديث والفقه والأصول والتاريخ الإسلامي، ولكن ذاع صيته بين زملائه لمعرفته النادرة والقوية لأخبار العرب والعجم، إلا أنه كان يؤخذ عليه ميوله لكل من قبيلته الهمدانية وبلده اليمن، لذا تمكن وبجدارة أن يبرز معارف اليمن ومظاهر حياة أهله، وعليه كان يعتبر أكبر مؤرخي اليمن، بل أبا المؤرخين

في اليمن وإمامهم، وهذا ناتج من حرصه وتعلقه بكل علم بسبب.

يقول علامة الجزيرة **حمد الجاسر** في مقدمته لكتاب «صفة جزيرة العرب» تأليف الحسن بن أحمد الهمداني، وتحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ما نصه: «الدارس لكل ما يتصل بحياة الهمداني يجد أن تعصبه لقومه أو للقحطانية عامة، المنفذ الواسع لدراسة أحوال الهمداني، ومن هذه الناحية نجد أن كل نقد يمكن أن يوجه إليه يلج من هذا الباب الواسع الذي بقي مفتوحاً إلى عصرنا الحاضر، حيث نجد أشعاراً لشعراء معاصرين من اليمن ولجوا هذا الباب.. ويضاف إلى هذا اتساع آفاق المعرفة عند الهمداني اتساعاً يدعو إلى الاستغراب والدهشة، بالنسبة لرجل عاش في بقعة توشك أن تكون في ذلك العهد منعزلة عن العالم، ولكن هذا الرجل استطاع أن يمنح من كل علم من علوم عصره بالدلاء الملآء، ومن هنا تتسع جوانب الدراسة، فتشمل كل ما عرف في ذلك العصر من معارف وفنون وعلوم، ولا يكون من المبالغة القول بأن هذا العالم طرق آفاقاً لا يجد الباحثون بين من طرقها في البلاد العربية أحداً غيره، ومن هنا تبرز أهمية دراسة كل ما يتصل بحياته العلمية».

وبعد عودة لسان اليمن الهمداني إلى اليمن من زياراته العلمية التي قام بها في العالم الإسلامي، استقر واعتكف مدة طويلة في صعدة يقرأ ويؤلف، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم الأخرى، وعليه أنتج إنتاجاً علمياً عظيماً مملوءًا بالأحداث والإشارات الحضارية والأدبية والتاريخية، وهذا بالحقيقة ناتج عن مقدرته العجيبة والمدهشة على وصفه للآثار المعمارية والنقوش، وإتقانه الخط المسند الحميري، لذا ذاع صيته بين معاصريه بتدقيقه التام للروايات التاريخية، واهتمامه البالغ في استخدام مصطلحات للغة العربية الأصيلة، والمعروف عنه أنه كان دائماً يحاول الكشف عن الحقيقة العلمية، والوقوف عليها مهما كلفه هذا الأمر.

يقول **أنور الجندي** في كتابه آنف الذكر: «نشأ مؤرخ اليمن وصاحب

الإكليل الحسن بن أحمد الهمداني في اليمن في عصر الخلافات والفتن. وكان صاحباً لأحمد بن محمد الضحاك سيد همدان في عصره، مدحه وصور أيامه وشهد الحروب التي قام بها، وصف بلاد اليمن وصفاً دقيقاً مسهباً بقراها وبواديها. ولم يكن يعتمد على النقل بل كان يجمع ملاحظاته ويدرس الآثار، ويسجل كل شيء في دقة ويقظة. وقيل: كان عالماً بالنجوم والطب والفلك، وألف زيجاً كان عليه اعتماد أهل اليمن، ومن أبرع كتاباته تصور الفرق بين سرعة الضوء وسرعة الصوت».

ولاشك أن مقدرة لسان اليمن أبي محمد الحسن الهمداني العلمية تدعو إلى الاستغراب والذهول، فهو بحق من فحول علم التاريخ الذين أحاطوا في غرائبه ونوادره، كما أنه تميّز بمعرفته الفائقة النظير على فك رموز الكتابة العربية القديمة في اليمن، وذلك لتبحره بالمباحث اللغوية واللهجات المختلفة. والجدير ذكره أن لسان اليمن الهمداني كان لديه اهتمامات عظيمة في النواحي الأثرية وأنساب القبائل ومآثرها. لعل اتجاهه هذا جعل من جميع كتاباته وثائق بالغة القيمة للدارسين والباحثين في مجال العلوم المختلفة.

يقول **أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي** في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» - القسم الأول - : «كان الحسن بن أحمد الهمداني خبيراً كبيراً بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها، خاصة آثارها القديمة، وهو أمر نادر بين العرب، ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أنه استطاع فك رمز الكتابة العربية القديمة في جنوب الجزيرة، ويقف مصنفه (الإكليل) الذي يقع في عشرة أجزاء دليلاً ساطعاً على سعة معارفه. فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار بل وحتى بأدب الحميريين سكان جنوب الجزيرة في القدم. ولم يكتف في كتابة بعض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي بعد الإسلام، بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد، وذلك

على ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية».

استطاع لسان اليمن الهمداني من خلال موسوعته «الإكليل» المكون من عشرة أجزاء أن يظهر بوضوح للقارىء مكانة الجزيرة العربية العلمية والسياسية والاقتصادية والتاريخية. وللأسف الشديد ضاع بعض أجزاء هذا الكتاب القيم الذي فيه استطاع أيضاً المؤلف أن يصف قصور وقلاع ومدن وسدود وهياكل اليمن وصفاً رائعاً ودقيقاً، ولذا صار كتاب الإكليل من المصادر الهامة جداً للباحثين في تاريخ اليمن قبل الإسلام وبعده. وعن طريق هذا الكتاب وصل لسان اليمن الهمداني إلى غايته في بعد الصيت والشهرة والذكر الواسع العريض، حيث حاز على إعجاب جهابذة الفكر ليس فقط في العلوم الإنسانية، ولكن أيضاً في العلوم الأساسية والتطبيقية. والحقيقة أن كتاب «الإكليل» يدل على خصب قريحة لسان اليمن الهمداني وقوة عقله ومقدرته العجيبة على استخلاص الحقائق العلمية من مصادرها المختلفة.

يقول **جمال الدين القفطي** في كتابه «إنباه الرواة على أنباه النحاة» عن كتاب «الإكليل» للسان اليمن الهمداني: «إنه يشتمل على عشرة أجزاء، الجزء الأول: في المبتدأ ونسب مالك بن حمير، والثاني: في أنساب ولد الهميسع من ولد حمير ونوادر من أخبارهم، والثالث: في فضائل اليمن ومناقب قحطان، والرابع: في سيرة حمير الأولى، والخامس: في سيرة حمير الوسطى، والسادس: في سيرة حمير الأخيرة إلى الإسلام، والسابع: في ذكر السياسة القديمة والأخبار الباطلة المستحيلة، والثامن: في القبوريات وعجائب ما وجد في قبوريات وعجائب ماوجد في قبور اليمن، والتاسع: في كلام حمير وحكمهم وتجارتهم المروية برطانة لسانهم، والعاشر: في معارف همدان وأنسابها ونتف من أخبارهم».

وكان لسان اليمن الهمداني متبحراً في علوم كثيرة، ولكنه تفوق على زملائه في مجال علم التاريخ، وهنا يبدو واضحاً من مؤلفاته العديدة والمتنوعة

التي تناقلها كبار المؤرخين في المعمورة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: سرائر الحكمة، وصفة جزيرة العرب، وكتاب الإبل، وأسماء الشهور والأيام، والإكليل، والجوهرتين، والحرث والحيلة، والدمغة، وديوان الهمداني، وزيج الهمداني، والسير والأخبار، والطابع والمطارح، وعجائب اليمن، والمسالك والممالك، ومفاخر اليمن، واليعسوب، وكتاب الحيوان وغيرها. والجدير ذكره أن الكثير من مؤلفاته دخلت بلاد الأندلس واستفاد منها العلماء هناك، حيث عرفوا بدقة متناهية دور العلماء المشارقة في تطوير الحضارة الإنسانية. ولقد أسهم لسان اليمن الهمداني إسهامات جليلة على الرغم من الفترة التي عاشها (أواخر القرن الثالث الهجري) التي كانت غارقة بالاضطرابات السياسية، والتي قادت بدورها إلى القلق الفكري.

وخلاصة القول: كان للدين الإسلامي الأثر العظيم على تقدم وتطور علم التاريخ، حيث إن علماء المسلمين أدركوا بكل وضوح المنافع والفوائد الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية التي يمكن جنيها عن طريق هذا العلم، وعليه وضعوا بكل جدارة الأسس العلمية لنقل المعلومات حول كل من غزوات المسلمين، وأخبار الخلفاء والصحابة والعلماء ورجال الدولة من الذاكرة والمعرفة الشفهية إلى المعرفة المسجلة الدقيقة. من هنا اهتم المؤرخون في القرن الرابع الهجري في تدوين كل من عادات وتقاليد الناس، لذا أعطى لسان اليمن الهمداني علم التاريخ جانباً كبيراً من وقته، حيث تمكن من الكتابة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية لجميع البلدان التي زارها مع التعمق في دراسة الجوانب الخاصة في الجو والتربة والجبال والبحار لهذه البلدان، ولكنه تفوق تفوقاً ملموساً في دراساته التي كانت تتعلق باليمن وسكانه.

ولقد احتل لسان اليمن الهمداني مكانة مرموقة بين المؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن في جميع أرجاء المعمورة. فقد عرف بسعة ثقافته

ودقة تحليلاته للموضوعات التاريخية، بهذا تمكن من عرض كل من آثار اليمن العلمية وقبائله وتاريخه، واعتمد بذلك على المشاهدة والمعاينة وتدقيق الروايات وقراءة الكتابة الأثرية والنقوش، وقد ساعده على ذلك معرفته الجيدة بخط المسند الحميري.

كان لسان اليمن الهمداني متنوع المعلومات والخبرة ووافر المروءة كريم النفس، وكان أيضاً محباً لكل من صنع المعروف وطلب العلم، لذا اشتهر بين معاصريه بهذه الصفات الحميدة، ولكن بعض المؤرخين يرون أنه لهج بتفضيل قبيلة قحطان على قبيلة عدنان، هذا أعطى أعداءه الفرصة لإيذائه بتصيد هفواته، وعليه أدخل السجن مرتين. والمتواتر أنه في آخر أيام حياته انقطع تماماً للبحث والتأليف، وامتنع عن كل ما يصرفه عنهما.

محمد الصولي

هو **محمد بن يحيى بن عبد ا لله الصولي**، كنيته **أبو بكر** ، ولقبه **الصولي**، لأن اسم جده صول تكين ملك جرجان. لا نعرف بالضبط تاريخ ولادته ولكن الثابت أنه ولد ببغداد ونما وترعرع هناك، ذاع صيته بين زملائه في كل من الأدب والأخبار والشعر والتاريخ، ولكنه نبغ في علم التاريخ، لذا نقل عنه مؤرخو الإسلام أخبار كل من الخلفاء والملوك والشعراء، عرف أيضاً بنوادره المتعددة وخبرته الطويلة حول الأحداث التاريخية بأشكالها المختلفة مما أعطاه فرصة التفوق في مجال علم التاريخ، وفوق هذا كله تميز بأمانته وصدقه في النقل. انتقل من بغداد في آخر أيام حياته إلى مدينة البصرة وتوفي بها سنة ٣٣٥هـ.

ويصف الحافظ **أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي** في كتابه آنف الذكر محمد بن يحيى الصولي بقوله: «كان أبو بكر الصولي أحد العلماء بفنون الآداب، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ومآثر الأشراف وطبقات الشُعراء، كان واسع الرواية حسن الحفظ للآداب، حاذقاً بتصنيف الكتب، ووضع الأشياء منها مواضعها، ونادم عدة من الخلفاء وصنف أخبارهم وسيرهم وجمع أشعارهم، ودوّن أخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتاب والرؤساء، وكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة مقبول القول، وله أبوة حسنة فإن جده صول وأهله كانوا ملوك جرجان، ثم رأس أولاده بعده في الكتابة وتقلد الأعمال السلطانية. لأبي بكر الصولي شعر كثير في المدح والغزل وغير ذلك».

والمتواتر أن لأبي بكر الصولي علاقة قوية بخلفاء بني العباس آنذاك، حيث نادم ثلاثة منهم وهم كل من الراضي والمكتفي والمقتدر. وكان الراضي من المعجبين بأبي بكر الصولي فأكثر من مجالسته حتى صار يضرب به المثل بخلقه وأمانته وتفننه في لعبة الشطرنج، والجميع من خلفاء وغيرهم كانوا يعاملونه

معاملة حسنة لمكانته العلمية التي كان يتمتع بها بين زملائه المؤرخين. والجدير بالذكر أنه تفنن بالشطرنج فكان أحسن الناس لعباً بهـا، ولكنـه أيضـاً اشـتهر بمعرفته الجيدة لآداب الملوك وتأليف الكتب، فقد ألف كتاباً في أخبار الخلفـاء سمـاه: «الأوراق في أخبـار آل العبـاس وأشـعارهم» بقـي مرجعـاً هامـاً جـداً للباحثين في مجال علم التاريخ أمداً طويلاً.

وينقل أبو الحسن علي بن الحسن بن علـي المسـعودي في كتابـه آنـف الذكر محاسن أبي بكر الصولي فيقول: «وذكـر أن الراضـي رأى في بعـض منتزهاته بالثريا بستاناً مونقاً وزهراً رائقاً، فقال لمن حضـر (مـن ندمائـه): هل رأيتـم أحسـن مـن هـذا؟ فقـال: قـال: أشـياء ذهـب فيهـا إلى مدحـه ووصف محاسنه وأنها لا يفي بها شيء مـن زهـرات الدنيـا، فقـال: لعـب الصولي الشطرنج والله أحسن مـن هـذا (الزهـر) ومـن كـل مـا تصفـون. وذكر أن الصولي في بدء دخوله إلى المكتفي، وقد كان ذكر له بجودة لعبـة الشطرنج وكان الماوردي اللاعب (مقدماً عنده، متمكناً من قلبـه) معجبـاً بلعبه، فلعبا جميعاً بحضرة المكتفي فحمل المكتفي حسن رأيه في المـاوردي، وتقدم الخدمة والألفة على نصرته وتشجيعه حتى أدهش ذلـك الصـولي في أول وهلة، فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته (وقصد قصـده غلبه) غلباً لا يكاد يرد عليه شيئاً، وتبين لعبـه للمكتفـي فعـدل عـن هـواه ونصره للماوردي، وقال له: صار ماء وردك بولاً».

وكان أبو بكر الصولي كاتباً موهوباً حيث ألف كتباً نفيسة ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في سائر العلوم الأخرى، وهذا يدل على ثقافتـه المتنوعـة والعالية. وذكر صلاح الدين خليل الصفدي في كتابه: «الـوافي» آنـف الذكـر بعضهـا وهـي: أخبـار الخلفـاء، وأخبـار الشـعراء، وأخبـار الـوزراء، وأخبـار القرامطة، وكتاب الورقـة، وكتـاب الغـرر، وأخبـار أبـي عمـرو ابـن العـلاء، وكتاب العبادة، وأخبار ابن هرمة، وأخبار السيد الحمـيري، وأخبـار إسـحاق

بن إبراهيم، وجمع أخبار جماعة من الشعراء ورتبه على حروف المعجم كلهم محدثون، وكتاب أدب الكاتب على الحقيقة، وكتاب الشبان عمله لابن الفرات، وكتاب الشامل في علم القرآن (لم يتم)، وكتاب مناقب ابن الفرات وكتاب سؤال وجواب، وكتاب رمضان، وأخبار أبي نواس، وأخبار أبي تمام، وكتاب أخبار أبي سعيد الجنابي، وكتاب في السعادة، وكتاب الأمالي.

خلاصة القول: كان المؤرخون المسلمون يحرصون كل الحرص على ربط علاقة متينة مع ولاة الأمر حينئذ؛ لأنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن مكتبات وجلساء هؤلاء الولاة من المصادر الهامة جداً للباحثين في ميدان علم التاريخ، حيث كانوا يجمعون أخبار الأمم القديمة وسياساتها ونظمها، ويعينون كبار العلماء ليقرؤوا عليهم أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها، لذا ترى محمد ابن يحيى الصولي يوثق صلته مع من عاصره من الخلفاء العباسيين، لأنه يحب أن تكون معرفته بأخبار الأمم الماضية والأجيال الغابرة والمعاصرة له جيدة؛ ليصل في مسعاه إلى مبتغاه.

ولقد أدهش أبو بكر الصولي المؤرخين بإنتاجه الضخم الحافل بالاستنباطات والآراء الجديدة الجيدة في ميدان علم التاريخ التي لم يسبقه إليها أحد. والحقيقة أنه كتب بكل إتقان عن مآثر كبار القوم وطبقات الشعراء؛ لأنه كان يرى في البحث والاستقصاء في الأحداث التاريخية متعة ولذة. والجدير ذكره أنه عرف بين زملائه بسعة الرواية وجودة الذاكرة، فهو من ألمع علماء عصره، وأولاده كانوا من كبار الكتاب. أتمنى من الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه السيرة الموجزة لأبي بكر الصولي حافزاً لأحد أبناء الأمة العربية الإسلامية أن يقوم بدراسة إسهاماته العلمية المتنوعة؛ لكي يكون بين يدي القارىء دراسة مفصلة تليق بأبي بكر الصولي.

قدامة بن جعفر الكاتب

هو قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، وكنيته **أبو الفرج**، ولقبه **البغدادي** لأنه ولد في بغداد، وأعطي اسم الكاتب لأن لديه ولعاً شديداً في الكتابة، لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاده. كان والده جعفر بن قدامة بن جعفر الكاتب. وقد تفوق على زملائه تفوقاً ملحوظاً ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في سائر العلوم، وكان أبو الفرج قدامة بن جعفر نشأ وترعرع في بيئة نصرانية متطرفة، ولكنه تلقى تعليمه على كبار مفكري الإسلام، فتأثر تأثيراً عظيماً بمنهجهم العادل والصادق، لذا أصبح من البلغاء الفصحاء الذين يشار إليهم بالبنان، كما أحكم كلاً من المنطق والفلسفة والرياضيات والنحو والبلاغة والتاريخ. واعتنق الإسلام على يد الخليفة العباسي المكتفي با لله، الذي أسند إليه مناصب كبيرة في الدولة حينئذ ومنها ديوان الأموال (الخراج) في بغداد للمكانة العلمية الفريدة التي احتلها بين زملائه، وتوفي في بغداد سنة (٣٢٧ هجرية).

كرّس **أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب** حياته للبحث والمطالعة والاستقصاء في مختلف فروع المعرفة، لذا تكون لديه مقدرة عجيبة على الكتابة والنقد العلمي البريء، وقد نوه أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي في كتابه آنف الذكر عن ذلك بقوله: «فإن أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب حسن التأليف، بارع التصنيف، موجزاً للألفاظ، مقراً للمعاني، وإذا أردت علم ذلك فانظر في كتابه في الأخبار المعروف بكتاب «زهرة الربيع»، وأشرف على كتابه المترجم بكتاب «الخراج»، فإنك تشاهد بهما حقيقة ما قد ذكر، وصدق ما وصفنا».

ويذكر **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «أن أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي من الكتاب النصارى المشهورين، ولكنه أسلم وكتب

في المادة التاريخية الإسلامية بطريقة جيدة ونزيهة، يشهد له بذلك كبار المؤرخين المسلمين. ولكن للأسف الشديد ضاع معظم كتبه، ولكن بقي له كتاب الخراج وصنعة الكتابة (مخطوطته توجد في مكتبة كوبريلي بإستامبول رقم ١٠٧٦)، وله أيضاً كتابان يدخلان في إطار مادة علم التاريخ هما نزهة القلوب وزاد المسافر وكتاب السياسة».

وقد تناقل المؤرخون في المعمورة بعض مؤلفاته القيمة في مصنفاتهم، لأن أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب لم يأخذ إلا ما سمعوه عن ثقة أو نقله عن مرجع مشهور، لذا تقمص منهجه الكثير من المؤرخين المسلمين الذين عاصروه أو جاؤوا بعده. وقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه آنف الذكر بعض كتبه منها: كتاب الخراج، وكتاب نقد الشعر، وكتاب صابون الفم، وكتاب صرف الهم، وكتاب جلاء الحزن، وكتاب ترياق الفكر، وكتاب السياسة، وكتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام، كتاب حشو حشاء الجليس، وكتاب صناعة الجدل، وكتاب النجم الثاقب، وكتاب نزهة القلوب وزاد المسافر، وكتاب زهر الربيع في الأخبار والتاريخ، وكتاب سر البلاغة، وكتاب جواهر الألفاظ، وكتاب البلدان وغيرها.

وخلاصة القول: عندما بدأ أبو الفرج قدامة بن جعفر في دراسة علم التاريخ وجد معظم المؤرخين يركزون في بحوثهم على كل من أخبار الخلفاء والوزراء والحروب والفتن، فلم يرض أبداً عن ذلك، مما جعله في بادىء الأمر يحاول إدخال الكوارث الطبيعية والضرائب ضمن محتويات علم التاريخ لكي يوسع مجال البحث التاريخي، فنجح بهذا نجاحاً باهراً، وكما اعتبر أيضاً كلاً من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية والتربوية جزءاً من علم التاريخ، لذا صار علم التاريخ في عصره علماً جامعاً. كما اهتم أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب اهتماماً بالغاً باستخدام اللغة العربية في جميع معاملات الدولة، وذلك في عهد الخليفة العباسي المكتفي با لله. ولا يخفى على القارىء بهذه المناسبة

أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان هو الذي نقل دواوين الدولة من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية.

وكان أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب باحثاً ومثابراً وذكياً، ولديه قدرة عجيبة على استخراج الأفكار العلمية المفيدة من النصوص القديمة، لذا تميزت مؤلفاته بجزالة المعلومات؛ لاحتوائها على الأخبار التاريخية النادرة والفريدة التي لا يستغني عنها طلاب العلم والباحثون في مجال علم التاريخ. كما عني عناية تامة بإبراز كل من نوادر، وأمثال وحكم العرب في مؤلفاته؛ لأنها تحمل معاني عميقة وضرورية لشباب الأمة الإسلامية، وذلك ليكونوا يقظين من أعدائهم أعداء الأمة الإسلامية.

لقد اتفق المؤرخون في العالم الإسلامي دون استثناء على غزارة علم أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب، واعترف له أيضاً كل من جهابذة النقد وأئمة البلاغة بمكانته العلمية. ولا يخفى على القارىء أنه خدم الدين الإسلامي خدمة عظيمة، وذلك لمعرفته أسرار النصرانية، حيث تمكن بما آتاه الله سبحانه وتعالى من رسوخ ملكته وتوقد ذهنه أن يعمل مقارنة ناجحة جداً بين الإسلام والنصرانية، وعن طريقها أثبت لذوي النهى محاسن الدين الإسلامي ومثالب وعيوب النصرانية المهزوزة.

المسعودي

هو **علي بن الحسين بن علي المسعودي** يلقب بأبي الحسن ويكنى **بهيرودوت العرب**، لجمعه بين علمي التاريخ والجغرافية، فهو بحق مؤرخ وجغرافي من الطراز الأول. ولد ببغداد، ولكن لا نعرف تاريخ ميلاده، اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، ولكن الثابت أنه توفي (سنة ٣٤٥ هجرية) في مصر حيث قضى السنوات العشر الأخيرة من عمره متنقلاً بين سوريا ومصر. ولقد نما وترعرع في بيت علم وفضل ببغداد، فهو من ذرية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. برز أبو الحسن المسعودي في علوم كثيرة، حيث ذاع صيته بين زملائه بسعة الاطلاع والثقافة والفطنة والذكاء، وهذا كله عائد لكثرة قراءته الكتب والوثائق العلمية، وعليه امتازت مؤلفاته باحتوائها على المعارف النادرة عن العادات والتقاليد والأدب والأخلاق والسياسة والتاريخ، كما اشتهر بأخلاقه وغرائبه وخفة ظله وبحوثه في كل من علم التاريخ وعلم الجغرافية.

كان أبو الحسن المسعودي عالماً بعلوم عصره عن كثب على كثرتها، وهذا يظهر واضحاً من تنوع محتويات مؤلفاته التي ذكر بعضها ياقوت الحموي في كتابه «معجم الأدباء» ـ الجزء الثالث عشر ـ وهي: كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك، وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور، وكتاب الرسائل، وكتاب الاستذكار لما مر في سالف الأعصار، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم، وكتاب التنبيه والإسراف، وكتاب خزائن الملك وسر العالمين، وكتاب المقالات في أصول الديانات، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وكتاب البيان في أسماء الأئمة، وكتاب أخبار الخوارج.

أما كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن المسعودي الذي يوجد في جميع المكتبات العربية والإسلامية، فقد حاول أبو الحسن المسعودي أن يتناول فيه جوانب ثقافية وعقائدية وفكرية متنوعة، ليس فقط عن العرب

والمسلمين، ولكن عن تاريخ الإنسانية بوجه عام منذ بـدء الخليفـة إلى عهـده، ويعتبر من المصادر الهامة جداً للباحثين في مجـالي التـاريخ والجغرافيـة، ويتضـح ذلك من قول محققه محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمة هذا الكتاب: «أما بعد، فهذا كتاب، جمع فيه مؤلفه من علوم الأوائل ومعـارفهم عيـون المسـائل وأمهاتهـا، و لم يفصـل القـول فيـه تفصيـلاً يطيـل بـه علـى قارئـه، ولا أحـاط بأطراف ما تعرض له من المسائل، مكتفياً بأن ينتقي من كل عقـد درة هـي أثمـن درره وأغلاها عنده، وأن يغترف من كل بحر قطرة هي أهنأ قطراته وأمرؤهـا، وأن يقتطف من كل روض زهـرة هـي أرج أزاهـيره وأنضرهـا، وقـد تعـرض لاختلاف العلماء في أكثر ما بحـث مـن مسـائله، وبـين أقـاويلهم، وأشـار إلى بعض حججهم تاركاً تفصيل ما أخذ فيه من القول إلى كتبه التي صنفها قبـل هذا الكتاب، وقد أخذ علمه الذي أودعه كتابه هذا وكتبه السابقة عليـه مـن مصدرين: أحدهما: جملة من كتب العلماء الذين سبقوه بالتدوين، وقد أشـار إلى أكثر هذه الكتب في مطلع هذا الكتاب، وبـين مقـدار أهميتهـا في نظـره، والمصدر الثاني: ـ وهو في الأكثر عندما يريـد أن يحدثـك عـن عـادات بعـض البلدان أو حاصلاتها ـ أحاديث الناس التي يتناقلونها كابراً عن كابر.

وخلاصة القول: بقـي الاعتقـاد سـائداً بـين المؤرخـين المسلمين الأوائـل أن تعليل الحوادث التاريخية لا تكون صادقة ودقيقة ومقبولة إلا إذا درست عن طريق مواقعها الجغرافية، ولذا ظل كل من علم التاريخ وعلم الجغرافية متلازمـين بـل إن الكثير من مؤرخي الإسلام يرون علم الجغرافية جزءاً لا يتجزأ مـن علـم التـاريخ. والمعروف آنذاك أن للبيئة تأثيرات خطيرة على المؤرخ الدؤوب؛ لأنه يأخذ مادتـه التاريخيـة ممـا حولـه، فهـي ـ في الحقيقـة ـ عـامل مهـم في حفـز همتـه للبحـث والاستقصاء. إذن يظهر بجلاء للقارىء أن كلاً من علم التـاريخ وعلـم الجغرافيـة، يكمل كل واحد منهمـا الآخـر، وعليـه حـاول أبـو الحسـن المسـعودي أن يجمـع بينهما، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً.

ينقل **عمر رضا كحاله** في كتابه: «التاريخ والجغرافية في العصور الوسطى» شعور المسعودي حول علم التاريخ حيث يقول: «إنه لولا التاريخ لبادت آثار العلوم منذ زمان بعيد؛ لأن العلماء عرضة للزوال، ولكن التاريخ هو الذي يدوّن ما تجود به عقولهم، فيحفظ صلة الماضي بالحاضر، وهو ينبئنا بآراء الناس، ويقص علينا ما وقع من حوادث من غير تشيع». وهكذا يؤكد أبو الحسن المسعودي على أن التاريخ يصور أعمال البشر، ويفسر ذخائر فكرهم.

ولقد أتعب أبو الحسن المسعودي نفسه في الكد والمثابرة في طلب العلم منذ الصغر، حتى فاق أهل عصره في كل من علم التاريخ وعلم الجغرافية، وهذا يظهر واضحاً من دراسته للمواضيع التي تناولها في مؤلفاته العديدة، حيث وضع أول إطار صحيح للتأليف في مجالي علم التاريخ وعلم الجغرافية، فهو بحق الذي أرسى هذه القواعد المتينة، كما ترك لمن يأتي بعده أن يتم الطريق بالتفاصيل والتفسيرات العلمية، وعليه اهتم المؤرخون في دراسة إنتاجه العلمي دراسة متأنية خاصة في ميدان علم التاريخ.

برز أبو الحسن المسعودي في منهجه وأسلوبه في الكتابة، حيث اعتمد في كتاباته الكثيرة على المشاهدة والوثائق العلمية والكتب، كما تميز عن غيره بذكر مصادره التي استخدمها بأمانة وصدق، أما أسلوبه في الكتابة فقد كان بسيطاً بعيداً كل البُعد عن الإنشاء، متسماً بالوضوح والصراحة، وخالياً تماماً من المبالغات التي تعودنا أن نقرأها لبعض المؤرخين. أما الحقيقة التي يلزم ذكرها أن أبا الحسن المسعودي حصل على مكانته المرموقة بين مؤرخي زمانه بسببين هامين: الأول: مؤلفاته الكثيرة التي تدل على ما كان عليه من العلم وعلو المنزلة، والثاني: منزلة أسرته العربية العريقة التي كان لها أثر عظيم على تفوقه العلمي. وأخيراً يمكن القول: إن أبا الحسن المسعودي من المؤرخين المسلمين الأوائل الأفذاذ الذين ينطبق عليهم قول الشاعر:

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم   بعد الممات جمال الكتب والسير

أبو بكر الزبيدي

هو **محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي**، وكنيته **أبو بكر**، ولقبه **الزبيدي** لأنه ينتمي إلى قبيلة زبيد اليمنية المشهورة التي هاجر بعض أفرادها إلى حمص ثم الأندلس واستوطنوا مدينة إشبيلية، ولذا عرف باسم الحمصي والإشبيلي. كان والده الحسن بن عبد الله الزبيدي رجلاً جاداً فاضلاً، له مكانة مرموقة بين أهل مدينة إشبيلية. ولد الابن محمد بن الحسن الزبيدي في إشبيلية سنة (٣١٦ هجرية)، وتلقى تعليمه فيها، وتفوق على زملائه في كل من السير والأخبار والأدب والنحو واللغة والشعر والخطابة والعلوم الشرعية، ولكنه لم يكتف بهذا بل انتقل إلى مدينة قرطبة التي كانت تعج بجهابذة الفكر الذين تتلمذ عليهم، ونبغ ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم، وبقي هناك مدة طويلة جداً من الزمن.

عاش أبو بكر الزبيدي يتيماً، لأن والده الحسن بن عبد الله الزبيدي توفي وعمر الابن عشر سنوات، ولكن عائلته العريقة لاحظت علامات النبوغ تبدو واضحة عليه، فاهتمت بتعليمه لاعتقادها أنه سيكون له شأن عظيم في تطوير معالم الحضارة الإسلامية، وعليه كان تحصيله العلمي متميزاً جداً، حيث ذاع صيته في جميع أرجاء العالم الإسلامي، مما جعل الحاكم (المستنصر بالله) يطلب من أبي بكر الزبيدي أن يدرس ابنه ولي العهد هشام (المؤيد بالله) وأن يسند إليه القضاء في قرطبة، ولكن لم يدم هذا الاحتفاء والتقدير طويلاً، فعندما توفي الخليفة المستنصر بالله تولى ابنه هشام (المؤيد بالله) الحكم، فأطاح به المنصور بن أبي عامر وحبسه، فاضطر أبو بكر الزبيدي أن يغادر قرطبة ويتجه إلى مسقط رأسه إشبيلية.

تفرغ أبو بكر الزبيدي للدراسة والبحث والاستقصاء والتأليف في مدينة إشبيلية، وعمل فيها قاضياً حتى توفي فيها سنة (٣٧٩ هجرية)، ولم يقطع

صلته بمجالس علماء قرطبة التي كان يعتبرها مرجعاً أصيلاً للعلماء الكبار والصغار. ولا يخفى على القارىء أن أبا بكر الزبيدي أنتج إنتاجاً هائلاً ليس فقط في العلوم الشرعية واللغوية، ولكن أيضاً في علم التاريخ. وهذا يظهر واضحاً من كتابه القيم الذي بعنوان: «طبقات النحويين واللغويين» الذي رتبه بطريقة علمية راقية، حيث جعل لكل جيل طبقة من العلماء. وهكذا صار هذا الكتاب مرجعاً هاماً جداً للباحثين في مجالي النحو والتاريخ.

يقول **أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان** في كتابه آنف الذكر: «كان أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدي الإشبيلي واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر إلى علم السير والأخبار، ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه.. واختاره الحكم المستنصر با لله صاحب الأندلس لتأديب ولده ولي العهد هشام المؤيد با لله، فكان الذي علمه الحساب والعربية ونفعه كثيراً، ونال أبو بكر الزبيدي منه دنيا عريضة، وتولى قضاء إشبيلية وخطة الشرطة، وحصل نعمة ضخمة لبسها بنوه من بعده زماناً، وكان يستعظم أدب المؤيد با لله أيام صباه ويصف رجاحته وحجاه، ويزعم أنه لم يجالس قط من أبناء العظماء من أهل بيته وغيره مثل سنه أذكى منه ولا أحضر يقظة وألطف حساً وأوزن حلماً».

كان أبو بكر الزبيدي من ألمع علماء عصره ويبدو ذلك واضحاً من إنتاجه الضخم الحافل بالأفكار والآراء العلمية التي مكنته من كشف الحقيقة والوقوف عليها. ومن مؤلفاته التي ذكرها معظم المؤرخين في المعمورة: كتاب أبنية الأسماء والأفعال، وكتاب مختصر العين، وكتاب فيما يلحن فيه عوام الأندلس، وكتاب الموضح في النحو، وكتاب هتك ستور الملحدين، وكتاب أخبار الفقهاء المتأخرين من أهل قرطبة، وكتاب الغاية في العروض، وكتاب الأبنية في شرح كتاب سيبويه، وكتاب الاستدراك على كتاب العين للخليل

في اللغة، وكتاب طبقة اللغويين والنحويين بالمشرق والأندلس، وكتاب الواضح في العربية وغيرها.

وخلاصة القول: كان لأبي بكر الزبيدي علاقة قوية في جماهير بلاد الأندلس، فهو الذي بذل جهداً كبيراً في تأليف كتاب بسيط في النحو لعامة الناس «كتاب فيما تلحن فيه عوام الأندلس» لكي يقضي على اللحن في اللغة العربية حينئذ، وليعلمهم سهولة لغة الاشتقاق (اللغة العربية)، وبهذا قدم أبوبكر الزبيدي خدمة جليلة للأمة الإسلامية، إذن ليس بغريب أن يسمى شيخ اللغة العربية في الأندلس.

امتاز أبو بكر الزبيدي على علماء زمانه بروحه العلمية النادرة وتسامحه وإخلاصه وزهده واعترافه بفضل أجداده (علماء المسلمين الأوائل)، حيث استقى معارفه العلمية الراقية عن طريق مؤلفاتهم الفاخرة. والجدير ذكره أنه كان دائماً يحاول دعم دراساته وتحرياته بالبراهين المادية والحجج المنطقية، لذا انتشرت مؤلفاته المختلفة بين طلاب العلم، بهذا تمكن من إثراء مكتبات العالم بإسهاماته الفريدة. وخير ما نختتم هذه الخلاصة فيما قاله **انجل جنثالت بالنثيا** عن أبي بكر الزبيدي في كتابه «تاريخ الفكر الأندلسي»، حيث يقول: «كان أبو بكر الزبيدي شاعراً يميل في شعره إلى الحكمة والزهد، فيذكر الخوف من الله، وخلود الروح، وثواب الآخرة وعقابها، كقوله:

أنا مسلم الفتى بجنانه ... مقوله إلا بالمراكب واللبس
وليس ثياب المرء تغني قلامه ... إذا كان مقصور على قصر النفس
وليس يقيد العلم والحلم والحجى ... أبا مسلم طول القعود على الكرسي

ابن النديم

هو **محمد بن إسحاق بن النديم**، كنيته **أبو الفرج**، ويعرف بالأخباري الأديب، ولم يثبت بالضبط لماذا لقب **بابن النديم**؟ ولكن الشائع أنه كان أخبارياً وأديباً متميزاً، لذا فما أولاه أن يكون نديماً ينادم الجماهير من الناس بأخباره. والمتواتر أنه كان يدعى بالوراق البغدادي، وهذا ناتج عن أن والده أبا يعقوب إسحاق بن محمد بن النديم كان وراقاً أخبارياً مرموقاً، فورث الابن أبو الفرج محمد بن النديم هذه المهنة الجيدة؛ لأن عمل الوراق حينئذ يشبه إلى حد ما عمل الباحث اليوم الذي يوثق المعلومات بالمراجع الجيدة، من هنا استخدم المصطلح (وراقة) رديفاً للمصطلح الحديث (بيبلوجرافيا).

لا نعرف شيئاً يذكر عن نشأة أبي الفرج محمد بن النديم ولا تاريخ ولادته، لكن المعروف أنه ولد بمدينة بغداد، وتلقى تعليمه بها حتى رسخت قدماه في حبه لعلم التاريخ، لذا صار يجالس أهل العلم ويتحدث إليهم عن التراث العربي والإسلامي، مما مكنه من الانتهاء من تصنيف كتابه «الفهرست» سنة (٣٧٧ هجرية). والجدير ذكره أن الفهرست كلمة فارسية الأصل عربت منذ أن استخدمها ابن النديم. وكذا اختلف في تاريخ وفاته، ولكن القرائن التي ذكرها مؤرخو العرب والمسلمين وصلت بنا إلى التحقق من أنه مات بمدينة بغداد سنة (٣٨٥ هجرية)، لم يعطه مؤرخو العرب والمسلمين حقه، علماً أنه ألف كتابه الفهرست الذي يحتوي على البيبلوجرافية عن المؤلفين والكتب، والذي يُعتبر أول كتاب يغطي تراث الفكر العربي والإسلامي حتى أواخر القرن الرابع الهجري بمنهجية شاملة ودقيقة.

يقول أحد أساتذة الجامعة المصرية الذي لم يذكر اسمه في مقدمته الشائقة عن محمد بن إسحاق بن النديم في كتاب «الفهرست» لابن النديم: «لم يكن التاريخ حاكماً عادلاً، يمنح للناس شهرة بنسبة أعمالهم، ويكافئهم على قدر

استحقاقهم. فهذا رجل جمع صحائف من أقوال غيره ولفقها تلفيقاً فمنحه التاريخ ألقاباً ضخمة وخلد له ذكراً مطولاً في بطون الصحائف، وآخر كان نابغة حقاً في تفكيره وعمله ثم أهمله التاريخ، فقل أن تجد له ذكراً، أو تعرف له حياة مفصلة، ولعل أصدق ما ينطبق عليه هذا القول (ابن النديم)، فكتابه الفهرست يدل على أنه كان رجلاً فذاً من نواحي مختلفة.. والحق أن كتاب الفهرست ذخيرة لا تقدر، غرضه أن يحصي جميع الكتب العربية المنقولة من الأمم المختلفة والمؤلفة في جميع أنواع العلوم، ويصفها ويبين مترجميها أو مؤلفيها، ويذكر طرفاً من تاريخ حياتهم ويعيِّن تاريخ وفاتهم. فكان الكتاب على هذا النمط أجمع كتاب لإحصاء ما ألف الناس إلى آخر القرن الرابع الهجري وأشمل وثيقة تبين ما وصل إليه المسلمون في حياتهم العقلية والعلمية في هذا العصر. وأكثر هذه الكتب التي وصفها قد ضاعت بتوالي النكبات المختلفة على المملكة الإسلامية ولا سيما في غزو التتار لبغداد، ولولا كتاب الفهرست لضاعت أسماؤها وأوصافها أيضاً كما ضاعت معالمها».

المعروف لدى المؤرخين للحضارة العربية والإسلامية أن أبا الفرج محمد بن النديم، قضى مدة طويلة في تصنيف كتابه الفهرست، ولكنه أيضاً تمكن أن يكتب كتاباً آخر سماه التشبيهات، وقد حاول ابن النديم في كتابيه أن يكشف الحقيقة وأن يقف عليها. وصدق **ياقوت الحموي الرومي** عندما قال في كتابه «معجم الأدباء» ـ الجزء الثامن عشر ـ ما نصه: (محمد بن إسحاق النديم مصنف كتاب «الفهرست» الذي جود فيه، واستوعب استيعاباً يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحققه لجميع الكتب، ولا أبعد أن يكون قد كان وراقاً يبيع الكتب، وذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه صنف في سنة سبع وسبعين وثلاث مئة، وله من التصانيف: فهرست الكتب، وكتاب التشبيهات».

خلاصة القول: كانت الفترة ما بين (٣٣٤ هجرية) و (٤٤٧ هجرية) هي فترة امتازت بكثرة الإنتاج العلمي في العالم الإسلامي (في سنة ٣٣٤

هجرية) بدأت الدولة البويهية وفي (سنة ٤٤٧ هجرية) دخل السلاجقة بغداد، حيث تعددت المؤلفات في مختلف فروع المعرفة، مما دفع بالعلماء الكبار إلى التفكير في تطوير علم معين يهتم برصد أسماء الكتب وموضوعاتها، لذا اتجه محمد بن إسحاق بن النديم إلى الدراسة والبحث في هذا الميدان الحيوي، فألف كتابه الشهير «الفهرست» (علم الببلوجرافيا) الذي لا تخلو منه مكتبة في العالم والذي يحتوي على معلومات بيوجرافية مفيدة عن كل من المؤلفين وكتبهم، وإن كان لا يدخل في التفاصيل. كان كتاب الفهرست لابن النديم المصدر الفريد للباحثين في مجال علم التاريخ؛ لأنه يعطي فكرة موجزة ليس فقط عن الكتب القديمة الموجودة في مكتبات العالم، ولكن يقدم أيضاً معلومات قيمة عن الكتب المفقودة، ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب للباحثين في علم الببلوجرافيا.

ولقد اشتهر أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم بكل من أمانته العلمية وتحريه للصدق، وولعه الشديد بقراءة الكتب وتحليل محتواها تحليلاً علمياً رائعاً بعيداً كل البعد عن الميل الشخصي وتعريفه للباحث بعلم الببلوجرافيا، بهذا استطاع وبجدارة إدراك الأبعاد المختلفة لعلم التاريخ، حيث جمع مادة دسمة عن المؤلف ومؤلفاته في كتابه «الفهرست» ساعدت الباحث في الوقوف على الحقيقة.

أحمد بن فارس القزويني

هو **أحمد بن فارس بن زكريا القزويني**، ويكنى **بأبي الحسين**، ويلقب بكل من **القزويني** لأن أصله من قزوين التي ولد فيها سنة (٣٢٩ هجرية)، **والرازي** نسبة إلى الري من بلاد الديلم التي استوطنها وتوفي فيها سنة (٣٩٥ هجرية)، وتتلمذ على أيدي كبار علماء همذان، فنبغ في شتى العلوم، ولذا كانت ثقافته في اللغة العربية والتاريخ واسعة، فكتب عن علماء اللغة وفقهاء الإسلام الكثير، وهذا أكسبه شعبية وسمعة رائعة. لقد ذاع صيته ليس فقط في ميدان اللغة العربية والفقه وتاريخهما، ولكن أيضاً في سائر العلوم، فهو بحق موسوعة علمية تمشي على قدمين.

كان أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني يحث طلابه على التعمق في مجال اللغة العربية وتاريخها؛ لأنها الهيكل العظمي لجميع العلوم، وهذا لا يستغرب عليه؛ لأنه من أئمة اللغة العربية وتاريخها، فقد تنقل في مدن إسلامية كثيرة لبث أفكاره بين طلاب العلم حينئذ، ورحلاته هذه خدمته خدمة عظيمة حيث مكنته من جمع معلومات تاريخية هامة جداً عن فطاحل اللغة العربية.

يقول **الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر: «مولد الإمام العلامة أبي الحسين أحمد بن فارس القزويني بقزوين ومرباه بهمذان، وأكثر الإقامة بالري، وكان رأساً في الأدب، بصيراً بفقه مالك، مناظراً متكلماً على طريقة أهل الحق، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين، جمع إتقان العلم إلى ظرف أهل الكتابة والشعر، ومن نظمه:

سقى همذان الغيث لست بقائل ... سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم

ومالي لا أصفي الدعاء لبلدة ... أفدت بها نسيان ما كنت أعلم

نسيت الذي أحسنته غير أنني ... مدين ومافي جوف بيتي درهم

وله:

إذا كنت تؤذى بحرّ المصيف ويبس الخريف وبرد الشتا

ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذك للعلم قل لي متى؟

أما **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان** فيقول في كتابه: «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ الجزء الأول ـ: أن لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي أشعار جيدة، فمنها قوله:

إذا كنت في حاجة مرسلاً وأنت بها كلف مغرم

فأرسل حكيماً ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم

وله أيضاً:

وقالوا كيف حالك قلت خير تقضّى حاجة وتفوت حاج

إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوماً يكون لها انفراج

وله أشعار كثيرة حسنة».

وكان أبو الحسن أحمد بن فارس القزويني ذا عقلية فريدة في كثير من العلوم، ومؤلفاته العديدة التي ذكرها صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في كتابه «الوافي بالوفيات» ـ الجزء السابع ـ تشهد له بهذا ومنها: كتاب المجمل وكتاب متخير الألفاظ، وكتاب فقه اللغة، وكتاب غريب إعراب القرآن، وكتاب تفسير أسماء النبي ﷺ، وكتاب مقدمة في النحو، وكتاب دارات العرب، وكتاب حلية الفقهاء، وكتاب الفرق، وكتاب مقدمة في الفرائض، وكتاب ذخائر الكلمات، وكتاب شرح رسالة الزهري إلى عبد الملك بن مروان، وكتاب أصول الفقه، وكتاب أخلاق النبي ﷺ، وكتاب جامع التأويل في تفسير القرآن، وكتاب الثياب والحلي، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الحماسة المحدثة، وكتاب مقاييس اللغة، وكتاب المتعلمين في اختلاف النحويين، وكتاب فقه اللغة المسمى بالصاحبي.

وخلاصة القول: في القرن الرابع الهجري برز الاهتمام باللغة العربية وتاريخها، وذلك لأن علماء المسلمين كانوا يعتقدون أنه لم يكن هناك بد من تفوق اللغة العربية على جميع اللغات الأخرى، وعليه خطت المعرفة بميادينها المختلفة خطوات فاصلات، كان لها أبعد الأثر في تميز الحضارة العربية والإسلامية على جميع الحضارات الإنسانية. من هنا حازت اللغة العربية وتاريخها على الشيء الكثير من عناية أبي الحسن أحمد بن فارس القزويني، فبرع فيها وأضاف إضافات جوهرية على مكوناتها، أثارت إعجاب علماء العرب والمسلمين، لذا اعترفوا بفضله وأثره العظيم على خدمة الحركة العلمية في العالم الإسلامي.

ولقد تفوق أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني على زملائه بروحه العلمية وزهده وكرمه وتسامحه وإخلاصه للحقيقة، ويظهر ذلك واضحاً مما نقله **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر: «من أن الصاحب بن عباد كان يكرم العلامة أحمد بن فارس القزويني ويتتلمذ له ويقول: شيخنا أبو الحسين، ممن رزق حسن التصنيف وآمن فيه من التصحيف، وكان كريماً جواداً لا يبقي شيئاً، وربما سئل فوهب ثياب جسمه وفرش بيته».

والعجيب أن القليل جداً من المؤرخين المسلمين يعرفون بوضوح وجلاء أن لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني فضلاً في علم التاريخ، وقد يكون لهؤلاء عذر؛ لأن شهرته في مجال اللغة العربية بفروعها المختلفة طغت تماماً على عبقريته في النواحي الأخرى مثل علم التاريخ، ولكن من يقرأ مؤلفاته بدقة يكتشف أنه كان ضليعاً في علم التاريخ، واقفاً على مبادئه وأصوله، وعلى كل حال يمكن القول: إن أبا الحسين أحمد بن فارس القزويني أعطى جل وقته للغة العربية، ولكنه لم يهمل أبداً المعطيات التاريخية التي يجب أن يلم بها الباحث، فهو أعلم الناس بتاريخ العرب ونوادرهم وفصيح أشعارهم ونثرهم وسائر أمثالهم.

أبو حيان التوحيدي

هو **علي بن محمد بن العباس التوحيدي**. ويلقب **بأبي حيان**، ويعرف **بأبي حيان التوحيدي**. لا نعرف بالضبط متى ولد ولا متى توفي، ولكن الثابت أنه كان حياً سنة ٣٨٠ هجرية، ويرى بعض المؤرخين أنه توفي سنة ٤٠٠ هجرية عن عمر يناهز الثمانين سنة، شيرازي الأصل استوطن كلاً من نيسابور وبغداد والري. وقف حياته المديدة للكتابة حيث دأب على ذلك بقية حياته، وذاع صيته بين معاصريه عن طريق كتبه المطبوعة: كتاب الصداقة والصديق، وكتاب المقابسة، وكتاب الإمتاع والمؤانسة، تلقى تعليمه على جهابذة الفكر في كل من بغداد والبصرة، فكان جيد الحفظ وسريع البديهة وقوي الإرادة، نبغ في كل من علوم اللغة العربية والفقه والتاريخ، برز بروزاً عظيماً في كتابة السير؛ لأنه عرف بصراحته وصدقه ونزاهته وبُعده كل البُعد عن الإطراء الزائف. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين المسلمين يميلون إلى أنه عربي الأصل، وذلك لمدحه للعرب وعدم معرفته اللغة الفارسية.

يقول **ياقوت الحموي** في موسوعته آنفة الذكر عن أبي حيان التوحيدي ما نصه: «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان، سخيف اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان. الذم شأنه، والثلب دكانه، (بضاعته المثالب)، وهو مع ذلك. فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدوداً، محروماً، محارفاً يتشكى صرف زمانه ويبكي في تصانيفه على حرمانه، حيث يقول أبو حيان التوحيدي عن نفسه: «لقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكلف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم».

تميزت مؤلفات أبي حيان التوحيدي باحتوائها على ما حصل عليه من الروايات والأقوال التاريخية، لذا كانت من المصادر الهامة جداً للباحثين في عهده في مجال كل من الأدب والتاريخ، ولقد تواتر عن المؤرخين المسلمين التابعين له أن عدد مؤلفات أبي حيان التوحيدي بلغت حوالي عشرين كتاباً. منها ما طبع ومنها ما يزال مخطوطاً ومنها ما ضاع، والمعروف منها ما ذكره **ياقوت الحموي** في موسوعته آنفة الذكر ومنها: كتاب الصديق والصداقة، وكتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي، وكتاب الإمتاع والمؤانسة جزءان، وكتاب الإشارات الإلهية جزءان، وكتاب الزلفة جزء، وكتاب المقابسة، وكتاب رياض العارفين، وكتاب تقريظ الجاحظ، وكتاب ذم الوزيرين، وكتاب الرسالة البغدادية، وكتاب الرسالة في الحنين إلى الأوطان، وكتاب البصائر وهو عشر مجلدات، وكتاب المحاضرات والمناظرات.

وخلاصة القول: اعتبر علماء العرب والمسلمون الأوائل دراسة الأدب العربي من الموضوعات الضرورية لفهم المسارات المختلفة للحضارة الإسلامية، حيث إنه من العلوم المساعدة التي تعين الباحث في مجال علم التاريخ، والمعروف أن علم التاريخ يمتلك المادة العلمية للموضوعات المختلفة التي تتعلق في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والأدبية، لذا استخدم أبو حيان التوحيدي في بحوثه المختلفة المنهج التاريخي لقناعته التامة أن علم التاريخ عبارة عن وصف أدبي لنشاط الشعوب عبر العصور، كما اشتهر أبو حيان التوحيدي ببراعته في وصف الشخصيات التاريخية وتصنيف السير، وعليه أصبح من المؤرخين المرموقين في الحضارة العربية والإسلامية.

يصف **علي أدهم** في كتابه «بعض مؤرخي الإسلام» أبا حيان التوحيدي بقوله: «وقد كان أبو حيان التوحيدي كاتباً من كتاب الطراز الأول في الأدب العربي، وخليفة الجاحظ في سعة المعرفة وتعدد ألوان الثقافة وامتلاك ناصية البيان، وامتداد النفس في الكتابة وربما كانت تنقصه فكاهة الجاحظ ومرحه

وخفة روحه، ولكن ربما كان يمتاز عنه كذلك بأنه يتناول المسائل تناولاً جدياً، ويكتب عن عقيدة وصدق سريرة، فهو لايريد أن يظهر براعته وألمعيته في القدرة على إثبات الشيء ونفيه أو ذمه وحمده، والتلاعب بعقول قرائه، والعبث بأفهامهم، وإنما يستغل بلاغته وقوة بيانه في عرض وجهة نظره. والمصارحة بما يعتقد حقاً.. وكان كاتباً فلسفي النزعة، دقيق التفكير واسع المعرفة، جم الإحاطة».

ولقد أنجبت الحضارة الإسلامية مفكرين كباراً في ميدان علم التاريخ، ولم يكن أبو حيان التوحيدي سوى واحد منهم، والمشهود له أنه تفوق في علوم كثيرة على علماء عصره ومن بينها الفلسفة والأدب والتاريخ، علماً أنه آثر الكتابة في السير على جميع العلوم الأخرى. والجدير بالذكر أن كتاباته تميزت بالدقة والوضوح والأمانة العلمية، حيث لم ينسب لنفسه شيئاً قاله غيره، بل كل شيء نقله في مصنفاته يرجعه إلى مصدر وينوه عنه، عرف بين زملائه بصدق الحكم والقدرة العجيبة على تمييز الدلائل وتقويمها، والثابت أن أبا حيان التوحيدي كان يهوى البحث والمناقشة في كل من العلوم الرياضية والفلسفة والأدب والتاريخ، لذا أصبح من أفذاذ مفكري الإسلام.

كان أبو حيان التوحيدي مثالاً للفكر العلمي الذي يستند على المقارنة بين المعطيات المختلفة، لذا حسم كثيراً من الخلافات الأدبية والتاريخية التي كانت تخضع للقياسات العلمية، ومن المؤلم حقاً أن هذه العقلية الجبارة أودت بصاحبها إلى الحزن واليأس في آخر أيام حياته، فقد أحرق كتبه لاعتقاده أن الناس جحدوا فضله، حيث كان يعيش حياة شاقة وضيقة جداً، والله المستعان.

عبد الملك الثعالبي

هو **عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري**، كنيته **أبو منصور**، ولقبه **الثعالبي** لأنه في بداية حياته كان يصنع من جلود الثعالب فراء، لهذا السبب نسبوه إلى مهنته. ولد في نيسابور سنة (٣٥٠ هجرية) وتوفي فيها عام (٤٢٩ هجرية)، لذا يعتبره المؤرخون من أهل نيسابور الأصليين، تلقى تعليمه على كبار المفكرين في العالم الإسلامي حينئذ، وذلك بتوجيه من أبي المظفر نصر شقيق السلطان الغزنوي الذي كان يجل العلماء كثيراً ويحب مجالستهم والتحدث إليهم، وعليه نبغ أبو منصور عبد الملك الثعالبي ليس فقط في علم التاريخ ولكن في كل من الأدب (نثراً ونظماً) واللغة العربية بفنونها المختلفة، كما عني عناية كبيرة بألقاب الشعراء العرب، وذلك عن طريق الكتب القديمة النادرة، مما قاده في النهاية إلى تصنيف الكتب الكثيرة المتميزة التي بقيت ذخيرة قيمة وممتعة للباحثين في مجالي العلوم التاريخية واللغة العربية.

ولقد كسب أبو منصور عبد الملك الثعالبي عن طريق كتابه الشهير: «الغرر في سير الملوك وأخبارهم» سمعة عالية لاحتوائه على المادة التاريخية الفريدة المتعلقة بكل من حكم الخلفاء وأخبار المشرق، لهذا اعتمد عليه معظم المؤرخين للعالم الإسلامي في بحوثهم التاريخية. والحقيقة أن هذا الكتاب يُعتبر كتاباً في التاريخ العام يشبه في مجمله كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه. ولكن للأسف الشديد لم يبق لنا من هذا الكتاب إلا نتف قليلة جداً موزعة في مكتبات العالم مثل كل من المكتبة السليمانية في إستنامبول، والمكتبة الوطنية في باريس ومكتبة البودليان في أكسفورد وغيرها.

وقام المستشرق زوتنبرج (ZOTENBERG) في نشر الجزء الأول من كتاب «الغرر في سير الملوك وأخبارهم» المكون من أربعة أجزاء، مع ترجمة إلى اللغة

الفرنسية ومقدمة جيدة عن المؤلف، توحي بمكانته العلمية التي احتلها بين المؤرخين في المعمورة. كما أعيد طبع الجزء الأول من الكتاب المذكور في طهران عام (١٣٨٢ هجرية) لاحتوائه على معلومات قيمة وفريدة عن تاريخ الفرس. أما الأجزاء الأخرى من الكتاب فلم يعرف حتى الآن بالضبط أين توجد؟.

ويصف **فرانزرونتال** في كتابه آنف الذكر أبا منصور عبد الملك الثعالبي بقوله: «فقد اعتمد الثعالبي بالدرجة الأولى على الطبري عند بحثه تاريخ الإسلام إلى زمن العباسيين، إلا أنه ترك التنظيم الحولي، واتبع التقسيم حسب حكم الخلفاء، مع إضافة تقسيمات جزئية خصصها لبحث الوزراء وبعض كبار القصر، أما الأخبار المتعلقة بالمشرق فهي متماسكة وطريفة، ويتجلى من عنوان الكتاب اهتمام المؤلف بالأمور الثقافية التي تطغى على تاريخ ما قبل الإسلام، وقد سجل بدقة حكم الخلفاء».

ولقد خلف أبو منصور عبد الملك الثعالبي مؤلفات عديدة ومتنوعة، تناقلها المؤرخون في مؤلفاتهم ومنها: أحاسن المحاسن في المحاضرات، وإعجاز الإيجاز، والأنوار البهية في تعريف مقامات فصحاء البرية، وجواهر الحكم، والمؤنس الوحيد ونزهة المستفيد، والنهاية في الكناية (الكناية والتعريض)، وبرد الأكباد عند فقد الأولاد، والتمثيل والحضارة، وسحر البلاغة وسر البراعة، وسر الأدب في مجاري كلام العرب، وغرر البلاغة، وتراجم شعراء عصره، ويتيمة الدهر، ونثر النظم وحل العقد، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب، والكشف والبيان، واللآلي والدرر (أحسن ما سمعت نظماً ونثراً)، ولطائف المعارف في الأدب، ومرآة المروءات، وتحفة الوزراء، ومكارم الأخلاق، والمنهج، وفقه اللغة، وما جرى بين المتنبي وسيف الدولة، والفوائد والقلائد (الأمثال)، ويتيمة اليتيمة (تراجم) وغيرها.

وخلاصة القول: لم يتأثر أبو منصور عبد الملك الثعالبي كثيراً في منهج المدرسة الفارسية التي كانت تتميز في كل من المحافظة على الأفكار الإقليمية

العقيمة، والربط بين التنجيم والأحداث التاريخية والتفاخر بأخبار قدمائهم، والعناية التامة في الملاحم الشعرية والتغني في ملوكهم وسلاطينهم، والإصرار القوي على استخدام اللغة الفارسية في جميع بحوثهم، إلا أن أبا منصور عبد الملك الثعالبي تبنى بعض أفكار المدرسة الفارسية التي لا تتعارض مع كل من مبادىء العقيدة الإسلامية وعادات العرب وتقاليدهم الرائعة واستعمال اللغة العربية (لغة القرآن الكريم والمصطفى محمد ﷺ)، والثابت أن عبد الملك الثعالبي اعتمد كثيراً في بحوثه التاريخية على إنتاج المؤرخ الإسلامي الكبير محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠ هجرية).

ولأبي منصور عبد الملك الثعالبي في كل فن من فنون المعرفة منهجاً واضحاً وأقوالاً وأفكاراً أصيلة، استشهد بها علماء العرب والمسلمين في بحوثهم التاريخية واللغوية، وله أيضاً تحليلات تاريخية رائعة تختلف عن الذي توصل إليها معاصروه، وهذا بدون شك يدل على خصب ملكاته وسعة ثقافته في مجال علم التاريخ. كما ذاع صيته بين زملائه لقدرته الفائقة على النفوذ في الحقائق العلمية وبلورتها للباحثين، ولأمانته العلمية، ولآرائه الجريئة. وكل هذه النعوت تظهر واضحة في المقدمة التي كتبها عنه المستشرق زوتنبرج في الجزء الأول من كتابه «الغرر في سير الملوك وأخبارهم» والتي نوهنا عنها عندما تحدثنا عن قيمة الكتاب في هذه الترجمة الموجزة.

والحقيقة أن عناية أبي منصور عبد الملك الثعالبي في حقل علم التاريخ لا تقاس في شيء إلا في اهتمامه بالأدب العربي، حيث كان مقبلاً بكل همة على التعمق في دراسة كل من علم التاريخ والأدب العربي، لذا كانت له مؤلفات قيمة صاغها صياغة علمية متقنة، واستخدم فيها المراجع العلمية التي اعتمد عليها أئمة مدارس علم التاريخ في المعمورة. وهكذا يقف أبو منصور عبد الملك الثعالبي عملاقاً بين المؤرخين في العالم.

علي بن حزم الأندلسي

هو **علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي** يكنى **بأبي محمد**، ويلقب **بابن حزم الظاهري**، ولد بمدينة قرطبة سنة (٣٨٤ هجرية). وتوفي منفياً في بادية لبلة التي تقع في غرب الأندلس عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً. نما وترعرع في بيت علم وفضل، فوالده أحمد من أعيان مدينة قرطبة ومن كبار وزراء الخليفة الأموي المنصور محمد بن أبي عامر، لذا يتضح للقارىء أن أسرته عريقة النسب. تلقى تعليمه على كبار المفكرين بمدينة قرطبة حينئذ. ونبغ في كل من علم التاريخ والفلسفة والأدب والشعر والفقه. والجدير بالذكرأن علامات الذكاء كانت تبدو واضحة عليه في طفولته، حفظ القرآن الكريم وبرز في الشعر والنثر في ريعان شبابه، وتفرغ للكتابة والقراءة وطلب العلم حتى ذاعت شهرته في جميع أرجاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً. والمعروف عنه الشدة والصرامة والصراحة والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث (أي من أنصار مذهب محمد بن داود الظاهري) وعاش أبو محمد بن حزم الأندلسي في فترة من الزمن كان الصراع السياسي على أشده في شبه جزيرة الأندلس، لأن حكم الأمويين هناك كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وينقل شمس **الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر بعض أقوال العلماء المسلمين حول العلامة أبي محمد بن حزم الأندلسي ومنها على سبيل المثال لا الحصر: قال أبو حامد الغزالي: «وجدت في أسماء ا لله تعالى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه». وقال **أبو قاسم صاعد بن أحمد**: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان، و وفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار. أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربع مئة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين

ألف ورقة». وقال **أبو عبد الله الحميدي** : «كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسُّنة متفنناً في علوم جمة عاملاً بعلمه. ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين. وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديه أسرع منه. وشعره كثير جمعته على حروف المعجم».

يُعتبر علي بن حزم الأندلسي عالم موسوعي جماع للعلوم، بل موسوعة علمية تمشي على قدمين، كما نبغ بكثير من الفنون والمعارف فهو علامة عصره ليس فقط في العلوم الشرعية، ولكن أيضاً في مجال علم التاريخ الإسلامي، وهذا يظهر واضحاً من مؤلفاته الكثيرة التي تمتاز بشمولها العام لميادين المعرفة. واشتهر أبو محمد ابن حزم الأندلسي ببعده كل البُعد عن المصانعة إلى درجة أنه يقال: «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان».

ويتحدث **أبو محمد ابن حزم الأندلسي** عن نفسه فيقول في كتابه الشهير: «طوق الحمامة في الألفة والألاف» ما نصه: «وعني أخبرك أني جبلت على طبيعتين لا يهنأ لي معهما عيش أبداً وأني لأبرم بحياتي باجتماعهما، وأود التثبت من نفسي أحياناً؛ لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما وهما: وفاء لا يشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته، ولا تتطلع إن عدم من صحبته، وعزة نفس لا تقر على الضيم مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، مؤثرة للموت عليه، فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها، وإني لأجفى فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة، والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر، وحميت نفسي، تصبرت، وفي القلب ما فيه».

كان أبو محمد ابن حزم الأندلسي جريئاً جداً في قول ما يعتقد أنه صحيح، وقد ساعده على هذا ثقافته العالية، ولذا عمل له منهجاً مرسوماً في جميع كتاباته. كما أن له باع طويل في الشعر، وأصبح الكثير من معاصريه

يحفظون أشعاره لأهميته وقيمتها الأدبية. وقد ذكر **أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال** في كتابه «كتاب الصلة» ـ القسم الثاني ـ أبياتاً لأبي محمد ابن حزم الأندلسي تدل على مقدرته الشعرية المرموقة وهي:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا

إلى تبعات في المعاد وموقف نود لديه أننا لم نكن كنا

حصلنا على هم وإثم وحسرة وفات الذي كنا نلذ به عينا

حنين لما ولى وشغل بما أتى وغم لما يرجى فعيشك لا هنا

كأن الذي كنا نسر بكونه ذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله:

منأى من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل برد وحاضر

دعاء إلى القرآن والسنني التي تناسى رجال ذكرها في المحاضر

كثرت خصوم أبي محمد ابن حزم الأندلسي بسبب أفكاره المذهبية، لذا غضب عليه المعتضد بن عباد وأحرق كتبه بإشبيلية، وحورب اجتماعياً مما دعاه إلى اللجوء إلى بادية لبلة التي توفي بها، ولكنه أصر على أن يسير في طريقه أمام الحرب الضروس.

وينقل **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر شعره الذي يصف الموقف:

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل إن أنزل ويُدفن في قبري

دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

وإلا فعــودوا في المكــاتب بـــدأة فكـم دون مـا تبغـون لله مـن سـتر

وله أيضاً:

كــأنك بــالزوار لي قــد تبـــادروا وقيـل لهـم أودى علــي بــن أحمـد

فيـارب محـــزون هنــاك وضــاحك وكـم أدمـع تـذرى وخـد مخـدد

عفـا الله عـني يوم أرحـــل ظاعنًـا عن الأهل محمولاً إلى ضيق ملحـد

وأتـرك مـا قـد كنـت مغتبطــاً بـه وألقـى الـذي آنسـت منه بمرصـــد

فوا راحـــتي إن كــان زادي مقدمــاً ويــا نصـبي إن كنـــت لم أتـــزود

ابتعد البعض عن أبي محمد ابن حزم الأندلسي ، ولم يبق حوله إلا طلابـه الذين كانوا يتلقون العلم على يده، وعليـه كـانوا يسـمعون الكثـير جـداً مـن أحاديثه عن نفسه والتي دوّنهـا في كتابـه المشـهور: «طـوق الحمامـة في الألفـة والألاف» ومنها كان يعرض لطلابه الأزمات التي حصلت له. وينقل أحمد بن محمد المقري التلمساني في كتابه «نفح الطيب» ـ الجزء الثاني ـ ما كان يـردده دائماً أبو محمد ابن حزم الأندلسـي علـى طلابـه مثـل: قولـه تبـارك وتعـالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف:١٩٩] وقـول صفـوة الخلـق رسـول الله محمد بن عبد الله ﷺ : «وصل من قطعـك، واعـف عمـن ظلمـك». وقـول الحكماء الأوائل: «كفاك انتصاراً ممن تعرض لآذاك إعراضك عنه» ثم شعره:

تتبـــع ســـواي امـــرأً يبتغـــي ســـبابك إن هـــواك الســـباب

فـــإني أبيـــت طـــلاب الســـفاه وصنـــت محلـــي عمـــا يعـــاب

وقـل مـــا بـــدا لـــك مـــن بعـــد ذا وأكـــثر فـــإن ســـكوتي خطـــاب

ولأبي محمـد ابـن حـزم الأندلسـي إنجـازات علميـة رائعـة في حقـل علـم التاريخ ومنها على سبيل المثال لا الحصر: كتاب جوامع السـير الـذي يحتـوي

على موجز للسيرة النبوية، وكتاب جمهرة الأنساب الذي يشتمل على معلومات مختصرة عن أنساب العرب وبني إسرائيل وملوك فارس، وله كتاب صغير سماه (نقط العروس) خصصه لأخبار الخلفاء ونظام الحكم في العصور الإسلامية المزدهرة، أما إسهاماته العلمية الأخرى فكثيرة جداً ومنها: كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل، وكتاب التقريب في المنطق، وكتاب الالتباس فيما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس، وكتاب الإيصال، وكتاب حجة الوداع، وكتاب مداواة النفس، وكتاب مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، وكتاب الفصل بين أهل الآراء والنحل (في علم الجدل)، وكتاب الإحكام في أصول الأحكام، وكتاب المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار، وكتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف، وكتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه وغيرها مما ذكره المؤرخون مثل حاجي خليفة في كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، وأبي العباس شمس الدين أحمد بن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ــ المجلد الثالث ــ وعمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين» ـ الجزء السابع ـ وغيرهم.

بذل أهل الفضل والخير المعاصرون لأبي محمد ابن حزم الأندلسي جهوداً عظيمة لنصحه أن يخفف، بل أن يعدل عن الجدل الساخن مع الفقهاء المعروفين حينئذ؛ لأن موقفه الشديد خلق له أعداء لم يستطع أبداً أن يصمد أمامهم. والمتواتر أن مقاصد أبي محمد ابن حزم الأندلسي كانت نزيهة وصالحة، لذا دوّن شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي في كتابه آنف الذكر الوضع في أبيات من الشعر قالها الشاعر الملهم علي بن حزم الأندلسي وهي:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت   أقوالهم وأقاويل الورى محن

فقلت: هل عيبهم لي غير أني لا   أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن

وإنــي مولــع بــالنص لســت إلى سـواه أنحـو ولا في نصـره أهـن

لا أنثـني لمقـاييس يقـال بهـا في الدين بل حسبي القرآن والسُّنن

يابرد ذا القـول في قلبي وفي كبدي وياسـروري بـه لـو أنهـم فطنـوا

دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً من مات من قوله عندي له كفن

خلاصة القـول: اهتـم مؤرخـو العـرب والمسلمين الأوائـل بعلـم المنطـق وبلوروا خصائصه واعتبروه علمـاً مفيـداً لحـل المستصعب وتبسيط العويص وترتيب الأفكار والعناية بسلامة المعنى واستقامته أمـام القـارىء اللبيـب، لـذا سخروا بجدارة علم المنطق ليخدم مواهبهم وخبراتهم العلمية في كتابـة تـاريخ الأمة العربية والإسلامية، وعليه عني أبو محمد ابن حزم الأندلسي بعلم المنطق عناية عظيمة، وتفوق به على معاصريه، ومما لا شك فيه أن علم المنطق ساعد ابن حزم للانصـراف إلى جـد الحيـاة وتنمية الوعـي الاجتمـاعي والعلمـي عنـد طلابه آنذاك.

ونشأ أبو محمد علي بن حزم الأندلسي في بيئة علم وثراء، ولكـن هـذا لم يؤثر على حياته أبداً، بل أتعـب نفسـه في البحـث والدراسـة والاستقصاء في عدد كبير جداً من الفنون والمعارف، حتى أصبح قـوي النفـس وحـاد الذهـن وغزير العلم، كان من المغرمين بالمناظرة العلمية الطاهرة، ليس للمتعة والـترف والشهرة ولكن للعلم والبحث عن الحقيقة. والجديـر بـالذكر أنـه كـان يحـب الصراع السياسي والاجتمـاعي في صغـره عندمـا كـان يشـغل منصـب وزيـر للدولة في الأندلس، وانتقل هذا إلى حقل العلم، فقد أقام الحجـة النـافذة علـى اليهود والنصارى لتغييرهم في كل من التوراة والإنجيل، وبقيت آراؤه يتداولهـا طلاب العلم في المعمورة عبر العصور لصحتها ودقتهـا ووضوحهـا. كمـا ذاع صيته بين معاصريه لبلاغته وحسن محاضراته وسعة اطلاعه ومتانة خلقه.

صاعد الأندلسي

هو **صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن التغلبي الأندلسي**، كنيته **أبو القاسم**، ويلقب **بالتغلبي** لأنه من قبيلة تغلب، حيث جاءت عائلته إلى الأندلس من المشرق أيام الفتح الإسلامي، ويعرف أحياناً بالقرطبي لأن عائلته الكريمة استوطنت مدينة قرطبة العامرة. ولد في المرية سنة (٤٢٠ هجرية)، ولكنه نما وترعرع في مدينة قرطبة، وتلقى معظم تعليمه فيها، ولكنه أكمله في مدينة طليطلة، ذاع صيته ليس فقط في علم التاريخ والعلوم الشرعية، ولكن في سائر العلوم، لذا أسند إليه حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون القضاء فأعطي اسم قاضي طليطلة التي توفي فيها وهو قاض عليها سنة (٤٦٢ هجرية)، ولا يخفى على القارىء أن أبا القاسم صاعد الأندلسي قد أتى من عائلة عريقة، فكان جده من علماء الأندلس، أما والده فقد تولى مركزاً قيادياً في حكومة قرطبة، لذا سهل عليه التنقل في البلاد الأندلسية في ريعان شبابه باحثاً عن العلماء الكبار، فالتقى بأبي محمد علي بن حزم وتتلمذ عليه، فأصبح من أصحاب الدراية والذكاء الخارق.

وكتب أبو القاسم صاعد الأندلسي كتاباً قيماً محبوكاً بالإيجاز بعنوان: «طبقات الأمم» قدم فيه وصفاً رائعاً ومتكاملاً للأمم المختلفة التي اهتمت بالمعارف بفروعها، ويظهر ذلك واضحاً وجلياً فيما ذكره المحقق لهذا الكتاب حياة بوعلوان في مقدمته، حيث عرض تقسيم طبقات الأمم أولاً: الفرس مملكة واحدة ولسانها واحد فارسي، ثانياً: الكلدانيون وهم السريانيون والبابليون والكربانيون والأموريون، والجرامقة وهم أهل الموصل، والنبط وهم أهل سواد العراق. وثالثاً: اليونانيون والروم والإفرنجة والجلالقة وبرجان والصقالبة والروس والبرغر واللان وغيرها من الأمم، ورابعاً: القبط وهم أهل مصر وأهل الجنوب أصناف الوديان من

الحبشة والزنج وغيرهم، وخامساً: أجناس الترك، وسادساً: الهند والسند ومن اتصل بهم. وسابعاً: الصين كل أمة من تلك الأمم لها مملكة واحدة ولغة واحدة وهي محيطة بجميع البشر وديانتها صائبة، افترقت تلك الأمم السبع وتشعبت لغاتها وتباينت أديانها، فوجدها صاعد الأندلسي تنقسم إلى طبقتين، طبقة عنيت بالعلوم وطبقة لم تعن بها، الطبقة التي انكبت على العلوم ثمان وهي مميزة بالنسبة لصاعد الأندلسي، هم: أهل الهند والفرس والكلدان واليونان والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيون، أما الطبقة التي لم تعن بالعلم فهي بقية الأمم بعد التي ذكرها صاعد الأندلسي وهؤلاء هم أشبه بالبهائم منهم بالناس.

ويمتدح **صالح أحمد العلي** كتاب «طبقات الأمم» لأبي القاسم صاعد الأندلسي في كتاب «العلوم عند العرب»بقوله: «ألف صاعد بن أحمد الأندلسي كتاب طبقات الأمم وهو كتاب صغير الحجم ولكنه ذو قيمة كبيرة لما حواه من معلومات غنية، وملاحظات ذكية وأحكام رصينة ونظرة شاملة، فقد تحدث فيه عن الأمم القديمة واختلافها في مدى العناية بالعلوم، وأشار إلى الأمم التي لم تعن بالعلوم، ثم تحدث عن الأمم التي عنيت بالعلوم فذكر العلوم عند كل من الهند والفرس. والكلدان واليونان والروم وأهل مصر والعرب وبني إسرائيل. وكان كتاب صاعد الأندلسي معتمداً على عدد ممن ألف في تاريخ العلوم فأكثروا النقل عنه، وخاصة ابن أبي أصيبعة في كتاب: عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

وخلاصة القول: استطاع المسلمون بحكمتهم وذكائهم أن يكونوا حكومة إسلامية أندلسية مستنيرة ومستقرة، فلسفتها التسامح الديني، لذا بنى العلماء المسلمون في الأندلس حضارة إسلامية نافست حضارات الدول الأوربية المعاصرة لها. وهذا كله ناتج على انتشار العلوم بين سكان الأندلس،

حيث تمسكوا وتعمقوا بمبادىء الثقافة الإسلامية، وعليه أقبل علماء المسلمين في الأندلس على التأليف، فكتبوا كلاً من تاريخ الأندلس وتاريخ الأديان وتاريخ العلوم وغيرها بطريقة ترفع الرأس وتخلق الثقة. من هنا اندفع ودخل أبو القاسم صاعد الأندلسي في المعمعة فركز على علم التاريخ، حيث أثرى الساحة الثقافية بأفكاره القيمة في هذا المجال الحيوي. والجدير بالذكر أن معظم المؤلفات الأندلسية كانت متأثرة بالمعارف الشرقية، حيث نقل علماء المسلمين في الأندلس جميع الأحداث والروايات التاريخية بصورة دقيقة ومحكمة متبعين بذلك منهج علماء المسلمين في المشرق.

ولأبي القاسم صاعد الأندلسي مؤلفات كثيرة تناقلها المؤرخون في العالم ومنها: جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم، وصوان الحكم في طبقات الحكماء، ومقالات أهل الملل والنحل، وإصلاح حركة النجوم، وتاريخ الأندلس، وتاريخ الإسلام، وتاريخ الأديان وغيرها. وقد بقيت هذه المؤلفات النادرة من المصادر الهامة جداً بل الضرورية للباحثين في وضع الأمم من حيث تمدنها وحال العلم فيها. والمتواتر أن أبا القاسم صاعد الأندلسي كان من المغرمين في علم الفلك وتاريخه، حيث أسهم إسهامات مرموقة تدل على طول باعه في هذا الميدان.

لقد أعطى المؤرخون للعلوم أبا القاسم صاعد الأندلسي بعض حقه من الذكر الحسن، فلم يحط به الغموض والإبهام كمعظم علماء العرب والمسلمين في هذا المجال الذين ذهبوا ضحية عدم المبالاة من أبناء جلدتهم والعداء الضروس من المستشرقين. والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن الذي حفظ مكانة أبي القاسم صاعد الأندلسي العلمية كتابه «طبقات الأمم» الذي ظل من المصادر الضرورية للدارسين والباحثين عبر العصور ليس فقط في تاريخ العلوم ولكن في جميع فروع المعرفة.

ولا عجب أن يكون بعض المؤرخين المسلمين من المعجبين بأبي القاسم صاعد الأندلسي وذلك لاعترافهم البين بفضله وعلمه، كما ثبت أن أبا القاسم صاعد الأندلسي من جانبه كان يحب ويحترم ويقدر الأوساط المثقفة التي أكسبته القدرة العظيمة على جمع المعلومات المتنوعة من مصادرها الدولية، وهكذا يقف أبو القاسم صاعد الأندلسي عملاقاً بين علماء العرب والمسلمين الذين أثروا الحضارة العربية والإسلامية بإنتاجهم العلمي.

الخطيب البغدادي

هو **أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغـدادي**، ويكنـى **بـأبي بكر**، ويلقب **بالخطيب** لأن والده كان خطيباً بدريحان قرية من قرى بغـداد، ولد سنة (٣٩٢ هجرية) بدريحان، ولكنه نما وترعرع في دار السـلام (بغـداد) وتلقى تعليمه على أيدي جهابذة الفكر هناك، فتفوق على زملائه في كل مـن الفقه والحديث والتاريخ، ولذا عرف بين معاصريه من العلماء الكبار بكل من العلامة المفتي، والإمام الأوحد، ومحـدث زمانـه. كـان لديـه ولـع شـديد منـذ نعومة أظفاره بجمع المعارف من مصادرها المختلفة ليس فقط في علمي التاريخ والحديث ولكن أيضاً في سائر العلوم.

كان أبو بكر الخطيـب البغـدادي مؤرخـاً لامعـاً وعاشـقاً لدراسـته وبحوثـه المتنوعة بحق، ويظهر ذلك واضحاً وجلياً في كتابه «تاريخ بغداد» المكـون مـن أربعة عشر مجلداً والذي يحتوي على معلومات نادرة لا يستغني عنها البـاحث اللبيب، وبه أثرى المكتبة الإسلامية. وقد تواتر أنه كان على جانب عظيـم من الورع والتقوى والأمانة، لذا كان مدرسـة لطـلاب العلـم علـى جميـع المستويات. وقد استقر في آخر أيام حياته في مدينة بغـداد الـتي تـوفي فيهـا سـنة (٤٦٣ هجريـة)، فحـزن عليـه طـلاب العلـم في جميـع أرجـاء العـالم الإسلامي حزناً عظيماً.

يقول **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكـان** في كتابه آنف الذكر: «الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمـد بـن مهـدي ابن ثابت البغدادي، المعروف بـالخطيب البغـدادي، صـاحب (تـاريخ بغـداد) وغيره من المصنفات، كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين، ولو لم يكن له سوى (التاريخ) لكفاه، فإنه يدل على اطلاع عظيم، وصنف قريباً من مئـة مصنف، وفضله أشهر من أن يوصف، وأخذ الفقه عـن أبـي الحسـن المحاملي

والقاضي أبي الطيب الطبري وغيرهما، وكان فقيهاً فغلب عليه الحديث والتاريخ... وتصدق بجميع ماله ... فرقها على أرباب الحديث والفقهاء والفقراء في مرضه، وأوصى أن يتصدق عنه بجميع ما عليه من الثياب، ووقف جميع كتبه على المسلمين، ولم يكن له عقب».

وثقافة أبي بكر الخطيب البغدادي الأدبية عالية جداً وكان يقرض الشعر، وقد خلف إنتاجاً رائعاً في هذا المجال الهام، ويذكر **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر بعض الأبيات ومنها:

قد شاب رأسي وقلبي ما يغيره ... كر الدهور عن الإسهاب في الغزل

وكم زماناً طويلاً ظلت أعذله ... فقال قولاً صحيحاً صادق المثل

حكم الهوى يترك الألباب حائرة ... ويورث الصب طول السقم والعلل

وحبك الشيء يعمي عن مقابحه ... ويمنع الأذن أن تصغي إلى العذل

لا أسمع العذل في ترك الصبا أبداً ... جهدي فما ذاك من همي ولا شغلي

من ادعى الحب لم تظهر دلائله ... فحبه كذب قول بلا عمل

وله أيضاً:

تغيب الخلق عن عيني سوى قمر ... حسبي من الخلق طراً ذلك القمر

محله في فؤادي قد تملكه ... وحاز روحي ومالي عنه مصطبر

فالشمس أقرب منه في تناولها ... وغاية الحظ منها للورى النظر

أردت تقبيله يوماً مخالسة ... فصار من خاطري في خده أثر

وكم حليم رآه ظنه ملكاً ... وراجع الفكر فيه أنه بشر

لقد كان جميع زملاء العلامة المفتي الناقد الخطيب البغدادي يعترفون بفضله ومكانته العلمية، لذا كان لإنتاجه العلمي أثر عظيم على دراساتهم

وبحوثهم وقد أورد الامام الحافظ المؤرخ **ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر** في كتابه «تهذيب تاريخ دمشق الكبير» ـ الجزء الأول ـ مدح أبي الخطاب بن الجراح المقرىء لأبي بكر الخطيب البغدادي:

فاق الخطيب الورى صدقاً ومعرفة ... وأعجز الناس في تصنيفه الكتبا

حمى الشريعة من غاو يدنسها ... بوضعه ونفى التدليس والكذبا

جلا محاسن بغداد فأودعها ... تاريخه مخلصاً لله محتسبا

وقال في الناس بالقسطاس منزوياً ... عن الهوى وأزال الشك والريبا

سقى ثراك أبا بكر على ظمأ ... جون ركام يسح الواكف السربا

ونلت فوزاً ورضواناً ومغفرة ... إذا تحقق وعد الله واقتربا

يا أحمد بن علي طبت مضطجعاً ... وباء شانيك بالأوزار محتقبا

وبقيت أفكار وتأملات أبي بكر الخطيب البغدادي يتناقلها الشعراء والمؤرخون إلى يومنا هذا، وذلك لأنه كرس جهده ووقته لجمع وتحليل الآراء والظواهر العلمية بكل أمانة ونزاهة، لذا بات في طليعة العلماء الذين خدموا الحضارة الإسلامية، ويتناقل المؤرخون في كتبهم أن بعض زملاء الخطيب البغدادي يروون عنه أنه لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله ثلاث حاجات: أن يحدث بـ «تاريخ بغداد» بها، وأن يملي الحديث بجامع المنصور، وأن يدفن عند بشر الحافي، فقضيت له الثلاث.

كان أبو بكر الخطيب البغدادي حاد الذكاء، لذا سئم من السماع لما يتحدث عنه بعض العلماء الذين يعيشون حوله، مما اضطره إلى التنقل بين كل من البصرة ونيسابور وأصبهان وهمذان والشام (دمشق وصور وطرابلس وحلب) ومكة المكرمة والمدينة المنورة للدراسة والبحث والاستقصاء عن

طريق لقاءاته الكثيرة مع كبار المفكرين وزياراته المتكررة للمكتبات المشهورة في هذه المدن التي تعتبر مراكز للعلوم آنذاك.

وعندما تقدم أبو بكر الخطيب البغدادي بالسن قرر أن يستقر ويستوطن مدينة بغداد؛ لكي يتفرغ لكل من التأليف وتدريس طلابه وخدمة الوزير أبي القاسم بن مسلمة وزير الخليفة العباسي القائم بأمر الله الذي جعل منه المرجع الأخير لكل من الأمور الشرعية والتاريخية. وتبلور ذلك بكل وضوح قصة اليهود الذين كانوا يدفعون الجزية للمسلمين ثم ادعوا كذباً أن صفوة الخلق رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ أسقطها عنهم.

والقصة حول موضوع الجزية التي كان يدفعها اليهود للمسلمين، ينقلها **صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي** في كتابه آنف الذكر: «وكان بعض اليهود قد أظهر في بغداد كتاباً وادعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادات الصحابة، وأنه خط علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعرضه رئيس الرؤساء (أبو القاسم ابن مسلمة وزير الخليفة العباسي القائم بأمر الله) على الخطيب البغدادي فقال: هذا مزور، فقيل له: من أين لك ذلك؟ قال: في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية أسلم يوم الفتح، وخيبر كانت في سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ وكان قد مات ليوم الخندق في سنة خمس، فاستحسن ذلك منه، وتقدم رئيس الرؤساء إلى القصاص والوعاظ أن لا يورد أحد حديثاً عن رسول الله ﷺ حتى يعرضه على الخطيب البغدادي، فما أمرهم بإيراده أوردوه وما منعهم منه ألغوه».

أبرز أبو بكر الخطيب البغدادي في مؤلفاته المختلفة والكثيرة نبوغه الذي لا يماري فيه أحد، حيث صار العلماء الكبار في العالم الإسلامي يرجعون إلى كتبه في جميع العلوم وخاصة في علم التاريخ بلا منازع. والقارىء يمكن له أن يعرف بجلاء الحقيقة من الأبيات الشعرية التي قالها أبو طاهر أحمد بن محمد بن

أحمد السِّلفي الحافظ الأصبهاني الذي يمتدح مؤلفات أبي بكر الخطيب البغدادي، وقد نقلها ياقوت الحموي في كتابه آنف الذكر وهي:

تصانيف ابن ثابت الخطيب ... ألذ من الصبا الغصن الرطيب

تراها إذ حواها من رواها ... رياضاً للفتى اليقظ اللبيب

ويأخذ حسن ماقد صاغ منها ... بقلب الحافظ الفطن الأريب

فأية راحة ونعيم عيش ... يوازي كتبه بل أي طيب

وذكر **إسماعيل باشا البغدادي** في كتابه «هدية العارفين»: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ـ الجزء الأول ـ بعض مؤلفات العلامة الناقد أبو بكر الخطيب البغدادي وهي: كتاب تاريخ بغداد، وكتاب اقتضاء العلم والعمل، وكتاب التبيين لأسماء المدلسين، وكتاب التفصيل لمبهم المراسيل، وكتاب تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن نوادر الصحف والوهم، وكتاب التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف، وكتاب الجامع لأخلاق الراوي والسامع في قواعد أصول الحديث، وكتاب الدلائل والشواهد على صحة العمل باليمن والشاهد، وكتاب رافع الارتياب في القلوب من الأسماء والألقاب، وكتاب روايات الصحابة من التابعين، وكتاب رواية الآباء عن الأبناء، وكتاب السابق واللاحق في تفسير القرآن الكريم، وكتاب شرف أصحاب الحديث، وكتاب صلاة التسبيح، وكتاب غنية المقتبس في تفسير الملتبس، وكتاب الفصل والوصل، وكتاب الفقه والمتفقه، وكتاب الإجازة للمعدوم والمجهول، وكتاب الاحتجاج للشافعي، وكتاب البخلاء، وكتاب الرحلة في طلب الحديث، وكتاب الرواة عن مالك بن أنس، وكتاب الطفيليين، وكتاب القنوت، وكتاب من حدث فنسي، وكتاب من وافق كنيته اسم أبيه، وكتاب النهي عن صوم يوم الشك، وكتاب كشف الأسرار، وكتاب الكفاية في معرفة أصول علم

الرماية، وكتاب المتفق والمفترق، وكتاب المكمل في بيان المهمل، وكتاب موضح أوهام الجمع والتفرق، وكتاب المؤتلف تكملة المختلف، وكتاب نهج الصواب في التسمية من خاتمة الكتاب، وغير ذلك.

وخلاصة القول: عرف الوزير أبو القاسم بن مسلمة بفراسته السياسية ودهائه وحكمته وإخلاصه للخليفة العباسي القائم بأمر الله، لذا اختار الخطيب البغدادي أن يكون مستشاراً خاصاً له لمكانته العلمية التي كان يحتلها بين زملائه. والجدير ذكره أن الحافظ الناقد الخطيب البغدادي لم يتردد بقبول المهنة العظيمة التي أسندت إليه؛ لأنه كان حريصاً كل الحرص على أن يحصل على المعلومات التاريخية الأصيلة؛ لأنه ليس هناك أسرع وأسهل من التوصل إليها عبر القنوات الحكومية الرسمية، فمثلاً عندما يقوم الباحث بزيارة رسمية لبلد ما يستطيع أن يجمع ما يريده من وثائق حكومية وغيرها.

ولقد حاز أبو بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي على شهرة عظيمة جداً نتيجة انتشار كتابه «تاريخ بغداد» الذي يشتمل على تراجم رجال العلم الذين عاشوا في دار السلام (بغداد) أوزاروها. وللمعلومة فإن مدينة بغداد كانت مركز الإشعاع العلمي في العصر العباسي، لذا معظم علماء المسلمين البارزين كانوا يقطنونها أو يزورونها من وقت لآخر. ولاشك أن أبا بكر الخطيب البغدادي بذل جهداً كبيراً في إتمام سير العلماء والرجال المعروفين في الحضارة الإسلامية العريقة باستخدام المراجع القوية والموثقة، لذا صار منهجه الذي طبقه على مؤلفه المذكور أعلاه قنديلاً بل نموذجاً للمؤلفين التابعين له في مجال علم التاريخ عبر العصور الطويلة.

استطاع أبو بكر الخطيب البغدادي بمؤلفاته العديدة أن يسهم إسهاماً جليلاً في الكشف عن أفكار ونظريات بعض علماء المسلمين الذين أحاط بهم الغموض والإبهام. ولاشك أن كتابه «تاريخ بغداد» هو الذي بلور أصالة تفكيره وعلو كعبه، ولحسن الحظ أنه طبع في القاهرة سنة (١٣٥٠ هجرية)،

وأعادت طبعه دار الكتب العلمية في بيروت سنة (١٣٨٥ هجرية). وعليه صار منتشراً في المكتبات الإسلامية، ولا يزال هذا الكتاب النادر حتى الآن معيناً لا ينضب للباحثين في سير أعلام الحضارة الإسلامية.

ابن حيان القرطبي

هو **حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي**، يكنى **بأبي مروان**، ويلقب **بالقرطبي**، ولد في قرطبة سنة (٣٧٧ هجرية) وتوفي هناك عام (٤٦٩ هجرية)، نما وترعرع في بيت أسرة عريقة، فجده من الأصدقاء المقربين للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف باسم الداخل المؤسس للدولة الأموية في الأندلس. والمتواتر أن معظم أفراد عائلته كانت لهم صلة قوية بحكام الأندلس آنذاك. وتلقى تعليمه على جهابذة العلم في قرطبة فنبغ في أغلب فروع المعرفة، ولكنه حاز على مكانة مرموقة بين زملائه لفصاحته وبيانه وبلاغته ولأعماله العلمية في مجال علم التاريخ والأدب العربي، ويعتبر بحق حجة في كل من علم التاريخ والأدب العربي. وكما يشهد له بالدقة المتناهية في القول، فهو لا يتكلم عن شيء لا يعتقد أنه صدق ولو اجتمع الناس على صحته جميعاً. ويذكر **أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي** في كتابه «البداية والنهاية» ـ الجزء الثاني عشر ـ أن أبا علي الغساني قد أثنى عليه في فصاحته وصدقه وبلاغته. أما **أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن خلكان** فيقول في كتابه آنف الذكر: «كان أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان عالي السن (الهمة) قوي المعرفة متبحراً في الأدب بارعاً فيه، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظماً له». وهكذا يقف أبو مروان ابن حيان القرطبي شامخ الرأس بين المؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في المعمورة.

يقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «اعتنى خلف والد ابن حيان القرطبي بتنشئة نجله، وتمكينه من أن يحصل العلم من أوثق مصادره، وأحسن مظانه، وسرعان ما ظهرت بوادر نبوغ ابن حيان، وتجلت مواهبه واستعداداته، وبذ زملاءه وأنداده حتى أصبح فيما بعد شيخ مؤرخي الأندلس

عن جدارة واستحقاق، ولا خلاف في أن والده خلف كان رجلاً كثير التجارب واسع الخبرة بالحياة؛ لأن طبيعة وظيفته كانت تستلزم منه معرفة واقعية للمجتمع الذي يعيش فيه والناس الذين يتعامل معهم، وكان على صلة واحتكاك بالطبقات الاجتماعية كلها، وكان على علم تام بأغراض الوزير الطموح وزير هشام الثاني وأهدافه البعيدة، كما كان على علم بأحوال الممالك المسيحية التي أخافتها انتصارات الوزير العبقري المجاهد الذي حملت غزواته النار والدمار إلى ديارهم، وكان خلف يعيش في بلاط يقدر العلم والأدب، ويعني بتشجيعهما والأخذ بأيدي أصحابها، فغير عجيب أن يجد خلف نفسه مدفوعاً إلى إجادة تثقيف ابنه، وإمداده بطائفة من المعلومات التاريخية الحقيقية والأخبار المؤكدة، وقد انتفع ابنه إلى أقصى حد بهذه الذخيرة النفيسة وضمنها كتبه ومؤلفاته».

استطاع عرب ومسلمو الأندلس أن يشيدوا المساجد والقصور والحدائق والقلاع في مدينة قرطبة؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الفن المعماري له مدلوله الثقافي والاجتماعي. كما أدركوا تماماً أن العناية بالعمارة العربية والإسلامية معناها العناية بالماضي الذي يوجه الحاضر إلى المستقبل المشرق. وعليه يعتبر الفن المعماري بشهادة أبي مروان ابن حيان القرطبي أعظم الفنون التي أنتجتها الحضارة العربية والإسلامية، والحقيقة التي يجب ذكرها هنا أن دقة وروعة العمارة العربية والإسلامية تظهر واضحة في العمارة العربية والإسلامية في المساجد.

وينقل **الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر أن أبا مروان بن حيان القرطبي قال: «وحين فتح المسلمون قرطبة شاطروا أهلها كنيستهم العظمى، كما فعل أبو عبيدة وخالد بأعاجم دمشق، فابتنوا فيها مسجداً، وبقي الشطر بأيدي الروم إلى أن كثرت عمارة قرطبة، وتداولتها بعوث العرب، فضاق المسجد، وعلق منه سقائف، وصار الناس ينالون مشقة لقصر السقائف إلى أن أذخر الله فيه الأجر لصحيفة الداخل، وابتاع الشطر الثاني من النصارى بمئة ألف دينار، وقبضوا على ملأ من الناس».

وخلاصة القول: حاول مؤرخو العرب والمسلمين الأوائل أن يجمعوا معارفهم التاريخية بطريقة أدبية بليغة، لكي يستقطبوا القراء المثقفين لدراستها واستذكارها وعرضها على طلاب العلم، حيث إن طلاب العلم بدورهم يدونون ما يسمعون ويقرؤون لتتناقله الأجيال اللاحقة. من هنا استطاع أبو مروان بن حيان القرطبي أن يسجل معلومات تاريخية على مستوى رفيع جداً وبأسلوب سلس، بهذا تمكن أن يصنف الحياة الاجتماعية والسياسية والمذهبية الدينية والقبلية في الأندلس، علماً بأن الاتجاه القبلي كان لديه ضعيفاً؛ لأنه يرى عدم أهميته. والحقيقة أن ابن حيان القرطبي استفاد من القصص الشائعة والشعر والأدب في جمع مادته التاريخية، لذا صارت مؤلفاته من المصادر الضرورية للباحث في حقل علم التاريخ الإسلامي في الأندلس. كما طور التاريخ الإسلامي كعلم، وبهذا بلور الفكرة التاريخية الإسلامية على شكل لم يتغير على مر العصور الطويلة إلا في التفاصيل المحدودة.

وإن إنتاج أبي مروان بن حيان القرطبي في ميدان علم التاريخ عظيم جداً، وهذا يتضح من مؤلفاته العديدة التي في مقدمتها كتاب (المقتبس في تاريخ الأندلس - في عشر مجلدات) وكتاب (المتين في تاريخ الأندلس - في ستين مجلداً) وكتاب (في تراجم الصحابة). والجدير بالذكر أن الكثير من المؤرخين يخطئون باسم كتاب المتين في تاريخ الأندلس، ويكتبونه كتاب المبين في تاريخ الأندلسي، وعلى رأسهم المؤرخ الشهير مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي، حيث يظهر ذلك في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (المجلد الثاني). والمعروف أن صاحب الترجمة اعتمد في جميع مصنفاته على المصادر الأصلية مستعيناً أحياناً ببعض الروايات التاريخية التي يتناقلها الناس آنذاك.

والمعروف أن أبا مروان ابن حيان القرطبي قد أخذ من كل علم نصيباً وافراً، ولكن اهتمامه الشديد بعلم التاريخ طغى على اهتماماته الأخرى، لذا

أصبح إمام المؤرخين في عصره غير مدافع، وعليه اعتمد كبار المؤرخين في العالم على أعماله في هذا المجال الحيوي؛ لأنها تجمع بين الأمانة والصدق والإتقان. لم يصل أبو مروان بن حيان القرطبي إلى هذه المكانة المرموقة إلا عن طريقين: الأول: ملازمته لوالده خلف الذي عرف بعلمه وفضله وأمانته وخلقه، والثاني: إتعابه نفسه في الانشغال في العلم وكراهيته للفوضى، وصرامته وصراحته في وصف الرجال.

أبو الفضل البيهقي

هو **محمد بن الحسين البيهقي النيسابوري**، يكنى **بأبي الفضل**، ويلقب **بالبيهقي** نسبه إلى مكان ولادته قرية بيهق التي تقع جنوب شرق خراسان، نما وترعرع في بداية حياته العلمية بمدينة نيسابور التي كانت تعج بكبار علماء المسلمين في مختلف فروع المعرفة. لذا تتلمذ على أيدي بعض هؤلاء الأفذاذ في كل من القرآن الكريم وعلومه والحديث والشعر والأدب والتاريخ، ولكنه تفوق بل نبغ في علم التاريخ. اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده، ولكن البعض رأى أنه ولد سنة (٣٨٥ هجرية)، وتوفي سنة (٤٧٠ هجرية). ذاع صيته بين زملائه بذكائه المفرط وحكمته النادرة، لذا اختير أن يكون من رجال الدولة الغزنوية، حيث عُيّن كاتب الإنشاء في هذه الدولة مدة طويلة من الزمن، وخلال هذه الفترة من عمره شغل منصب مكتب الإنشاء الذي يُعتبر مركز المعلومات عن الدولة. لذا كان ينال عناية خاصة من السلاطين الذين عمل معهم لإخلاصه وتفانيه في خدمتهم، ولكن للأسف الشديد حصل في آخر أيام حياته على إهانة وذُل وإضطهاد، لا يمكن وصفه على يد طغرل الذي أخذ السلطة بالقوة من عبد الرشيد الغزنوي بعد قتله وزج جميع أعوانه في السجن والذي كان من بين المسجونين البيهقي. وبعد خروجه من السجن ترك تماماً السياسة وأهلها، وتفرغ لطلاب العلم والبحث والتنقيب والاستقصاء في مجالات عدة من بينها علم التاريخ حتى انتقل إلى جوار ربه.

يقول **صلاح الدين خليل الصفدي** في كتابه آنف الذكر: «محمد بن الحسين البيهقي أبو الفضل الكاتب، كان كاتب الإنشاء في دولة السلطان محمود بن سبكتكين نيابة عن أبي نصر ابن مشكان، وتولى الإنشاء لمحمد بن محمود ثم المسعود بن محمود ثم لمودود ثم للسلطان فرخزاذ، ولما انقطعت دولته لزم بيته إلى أن مات سنة سبعين وأربع مئة، وله كتاب (زينة الكتاب) وتاريخ ناصر الدين محمود بن سبكتكين، وسماه (الناصري) ذكر فيه من أول

دولة محمود يوماً يوماً إلى آخر أيامه وهو في عدة مجلدات. ومن شعره:

جرمي قد أرنى على العذر فليس لي شيء سوى الصبر
فاشتر مني خاطري كله لأنفق الأيام في الشكر

وقال وهو محبوس:

كلما مر من سرورك يوم مر في الحبس من بلائي يوم
ما لبؤس ولا لنعم دوام لم يدم في النعيم والبؤس قوم»

اعتكف أبو الفضل البيهقي في آخر أيام حياته في بيته للدراسة والتأليف، مما جعله يستقصي بكل دقة المعارف الكثيرة التي كانت بين يده بأسلوب سهل ممتنع، وهذا يظهر واضحاً من مؤلفاته التي تناقلها بعض المؤرخين والتي منها: كتاب مقامات أبي نصر مشكان، وكتاب أدب الإنشاء، وكتاب زينة الكتاب، وله شعر جيد، وكتاب تاريخ البيهقي الذي يحتوي على عدة أجزاء باللغة الفارسية. ولقد حصل أبو الفضل البيهقي على سمعة عظيمة من كتابه (تاريخ البيهقي)؛ لأنه موسوعة ضخمة تشتمل على معلومات وملاحظات تاريخية نادرة لم تكن معروفة من قبل. ويمتاز كتاب (تاريخ البيهقي) بالوضوح والأمانة العلمية، لذا قام بدراسته وتحقيقه ونشره في إيران سنة (١٣٠٥ هجرية) محمد أديب البيشاوري، فصار متداولاً في العالم أجمع باللغة الفارسية، ولحسن الحظ تحمس كل من يحيى الخشاب وصادق نشأت، فأخرجاه سنة (١٣٧٦ هجرية) في ثوبه الجديد باللغة العربية، وعليه أصبح هذا الكتاب القيم في متناول الباحثين في ميدان علم التاريخ، كما طبع عدة مرات في لبنان سنة (١٤٠٣ هجرية). وهذا صار لا تخلو مكتبة في العالم منه الآن.

وخلاصة القول: ركّز رجال الدولة على تقريب المؤرخين الموهوبين منهم وضمهم إلى موظفي دواوينهم، وذلك لاعتقادهم بسعة ثقافتهم وإحاطتهم بالأحداث التاريخية التي معرفتها يمكن أن تكون عوناً لولاة الأمر على اتخاذ القرار

المناسب الناجح، لذا اهتم مؤرخو العرب والمسلمين اهتماماً بالغاً بتقوية صلاتهم بالسلاطين والحكام في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وذلك ليسهلوا مهمتهم في الدراسة والبحث. وعليه اتجه أبو الفضل البيهقي إلى العمل مع سلاطين الدولة الغزنوية، لكي يحصل على المعلومات الضرورية للقيام بتأليف كتابه (تاريخ البيهقي)، الذي يحتوي على معلومات أولية وأصيلة عن الدولة الغزنوية ورجالها من مفكرين وسياسيين واقتصاديين وتربويين. والحقيقة أن جميع مؤلفات أبي الفضل البيهقي تمتاز عن غيرها من مؤلفات علماء العرب والمسلمين باحتوائها على أسس واضحة لا لبس فيها من حيث المنهج والمحتوى والأسلوب وطريقة العرض. وقد اشتهر أبو الفضل البيهقي بين زملائه بقدرته العجيبة على تصحيح وتنقيح وترميم المعارف التي حصل عليها من هنا وهناك.

ولقد عرف أبو الفضل البيهقي برجاحة عقله وقدرته على التعبير وفصاحته عند التحدث وحبه للعلم وطلابه، لذا كان دائماً يحاول أن يلتقي بكبار العلماء بمدينة نيسابور لكي يأخذ من كل علم نصيباً وافراً، وعليه تمكن أبو الفضل البيهقي من تطوير أسلوب رائع في كتابه (تاريخ البيهقي) يتصف بالسهولة والوضوح بجانب عمق ما يتناوله من أفكار وآراء تاريخية وخاصة التي تتعلق بالدولة الغزنوية، فعطاؤه التاريخي طويل وكبير.

ويتضح للقارىء مما تقدم أن أبا الفضل البيهقي حاز على شهرة عظيمة عبر التاريخ بواسطة كتابه الذي بعنوان (تاريخ البيهقي) والذي يضم بين دفتيه أحسن وأوفى الأفكار التاريخية، وخاصة التي تخص الدولة الغزنوية. لقد كتب كتابه هذا على منهج مرسوم بطريقة استقرائية خلابة، لذا يعتبر هذا الكتاب فيما يتعلق بالدولة الغزنوية في نهاية الجودة والإتقان. كما أجمع المؤرخون على أن المعلومات التي عرضها البيهقي في كتابه (تاريخ البيهقي) تدل على ما كان عليه من العلم وعلو المنزلة.

علي بن ماكولا

هو **علي بن هبة ا لله بن علي الجرياذقاني بن ماكولا**، كنيته **أبو نصر** وأحياناً يدعى **بالأمير الحافظ**، ولقبه **ابن ماكولا**، ولا يعرف لماذا أعطي هذا اللقب الغريب، ولُقب بالجرياذقاني، لأنه ينتمي لبلدة جرذقان المعروفة الواقعة بين همدان وأصفهان. اختلف المؤرخون كثيراً في تاريخ ولادته، ولكن المتفق عليه عند الكثير أنه ولد سنة (٤٢١ هجرية) بعكبرا القريبة من بغداد، نشأ وترعرع في بيئة علم وجاه ببغداد، فوالده أبو القاسم هبة ا لله كان وزيراً لجلال الدولة بن بويه، وعمه أبو عبد ا لله الحسن كان قاضي القضاة ببغداد،من هنا نما وقلبه متعلق في كل من العلوم الشرعية والتاريخية والأدبية.

تلقى أبو نصر علي بن ماكولا تعليمه على أيدي كبار المفكرين ببغداد، فبرع في كل من علم التاريخ والحديث والأدب والشعر والنحو، كما جال في الآفاق لطلب العلم، فزار كلاً من بلاد الشام ومصر وما وراء النهر وخراسان وغيرها، ولكنه في النهاية قتل بخورستان عن عمر يناهز ٥٤ سنة (أي سنة ٤٧٥ هجرية) بواسطة رجال من مماليكه الأتراك طمعاً بماله الذي نهبوه وهربوا به، وراح دمه هدراً. والجدير بالذكر أن هناك بعض المؤرخين يرون أنه قتل بخراسان. والحقيقة المرة أن الأمة الإسلامية خسرت عالماً مرموقاً من كبار علماء التاريخ الذين كانوا مغرمين بتتبع تراجم الأعلام والكتابة عنها.

يقول **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر: «علي بن هبة ا لله بن ماكولا، وهو ابن الوزير أبي القاسم هبة ا لله بن ماكولا وزير جلال الدولة البويه. وكان عمه أبو عبد ا لله الحسن بن جعفر قاضي القضاء ببغداد، يلقب بالأمير من بيت الوزارة والقضاء والرياسة القديمة، كان لبيباً عارفاً عالماً ترشح للحفظ، حتى كان يقال له الخطيب الثاني.. وكان نحوياً مجوداً وشاعراً مبرزاً جزل الشعر فصيح الكلام صحيح النقل، ما كان في البغداديين في زمانه مثله،

وسافر إلى الشام والسواحل وديار مصر والجزيرة والثغور والجبال ودخل بلاد خراسان وما وراء النهر وطاف في الدنيا وجول في الآفاق.. ورجع إلى بغداد، فأقام بها ثم خرج إلى خورستان، فقتل هناك. كان في صحبته جماعة من مماليكه الأتراك».

كان الخلفاء والوزراء يقربون الشعراء في كل عصر لأغراض سياسية تلذذاً بالشعر وآدابه، لذا أعطى أبو نصر علي بن ماكولا هذا الحقل الحيوي حقه كاملاً، ويظهر ذلك مما نقله محمد بن شاكر الكتبي في كتابه آنف الذكر من شعره:

ولما تفرقنا تبارت قلوبنا ... فممسك دمع عند ذاك كساكبه

فيا نفسي الحرى البسي ثوب حسرة ... فراق الذي تهوينه قد كساك به

كان أبو نصر علي بن ماكولا من النابغين ليس فقط في علم التاريخ، ولكن أيضاً في سائر العلوم، وهذا يظهر واضحاً من إسهاماته القيمة، فمن كتبه التي نوه عنها أعداد كبيرة من المؤرخين للحضارة العربية والإسلامية هي: كتاب الإكمال في رفع الارتياب عن المختلف والمؤتلف لا سيما الكنى والأنساب، وكتاب في علم الحديث، وكتاب الوزراء، وكتاب مستمر الأوهام على المؤتلف والمختلف من أسماء الأعلام، وكتاب مفاخر القلم والسيف والدينار، وكتاب تكملة الإكمال، وله شعر جيد وغيرها.

وخلاصة القول: عني علماء المسلمين بعلم التاريخ عناية عظيمة فألفوا فيه كتباً كثيرة جداً، وذلك عائد لرغبتهم وحرصهم على معرفة كل من سيرة صفوة الخلق رسول الله ﷺ وأخبار الخلفاء والملوك والأمراء وأخبار الفتوحات الإسلامية والحوادث التاريخية المثيرة بأسانيدها العلمية الدقيقة، لذا اتجه أبو نصر علي بن ماكولا في آخر أيام حياته إلى دراسة علم التاريخ فأنتج إنتاجاً رائعاً فيه، وذلك نتيجة طوافه في مدن العالم الإسلامي المشهورة بدورها في ميدان علم

التاريخ واجتماعه بكبار المفكرين فيها، حيث نقل عن علمائها معلوماته التاريخية النادرة التي طورها ونقحها وأبرزها للملأ عبر مؤلفاته العديدة التي صارت من أهم المراجع للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ.

وكانت مكانة عائلة أبي نصر علي بن ماكولا الاجتماعية والسياسية والعلمية المحرك الرئيسي لحرصه على التحصيل العلمي، حيث تمكن بعقله الثاقب وحكمته النيرة أن يستخدم علاقات والده الوزير وعمه قاضي القضاة في جمع المعلومات الهامة من المصادر الرئيسة المتاحة حينئذ ببغداد. كما أقام أيضاً علاقات علمية متينة بينه وبين جهابذة الفكر ليس فقط في العراق، ولكن في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

وعندما استقر أبو نصر علي بن ماكولا ببغداد بعد طوافه الطويل حول جميع المراكز العلمية الإسلامية، وجمعه المعارف الجمة في مختلف فروع المعرفة، قرر أن يتفرغ للكتابة والتأليف في كل من علم التاريخ والنحو والأدب والحديث، لذا أثرى بجدارة المكتبة الإسلامية في إنتاجه الغزير. وعليه ذاع صيته في جميع أنحاء دار السلام (بغداد) فأكرمه أهلها وأجلوه، وبقي بينهم كالقنديل ينير لطلاب العلم والباحثين الطريق السوي، والفضل كله يعود لوالده الذي نمّى عنده حب المجالسة والسماع إلى العلماء منذ طفولته، حيث كان يقضي الابن معظم وقته في ريعان شبابه في المسجد والمدرسة للسماع إلى أحاديث ومناقشات العلماء.

محمد الطرطوشي

هو **محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بـن أيوب الفهري القرشي الأندلسي**، يكنى **بأبي بكر**، ويلقب **بابن أبـي رندقة والطرطوشي**، ولد ونشأ وترعرع وتلقى تعليمه في مدينة طرطوشة الأندلسية، وهي مدينة عامرة في شـرق الأندلس وتقع في سفح جبل، وعرفت بخشب الصنوبر وبمركزها التجاري وجمالها وقربها من البحر الأبيض المتوسط. عاش بين (٤٥١ ـ ٥٢٠هـ) وزار كلاً من مدينة سرقسطة ومدينة إشبيلية. وفي عام (٤٧٦ هجرية) أدى مناسك الحج ومر بكل من بغداد والبصرة والشام والقدس، واستوطن الشام مدة من الزمن، فكان طلاب العلم يأتون من جميع أنحاء الدولة الإسلامية للتتلمذ على يديه هناك، ولكنه ما لبث أن انتقل إلى مصر واستقر في مدينة الإسكندرية الجميلة التي كانت تعج بالعلماء، وبقي فيها حتى توفي سنة (٥٢٠ هجرية). واشتهر بين زملائه بسعة ثقافته، حيث تفنن بكل من علم التاريخ والأدب والعلوم الشرعية (الفقه) والحساب. كما كان رحمه الله يمتاز بالزهد والورع وقول الحق والرضا بالقليل. وعرف أيضاً بحبه للأقاصيص العربية والنوادر العلمية الممتازة.

يقول **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان** في كتابه آنف الذكر: «كان أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي إماماً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً ديناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير، وكان يقول: إذا عرض لك أمران أمر دنيا وأمر أخرى، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى، وكان كثيراً ما ينشد:

إن لله عباداً فطنا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا

فكّروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا

جعلوها لجّة واتّخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا»

ولأبي بكر محمد الطرطوشي مواقف جريئة تدل على شجاعته ومكانته العلمية التي احتلها بين زملائه، وهذا يظهر واضحاً وجلياً من نصيحته التي قدمها للأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، والتي دونها الشيخ **أحمد بن محمد المقري التلمساني** في كتابه «نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب» ـ المجلد الثاني ـ: «ودخل أبو بكر الطرطوشي مرة على الأفضل ابن أمير الجيوش وهو ملك مصر فوعظه، وقال له: إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله عز وجل سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، واعلم أن الله عز وجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عز من قال: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ [ص٣٩] فما عد ذلك نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عز وجل. فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ [النمل ٤٠] فافتح الباب، وسهل الحجاب وانصر المظلوم».

عرض أبو بكر الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك» الواجبات والفضائل التي يجب أن يتحلى بها الملوك وولاة الأمر في العالم حينئذ، كما بلور فيه بأسلوب رائع ومنهج دقيق سير الأنبياء عليهم السلام وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء، وأهداه للمأمون البطائحي الوزير الفاطمي الذي أكرمه إكراماً يليق بمكانته العلمية المرموقة. ويذكر الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني في كتابه آنف الذكر: أن أبا بكر محمد الطرطوشي كتب على كتابه «سراج الملوك» الذي أهداه لولي الأمر بمصر:

الناس يهدون على قدرهم   لكنني أهدي على قدري

يهدون ما يفنى وأهدي الذي   يبقى على الأيام والدهر

لقد التزم أبو بكر محمد الطرطوشي بالمنهج التاريخي الذي أسسه المؤرخون المسلمون والذي يعتمد على العدالة، لذا أهدى كتابه «سراج الملوك» للمأمون البطائحي؛ لأنه يرى في ذلك خدمة لأمته. ويذكر **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: أن أبا بكر الطرطوشي علل هذا الإهداء بقوله: «إن العلم عصمة الملوك والرؤساء ومعتقل السلاطين والوزراء؛ لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله».

وللأسف الشديد أن مؤلفات أبي بكر محمد الطرطوشي ضاع معظمها، فلم يبق منها إلا كل من كتاب الطريقة في الخلاف والجدل، وكتاب الحوادث والبدع، وكتاب الدعاء، وكتاب مختصر تفسير الثعالبي، وكتاب بر الوالدين، وشرح رسالة ابن أبي زيد. ولكن شهرته في العالم أجمع تعود إلى كتابه القيم «سراج الملوك» الذي قال عنه علي أدهم في كتابه الذي سبق ذكره: أما كتاب «سراج الملوك» لأبي بكر محمد الطرطوشي فهو كتاب حافل بالأخبار الشائعة، والنوادر الطريفة، والقصص الممتعة، والنظرات السديدة والملاحظات القيمة والحكم الجامعة، وهو ثمرة تجربته المستفيضة وعلمه الغزير، واطلاعه الواسع، وتضلعه من التاريخ والفقه والشريعة والآداب الإسلامية. وقد قسم الكتاب على أربعة وستين فصلاً، فالباب الأول مثلاً: في مواعظ الملوك، والباب الثاني: في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وعقد فصلاً لمنافع السلطان ومضاره، وفصلاً آخر لمعرفة الخصال التي هي قواعد السلطان. واختص الوزراء بأحد الأبواب، وتكلم عما يصلح الرعية من الخصال، وعن علاقة السلطان بالجند وبيت المال، وما إلى ذلك من الموضوعات التي تتصل بسياسة الملك وتدبير أمور الرعية.

تميز أبو بكر محمد الطرطوشي بمقدرته المنقطعة النظير على تقصي

والتماس العلل والأسباب للأحداث التاريخية التي كان يكتب عنها، ويظهر ذلك واضحاً وجلياً في كتابه «سراج الملوك» الذي طبع في بولاق سنة (١٢٩٨هـ) وأعيد طبعه بدون تحقيق عدة مرات، ولكن طبعة المكتبة العربية بالقاهرة التي تمت عام (١٣٤٤هـ) كانت أكثر انتشاراً من الطبعات الأخرى. والحق أن لكتاب «سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي شأناً عظيماً في عالم الفكر والارتقاء التاريخي، حيث يحتوي على معلومات نادرة وأصيلة، ليس فقط في مجال علم التاريخ، ولكن أيضاً في المجالات الأخرى.

كان أبو بكر محمد الطرطوشي يجمع العلم من أطرافه المتناثرة ويبذل في سبيل ذلك كل غال، فكانت حياته مليئة بالتعلم متميزة بالاجتهاد والصدق والأمانة. وهكذا احتل مكانة عالية جداً بين المفكرين المسلمين الذين قامت الحضارة الإسلامية على أكتافهم. والمتواتر أنه كان شاعراً ملهماً ومرهف الحس، ويظهر هذا من الأبيات التي نقلها عنه انجل جنثالث بالنثيا في كتابه آنف الذكر وهي:

أقلب طرفي في السماء ترددا ... لعلي أرى النجم الذي أنت تنظر

وأستعرض الركبان من كل وجهة ... لعلي بمن قد شم عرفك أظفر

وأمشي ومالي في الطريق مآرب ... عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر

وألمح من اللقاء من غير حاجة ... عسى لمحة من حسن وجهك تسفر

وخلاصة القول: كان لفقهاء الدين الإسلامي دور عظيم في دراسة الأحداث التاريخية ليس فقط في بلاد الأندلس، ولكن في جميع أرجاء الدولة الإسلامية آنذاك؛ لأن الهدف من دراسة الظواهر التاريخية خدمة الإنسان ومساعدته لتحقيق ذاته. وعليه بلغ علم التاريخ درجة عالية جداً من التقدم على يد علماء الأندلس. وقد أثبت أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي أن علم التاريخ تراث إنساني هائل شاركت فيه شتى الأمم، حيث أخذ بعضها من بعض واعتمد

بعضها على بعض، ولكن المعروف أن الأمة العربية والإسلامية هي التي عملت بكل جد واجتهاد على إبراز معالمه ومنهجه الحقيقيين.

ولقد كان **أبو بكر محمد الطرطوشي** حسن المعرفة جيد القريحة، لذا حاول بكل جدية أن يطور طريقة علمية بها تتقابل السياسة والأخلاق، كما جمع أقوالاً كثيرة لعلماء العرب والمسلمين الأوائل والحكماء الفرس والروم، كان لها أكبر الأثر على تقدم علم التاريخ، وعليه تمكن أبو بكر محمد الطرطوشي من وضع الحقائق التاريخية في قالب مفهوم، لذا لقيت كتاباته في مجال علم التاريخ إقبالاً عظيماً من الدارسين والباحثين.

ذاع صيت أبي بكر محمد الطرطوشي بين معاصريه لقوة ذاكرته وجودة فهمه وتفكيره المستقل، ومثابرته على البحث والاستقصاء، مما جعله صاحب علم غزير ومعرفة جيدة وثقة بالنفس وعلو همة، وفوق هذا كله كان حراً في تفكيره وعطائه، وصريحاً في إبداء رأيه، وعزوفاً عن الدنيا، وزاهداً بها، ومتقشفاً، وقانعاً باليسير، لذا حصل على إعجاب كبار المفكرين في العالم الإسلامي، وظفر بتقديرهم العالي، من هنا نفذ بإنتاجه العلمي المتنوع إلى الجواهر واللباب.

كان أبو بكر محمد الطرطوشي صاحب أسلوب عربي أصيل جمع فيه بين السهولة والجزالة والوفاء والإجادة في العرض والتنسيق ومراعاة الدقة في تسجيل الأحداث بأنواعها المختلفة، وهذا نتيجة اطلاعه الواسع على الأدب وأشعار العرب. أما كتاباته التاريخية فكانت عبارة عن قنديل. تضيء كل الجوانب المظلمة لعلم التاريخ، وبهذا نستطيع القول الآن: إن أبا بكر محمد الطرطوشي مهد الطريق لمن جاء بعده من كبار المؤرخين.

الفتح بن خاقان الإشبيلي

هو **الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي**، يكنى **بأبي النصر**، ويعرف **بابن خاقان**. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه نشأ وترعرع في مدينة إشبيلية. مات قتيلاً في مراكش عام (٥٢٥ هجرية). نبغ أبو النصر ابن خاقان في مجال النقد الأدبي، ولكن يؤخذ عليه تفصحه الشديد واستخدامه الألفاظ الصعبة النادرة الاستعمال. وعرف بين زملائه بذاكرته اليقظة وقريحته الشعرية المتأججة، فهو بلا شك أديب وشاعر ومؤرخ، يحب الأسفار للعلم وللحوار مع جهابذة الفكر في العواصم الإسلامية.

وينقل **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان** في كتابه آنف الذكر كلام الحافظ أبي الخطاب ابن دحية عن أبي النصر ابن خاقان في كتابه المشهور «المطرب من أشعار أهل المغرب»: «إني لقيت جماعة من أصحابه وحدثوني عنه بتصانيفه وعجائبه، وكان مخلوع العذار في دنياه. لكن كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال، قتل ذبحاً في مسكنه بفندق لبيب (أحد فنادق مراكش الخنوية) من حضرة مراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمس مئة، رحمه الله تعالى، وأن الذي أشار بقتله أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين»، والمتواتر أن أمير المسلمين هذا هو أخ لأبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف له الفتح بن خاقان كتابه «قلائد العقيان»، وتحدث عن فضله في مقدمة الكتاب، وعليه نال الفتح بن خاقان مكافأته. وهناك بعض المؤرخين يرى أن الخلاف والتنافس الذي كان بين الأخوين كان الفتح بن خاقان من ضحاياه.

جمع بكل جدارة الفتح بن خاقان مجموعة كبيرة من الأدباء والشعراء والعلماء المغاربة، وتكلم عن سيرة كل واحد منهم بطريقة علمية تخضع للمنهج العلمي النزيه، ولم يكتف بهذا بل كتب أيضاً عن موضوعات مختلفة،

بها استطاع أن يبلور ثقافته الواسعة لقرائه وذكر **إسماعيل باشا البغدادي** في كتابه آنف الذكر بعض مصنفاته ومنها:

١ ـ بداية المحاسن وغاية المحاسن في مجموع مراسلاته.

٢ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان.

٣ ـ كنز الفوائد.

٤ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس.

٥ ـ أخبار شعراء المغرب.

نال الفتح بن خاقان احترام وتقدير المعتمد بن المعتضد بن عباد (٤٣٢ ـ ٤٨٩هـ) حاكم إشبيلية الذي كان من المغرمين في الشعر، ومن أقرب الناس إلى كل من الشعراء والأدباء والمؤرخين، لذا تمكن الفتح بن خاقان أن يحتل مكانة مرموقة بين معاصريه. وقد نوه الفتح بن خاقان عن حظوة حاكم إشبيلية حينئذ بأسلوب رائع سلس، نقله **إنجل جنثالث بلنثيا** في كتابه «تاريخ الفكر الأندلسي» (نقله من الإسبانية إلى اللغة العربية حسين مؤنس): «ملك قمع العدا، وجمع البأس والندا، وطلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه، آونة يراعه وآونة سنانه، وكانت أيامه مواسم، وثغور بره بواسم، ولياليه كلها درر، وللزمان أحجال وغرر، لم يغفلها من سمات عوارف، ولم يضحلها من ظل إيناسٍ وارف، ولا عطلها من مآثرة بقي أثرها بادياً، ولقي معتفيه منها إلى الفضل هادياً، وكانت حضرته مطمحاً للهمم، ومسرحاً لآمال الأمم، وموقفاً لكل كمي، ومقذفاً لذي أنف حمي، لم تخل من وفد، ولم يصح جوهاً من انسجام رفد، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماة، ومشاهير الحماة، أعداد يغص بهم الفضاء، وأنجاد يزهى بهم النفوذ والمضاء، وطلع في سمائه كل نجم متقد، وكل ذي فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان. وغاية لرمي هدف البيان، ومضماراً لإحراز خصل في كل معنى وفضل».

لقد كان للفتح بن خاقان دور عظيم في الشعر العربي، فقد عرف بحسه المرهف، حيث ترك وراءه رصيداً غنياً من الشعر، صار يتناقله المؤرخون لماله من تأثير عظيم على العقلية العربية، كما أعجب أحمد بن محمد المقري التلمساني بشعره الغزير فأورد في كتابه آنف الذكر أبياتاً له في المدح:

إلى أين ترقى قد علوت على البدر وقد نلت غايات السيادة والقدر

وجدت إلى أن ليس يذكر حاتم وأغنيت أهل الجدب عن سبل القطر

وكم رام أهل اللوم باللوم وقفة وبحرك مد لا يؤول إلى جزر

ولو لم يكن فيك السماح جبلة لأثر ذاك اللوم فيك على الدهر

وخلاصة القول: كان علماء العرب والمسلمين في الأندلس متعطشين إلى تدوين أخبار الغزوات والحوادث الهامة من شخص متخصص. لذا قام مجموعة من المؤرخين الموهوبين بتسجيل ذلك بطريقة نزيهة، وكان من بينهم الفتح بن خاقان الذي عرف بجديته وصدقه في القول. من هنا أبرز في كتابيه «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس» حقائق تاريخية نادرة، استفاد منها التابعون له. والجدير بالذكر أن الفتح بن خاقان نال شهرة عظيمة بين قادة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية من خلال كتابيه المذكورين آنفاً.

وكان الفتح بن خاقان مؤرخاً مطبوعاً وأديباً موهوباً، حاول الابتعاد عن الإسهاب والتكلف في عرض أفكاره الأدبية والتاريخية، علماً أنه معروف عنه حبه لاستخدام بعض الألفاظ والمصطلحات اللغوية نادرة الاستعمال، وهذا يدل على غزارة محصوله اللغوي وثقافته العالية في علم التاريخ الخاص في أيام العرب المشرقة، كما ذاع صيته بين معاصريه لتصوره البديع في معظم كتاباته التاريخية التي تتبع فيها أخبار الماضي.

وأخيراً نستطيع القول: إن الفتح بن خاقان أسدى خدمات جليلة للأجيال اللاحقة له في جميع مصنفاته التي تتسم بالدقة والوضوح والأمانة

العلمية، فلم ينتحل لنفسه شيئاً قاله غـيره، بـل تقيـد بـالمنهج العلمـي، حيـث نسب كل شيء نقله إلى صاحبه وأرجعه إلى مصدره. والجدير بالذكر هنا أنه تجنب السرد وركز على الإضافة والتحليل والتطويـر في علـم التـاريخ معتمـداً بذلك على تجاربه وخبرته وعلاقاته القويـة بكبـار المؤرخـين في العـالم. وعليـه يقف الفتح بن خاقان عملاقاً بين المؤرخين الذين صنعوا تاريخ الأندلس.

علي بن بسام الشنتريني

هو **علي بن بسام الأندلسي**، يكنى **بأبي الحسن**، ويلقب **بالشنتريني** نسبة لمسقط رأسه مدينة شنترين التي تقع الآن في بلاد البرتغال. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه توفي سنة (٥٤٢ هجرية). نما وترعرع في مدينة شنترين التي خرج منها عنوة وقهرة بواسطة أعداء الله ـ النصارى الماكرين ـ الذين استولوا على المدينة بالقوة ومن ثم إلى مدينة قرطبة آخر معقل للمسلمين هناك، التي كانت تعج بعلمائها المرموقين. والجدير بالذكر أن مدينة شنترين كانت من أول المدن التي احتلها النصارى الغاصبون؛ لأنها تقع على الحدود التي كان يصعب تماماً المحافظة على أمنها واستقرارها. وللمعلومة فإن الفترة التي وقعت فيها مدينة شنترين بيد النصارى كانت فترة تمزق الدولة الإسلامية في الأندلس.

يعتبر علي بن بسام من كبار المفكرين في الأندلس، متقناً بارعاً في معظم فروع المعرفة، ولكنه كان من فرسان كل من علم التاريخ والأدب وله فيها اليد الطولى، وله مصنفات عديدة لم يبق الدهر إلا كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة».

ألف أبو الحسن علي بن بسام كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» سنة (٥٠٢ هجرية) والحزن يمزق أحشاءه، لذا خرج هذا الكتاب القيم معبراً عن إحساس عالم حرم من بلده الغالي. نال ابن بسام شهرة عظيمة من كتابه هذا؛ لأنه صار من المراجع الهامة جداً للباحثين في شؤون بلاد الأندلس وأهله؛ لأن مادته تشتمل على قدر عظيم من المعلومات الجيدة الهامة عن تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس. ويمتاز هذا الكتاب أنه كتب بأسلوب شاعري جميل، والمشهود لأبي الحسن علي بن بسام أنه يمتلك القدرة على التصور الواضح للعالم، وذلك بسبب اطلاعه الواسع على كل من علم التاريخ

والأدب. ويذكر **خير الدين الزركلي** في قاموسه «تراجم الأعلام» ـ الجزء الخامس ـ : أن ابن بسام أديب، ومن الكتاب الوزراء، وعرف بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الذي يقع في ثمانية مجلدات تشتمل على ١٤٥ ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم أو تقدموه قليلاً.

وخلاصة القول: تفرض الأمانة العلمية على الباحث في مجال علم التاريخ لبلاد الأندلس أن يعترف أن علماء العرب والمسلمين في الأندلس استفادوا في دراستهم لعلم التاريخ من المقاييس التاريخية التي كانت معروفة لدى الأندلسيين قبل دخولهم في الدين الإسلامي، وذلك من حيث تنسيق المعلومات وتبويبها. ولكنهم في نفس الوقت اعتمدوا اعتماداً كبيراً على علماء العرب والمسلمين في المشرق في عرض أفكارهم وآرائهم التاريخية وكبح الافتراضات العشوائية، وعليه تفنن مؤرخو العرب والمسلمين في الأندلس في سبر الأغوار والبحث عن المعاني الدقيقة، حيث غزا علم التاريخ جو الحياة الإسلامية في الأندلس من أدناها إلى أقصاها، لذا تفجرت الطاقات الكامنة والمواهب الخلاقة في فترة قصيرة من الزمن. ومن هنا نبغ أبو الحسن علي بن بسام في كل من علم التاريخ والأدب وغيرهما.

كان للمؤرخين في المشرق العربي مكانة مرموقة ونكهة خاصة عند الأندلسيين حينئذ، لذا رأى أبو الحسن علي بن بسام أن ينوه عن ذلك في كتاباته التاريخية والأدبية، ولكنه حاول وبكل جدية إبراز علماء بلاده الأندلس، وهذا يظهر واضحاً مما قاله في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»: «إن أهل هذا الأفق (الأندلسيين) أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، لا يعمر بها جنان ولا خُلد، ولا يصرف فيها لسان ولايد. فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما

هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهـري، وتتبـع محاسـن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعـود بـدوره أهلـه، وتصبـح بحاره ثماداً مضمحلة، مع كثرة أدبائـه، ووفـور علمائـه، وقديمـاً صنعـوا العلـم وأهله، ويارب محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري مـن قصـر العلـم علـى بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان؟».

وكان أبو الحسن علي بن بسام يتحرى صحة المعلومات التاريخية والأدبية التي كان يستخدمها في كتاباتـه الأصليـة، فقـد كـان دائمـاً يحـاول أن يـأخذ الأخبار من مصادرها الأولية؛ لأنه يؤمن إيماناً قوياً في المنهـج التـاريخي النزيـه. والحق أنه كان مؤرخاً عظيماً تميز بصراحته وبتواضعه واعتدالـه، وعـرف بـين زملائه بصدقه وشدة تحريه للحقيقة، واستقلاله في الرأي في وصف الأشخاص الذين كان يكتب عنهم، علماً أن المتواتر عنه بين المؤرخين في المعمورة أن من الدوافع الرئيسة التي دفعته إلى تأليف كتابه «الذخيرة في محاسن أهـل الجزيـرة» النزعة القومية التي كانت متأصلة في نفسه، كما اشتهر بمواقفه الوطنية الجريئـة حيال مسقط رأسه بلاد الأندلس.

بذل أبو الحسن علي بن بسام جهداً كبيراً في جمع أخبار الملـوك والأمـراء والرؤساء والعلماء البارزين الذين كتب عنهم، وذلك ليقـدم دراسـة متكاملـة عـن الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة والتربويـة والعلميـة لبـلاد الأندلس. وللأسف الشديد أن معظم المؤرخين في العالم لم يذكروا أبا الحسـن علي بن بسام مع مجموعة المؤرخين الذين أرخوا لهـم، علـى الرغـم مـن أنهـم نقلوا الكثير من معارفهم التاريخية والأدبية الخاصة في بلاد الأندلس عن طريـق كتابه النادر «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الذي خلد اسم أبي الحسن علي ابن بسام، وهكذا بقي صاحب الترجمة مجهولاً لأبناء جلدته.

الحافظ ابن عساكر

هو **علي بن الحسن بن عبد الله بن هبة الله بن عساكر الدمشقي**، كنيته **أبو القاسم**، ويدعى أيضاً **بثقة الدين**، ولقبه الذي اشتهر به **ابن عساكر**، وإن كان يسمى في بعض الأحيان بالدمشقي. والجدير بالذكر أن اسم ابن عساكر اختص به الحافظ نفسه فقط؛ لأنه لم يثبت أن أحد أفراد عائلته كان يحمل هذا اللقب. نما وترعرع أبو القاسم علي بن عساكر في بيئة علمية محافظة، وعرفت عائلته بالعلم، حيث تفنن أفرادها بكل من الحديث والفقه. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن التحريات توحي أنه ولد بمدينة دمشق سنة (٤٩٩هـ) وقد بدأ بالسماع إلى كبار العلماء في سن مبكر جداً في المساجد التي كانت المراكز الرئيسة لنشر العلم والثقافة. حفظ القرآن الكريم وتلقى السيرة النبوية في باكورة حياته، وبدون شك أن كلاً من القرآن الكريم والسيرة النبوية يعتبران المصدر الأول لدراسة علم التاريخ الذي تفوق فيه الحافظ ابن عساكر.

توفي والد الحافظ ابن عساكر، والابن في سن الحادية والعشرين، مما جعله يعزم بعد فراق أبيه على الرحلات العديدة لطلب العلم من مصادره المعروفة آنذاك مثل بغداد ومكة المكرمة والمدينة المنورة والكوفة وأصبهان ومرو ونيسابور وهراة وسرخس وأبيورد وطوس والري وزنجان وغيرها من البلدان الإسلامية. ونتيجة لزياراته العديدة لجهابذة الفكر في هذه المدن الإسلامية تميز في كل من الحديث والفقه والتاريخ. ولقد طار صيته بين أكابر العلماء والمفكرين بعلم التاريخ، والمتواتر أنه بقي يتنقل بين المراكز الإسلامية لمدة ثلاثة عشر عاماً، وأخيراً استقر بمدينة دمشق وكان عمره يومئذ لا يتجاوز الرابعة والثلاثين سنة. وهناك انصرف تماماً إلى التأليف والتدريس إلى أن توفي بمدينة دمشق سنة (٥٧١ هجرية). والحقيقة الواضحة أن حياة الحافظ ابن عساكر كانت حافلة بالحماس وطلب العلم والتأليف والتدريس، لذا لا

عجب أن يحصل على قصب السبق لكل من علم التاريخ والحديث والفقه على زملائه المعاصرين له.

ويصف **تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي** ثقة الدين أبا القاسم علي بن عساكر في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى» ـ الجزء السابع ـ بقوله: «هو الشيخ الإمام ناصر السنة وخادمها، وقامع جند الشيطان بعساكر اجتهاده وهادمها، إمام أهل الحديث في زمانه، وختام الجهابذة الحفاظ، ولا ينكر أحد منه مكانة مكانه، محط رحال الطالبين، وموئل ذوي الهمم من الراغبين، الواحد الذي أجمعت الأمة عليه، والواصل إلى ما لم تطمح الآمال إليه والبحر الذي لا ساحل له، والحبر الذي حمل أعباء السنة كاهله، قطع الليل والنهار دائبين في دأبه، وجمع نفسه على أشتات العلوم، لا يتخذ غير العلم والعمل صاحبين وهما منتهى أربه، حفظ لا تغيب عنه شاردة، وضبط استوت لديه الطريفة والتالدة، وإتقان ساوى به من سبقه إن لم يكن فاقه، وسعة علم أثرى بها وترك الناس كلهم بين يديه ذوي فاقة».

وتمتاز مؤلفات الحافظ ابن عساكر المتنوعة أنها حفظت للباحثين المادة التاريخية التي أتى على مصادرها الضياع. وقد نوّه المؤرخون الكبار في العالم عن بعضها ومنها على سبيل المثال لا الحصر، تاريخ مدينة دمشق وأخبارها وأخبار من حلها، وكتاب تبين الامتنان في الأمر بالاختتان، وكتاب التالي لحديث مالك الغالي، وكتاب المعجم لمن سمع منه أو أجاز له، وكتاب مناقب الشباب، وكتاب تاريخ المزة، وكتاب المسلسلات، وكتاب الأحاديث الخماسيات، وكتاب معظم الصحابة، وكتاب تقوية المنة على إنشاء دار السنة، وكتاب معجم النسوان، وكتاب تهذيب الملتمس من عوالي مالك بن أنس، وكتاب الجواهر واللآلي في الأبدال العوال، وكتاب فضل عاشوراء والمحرم، وكتاب الاعتزاز بالهجرة، وكتاب معجم أسماء القرى والأمصار،

وكتاب القول في حملة الأسانيد، وكتاب الاقتداء بالصادق في حفر الخندق، وكتاب الإنذار بحدوث الزلازل، وكتاب فضل الجهاد، وكتاب معجم الشيوخ والنبلاء وغيرها الكثير.

وخلاصة القول: لقد قدمت سلطة السلاجقة خدمة عظيمة للدين الإسلامي، ووصلت ذروتها في أيام السلطان السلجوقي ملكشاه المتوفى سنة (٤٨٥هجرية)، ولكن بعد موته حصل انقسام وتناحر على السلطة أدى ذلك إلى إقامة ممالك ضعيفة متنافسة خلقت جواً مظلماً مملوءاً بالفوضى وعدم الاستقرار، لذا أصبح هذا الوضع المتدهور مدخلاً واسعاً لأعداء الإسلام. وقد عاصر الحافظ ابن عساكر تمزق سلطة السلاجقة، مما دفعه إلى العمل في ميدان علم التاريخ؛ لكي يوضح لمعاصريه مكانة الحضارة العربية والإسلامية التي احتلتها بين الأمم ليقتدوا بذلك ويتركوا المنازعات والخلافات الهامشية التي كانت من أسباب انقراض الدول والحضارات، كما كان يحث دائماً على التجمع والوحدة تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، بهذا المنهج الرائع صار الحافظ ابن عساكر من كبار مؤرخي الأمة العربية والإسلامية.

ولقد أحاط أبو القاسم علي بن عساكر بعلوم عصره جيداً، حيث كان قارئاً متأنياً وكاتباً متأملاً، وكان يرى في البحث والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات، وعليه أجاد إجادة عظيمة في عرض الحقائق التاريخية بأسلوب تحليلي استقرائي مشوق ومؤثر وبليغ، والمعروف عنه بين معاصريه أنه كان شغوفاً ومغرماً بكل من العلوم الشرعية وعلم التاريخ وجمع الكتب، لذا لا عجب إذا برع في كل من علم التاريخ والفقه وتفسير القرآن الكريم، كما ذاع صيته بين كبار العلماء بحلقاته العلمية التي كانت تعج بالطلاب المتميزين الذين يقصدونه من أقصى البلاد.

كان أبو القاسم علي بن عساكر قوي الحافظة والملاحظة وسريع البديهة، ومتصرفاً في قراءة الكتب وجمعها والتعليق عليها وشرح الغامض منها، وكان

يلجأ إلى الجرح والتعديل بين الفينة والفينة؛ لكي يصل في مسعاه إلى مبتغاه، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن ثقة الدين أبا القاسم علي ابن عساكر قد ساهم مساهمة رائعة في إثراء المكتبة العربية والإسلامية، حيث قدم عدداً كبيراً من الموسوعات العلمية التي لا يستغني عنها أي باحث، والمشهود له أنه كان يتقصى الأخبار، ويدقق فيها ويروي النبأ التاريخي وينقده، ويبرز رأيه الشخصي فيه القائم على الحيثيات العلمية البعيدة كل البُعد عن الهوى والتميز.

القاضي العسقلاني

هو **عبد الرحيم بن علي بن محمد بن الحسن البيساني العسقلاني**، ويكنى بكل من **أبي علي ومحي الدين**، ويلقب أيضاً بكل من **البيساني والعسقلاني**، ولكنه اشتهر باسم **القاضي الفاضل**. نما وترعرع في بيت علم ووقار، فوالده كان قاضياً بارزاً ببيسان (بفلسطين)، ولذا أعطي لقب البيساني. ولد الابن عبد الرحيم العسقلاني بعسقلان (بفلسطين) سنة (٥٢٩ هجرية)، فأخذ اسم العسقلاني. وانتقلت عائلته الكريمة إلى مصر، فتلقى تعليمه على أيدي كبار العلماء بالإسكندرية، فتميز على أقرانه بعلم التاريخ والكتابة، وعليه ذاع صيته بين زملائه بحدة الخاطر وصناعة الإنشاء وبعد الغوص في المعاني وغرائب التقديرات للأمور التي تدور حوله، فكان قلمه يساوي سيف البطل الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، فلما عرف الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي بتفوقه في علم التاريخ على معاصريه، عينه وزيراً له، وأسند إليه أيضاً ديوان الإنشاء الذي لا يعمل فيه إلا أئمة الكتابة المشهورين بسعة ثقافتهم التاريخية والأدبية والشرعية.

كان أبو علي عبد الرحيم العسقلاني قريباً جداً من الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وهكذا قام بخدمة الملك الأول للدولة الأيوبية بكل إخلاص وتفان. وبقي في مصر وتوفي في مدينة القاهرة سنة (٥٩٦ هجرية). والجدير ذكره أنه تمكن من جمع الرسائل والمذكرات التي مرت عليه خلال ولايته لديوان الإنشاء، والتي صارت من أهم المراجع للدارسين والباحثين ليس فقط في تاريخ الدولتين الفاطمية والأيوبية، ولكن في علم التاريخ بوجه عام.

والحقيقة أن المؤرخين في العالم استفادوا فائدة عظيمة من الأعمال التاريخية التي حررها القاضي الفاضل عبد الرحيم العسقلاني، ويظهر ذلك واضحاً من المقتبسات التي استخدموها في مصنفاتهم العديدة، وهذا ليس بغريب لأنه كان في مركز الاطلاع على جميع أخبار العالم في عهد الدولة الأيوبية.

يقول **أبو عبد الله محمد بن صفي الدين** الملقب عماد الدين الأصبهاني في كتابه «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» ـ تراجم أدباء القرن السادس الهجري ـ ما نصه: «رب القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما نسمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، رابط السلك بآلائه، إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة مالو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة».

لقد اعتكف أبو علي عبد الرحيم العسقلاني على كل من تنظيم رسائله المعروفة باسم «المنشآت» والتي تتكون من حوالي مئة مجلد، ومذكراته النادرة التي تحمل عنوان: (المتجددات أو تاريخ الماجريات أو دستور القاضي الفاضل). وقد حاول في جميع إسهاماته العلمية الحرص على الابتعاد عن الحشو الذي لا يعرف أصله، أو الغريب من القول الذي لا يقبله العقل السوي، لذا كانت كل أعماله جزلة متعددة الغايات فيها كل من الحكم والأخبار والأحداث التاريخية ما يخدم الدارسين والباحثين.

وخلاصة القول: عاصر أبو علي عبد الرحيم البيساني العسقلاني تدهور الدولة الفاطمية وإشراق الدولة الأيوبية على أكتاف الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، في وقت كان وزيره الأول النابغة القاضي الفاضل عبد الرحيم العسقلاني. والمتواتر أن الوزير عبد الرحيم العسقلاني كان يحث السلطة الحاكمة الأيوبية على إقامة المعاهد والمدارس والمستشفيات في البلاد؛ لكي يكسبوا ثقة واحترام الجماهير من الناس، وقد نجح في هذا نجاحاً باهراً. كما ساهم مساهمة المخطط العبقري في جميع انتصارات الدولة الأيوبية على الصليبيين وخاصة انتصار العملاق الملك صلاح الدين الأيوبي على النصارى المعتدين في معركة حطين سنة (٥٨٤ هجرية) التي كانت حاسمة.

ولقد كان أبو علي عبد الرحيم العسقلاني فطناً ذكياً وجامعاً كبيراً لسائر العلوم، ولديه مقدرة عجيبة على استخدام الأفكار الجيدة والحقائق التاريخية من النصوص التي كانت في حوزته حينئذ.

وينقل **خير الدين الزركلي** في كتابه «الأعلام» ـ الجزء الرابع ـ بعض ما قيل في حقه: «كانت الدولة بأسرها تأتي في خدمته، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يقول: (لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل!). وكان سريع الخاطر في الإنشاء، كثير الرسائل، قيل: لو جمعت رسائله وتعليقاته لم تقصر عن مئة مجلد».

لقد حاز أبو علي عبد الرحيم العسقلاني رضاء كبار المؤرخين والأدباء أمثال العماد الأصبهاني الذي عاصره ويعرف الكثير عنه، والذي أثنى عليه ثناء حسناً في كتابه آنف الذكر. والمعروف أن أبا علي عبد الرحيم العسقلاني لا يهتم بنفسه بقدر ما كان يهتم برصد المعلومات التاريخية للدارسين والباحثين، لذا كانت جميع أعماله من المصادر الضرورية لمن يعمل في مجال علم التاريخ بوجه عام، ولكنه تميز في حصره للأحداث التاريخية المتعلقة بالدولة الأيوبية في عهده، فهو بكل المعايير يعتبر من أعلام علم التاريخ لإدراكه ـ بعقله الثاقب وحكمته الفريدة ـ ما يعانيه الباحث في تحليل الأحداث التاريخية. وعليه تُعد كل من رسائله ومذكراته من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ كل من الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية، لذا كان تأثيره عظيماً جداً لمن أرخ بعده لهاتين الدولتين (الفاطمية والأيوبية).

أبو الفرج ابن الجوزي

هو **عبد الرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري البغدادي**، كنيته **أبو الفرج** وفي بعض الأحيان يسمى **جمال الدين**، اختلف بسبب إعطائه لقب الجوزي، فبعض المؤرخين يرى أن الجوزي منسوب إلى قرضة من قرض البصرة يقال لها: جوزة؛ لأن أسرته كانت تشتغل بالتجارة فاستعملت هذه القرضة كثيراً، وهناك آخرون يعتقدون أنه أخذ لقب الجوزي من جده الذي كان في بيته الجوزة الوحيدة بمدينة واسط القريبة من قلب بغداد. أما تسميته البكري فلأن نسبه ينتهي بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ولد أبو الفرج ابن الجوزي بمدينة بغداد سنة (٥١٠ هجرية) وتوفي فيها أيضاً عن عمر يناهز ٨٧ سنة (أي سنة ٥٩٧ هجرية)، لذا عرف بالبغدادي، والمتواتر أن والده توفي وله ثلاث سنوات، وكان من كبار تجار النحاس.

عاش أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي يتيماً عند عمته التي اهتمت بتعليمه اهتماماً بالغاً؛ لأنها أحست أن عنده ذكاء خارقاً للعادة، حيث نبغ ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في سائر العلوم، فهو بلا شك متنوع الثقافة. ولكنه ذاع صيته في مجال الوعظ وهو في ريعان شبابه، بل وهو صبي، والحقيقة أن اهتمامه بالوعظ عائد لاعتقاده أنه الطريق السهل للاتصال بالناس وتوجيههم، لذا كان يحضر مجالسه الخاصة والعامة كبار القوم وطلاب العلم على جميع المستويات، والمتفق عليه عند المؤرخين أنه علامة زمانه في كل من علم التاريخ والحديث والفقه والأدب والتفسير، لذا أطلق عليه (عالم العراق وواعظ الآفاق).

نما وترعرع أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في بيئة علمية متميزة، حيث أسهمت عائلته إسهاماً عظيماً في بناء الحضارة العربية والإسلامية، اشتهر بين زملائه بولعه الشديد بكتاب الله (القرآن الكريم) فكان يختمه مرة

في كل أسبوع. الآن يمكن القول: إن ابن الجوزي عاش حياة مليئة بطلب العلم والتأمل فيه، كما أن له أشعاراً جميلة جداً تدل على مكانته في هذا المجال، فقد كان ينشد دائماً طلابه هذه الأبيات:

يا ساكن الدنيا تأهب وانتظر يوم الفراق

وأعد زاداً للرحيل فسوف يحدى بالرفاق

وابك الذنوب بأدمع تنهل من سحب المآق

يا من أضاع زمانه أرضيت ما يفنى بباق

وينقل **شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر من أخلاق وصفات أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ما نصه: «كان أبو الفرج ابن الجوزي رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه مع الشكل الحسن والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحراً في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيهاً، عليماً بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكباب على الجمع والتصنيف، مع التصون والتجمل وحسن الشارة، ورشاقة العبارة، ولطف الشمائل، والأوصاف الحميدة، والحرمة الوافرة عند الخاص والعام ... كان ذا حظ عظيم وصيتٍ بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة، حتى قيل في بعض مجالسه: أن حزر الجمع بمئة ألف».

لقد بذل وضحى أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في حياته في الاشتراك في بناء صرح الحضارة العربية والإسلامية، حيث قدم معلومات نادرة عن كل من بني إسرائيل حتى أيام المسيح عليه الصلاة والسلام وملوك الفرس وغيرهم من

ملوك العجم، كما ألقى أضواء لامعة ورائعة على الحياة العلمية والاجتماعية في العالم الإسلامي، وذلك كله بتجرد للحق والرغبة الأكيدة لديه في تعليم الجماهير أمور دينهم ودنياهم، ومن هنا أصبحت مؤلفاته من المراجع الضرورية جداً لطلاب العلم والباحثين في معظم فروع المعرفة.

استطاع أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي بمؤلفاته العديدة المتنوعة أن يرصد بطريقة رائعة الحياة الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي. وبمنهجه المحبب للنفوس، لم يترك صغيرة ولا كبيرة تتعلق بأوضاع الناس العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلا كتب عنها، لذا ترك مؤلفات زاخرة بالمعارف المختلفة، وعليه بقي صدى ذكره على ألسنة كبار المؤرخين عبر التاريخ.

يذكر **عبد الحميد العلوجي** في كتابه الذي بعنوان: «مؤلفات ابن الجوزي» الذي طبع سنة (١٣٨٥ هجرية) أن مؤلفات أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي جميعها تدور حول كلٍ من القرآن وعلومه (٢٧ كتاباً)، والحديث ورجاله وعلومه (٤٢ كتاباً)، والمذاهب والأصول والفقه (٥٤ كتاباً)، والوعظ والأخلاق والرياضيات (١٤٣ كتاباً)، والطب (١٠ كتب)، والشعر واللغة (١٦ كتاباً)، والتاريخ والسير والجغرافية (٩٢ كتاباً)، كما أضافت ناجية عبد الله إبراهيم في كتابها: «قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي» الذي صدر عام (١٤٠٧ هـ) (٥٦ كتاباً) على القائمة التي عرضها عبد الحميد العلوجي في كتابه المذكور أعلاه. إذن يكون مجموع مؤلفات ابن الجوزي (٤٤٠ كتاباً).

ومن مؤلفات أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي التي تناقلها المؤرخون هي: المنتظم في أخبار الملوك والأمم (المعروف بتاريخ ابن الجوزي)، ومناقب أبي بكر رضي الله عنه، ومناقب عمر رضي الله عنه، ومناقب عثمان رضي الله عنه، ومناقب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومناقب عمر بن عبد العزيز، ومناقب أحمد بن حنبل، وتلقيح فهم أهل الآثار في مختصر السير

والأخبار، والأذكياء وأخبارهم، وروح الأرواح، وشرح طوق الحمامة، والمختار من الأشعار، وأخبار الأخبار، وشذور العقود في تاريخ العهود، وأخبار البرامكة، وأخبار النساء، وفنون الأفنان في عجائب القرآن، والحمقى والمغفلون، وأخبار النقباء، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، والوفا في فضائل المصطفى، وأسباب الهداية لأرباب البداية، ومثير عزم الساكن إلى أشرف الأماكن (في تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وفضائل القدس، والمحتسب في النسب، وعيون الحكايات في سير سيد البريات، وفضائل العرب، وتقويم اللسان، والذهب المسبوك في سير الملوك، والاعتبار في الوعظ، وبستان الواعظين ورياض السامعين، ودفع شبهة التشبيه على المجسمة، والأديب في تفسير الغريب، وزاد المسير في علم التفسير، والجرح والتعديل، وأخبار الظرفاء والمتماجنين، ومناقب أصحاب الحديث، ومناهج الوصول إلى علم الأصول، والحث على طلب العلم، والنور في عدد الأيام والشهور، والطب الروحاني، والنطق المعلوم من أهل الصمت المعلوم، ومنتخب الألباب في الوعظ والأدب..إلخ.

كان عند أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رغبة شديدة لطلب العلم منذ نعومة أظفاره، ويدل ذلك على سعيه الدائب وانصرافه عن متاع الدنيا في سبيله، حيث لم يلتزم بوظيفة حكومية، بل تفرغ معظم أيام حياته للتدريس والوعظ والإرشاد والتأليف، وعليه فرض موقفه التاريخي بين زملائه في فترة من الزمن كان الوضع السياسي في بغداد متدهوراً، فذاع صيته في جميع أرجاء الأمة العربية والإسلامية، ومن هنا قام أعداؤه بإقناع الخليفة بنفيه، فرحل إلى مدينة واسط التي بقي فيها خمس سنوات في حالة يرثى لها، إلى أن كبر ابنه الأصغر يوسف الذي تخصص في مجال الوعظ والإرشاد، فأقنع أم الخليفة آنذاك بالإفراج عن والده، وتم إطلاق سراحه سنة (٥٩٥ هجرية) (أي قبل وفاته بعامين).

ويثبت **شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر حدث النفي بما نصه: «نال أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي محنة في أواخر عمره، ووشوا به إلى الخليفة الناصر عنه بأمر اختلف في حقيقته، فجاء من شتمه، وأهانه، وأخذه قبضاً باليد، وختم على داره، وشتت عياله، ثم أقعده في سفينة إلى مدينة واسط، فجلس بها في بيت حرج، وبقي هو يغسل ثوبه ويطبخ الشيء، فبقي على ذلك خمس سنين ما دخل فيها حمام.. وكان السبب في خلاص الشيخ أن ولده يوسف نشأ واشتغل، وعمل هذه المدة في الوعظ وهو صبي، وتوصل حتى شفعت أم الخليفة، وأطلقت الشيخ، وأتى إليه ابنه يوسف، فخرج».

وخلاصة القول: في الفترة التي عاشها أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي فقد خلفاء بني العباس في بغداد هيبتهم ونفوذهم السياسي في العالم الإسلامي، وصارت مدينة السلام (بغداد) مركزاً دينياً فقط، وأصبحت السلطة السياسية بيد السلاطين الأتراك والسلاجقة، وعلى الرغم من الوضع السياسي المتردي والهزيل بمدينة بغداد إلا أنها احتفظت بمكانتها العلمية، حيث كانت الملاذ والمرجع الفريد لجهابذة الفكر في العالم الإسلامي. والجدير بالذكر هنا أن هذه الحقبة من الزمن كانت مليئة بالتعلم متميزة بالاجتهاد والإبداع، لذا احتل أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي مكاناً مرموقاً بين علماء العرب والمسلمين قاطبة كمؤرخ لأحداث عصره، حيث احتوت كتبه في ميدان علم التاريخ على أحداث فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية وحالات طبيعية كثيرة.

ولقد بدأ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي حياته واعظاً وانتهى مؤرخاً مرموقاً. كما عرف منذ الصغر بكل من الفصاحة وقوة البيان والفطنة والفراسة، وكان أستاذ المناظرة العلمية في بغداد التي كانت تعقد في المساجد والجوامع. واشتهر بين معاصريه بالمطالعة والبحث، حيث جمع العلم من أطرافه وبذل في سبيل ذلك راحته ووقته الثمينين.

وصل علم التاريخ إلى درجة عالية من التقدم بفضل أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، لذا ليس غريباً أبداً أن يكون إنتاجه في هذا المجال منهلاً غزيراً يأخذ عنه الكثير من المؤرخين في المعمورة، والواضح أنه تميز عن غيره بكل من أفكاره العلمية الأصيلة وأسلوبه السهل الممتنع، وقدرته العجيبة على استخلاص الفائدة المرجوة من المصادر التي كان يرجع إليها وملاحظته القوية والسريعة بعلوم عصره. كما تفوق على زملائه باستنتاجاته للأحكام الشرعية وتسامحه وإخلاصه للحقيقة. وأخيراً أتمنى أن تكون هذه السيرة الموجزة لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي دافعاً لشباب الأمة العربية والإسلامية أن يدرسوا أعماله العلمية الرائعة التي سوف تقودهم إلى حيث المجد والسؤدد إن شاء الله.

عبد الواحد المراكشي

هو **عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي**، يكنى **بأبي محمد**، ويلقب **بالحافظ محيي الدين**، ولد بمدينة مراكش المغربية سنة ٥٨١ هجرية وذلك في بداية حكم أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب بن تاشفين الثالث من حكام الموحدين. ولم يبق طويلاً في مدينة مراكش، بل انتقل منها إلى مدينة فاس وهو في التاسعة من العمر ليتلقى تعليمه هناك على أيدي كبار المفكرين في بلاد المغرب، حيث كانت فاس هي حاضرة المغرب العربي حينئذ، وبعد أن أكمل تعليمه بمدينة فاس عاد إلى مسقط رأسه يدرس أبناءها، ولم يلبث طويلاً فيها حتى انتقل في سنة (٦٠٣ هجرية) إلى مدينة إشبيلية الجميلة التي استوطنها ردحاً من الزمن ثم قرر في سنة (٦١٣ هجرية) أن يترك كلاً من الأندلس والمغرب ويتجه إلى المشرق لكي يلتقي بجهابذة الفكر في مصر. وفي سنة (٦٢٠ هجرية) أدى مناسك الحج، ومن ثم تجول في معظم عواصم بلاد المشرق العربي. وبعد أن أكمل تأليف كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» سنة (٦٢١ هجرية) انقطعت أخباره، فلم يعرف أين ومتى توفي. والمتواتر عنه أنه كان يحب مجالسة العلماء الكبار والاستماع إليهم ومناقشتهم في بعض الأمور العلمية، وخاصة التي تتعلق في اهتماماته، وذلك لاستقصاء المعلومات عن الأحداث التاريخية وخاصة التي وقعت في بلاد المغرب العربي.

اشتهر أبو محمد عبد الواحد المراكشي بتواضعه ودماثة أخلاقه وحُسن معاملته للصغير والكبير. وكما برز أيضاً بين زملائه ببلاغته في الحديث وروعة أسلوبه في الكتابة، وفوق هذا كله عمل جهداً في بحوثه في ميدان علم التاريخ لكي تزداد معلوماته وتتسع آفاق معرفته، فألم بأطراف معرفة الأحداث التاريخية لبلاد المغرب العربي. وهذا يظهر واضحاً للقارىء في كتابه القيم: «المعجب في أخبار أهل المغرب» الذي انتهى من تأليفه (سنة ٦٢١

هجرية) والذي أصبح من المصادر الهامة جداً للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ وخاصة في الأمور التي تتعلق ببلاد المغرب العربي.

وينقل **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر ما قاله كل من محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي في مقدمة (كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي): «فإن عبد الواحد المراكشي مؤرخ محقق جدير بالثقة والاعتماد على أحكامه، واحترام آرائه ونظراته، وتقدير نقداته وملاحظاته، يضاف إلى ذلك أنه مؤرخ رضي الأخلاق، جم التواضع، خفيف الظل، قريب من القلب، محبب إلى النفس، في أسلوبه بساطة ويسر وسهولة، وفي تحقيقه صراحة خلابة، ونزاهة جذابة، وكل هذه الصفات مجتمعة متوافرة تجعل قراءة كتابه أشبه بقراءة قصة شائقة مستمدة من واقع الحياة، قائمة على حقائق التاريخ. والشيخ عبد الواحد مع صراحته وقدرته على أن يصدع برأيه ويدلي بحجته، بعيد عن الادعاء والتفيهق، تشعر وأنت تسايره بأنك تستمع إلى رجل حسن الصحبة دمث الأخلاق، طيب النفس، لا يفرض عليك نفسه، ولا يحاول أن يرغمك على الإعجاب به، والإشادة بمواهبه وملكاته، والخضوع لآرائه وأحكامه بل هو على نقيض ذلك، ولعله يسرف بعض الإسراف في حرمان نفسه من حقها والنزول بها دون مستواها، وإذا كان ما يؤخذ على بعض المؤلفين استطالتهم، وفرط اعتزازهم بما يكتبون ويؤلفون فإن صاحبنا المراكشي قد برىء من هذا العيب، وسلم كل السلامة من هذا النقص، وضرب للمؤلفين مثلاً شروداً في الاعتدال والاتزان، والتواضع وطيب الخلال».

وخلاصة القول: بقيت بلاد المغرب العربي تنقصه المؤلفات التاريخية الجيدة مدة من الزمن، وذلك بسبب أن المؤرخين في المغرب العربي كانوا مهتمين في تصنيف المعاجم التي ضاع معظمها، لذا صار كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لأبي محمد عبد الواحد المراكشي المرجع الهام لتاريخ

دولة الموحدين التي نشأت في المغرب، وحكمت أيضاً الأندلس مدة طويلة من الزمن. وتواتر عن المؤرخين أن هذا الكتاب موضع الثقة وله قيمة تاريخية كبيرة، ويؤكدون ما ذكره عبد الواحد المراكشي عن كتابه: «لم أثبت في هذا الكتاب إلا ما حققته نقلاً عن كتاب أو سماعاً من ثقة عدل أو ما شاهدته بنفسي، هذا بعد أن تحريت الصدق، وتوخيت الإنصاف في ذلك كله، وجهدت ألا أنقص أحداً ذرة مما له ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه، وبالله أستعين وإياه أسأل وإليه أضرع في إلهام الصواب، والسداد في القول والعمل فهو حسبي ونعم الوكيل».

ويذكر **انجل جنثالث بالنثيا** في كتابه آنف الذكر أن العلامة دوزي قام بنشر الطبعة الأولى لكتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لأبي محمد عبد الواحد المراكشي سنة (١٢٧٣ هجرية) وأعاد طباعته في سنة (١٢٩٨ هجرية). كما ترجمه فانيان إلى اللغة الفرنسية ونشر الترجمة في الجزائر عام (١٣١١ هجرية). ثم خرج في ثوبه الجديد بعد أن حققه وعلق عليه كل من محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي في مصر سنة (١٣٧٠ هجرية)، لذا صار هذا الكتاب الثمين والحمد لله في متناول الباحثين في العالم العربي والإسلامي.

ولقد حاول أبو محمد عبد الواحد المراكشي أن يفهم الأحداث التاريخية عن بلاد المغرب، ويستوعبها استيعاباً صادقاً ودقيقاً، وأن يجعل لهذه الأحداث التاريخية مكانة خاصة في دراساته وتحرياته. بهذا المنهج الواضح استطاع أن يستجيش همم المؤرخين أن يدرسوا كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» الوحيد والفريد من نوعه، وعليه أرجو أن يخرج لهذا الكتاب القيم دراسة علمية متأنية لتزيح الستار عن آثاره الجليلة وتفيه بعض حقه؛ لأنه زاخر بالمعارف عن بلاد المغرب ومحكم التنسيق، تتجلى فيه إبداعات أبي محمد عبد الواحد المراكشي العقلية ومقدرته التاريخية، فالمراكشي هو الذي أرّخ لدولة المغرب بأكملها وسجل أخبار الأمة العربية والإسلامية بكل جرأة.

ياقوت الحموي

هو **ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي**، يكنى بأبي عبد الله، ويلقب **بشهاب الدين**. ولا نعرف بالضبط المدينة التي ولد فيها ولكن الثابت أنه ولد في بلاد الروم سنة (٥٧٥ هجرية)، واختطف صغيراً من بلاد الروم وأحضر أسيراً مع غيره من الأسرى إلى بغداد، فحرم عطف والديه، وعانى من ذلك الكثير في حياته، ولكن لُحسن حظه اشتراه التاجر عسكر بن أبي نصر بن إبراهيم الحموي، ورباه وعلمه، وسماه ياقوت بن عبد الله الحموي، وكما هو معروف أن ياقوت اسم حجر كريم يطلق عادة على الرقيق، وحيث إن والده مجهول أعطي اسم عبد الله، أما لقب الحموي فقد حاز عليه لأن التاجر الذي اشتراه لقبه الحموي. والجدير ذكره أن التاجر عسكر الحموي كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه يتقن الأعمال التجارية جيداً، لذا رأى أن يشتري ياقوت ليكون عوناً له في أعماله التجارية الخارجية، كما كان يحتاج أيضاً إلى كاتب لبيب ليضبط تجارته، وليقيد حساباته وليمسك دفاتره.

حسَّ عسكر الحموي أن عند مملوكه ياقوت موهبة وذكاء خارقين، لذا هم بجدية أن يعلمه عند أحد كتاتيب بغداد فقط القراءة والكتابة؛ لكي يستفيد منه في تجارته الواسعة، فلم تأخذ على ياقوت تعلم القراءة والكتابة وقتاً طويلاً، حتى أصبح يقرأ ويكتب عليه. عينه ليتولى التجارة الخارجية، حيث أرسله ليتاجر مع تجار جزيرة كيش الواقعة في الخليج العربي وعمان والشام فنجح نجاحاً باهراً. ولكن الود والتقدير لم يستمر طويلاً بين ياقوت وسيده، بل حصلت جفوة خطيرة إلى درجة أن التاجر عسكر الحموي فضل أن يعتقه لوجه الله تعالى؛ لأنه كان واثقاً أنه سيعيش حياته، وذلك سنة (٥٩٦ هجرية) (أي كان عمر ياقوت ٢١ سنة).

وبعض المؤرخين المشهورين يعللون سبب غضب التاجر عسكر الحموي

على ياقوت الحموي طباعه الحادة وعقده النفسية التي جاءته بسبب نشأته القاسية والمرة. على كل حال حاول ياقوت أن يمارس الأعمال التجارية، ولكن ليس عنده المال الذي يستطيع بواسطته أن يتاجر مع الآخرين لذا لجأ إلى نسخ الكتب للناس بالأجرة لكي يعيش بكرامة، وهذه الحرفة أفادته كثيراً، حيث جعلته يقرأ الكثير من المؤلفات القيمة، حيث أصبح حجة في كل من النحو والأدب والتاريخ، ولا شك أن اتجاهه إلى العمل في مجال نسخ الكتب أفاده كثيراً، حيث حصل على معارف متنوعة، فصار واسع الثقافة، وكسب عن طريقها أسلوبه السهل الممتنع البعيد كل البُعد عن التعقيد.

بقي التاجر عسكر الحموي يفكر في ياقوت بن عبد الله الحموي ووضعه؛ لأنه كان يكن له ولقدراته العقلية كل تقدير، لذا عرض عليه أن يعمل معه كشريك في أعماله التجارية، فقبل ياقوت بعد الإغراء، لذا أعطى عسكر الحموي ياقوت الحموي مالاً لكي يسافر إلى بعض البلدان في تجارة ووفق كثيراً في هذا المشروع؛ لأن مطالعة الكتب عرفته أشياء عظيمة، ولكنه عندما عاد من رحلته التجارية الطويلة الناجحة وجد شريكه التاجر النبيل عسكر الحموي قد انتقل إلى رحمة الله، فأعطى أرملته وأولاده حصتهم من المال، وأبقى نصيبه حسب الاتفاق الذي كان مبرماً بين التاجر عسكر الحموي وياقوت.

بعد وفاة عسكر الحموي قرر ياقوت الحموي أن يستمر في ممارساته للأعمال التجارية الخاصة به، ولكنه جعل الجزء الأكبر منها لتجارة الكتب التي كان يعتبرها جزءاً لا يتجزأ من حياته، فصار يطوف المدن الإسلامية حاملاً معه الكتب؛ لكي يبيعها على رجال العلم وليبدأ علاقاته العلمية مع كبار المفكرين في العواصم الإسلامية. والحقيقة الواضحة أن عمله في تجارة الكتب دفعه إلى المطالعة والدراسة والبحث والاستقصاء، وعليه أصبح عالماً يشار إليه بالبنان لثقافته العالية وعلمه الغزير وشعره الجيد. كما أنه مؤرخ ثقة ومن كبار الجغرافيين ومن علماء اللغة والأدب.

اهتم أبو عبد الله ياقوت الحموي في تجارة الكتب، فأخذت الكثير من وقته الثمين؛ لأنها كانت شغله الشاغل، إلى درجة أنه في النهاية انصرف عن التجارة العادية، وركز على جمع الكتب لقراءتها وبيعها، وعن طريقها طاف الآفاق، والتقى بكبار العلماء في العواصم الإسلامية. ولاشك أن التعامل في الكتب القيمة أتاحت لياقوت الحموي الاجتماع بجهابذة الفكر في العالم العربي والإسلامي، وأكسبته فرصة رائعة ليطلع على المعارف العظيمة التي أنتجتها القريحة العربية والإسلامية في كل من علم التاريخ والجغرافية والأدب والنحو والشعر.

وفي سنة (٦١٣ هجرية) ذهب ياقوت الحموي إلى مدينة دمشق عاصمة بلاد الشام والتي تعج آنذاك بالمكتبات والعلماء الكبار، وفعلاً حال وصوله إليها، قصد السوق الذي تكثر فيه المكتبات؛ لكي يشتري بعض الكتب القيمة، وهناك حصلت له مناظرة مع بعض طلاب العلم والمثقفين، فأغضبهم وأغضب جميع الموجودين، لذا خرج من دمشق سراً إلى حلب ثم إلى الموصل خائفاً يترقب نهايته، ولم يستقر في مدينة الموصل طويلاً، بل انتقل إلى إربل ومنها إلى خراسان، وأخيراً استقر في مرو لأنها كانت عامرة بالمكتبات والمدارس والعلماء المشهورين، فقام بالتأليف والمطالعة والنسخ بمدينة مرو، وتعتبر هذه الفترة من حياته أخصب فترة ولكنه لم يستمر بها، بل غادرها إلى نسا ثم خوارزم وبقي هناك فترة من الزمن، ولكنه لم يتمتع في إقامته؛ لأن خوارزم كانت مهددة بالانهيار بسبب الحرب القائمة على قدم وساق بين الخوارزميين والمغول ـ عليهم اللعنة ـ.

ويقول **شهاب الدين ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر: «ولولا ماعرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات، لما في أهلها من الرق ولين الجانب وحُسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بها، فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة..

وكثيراً ما كنت أترنم عند كوني بمرو بقول بعض الأعراب:

أقمرية الوادي التي خان إلفها   من الدهر أحداث أتت وخطوب

تعالي أطارحك البكاء فإننا   كلانا بمرو الشاهجان غريب»

بدأت تظهر في الشرق الأقصى دولة المغول التي سلطانها جنكيز خان، وفي سنة (٦١٦ هجرية) هجمت الجيوش المغولية على الدولة الخوارزمية المترامية الأطراف، وهزمت جيوش علاء الدين شاه خوارزم واستباحوا الأهالي وعذبوهم أقبح تعذيب وهدموا المدارس والمكتبات والبيوت وأحرقوا الكتب ونهبوا الثروات، وعليه خرج أبو عبد الله ياقوت الحموي بجلده من خوارزم هارباً تاركاً كل ما يملك من كتب وغيرها وراءه متجهاً إلى مدينة الموصل. والجدير بالذكر أن ياقوت الحموي عانى الأمرين في طريقه. فرأى حاجات من الأهوال يصعب شرحها. ويرى بعض المؤرخين أن خروج ياقوت الحموي من خوارزم سالماً معجزة، على كل حال وصل مدينة الموصل منهكاً، ولم يجلس فيها طويلاً، بل قرر أن يتوجه إلى سنجار التي ارتحل منها إلى مدينة حلب ومنها انتقل إلى مصر لمقابلة جهابذة الفكر هناك، ولكنه لم يمكث طويلاً، بل عاد إلى مدينة حلب التي استقر بها يقرأ ويؤلف حتى توفي (سنة ٦٢٦ هجرية).

والحقيقة أنه عندما وصل مدينة الموصل قادماً من رحلته الشاقة المحفوفة بالأخطار بقي هناك محتاراً قد تقطعت به الأسباب، مما جعله يكتب رسالة طويلة ومفصلة عن رحلته المشؤومة لوزير صاحب حلب المؤرخ جمال الدين أبي الحسن علي القفطي، يرجو منه أن يتكرم ويدعوه لزيارة مدينة حلب، لكي يتفرغ للقراءة والتأليف، وها أنا ذا أعرض مقاطع قصيرة منها كما وردت في كتابه «معجم الأدباء» ـ المجلد الأول ـ: «بسم الله الرحمن الرحيم أدام الله على العلم وأهليه، والإسلام وبنيه، ما سوغهم وحباهم، ومنحهم وأعطاهم، من سبوغ ظل المولى الوزير أعز الله أنصاره، وضاعف مجده

واقتداره، ونصر ألويته وأعلامه... وقد شهد الله تعالى للمملوك أنه في سفره وحضره، وعلنه وسره، وخبره ومخبره، شعاره تعطير مجالس الفضلاء، ومحافل العلماء، بفوائد حضرته، والفضائل المستفادة من فضيلته، افتخاراً بذلك بين الأنام وتطريزاً لما يأتي به أثناء الكلام.

إذا أنا شرفت الورى بقصائدي على طمع شرفت شعري بذكره

... وقد كان المملوك لما فارق الجناب الشريف، وانفصل عن مقر العز اللباب، والفضل المنيف، أراد استعتاب الدهر الكالح، واستدرار خلف الزمن الغشوم الجامح، اغتراراً بأن في الحركة بركة، والاغتراب داعية الاكتساب، والمقام على الإقتار ذل وانتقام، وجليس البيت في المحافل سكيت.

وقفت وقوف الشك ثم استمر لي يقيني بأن الموت خير من الفقر

وباكية للبين قلت لها اصبري فللموت خير من حياة على عسر

سأكسب مالاً أو أموت ببلدة يقل بها فيض الدموع على قبري»

... والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها، ويعلل المعيشة ويرجيها، متقنعاً بالقناعة والعفاف، مشتملاً بالنزاهة والكفاف، غير راض بذلك الشمل، ولكن، مُكره أخاك لا بطل.

إن كان لابد من أهل ومن وطن فحيث آمن من ألقى ويأمنني»

قدم الوزير أبو الحسن علي القفطي الدعوة الرسمية للمؤرخ الكبير أبي عبد الله ياقوت الحموي لينتقل إلى مدينة حلب الشهباء من مدينة سنجار، ففرح ياقوت الحموي بذلك فرحاً شديداً. وفعلاً ارتحل إلى حلب، وأقام بخارجها، وبدأ يغربل المعارف المختلفة التي جمعها من المدن الإسلامية التي حل فيها، ثم شرع في تأليف كتابه «معجم البلدان» الذي أنجزه سنة (٦٢١ هجرية) والذي أهداه للوزير جمال الدين القفطي اعترافاً له بالجميل الذي أسداه إليه.

استطاع أبو عبد الله ياقوت الحموي ـ بمدينة حلب ـ أن يكرس جهده للقراءة والبحث والاستقصاء والكتابة، ويعقد الاجتماعات العلمية مع جهابذة الفكر في بلاد الشام، وذلك كله بسبب أن الوزير جمال الدين القفطي هيأ له الفرصة لكي يتفرغ للتأليف؛ لأنه يعرف تمام المعرفة أن عند ياقوت معارف كثيرة متناثرة حصل عليها من المدن الإسلامية العديدة التي زارها.. وليس هناك طريق واضح لحفظ هذه المعارف الثمينة التي ضاعت أصولها، إلا أن يتصدى لها أبو عبد الله ياقوت الحموي ليدوّنها في مصنفاته، لذا انتهى من تأليف كتابه «معجم البلدان» الذي لا يُعد معجماً جغرافياً فقط، بل المرجع لكل من علم التاريخ والأدب العربي، وهذه الموسوعة التي قال عنها المستشرق الفرنسي (**كارادوفو Carrade Vaux**): «إن معجم البلدان لياقوت الحموي الرومي من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها كل الفخر».

بدأ أبو عبد الله ياقوت الحموي كتابه «معجم البلدان» بمقدمة طويلة وخمسة أبواب فيها وصف الأرض وما فيها من الجبال والبحار، وتحدث عن الأقاليم السبعة والألفاظ الصعبة التي يتكرر ذكرها، وأقوال الفقهاء المتعلقة بالزكاة والجباية، ومعلومات تاريخية عامة تخص البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، ثم أبرز المعلومات الجغرافية المرتبة على أحرف الهجاء حيث يذكر المكان موضحاً طريقة لفظه واشتقاقه اللغوي، وعندما يتعرض لذكر الأماكن المشهورة يقدم لها وصفاً دقيقاً ومفصلاً.

يقول **نقولا زيادة** في كتابه آنف الذكر: «يروي ياقوت أنه أثناء إقامته في مرو عرضت في مجلس صاحبها يوماً قضية تتعلق باسم مكان هل هو حباشة (بضم الحاء) أم حباشة (بفتح الحاء). فكانت هذه الحادثة دافعاً له على وضع المعجم.. يبدأ ياقوت معجمه بخمسة فصول، يتناول فيها صورة الأرض ومعنى الإقليم وإصلاحات جغرافية لازمة معرفتها مثل البريد والفرسخ، وحكم الأرضين من حيث الفتح والخراج والشرع في ذلك، وجملاً من أخبار

البلدان، ثم يبدأ ترتيب معجم البلدان على حروف الهجـاء. والمعجـم بـالذات معين لا ينضب للمعرفة الجغرافية البلدانية والاقتصادية والبشرية ومثـل للعمـل المنظم، ولم يقتصر المؤلف علـى العـالم الإسـلامي، بـل تنـاول منـاطق أخـرى مجاورة له، إلا أنه بالنسبة للعالم الإسلامي يعطينا صورة واضحـة لـه، قبـل أن يهدم التتار بعض أجزائه».

أما كتاب: «معجم الأدباء» الذي سماه مؤلفـه يـاقوت الحمـوي: (كتـاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وهذا الكتاب بالحقيقة عبارة عـن موسـوعة تاريخيـة متكاملـة، تحتـوي علـى معلومـات نـادرة وقيمـة عـن علمـاء العـرب والمسـلمين الأوائـل ليـس فقـط في الأدب والتـاريخ، ولكـن في معظـم فـروع المعرفة.. فقد أثبت أبو عبد الله يـاقوت الحمـوي بطريقـة نزيهـة جـداً تـاريخ الـولادة أو الوفـاة لكـل مـن ترجـم لـه، وكذلـك تمكـن مـن إبـراز عـدد مـن مؤلفـاتهم ونوعهـا والمشـهور مـن أخبـارهم، وبعـض المختـار مـن شـعرهم والمستجاد من نثرهم، ورتب معجمه هذا على حروف الهجاء مـن الألـف إلى الياء.. ولاشك أن هـذه الموسـوعة تجعـل القـارىء يعـترف بـأن أبـا عبـد الله ياقوت الحموي كان من المثقفين الموسوعيين المتمكنين من الإلمام بعـدة فـروع أساسية من فروع المعرفة.

يقول **أبو عبد الله ياقوت الحموي** في مقدمة كتابـه «معجـم الأدبـاء» ـ المجلد الأول ـ: «جمعـت في هـذا الكتـاب مـا وقـع إلي مـن أخبـار النحويـين، واللغويين والنسابين، والقراء المشـهورين، والإخبـاريين والمؤرخـين والوراقـين المعروفين، والكتاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطـوط المنسوبة والمعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً، أو جمـع تأليفـاً مـع إيثـار الاختصار والإعجاز في نهاية الإيجاز، ولم آل جهداً في إثبات الوفيات، وتبيين المواليد والأوقات وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم، والإخبار بأنسـابهم، وشيء من أشعارهم.. وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلمـاء

المعول في هذا الشأن عليهم، والمرجوع في صحة النقل إليهم.. وإنما تصديت لجمع هذا الكتاب لفرط الشغف والغرام، والوجد بما حوى والهيام، لا لسلطان أجتديه، ولا لصدر أرتجيه، غير أني أرغب إلى الناظر فيه أن يترحم عليّ، ويعطف جيد دعائه إليّ فذلك ما كلفة فيه عليه، ولا ضرر يرجع به إليه، فربما انتفعت بدعوته، وفزت بما قد أمن هو من معرته (المعرة: المساءة والإثم).. واعلم أني لو أعطيت حمر النعم وسودها، ومقانب الملوك وبنودها، لما سرني أن ينسب هذا الكتاب إلى سواي وأن يفوز بقصب سبقه إلاي لما قاسيت في تحصيله من المشقة، وطويت في تكميله من طول الشقة (الشقة: السفر البعيد، والمسافة التي يشقها المسافر)».

ولأبي عبد الله ياقوت الحموي مؤلفات أخرى تناقلها المؤرخون الذين تناولوا سيرته لأهميتها في مؤلفاتهم، والتي ضاع معظمها ومنها: كتاب المشترك وضعاً والمختلف صقعاً، وكتاب المقتضب من جمهرة النسب، وكتاب أخبار المتنبي، وكتاب أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء، وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ، وكتاب الدول، وكتاب مجموع كلام أبي علي الفارسي، وكتاب أوزان الأسماء والأفعال الحاصرة لكلام العرب، وله أيضاً رد على ابن جني في كلامه على الهمزة والألف في سر الصناعة.

وصدق **عبد الفتاح محمد الحلو** عندما قال في كتابه «أعلام التراث الإسلامي»: «وتعجب لهذا الرجل الذي لم يذق طعم الاستقرار في حياته، حيث خطف طفلاً من بلاده، ثم ارتحل فتى في سبيل التجارة كما سافر من بلد إلى بلد بقية عمره مطارداً لمناظرة اشترك فيها أو خوفاً من الموت على يد التتار، تعجب له كيف حصل هذا العلم وكيف تلقى هذه المعارف، ثم كيف أتيح له بعد ذلك أن يترك هذه المؤلفات الضخمة التي تدل على أدب باهر، وبصر عظيم باللغة العربية والمعارف الإسلامية».

خلاصة القول: الكثير من المؤرخين المسلمين بدؤوا حياتهم في مزاولة

الأعمال التجارية، لذا فإن معظمهم كانوا يمتلكون خبرة جيدة في هـذا المجـال الحيوي. والمعروف آنذاك أن رجال الأعمال لهم تأثير عظيـم علـى السياسـيين الذين يمكنهم تمويل المكتبات والمدارس، فلم يشـذ يـاقوت الحمـوي عـن هـذه الظاهرة التي زاولها مزاولة حقيقيـة في ريعـان شـبابه لمـا كـان مملوكـاً. ولكنـه عندما حصل على حريته ترك التجارة واتجه إلى نسخ الكتب بـالأجرة، وهـذا خلق لديه حب الدراسة والبحث والاستقصاء، معتمداً بذلك على نفسه؛ لأنه لم يتتلمذ على كبار العلماء في العالم الإسـلامي، بـل درس وتعلـم في مدرسـة الحياة، حيث إن سيده عسكر الحموي لم يسمح لـه بتعلـم أكـثر مـن القـراءة والكتابة على كتاتيب بغداد.

ولقد سبق أبو عبـد الله يـاقوت الحمـوي العـالم الفلكـي الإيطـالي غليلـو غـاليلي (٩٧٠ ـ ١٠٥٢ هجريـة) بمعرفـة كرويـة الأرض حيـث هـو القـائل: الأرض مدورة وهي في جوف الفلـك مثـل صفـار البيـض. كمـا ذاع صيتـه بـين زملائه بثقافته الواسعة التي جناها من تعامله مع الكتب المتنوعة. لذا يُعتـبر بحـق في طليعة جامعي المعلومات ومنسقي الأخبار والروايات، عنـده صفـة بـرز بهـا علـى معاصريه وهي أنه يشك فيما يسمع، والشك بالحقيقة طريق الوصول إلى اليقين.

لاشك أن الفضل يرجع أولاً وأخيراً للوزير جمال الدين القفطي الذي أتـاح لأبي عبد الله ياقوت الحموي الفرصـة الذهبيـة أن يجتمـع بالعلمـاء الكبـار في بـلاد الشـام، وأن ينـاقش معهـم المعـارف التاريخيـة والجغرافيـة والأدبيـة والاقتصادية التي جمعها، لذا أنتج موسوعات علمية لا يستغني عنها الباحث في كل من علم التـاريخ وعلـم الجغرافيـة والأدب العربـي، حيـث كـان يسـتقصي الأخبار والروايات التاريخية، ويُدققها ويُعلق عليها تعليقاً علمياً نزيهاً، ويعطـي رأيه الشخصي فيها.

عز الدين ابن الأثير الجزري

هو **علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني**، ويعرف بين المؤرخين في المعمورة **بابن الأثير الجزري**، وسمي الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر، وهي البلدة التي يحيط بها نهر دجلة من ثلاث جهات والتي تقع فوق الموصل، وكنيته **أبو الحسن**، وفي بعض الأحيان يدعى بعز الدين، أما لقبه **فابن الأثير**. وتلقى تعليمه الأولي بالجزيرة العمرية التي ولد فيها سنة (٥٥٥ هجرية)، ولكنه لم يستمر فيها بل انتقل **عز الدين** مع والده وأخويه إلى الموصل التي كانت تعج بجهابذة الفكر. واستوطن مدينة الموصل وتتلمذ على كبار العلماء هناك وتوفي فيها عام (٦٣٠ هجرية)، وعرف بين معاصريه بالموصلي لأنه قضى معظم أيام حياته فيها. وهو أخ لكل من المحدث اللغوي مجد الدين أبي السعادات المبارك صاحب كتابي: النهاية، وجامع الأصول، والوزير الأديب ضياء الدين أبي الفتح نصرالله الذي له كتاب المثل السائر، لذا يتضح للقارىء أنه نما وترعرع أبو الحسن علي بن الأثير في بيت علم وثراء وجاه.

لقد زار أبو الحسن علي بن الأثير الجزري أعداداً كبيرة من البلدان الإسلامية مثلاً ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ: بغداد وحلب ودمشق والقدس، وهذه المدن العريقة كانت مراكز للمعرفة، بهذا قابل عمالقة الفكر في العالم الإسلامي وتتلمذ عليهم، فاتسعت مداركه ونبغ في كل من علم التاريخ والحديث والأدب. وفي آخر أيام حياته انقطع للعمل والتأليف، وتدريس طلاب العلم النابهين، حيث صار بيته منتدى علمياً في مدينة الموصل للمؤرخين والأدباء والفضلاء. والجدير بالذكر أنه اشتهر بتحريه للحقيقة مهما كلفه هذا. وقد تمكن بجدارة من جمع خلاصة كتب التاريخ التي كانت موجودة حينئذ في مؤلفاته المختلفة. لذا أصبحت مصنفاته مراجع هامة جداً للباحثين والدارسين، وهذا ليس بغريب فقد شهد له بالذكاء والحفظ والعلم.

يقول **أحمد مصطفى** الشهير بطاش كبرى زاده في كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» في موضوعات العلوم ـ الجزء الأول ـ: «سار عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير إلى الموصل مع أخويه مجد الدين أبي السعادات المبارك، وضياء الدين أبي الفتح نصر الله، ووالده محمد، وسكن الموصل، وسمع بها، وقدم بغداد وسمع من فضلائها، ثم رحل إلى الشام والقدس، وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل، ولزم بيته منقطعاً إلى التوفر على النظر في العلم، وكان بيته مجمع فضلاء الموصل والواردين عليها. وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدمة وخبيراً بأنساب العرب ووقائعهم وأخبارهم وأيامهم».

على الرغم من أن عز الدين ابن الأثير كان مغرماً بعلم الحديث إلا أنه كان يرى في البحث وتقصي الحقائق في علم التاريخ متعة ولذة. لذا عرض بعض الظواهر التاريخية بطريقة علمية. وانتقد بكل صراحة بعض الأخبار التاريخية التي لا تستند إلى وثائق تاريخية، ومؤلفاته القيمة تمتاز بعباراتها السهلة المرسلة وبتوثيق أفكارها المختلفة، لذا تعتبر بحق من أوثق وأصدق المصادر التاريخية، ومنها: كتاب الكامل في التاريخ، وكتاب الباهر في الدولة الأتابكية، وكتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة، وكتاب اللباب في تهذيب الأنساب، وكتاب أدب السياسة، وكتاب الجامع الكبير في علم البيان، وكتاب الموصل لم يتممه، وكتاب تحفة العجائب وطرافة الغرائب، وكتاب الجهاد. والحقيقة أنه ضرب بسهم وافر في كل أبحاثه التاريخية والأدبية والفقهية.

كان لأبي الحسن علي بن الأثير منهج واضح في ميدان علم التاريخ أبرزه في موسوعته التاريخية التي بعنوان: «الكامل في التاريخ» حيث يقول في ـ المجلد الأول ـ من هذا الكتاب القيم ما نصه: «أما بعد، فإني لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها،فلما

تأملتها متباينة في تحصل الغرض، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل إلى العرض، فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات، ومختصر قد أخل بكثير مما هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحوادث، والمشهور من الكائنات، وسود كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التي الإعراض عنها أولى، وترك تسطيرها أحرى.. فلما رأيت الأمر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا، ولا أقول: إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ، فإن من هو بالموصل لابد أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول: إني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك».

خلاصة القول: كان وضع الأمة الإسلامية في الحقبة التي عاش فيها أبو الحسن علي بن الأثير سيئاً جداً، حيث كانت الصراعات المشينة في المشرق والمغرب على أشدها، علاوة على ذلك قامت جيوش جنكيز خان باجتياح البلدان الإسلامية مستهدفة بذلك قيام إمبراطورية مغولية عالمية. وبهذا عملوا أعمالاً قبيحة لا يقبلها الإنسان السوي، بل تقشعر لها الأبدان وتشمئز منها الأنفس. فقد نهبوا البيوت وقتلوا الناس الأبرياء بعشرات الآلاف. وعليه كرّس أبو الحسن علي بن الأثير جهوده الجبارة في إبراز وتحليل هذه التصرفات الهمجية لكي يتعظ منها التابعون. ولأنه شهد بنفسه مشاهد خطيرة جداً من الأحداث. أصر حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ الأتابكي عليه أن يخرج موسوعته التاريخية الشهيرة المعروفة باسم «الكامل في التاريخ» التي تحتوي على معلومات نادرة ومختصرة عن كل من بني إسرائيل والفرس والنصارى والعرب في الجاهلية، وأحداث التاريخ الإسلامي إلا ما يتصل بعصره، فقد قدم روايات تاريخية مفصلة وقيمة، أصبحت في متناول المؤرخ اللبيب.

ولقد حاول أبو الحسن علي بن الأثير الجزري أن يكون منصفاً بارعاً في جميع رواياته التاريخية، لذا كان يصفه المؤرخون في المعمورة بالاتزان في بحوثه التاريخية. والجدير ذكره أن منهجه في مجال علم التاريخ تميز بأنه تخلص بطريقة علمية من حشد الأسانيد التي كان يستخدمها معاصروه والتي كانت تعيق متابعة القارىء للحدث التاريخي، مع العلم أنه حافظ على توثيق جميع معارفه، بهذا تمكن بجدارة من تقديم تصور شامل للعلم.

عرف علي بن الأثير بتواضعه وكرم أخلاقه وغزارة مادته ورسوخ علمه وحماسه المنقطع النظير لمحاربة الغزاة الدخلاء من الصليبيين والتتر والمغول الذين دخلوا البلدان الإسلامية وأفسدوها، لذا كانت كتاباته لا يرضى عنها عملاء المستعمرين. وعليه فإن مؤلفاته تشتمل على معلومات نادرة عن الأيوبيين والزاكيين والصليبيين والتتر والمغول، بهذا صارت هي المصادر الفريدة التي يمكن أن يعول عليها الباحثون في ميدان علم التاريخ.

جمال الدين القفطي

هو **علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي**، وكنيته **أبو الحسن**، ويدعى في بعض الأحيان **بجمال الدين**، ويلقب **بالقاضي الأكرم**؛ لأنه كان من أشهر قضاة الأيوبيين، حيث كان قاضياً في عهد الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، كما أنه أيضاً كان وزيراً مرموقاً للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين بن أيوب، وذلك سنة (٦٣٣ هجرية). ولد جمال الدين القفطي بعد سنة واحدة من إعلان صلاح الدين الأيوبي نفسه سلطاناً على مصر (أي عام ٥٦٨ هجرية) بمدينة قفط من الصعيد الأعلى بمديرية قنا بمصر، وهذا سبب تسميته بالقفطي.

نما أبو الحسن القفطي وترعرع بمدينة القاهرة التي كانت تعج بكبار المفكرين الذين تتلمذ على بعضهم، ولما برع في كل من التاريخ والأدب والنحو والفقه والحديث والمنطق والرياضيات والفلك والهندسة، انتقل إلى القدس بعدما فتحها صلاح الدين الأيوبي (أي بعد الانتصار الحاسم في حطين سنة ٥٨٣ هجرية) وكان في ريعان شبابه، فمكث فيها مدة من الزمن يتلقى العلم ويعلمه، ولكنه ما لبث أن تحرك نحو مدينة حلب الشهباء فاستوطنها من عام (٥٦٨ هجرية) إلى أن توفي سنة (٦٤٦ هجرية)، حيث زاول فيهما القضاء والوزارة، وصار من علمائها المتميزين، حيث كان حريصاً جداً على اقتناء الكتب القيمة مهما كان الثمن، كما أنه لم يتزوج أبداً، لذا ركّز على بناء مكتبته الشهيرة التي جمع فيها الكتب من الآفاق ومن مؤلفاته العديدة، وقد أوصى بها للناصر صاحب حلب، وهكذا ترك وراءه ثروة عظيمة من الكتب قضى عليها الصليبيون.

يقول **محمد بن شاكر الكتبي** في كتابه آنف الذكر: «القاضي الأكرم الوزير جمال الدين أبو الحسن ابن القفطي، أحد الكتاب المشهورين، وكان

أبوه القاضي الأشرف كاتباً أيضاً. ولد بقفط من الصعيد الأعلى بالديار المصرية وأقام بحلب، وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، وكان صدراً محتشماً كامل السؤدد، جمع من الكتب ما لا يوصف وقصد بها من الآفاق، وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم يكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوي خمسين ألف دينار، وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب».

لقد استفاد جمال الدين القفطي فائدة كبيرة من صلاته القوية بحكام الدولة الأيوبية، حيث حصل على معلوماته الأولية من مصادرها الأصلية وقد استخدمها في تأليف كتبه القيمة. والجدير بالذكر أن الكثير من المؤرخين نوهوا عن عدد ونوعية كتبه بطريقة تدل على أن أبا الحسن القفطي كان يتبوأ مكانة عالية بين زملائه، ومن بين هؤلاء المؤرخين ياقوت الحموي الذي ذكر في كتابه آنف الذكر قائمة طويلة منها وهي: كتاب الضاد والظاء، وكتاب الدر الثمين، وكتاب من ألوت الأيام عليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته، وكتاب أخبار المصنفين وما صنفوه، وكتاب أخبار النحويين، وكتاب تاريخ مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين، وكتاب المغرب ومن تولاها من بني تومرت، وكتاب تاريخ اليمن، وكتاب المحلى في استيعاب وجوه كلا، وكتاب الإصلاح لما وقع من الخلل في كتاب الصحاح للجوهري، وكتاب الكلام على الموطأ، وكتاب الكلام على الصحيح للبخاري، وكتاب تاريخ محمود بن سبكتكين وبنيه إلى حين انفصال الأمر عنهم، وكتاب أخبار السلجوقية، وكتاب الإيناس في أخبار آل مرداس، وكتاب الرد على النصارى وذكر مجامعهم، وكتاب مشيخة زيد بن الحسن الكندي، وكتاب نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحسن ما نقل من على ظهور الكتب، وكتاب إنباه الرواة على أنباء النحاة.

وخلاصة القول: أدرك أبو الحسن علي القفطي الحقبة التي كانت الدولة الأيوبية في عز مجدها أيام الملك صلاح الدين الأيوبي، ولكن العائلة الأيوبية انقسمت واختلفت فيما بينها، وصار صراع شديد بين الملوك الأيوبيين، مما جعلهم يستعينون بالجنود المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة، وهذا أعطى المماليك السلطة والنفوذ والحكم والإدارة والقوة الحربية، واستمرت الحالة في تدهور إلى أن تآكلت الدولة الأيوبية بعد وفاة جمال الدين القفطي بأربع سنوات، وهكذا قامت دولة المماليك سنة (٦٥٠ هجرية). ولاشك أن جمال الدين القفطي استفاد فائدة عظيمة من معايشته لهذه الأحداث التاريخية، حيث دونها في كتبه، لذا أصبحت مؤلفاته من المصادر الهامة التي لا يستغني عنها الباحث ليس فقط في فترة حكم الأيوبيين، ولكن في علم التاريخ بوجه عام.

وكان أبو الحسن علي القفطي ذا مقام كبير عند قادة الدولة الأيوبية، حيث أحاطوه بضروب من الرعاية والعناية، وولوه مناصب قيادية في دولتهم، وهذا ساعده في جمع مادته التاريخية التي استخدمها في مؤلفاته العديدة، وعليه كان له أكبر الأثر في تقدم علم التاريخ بين المؤرخين العرب والمسلمين. والحقيقة أن الوزير الأكرم جمال الدين القفطي عمل أعمالاً جليلة يحمد عليها في خدمة أمته، وذلك عن طريق إسهاماته العلمية المتنوعة، فعلى سبيل المثال لا الحصر نال شهرة عظيمة بين زملائه والتابعين بكتابه القيم «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» الذي يحتوي على تراجم العلماء وأخبار مصنفي الكتب والحكماء، وللأسف الشديد أن هذا الكتاب لم يحقق ويطبع حتى يومنا هذا، بل لا يزال على أحد رفوف مكتبة (بني جامع) في الآستانة ينتظر أحد أبناء الأمة العربية والإسلامية أن يقوم بهذا الجهد الحميد.

قام محمد بن علي بن محمد الزوزني باختصار كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين القفطي وأعطاه اسم «تاريخ الحكماء» (وهو معروف بالأوساط العلمية أنه مختصر الزوزني المسمى «بالمنتخبات الملتقطات من كتاب

إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين القفطي). وللمعلومة فإن لهذا الكتاب شأناً كبيراً في عالم الفكر والارتقاء التاريخي، حيث هو الأساس الذي شيدت عليه الكتابة الدقيقة المحققة عبر العصور في دراساتهم عن تراجم العلماء. وأخيراً لا يخفى على القارىء أن أبا الحسن القفطي يعد من عباقرة العالم العربي والإسلامي الذين وضعوا أسساً هامة في مجال علم التاريخ.

عمر بن العديم

هو **عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي**، كنيته **أبو القاسم**، وفي بعض الأحيان يدعى **كمال الدين**، لقبه **ابن العديم**، وقد اختلف في سبب هذه التسمية، لكن ياقوت الحموي ينقل في كتابه آنف الذكر عن ابن العديم أنه عندما سأله: لم سميتم ببني العديم؟ قال: «هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا، ولا أحسب إلا أن جد جدي القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن زهير بن جرادة ـ مع ثروة واسعة، ونعمة شاملة ـ كان يكثر في شعره من ذكر العدم، وشكوى الزمان، فسمي بذلك، فإن لم يكن هذا سببه فلا أدري ما سببه؟».

ولد عمر بن العديم بمدينة حلب الشهباء سنة (٥٨٦ هجرية)، وتلقى تعليمه الأولي فيها على أيدي كبار المفكرين، ختم القرآن حفظاً وله تسع سنين، ولكنه لم يكتف بذلك، بل كان يتنقل مع والده في رحلات كثيرة بين دمشق والقدس والعراق ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وهو في ريعان شبابه لطلب العلم حتى نبغ في كل من علم التاريخ والأدب والشعر والفقه والحديث، كما اشتهر بين زملائه ببلاغته وبيانه وأسلوبه الرائع، فهو مؤرخ عظيم من أهل حلب امتاز عن غيره بعمق وسعة ثقافته في ميدان علم التاريخ، حيث إن معظم مؤلفاته تحوم وتدور حول الموضوعات التي لها علاقة قوية بالأحداث التاريخية.

نشأ أبو القاسم عمر بن العديم في بيئة علم وثراء في وقت كان الناس في أمس الحاجة إلى لقمة العيش، كما أنه كان منذ نعومة أظافره وهو يجالس كلاً من رجال الدولة والعلماء المرموقين، لذا كان معلماً ناجحاً حتى صار طلاب العلم يأتون ليتتلمذوا على يده من كل حدب وصوب. زار مصر التي كانت تعج بجهابذة الفكر حينئذ، وبقي هناك مدة من الزمن بين علمائها،

ولكنه ما لبث أن عاد إلى مسقط رأسه مدينة حلب، فرأى ما عمله المغول من خراب لهذه المدينة الآمنة، فحزن حزناً شديداً، وعاد إلى مصر مرة ثانية، ولكنه لم يبق طويلاً، بل توفي بعد سنتين، وذلك عام (٦٦٠ هجرية).

يقول **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر: «إن الله عز وجل عني بخلقة عمر بن أحمد بن أبي جرادة (المعروف بابن العديم)، فأحسن خلقه وخُلُقه وعقله وذهنه وذكاءه، وجعل همته في العلوم ومعالي الأمور، فقرأ الأدب وأتقنه، ثم درس الفقه فأحسنه، ونظم القريض فجوده، وأنشأ النثر فزينه، وقرأ حديث الرسول ﷺ وعرف علله ورجاله، وتأويله وفروعه وأصوله، وهو مع ذلك قلق البنان جواد بما تحوي اليدان، وهو كاسمه كمال في كل فضيلة، لم يعتن بشيء إلا وكان فيه بارزاً، ولا تعاطى أمراً إلا وجاء فيه مبرزاً، مشهور ذلك عنه لا يخالف فيه صديق ولا يستطيع دفاعه عدو».

يعتبر عمر بن العديم عالماً متمكناً في مجال علم التاريخ، حيث كانت أعماله أعمالاً مستقلة، فلم يقلد فيها المؤرخين السابقين له، هذا يظهر من مؤلفاته العديدة التي ذكر بعضها محمد بن شاكر الكتبي في كتابه آنف الذكر ومنها: كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب (اختصره في كتاب آخر سماه زبدة الحلب في تاريخ حلب)، وكتاب سوق الفاضل، وكتاب التذكرة، وكتاب الدراري في الذراري، ورسالة في وصف الطبيب، وكتاب ضوء الصباح في الحث على السماح، وكتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة، وكتاب دفع الظلم والتحري عن أبي العلاء المعري، وكتاب الخط وآدابه ووصف طروسه وأقلامه، وكتاب تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد.

وخلاصة القول: ركّز عمر بن أحمد العديم في دراساته وبحوثه على الأحداث التاريخية؛ لأنه يعتقد أنه ليس بالإمكان فهم الحاضر دون الرجوع إلى دراسة الماضي بحيثياته المختلفة، الإيجابية منها والسلبية، كما شجعه أيضاً على هذا الاتجاه اهتمام الخلفاء والأمراء والحكام حينئذ بعلم التاريخ؛ لأنه

يحتوي على معلومات ثمينة جداً كانوا يأخذون منها العبرة والموعظة. وعليه أثرى كمال الدين عمر بن العديم المكتبة الإسلامية بإسهاماته الرائعة في هذا المجال الحيوي وغيره.

ولقد مر كمال الدين عمر بن العديم بظروف قاسية جداً، حيث إن الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي في عهده كانت غير مستقرة، بل مضطربة، فقد اجتاحت جيوش المغول بغداد عام (٦٥٦ هجرية) وقضت تماماً على الخلافة العباسية هناك، ثم زحفوا على بلاد الشام الآمن وعملوا أعمالاً همجية خطيرة، فانزعج كمال الدين بن العديم من هذا التصرف الذي ينم عن جهل وعداوة، ولكن الشعرة التي قصمت ظهر البعير التخريب الذي حصل من جيوش المغول الطاغية لمدينة حلب مسقط رأسه، مما جعله لا يستطيع البقاء فيها فاتجه إلى مصر ليسكنها، ولكنه لم يبق طويلاً هناك، حيث توفي بعد عامين والحزن والآسى يمزقان أحشاءه.

كان أبو القاسم بن العديم يتصف بصفات نادرة، فكان محدثاً بارعاً بليغاً ومؤرخاً أميناً حافظاً ومحللاً منطقياً، وقد امتدحه ياقوت الحموي في كتابه المذكور سابقاً قائلاً: «عمر بن العديم أتى من بيت أبي جرادة، بيت مشهور من أهل حلب، أدباء شعراء فقهاء، عباد زهاد قضاة، يتوارثون الفضل كابراً عن كابر وتالياً عن غابر». والمتواتر أن أبا القاسم ابن العديم قضى جل وقته في المطالعة والكتابة في علم التاريخ حتى صار إماماً لعلماء التاريخ، يشهد له الكافة ويقتدي به طلاب العلم، فقد خلف مؤلفات عديدة تدل على علو كعبه، وأصالة فكره، وهكذا يقف ابن العديم عملاقاً بين مؤرخي المسلمين الذين خدموا الحضارة العربية والإسلامية.

عبد الرحمن أبو شامة

هو **عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي** وفي بعض الأحيان يسمى **الدمشقي**، كنيته **أبو محمد**، ولقبه **شهاب الدين**، ولكنه عرف بأبي شامة لأن فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة. ولد بمدينة دمشق سنة (٥٩٩ هجرية)، ونما وترعرع في بيئة متواضعة، فعائلته التي أصلها من القدس لم يذكر لأفرادها تفوق علمي أو سياسي، وهذا لم يؤثر أبداً على شعور عبد الرحمن أبي شامة، بل على العكس تماماً اهتم في دراسة العلوم المختلفة، وحفظ القرآن وهو في سن العاشرة من العمر، ونال شهرة عظيمة في ريعان شبابه كمفسر وفقيه وأصولي ونحوي ومنطقي بليغ، ولكنه في آخر أيام حياته اتجه إلى دراسة علم التاريخ، فنبغ فيه وكتب فيه كتابات في غاية الأهمية.

أدى شهاب الدين أبو شامة مناسك الحج بصحبة والده سنة (٦٢١ هجرية)، وهناك التقى بكبار أساتذة الحديث والفقه ونهل من غزير علومهم، وبعد ثلاث سنوات زار القدس للدراسة والبحث والصلاة في المسجد الأقصى، ولم يكتف بهذا بل قام برحلة علمية لمصر سنة (٦٢٨ هجرية)، والثابت أن جميع رحلاته لطلب العلم وليست للنزهة. والجدير ذكره أن عبد الرحمن أبا شامة انصرف تماماً عن المناصب الحكومية، وتفرغ للدراسة والبحث والتدريس، لذا تتلمذ على يده أعداد هائلة من طلاب العلم الذين أتوا إلى مدينة دمشق من كل حدب وصوب؛ لكي ينهلوا من ثقافته المتنوعة، فأخذوا من كل علم بنصيب. اشتهر شهاب الدين أبو شامة بين معاصريه بالنزاهة والصدق وسلاسة الأسلوب، لذلك عُين مدرساً في المدرسة الركنية سنة (٦٦٠ هجرية) ولم يستمر فيها طويلاً، بل نقل إلى المدرسة الأشرفية كمدرس، وأسند إليه مشيخة دار الحديث الأشرفية، وبقي يزاول وظيفته إلى أن قتل سنة (٦٦٥ هجرية).

يرى شهاب الدين أبو شامة أن مهنة التدريس أشرف مهنة على وجه البسيطة، لذا فرغ نفسه لهذه المهمة، وكان أستاذاً متواضعاً زاهداً في الدنيا وحطامها متمكناً من مادته. لم يحاول أبداً أن يجعل بينه وبين سواد الناس أي حاجز، فبيته كان مفتوحاً لطلاب العلم وغيرهم. والمتواتر أن اثنين جبليين دخلا بيته ومعهما فتوى فضرباه ضرباً شديداً، فمرض نتيجة لهذا الضرب ومات بعد فترة وجيزة، ويقول **تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السُّبكي** في كتابه آنف الذكر حول هذا الحادث الأليم: «ودخل على شهاب الدين أبي شامة اثنان إلى بيته في صورة المستفتين فضرباه ضرباً مبرحاً، فاعتل به إلى أن مات، في سنة خمس وستين وست مئة، وكتب هو في (تاريخه) المحنة التي اتفقت له، وذكر تفويض أمره إلى الله تعالى، وعدم مؤاخذة من فعل ذلك، وأنشد لنفسه:

قل لمن قال أما تشتكي ... ماقد جرى فهو عظيم جليل

يقيض الله تعالى لنا ... من يأخذ الحق ويشفي الغليل

إذا توكلنا عليه كفى ... فحسبنا الله ونعم الوكيل»

كتب شهاب الدين أبو شامة في شتى فروع المعرفة، وتفوق فيها إلى درجة جعلت حكام زمانه يحترمونه احتراماً يليق بمكانته العلمية المرموقة. وعليه ركّز في آخر أيام حياته على علم التاريخ لأهميته ولصلته القوية في جميع العلوم. وقد ورد في مصادر كثيرة بعض مؤلفاته في ميدان علم التاريخ. ولاشك أن أبرز مؤلفاته في هذا المجال كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» (الصلاحية والنورية) الذي قال عنه **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر ما نصه: «استطاع عبد الرحمن أبو شامة في مهارة بارعة جداً أن يؤلف كتاباً متوازياً كاملاً شاملاً في تاريخ الفترة الممتدة بين مطلع العهد النوري (حوالي ٥٤٠ هجرية) إلى وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩ هجرية)، وذلك عن طريق

جمع مقتطفات حسنة الاختيار محبوكة الرصف بعضها وراء بعض، اقتطفها من مختلف المصادر المعاصرة بمنتهى الذكاء والدقة. وهكذا جاء الكتاب مجموعة من حوالي ألف قطعة مقتبسة أو بالضبط (٩٦١) أخذت عن (٢٢) مرجعاً.. وبعض المصادر التي اعتمدها أبو شامة ضائعة، وهذا ما أعطى كتابه قيمة هامة، كما أنه أكثر من الاعتماد على الوثائق، فلديه منها ما يزيد على (٢٠٦) وثيقة، يأتي بها في مواضعها لتوثيق تاريخه، وهذا ما أعطى كتابه قيمة أخرى.. وكان ينقد ويناقش ويضيف، ويوضح في إيجاز ودقة واستشهاد بما شاهد أو عرف أو سمع.. أو باللجوء إلى المنطق، وهذا بدوره مما ميز الكتاب وزاد في قيمته كمرجع موثوق».

وخلاصة القول: في الفترة التي عاش فيها عبد الرحمن أبو شامة كانت هناك نشاطات فكرية وثقافية في العالم الإسلامي، على الرغم من تدهور الوضع السياسي الذي كان يدب في الدولتين الزنكية والأيوبية، مما دفع القوى الخارجية مثل الصليبيين والبيزنطيين أن ينتهزوا الفرصة لينهشوا فيهم ويؤذوهم في عقر دارهم، لذا اندفع كبار المفكرين في العالم الإسلامي إلى البحث والتنقيب في تراث السلف الصالح باحثين عن طريق يمكنهم الاستفادة من خبرة الأجداد الأوائل؛ لكي يحلوا المشاكل السياسية والاجتماعية والتعليمية. وعليه ركّز عبد الرحمن أبو شامة في دراسة كل ما يتعلق بالعلم والعلماء، وأخذ على عاتقه إبراز دور علماء المسلمين، ليس فقط في العلوم التاريخية ولكن في سائر العلوم، ولعل قادة العالم الإسلامي يتأسون بالمسلمين الأوائل، ويتركون الانقسامات والحروب وراء ظهورهم، ويهتمون بإحياء التراث الإسلامي بفروعه المختلفة، بهذا استطاع المؤرخ عبد الرحمن أبو شامة من جمع الكثير من المعارف النادرة التي دونّها في مؤلفاته الكثيرة التي صارت من المصادر الهامة جداً للباحثين عبر التاريخ.

وتكاد تكون جميع مؤلفات شهاب الدين أبو شامة على مستوى كتابه

«الروضتين في أخبار الدولتين»، ومنها: الذيل على الروضتين (والمعروف باسم تراجم رجال القرنين السادس والسابع)، والمرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، وشرح الحديث المقتفى في مبعث المصطفى، وضوء القمر الساري إلى معرفة الباري، والباعث إلى إنكار البدع والحوادث، والممتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب، والمرقوم في جملة العوم، وجامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى، ومختصر تاريخ بغداد، ومقدمة في النحو، وإبراز المعاني في حرز الأماني في القراءات، والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول وغيرها.

جميع مؤلفات شهاب الدين أبي شامة المختلفة تحتوي على استشهادات وانتقادات قيمة وبناءة، لا يستغني عنها الباحث اللبيب، كما أنه استخدم الشعر كنوع من الشواهد القوية بطريقة محكمة، والثابت أن شهاب الدين أبا شامة كان مثابراً ومتفانياً في عمله، وذلك لكي يتمكن من إتقانه وفهم أسراره. الآن نستطيع القول: إن شهاب الدين أبا شامة من كبار علماء المسلمين الذين تركوا مآثر جليلة في سائر العلوم وخاصة في مجال علم التاريخ.

ابن خلكان الإربلي

هو **أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان**، كنيته **أبو العباس**، وأحياناً يدعى **شهاب الدين**، ولقبه **الإربلي** نسبة إلى مدينة إربل التي تقع بالشاطىء الشرقي من نهر دجلة بالقرب من مدينة الموصل الشهيرة بعلمائها ومكتباتها، وقد ولد فيها (سنة ٦٠٨ هـ) وبقي فيها كل سنوات طفولته، فتلقى تعليمه الأولي بكل من مدارس وزوايا وحلقات مدينة إربل الخضراء. ولقد نما وترعرع شهاب الدين بن خلكان في بيئة علمية مرموقة، حيث اشتهر معظم أفراد عائلته بالعلم والأدب والحديث. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين يسمونه البرمكي؛ وذلك لأنه ينتمي إلى أسرة عريقة من بيت كبير من البرامكة. عندما بلغ ثماني عشرة سنة من عمره بدأ بالزيارات العلمية إلى بعض مراكز العلم في العالم الإسلامي مثل حلب والقدس ودمشق والقاهرة. وقد استوطن مصر وتزوج فيها، وبقي هناك يتلقى العلم على يد كبار علمائها، فأُسند إليه نيابة القضاء فيها لحكمته وفراسته وعلمه الغزير. وفي عام (٦٥٩ هـ) دخل الملك الظاهر بيبرس مصر منتصراً بعد معركة جالوت، فعين شهاب الدين بن خلكان قاضياً للقضاة في بلاد الشام، إضافة إلى ذلك كان يدرس طلابه في كل من مدرسة العادية والناصرية والإقبالية، وتوفي بمدينة دمشق عن عمر يناهز ٧٣ سنة (أي عام ٦٨١هـ).

لقد ذاع صيت شهاب الدين بن خلكان بين زملائه بكل من العدالة والإنصاف والبعد كل البعد عن الطائفية والصدق والأمانة والفراسة وقوة الشخصية والشجاعة على قول الحق والصبر والمثابرة، وهذه الصفات العظيمة أهلته لأن يكون بجدارة قاضي القضاة في مدينة دمشق التي كانت تعج بجهابذة العلم. يقول **أبو الفلاح عبد الحي بن العماد** في كتابه «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» ـ الجزء الخامس ـ: «جمع أبو العباس ابن خلكان

كلاً من حُسن الصورة، وفصاحة المنطق، وغزارة الفضل، وثبات الجأش، ونزاهة النفس، ووافر الحرمة من سرورات الناس، كريماً جواداً ممدحاً، ومن محاسنه أنه كان لا يجسر أحد أن يذكر عنده أحداً بغيبة». وأضاف **محمد شاكر الكتبي** في كتابه آنف الذكر قائلاً: «كان شهاب الدين بن خلكان فاضلاً بارعاً متقناً عارفاً بالمذهب، حسن الفتاوى، بصيراً بالعربية، وعلامة في الأدب والشعر، وأيام الناس، كثير الاطلاع حلو المذاكرة، وافر الحرمة، وصنف كتاب «وفيات الأعيان» وقد اشتهر كثيراً، وله مجاميع أدبية».

وضع المؤرخون المسلمون العديد من المعاجم التي تتناول تراجم طبقات معينة من الرجال، ولكن أبا العباس ابن خلكان اختلف عنهم فألف كتاباً رائعاً بعنوان: «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» جمع فيه تراجم عامة، وهذا الاختلاف يظهر واضحاً فيما ذكره في فاتحة كتابه المذكور أعلاه حيث يقول: «هذا مختصر في التاريخ، دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم ومواليدهم، ومن جمع منهم كل عصر، فوقع لي منه شيء حملني على الاستزادة وكثرة التتبع، فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين له ما لم أجده في كتاب، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة، وغلق على خاطري بعضه فصبرت إذا احتجت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه إلا بعد التعب في استخراجه، لكونه غير مرتب، فاضطررت إلى ترتيبه، فرأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين، فعدلت إليه، والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة، ثم من كان ثاني حرف من اسمه الهمزة أو ما هو أقرب إليها على غيره. ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء، بل كان من له شهرة بين الناس، ويقع السؤال عنه ذكرته، وأتيت منه أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب،

وأثبت وفاته ومولده إن قدرت عليه، ورفعت نسبه على ما ظفرت به، وقيدت من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه، وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله، ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمله، والدواعي إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفنناً».

وخلاصة القول: أسندت دولة بني سلجوق حكم كل من بلاد الشام ومصر إلى مماليكهم الذين استرقوهم وهم صغار.. وقد اهتموا بتربيتهم وتعليمهم اهتماماً بالغاً. كما درَّبوهم أيضاً على كل من قيادة الجيش والشؤون السياسية والإدارية والاقتصادية، لذا تمكن المماليك من السيطرة تماماً على دولة بني سلجوق، حيث أصبح لهم نفوذ قوي في جميع أمور الدولة آنذاك، وعليه عني أبو العباس ابن خلكان عناية متناهية في الكتابة عن دولة المماليك ومشاهير كل من السلطنتين المتعاقبتين الأيوبية والمملوكية؛ لأنه عاصرهما، وبهذا تعتبر أعماله من المراجع الضرورية للباحثين في مجال تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية.

ولقد تميزت شخصية شمس الدين بن خلكان بالقوة والشجاعة على قول كلمة الحق وعلو الهمة، والمثابرة على العمل والصدق والأمانة وتحري الحقيقة، والثابت أنه يعتبر في مقدمة مؤرخي التراجم، وأوائل المؤلفين في القرن السابع الهجري، ويظهر ذلك واضحاً في موسوعته المتكاملة والشاملة «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» التي تحتوي على ثروة عظيمة من المعلومات عن رجال العلم والتاريخ والأدب، حصل عليها من كتب التاريخ والأخبار وأفواه الأئمة المعتمدين، كما عرض ابن خلكان مادته العلمية في لغة سليمة وبسيطة مبتعداً عن التعصب والتحيز والهوى.

ولم يقتصر قاضي القضاة ابن خلكان في موسوعته آنفة الذكر على تراجم طائفة أو مجموعة من الأعلام مثل الملوك والسلاطين والأمراء ورجال

الدولة، بل ركّز فيها على كل من لـه إسـهامات علميـة وشـهرة بـين النـاس. والجدير بالذكر أن رحلاتـه الكثـيرة، وتنقلاتـه بـين كبـار المفكريـن في العـالم الإسلامي، واطلاعه الواسع على كتب الـتراجم والتـاريخ، كـل هـذا سـاعده على تفوقه الملحوظ بين زملائه، ليس فقـط في علـم التـاريخ ولكـن في سـائر العلوم الأخرى مثل الفقه والأدب وفن كتابة السير والـتراجم. إذن لا عجـب أن يُقال عن أبي العباس ابن خلكان: «إنه المؤرخ الحجة والأديب اللامع».

علم الدين البرزالي

هو **القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي** وفي بعض الأحيان يسمى **الدمشقي**، ويكنى **بأبي محمد** ويُلقب **بالإشبيلي** لأن أصله من إشبيلية، أما تسميته الدمشقي فلأنه ولد بمدينة دمشق سنة (٦٦٥ هجرية)، ونشأ وترعرع فيها، وتلقى تعليمه على أيدي كبار المفكرين هناك، وقد تفوق على زملائه طلاب العلم في كل من التاريخ، فأنتج إنتاجاً رائعاً في هذا المجال الحيوي.

كان علم الدين القاسم البرزالي مؤرخاً لامعاً وعاشقاً لعمله المفيد والنافع بحق وحقيق، كما أنه على جانب كبير من الورع والتقوى، لذا احتل بجدارة مكانة علمية مرموقة بين زملائه. والجدير ذكره هنا أنه لم يكتف بالمعارف التي تلقاها على علماء المسلمين المشهورين في دمشق، ونتيجة لذلك كان يتنقل كثيراً بين دمشق وكل من حلب وبعلبك ومرو ومكة، وذلك للالتقاء بجهابذة العلم في هذه المدن التي كانت تعج بهم، والمعروف أن أبا محمد البرزالي كان من كبار المفتين في دمشق، وذلك لما عرف عنه من الدقة والصراحة والقدرة على استخلاص الأحكام الشرعية من القرآن والسُّنة النبوية، وكما تولى مشيخة النورية ومشيخة دار الحديث بدمشق، وأوقف كتبه وعقاراً كبيراً على الصدقات، وتوفي بخليص (بين مكة المكرمة والمدينة المنورة) سنة (٧٣٩ هجرية)، بهذا فقدت الأمة الإسلامية مؤرخاً كان من أبرز مؤرخي عصره.

ويقول **محمد بن شاكر الكتبي** في كتابه آنف الذكر: «وللشيخ الإمام الحافظ المحدث المؤرخ، علم الدين أبو محمد البرزالي تاريخ، بدأ فيه من عام مولده الذي توفي فيه الإمام أبو شامة، فجعله صلة لتاريخ أبي شامة في خمس مجلدات، وله مجاميع وتعليقات كثيرة، وعمل في فن الرواية عملاً قل من يبلغ إليه، وبلغ عدد مشايخه بالسماع أكثر من ألفين، وبالإجازة أكثر من ألف، رتبهم وترجمهم في مسودات متقنة، وكان رأساً في صدق اللهجة والأمانة،

صاحب سنة واتباع ولزوم الفرائض، خيراً متواضعاً حسن البشر عديم الشر، فصيح القراءة مع عدم اللحن، قرأ ما لا يوصف كثره وروى، وكان عالماً بالأسماء والألفاظ، وكان فيه حلم وصبر وتودد، ولا يتكثر بفضائله ولا ينتقص بفاضل، بل يوفيه فوق حقه، يلاطف الناس، وله ود في القلوب وحب في الصدور، وكان حلو المحاضرة قوي الذاكرة عارفاً بالرجال، لا سيما أهل زمانه وشيوخهم، لم يخلف بعده مثله».

كان لأبي محمد القاسم البرزالي أثر بالغ في تقدم علم التاريخ، لذا حزن لوفاته علماء المسلمين حزناً شديداً وهذا يظهر واضحاً من بعض أبيات الشعر التي أنشدها القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله في رثائه له، ونقلها **تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السُّبكي** في كتابه آنف الذكر ومنها:

قد كان في قاسم من غيره عوض ... فاليوم لا قاسم فينا ولا قسم

من لو أتى مكة مالت أباطحها ... به سروراً وجادت أفقها الديم

أقسمت منذ زمان ما رأى أحد ... لقاسم شبهاً في الأرض لو قسموا

هذا الذي يشكر المختار هجرته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

ما كان ينكره رمي الحطيم به ... لو آخر العمر حتى جاء يستلم

له إليه وفادات تقر بها ... جبال مكة والبطحاء والأكم

محدث الشام صدقاً بل مؤرخه ... جرى بهذا وذا فيما مضى القلم

يا طالب العلم في الفنين مجتهداً ... في ذا وهذا ينادى المفرد العلم

ومنها:

وحقق النقد حتى بان بهرجه ... وصحح النقل حتى مابه سقم

وعرف الناس كيف الطرق أجمعها ... إلى النبي فما حاروا ولا وهموا

وعلم الخلق في التاريخ ما جهلوا   وبعض ما جهلوا أضعاف ما علموا

يريك تاريخه مهما أردت به   كأن تاريخه الآفاق والأمم

كان أبو محمد القاسم البرزالي مستقلاً في آرائه واتجاهاته التاريخية، فهو بعد أن اطلع على إسهامات المؤرخين الأوائل وفحصها ودرسها، تكون عنده منهج رائع ساعده على أن يشارك في تطوير علم التاريخ مشاركة فاعلة، ويتضح ذلك من مؤلفاته ومنها: تاريخ البرزالي «خمس مجلدات»، ومعجم الشيوخ الذي يحتوي على ألفي شيخ في أربعة وعشرين مجلداً، وذيل تواريخ دمشق للحافظ أبي الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي «٤٩٩ - ٥٧١ هجرية».

وخلاصة القول: لقد كان لدولة المماليك البحرية (٦٤٨ — ٧٩٢ هجرية) أثر عظيم على الأقطار الإسلامية، لذا تحمس أبو محمد القاسم البرزالي على جمع المعلومات التاريخية عنها، ودراستها وتحليلها تحليلاً علمياً دقيقاً ونزيهاً بعيداً كل البعد عن التحيز، ونتيجة لذلك خلف إنتاجاً علمياً بالغ الأهمية، ليس فقط عن شيوخ وعلماء دولة المماليك البحرية، ولكن عن جهابذة الفكر في الحضارة الإسلامية، وعليه كان المؤرخون حينئذ يتمتعون في قراءة مؤلفاته الرائعة.

وكان أبو محمد القاسم البرزالي باحثاً نشطاً ومؤرخاً من الطراز الأول، لذا فقد سئم من آراء وتحليلات بعض المؤرخين الذين كانوا يعيشون حوله في مدينة دمشق، مما جعله يزور عدداً كبيراً من المراكز الإسلامية باحثاً عن الحقيقة العلمية، ولكنه في أواخر أيامه استقر بمدينة دمشق، وفرغ نفسه للكتابة في مجال علم التاريخ. لقد كان يعتمد كلياً على المراجع الأولية في جميع مؤلفاته، لذا أكسبه منهجه هذا في الكتابة شعبية وسمعة حسنة عند الدارسين والباحثين عبر التاريخ.

شمس الدين الذهبي

هو **محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي**، يكنى بأبي عبد الله، وفي بعض الأحيان **بشمس الدين**، ويلقب **بالدمشقي**. نشأ وترعرع في بيئة دينية وعلمية، فنما عنده حب العلم واحترام وإجلال العلماء، وعليه ركز في دراسته على علمي الفقه والتاريخ، وتفوق في كل منهما تفوقاً ملحوظاً. ولد سنة (٦٧٣ هجرية) بمدينة دمشق التي كانت من أكبر مراكز الحياة الفكرية، حيث كان العلماء الكبار يأتون إليها من كل حدب وصوب للاجتماع بجهابذة الفكر هناك، وتوفي أيضاً بمدينة دمشق عن عمر يناهز الخامسة والسبعين سنة. وأصله تركماني، وأخذ اسم الذهبي عن والده الذي كان صائغاً للمجوهرات الذهبية، فقد بصره سنة (٧٤١ هجرية) أي قبل وفاته بسبع سنوات، اشتهر بمقدرته الفريدة على التحقيق، ولذا عرف باسم العلامة المحقق، كما حصل على لقب المحدث وهو في الثامنة عشرة من عمره، حيث بقي يبحث ويستقصي في مجال علم الحديث حتى رسخت قدماه فيه وذاع صيته بين زملائه. ولقد زار معظم الأقطار الإسلامية لكي يلتقي بكبار المفكرين هناك. فنبغ في كل من العلوم الدينية والتاريخ والنحو والأدب والشعر، ولكنه عني عناية خاصة في تراجم العلماء الكبار حتى أصبحت أساس الكثير من مؤلفاته التاريخية. والجدير بالذكر أنه تمكن من أداء مناسك الحج بيسر سنة (٦٩٨ هجرية)، وأخذ عن كبار علماء الحجاز الكثير من علومه الشرعية، لذا صار في هذا المجال موسوعة تمشي على قدمين. والحقيقة التي يجب أن لا تخفى على القارىء أن أبا عبد الله الذهبي عاش في فترة من الزمن كانت الحياة الفكرية والدينية في أدنى مستوى، ولكن هذا لم يؤثر على إنتاجه العلمي، بل على العكس تماماً؛ لأنه اعتبر هذا التخلف تحدياً له، مما جعله يعمل ليلاً ونهاراً لإبراز معالم الحضارة العربية والإسلامية.

يقول **صلاح الدين الصفدي** في كتابه آنف الذكر: «الشيخ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، حافظ لا يجارى، ولافظ لا يبارى،أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس، ذهن يتوقد ذكاؤه، ويصح إلى الذهب نسبته وانتماؤه، جمع الكثير، ونفع الجم الغفير، وأكثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مؤنة التطويل في التأليف، وقف الشيخ **كمال الدين بن الزملكاني** ـ رحمه الله ـ على تاريخه الكبير (تاريخ الإسلام) جزءاً بعد جزء إلى أن أنهاه مطالعة وقال: «هذا الكتاب علم، اجتمعت به وأخذت عنه، وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه، ولم أجد عنده جمود المحدثين، ولا كودنة النقلة بل هو فقه النظر، له دراية بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف، وأرباب المقالات، وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده، حتى يبين ما فيه من ضعف متن أو ظلام إسناد أو طعن في رواته، وهذا لم أر غيره يرعى هذه الفائدة فيما يورده».

اهتم أبو عبد الله الذهبي في بادىء حياته العلمية في القراءات حتى صار ينعت بإمام القراءات، ثم اتجه إلى اختصار أمهات الكتب في شتى المعارف، وبعد مدة شعر بالنضج، فشرع بتصنيف الكتب العديدة التي تربو على مئتين وخمسة عشر مصنفاً، وقد نوه عنها في مقدمة كتابه آنف الذكر. وعليه نذكر هنا بعض الكتب التي تتعلق في علم التاريخ وهي: أخبار قضاة دمشق، والإرشاد إلى وفيات الأعيان، والمنتقى من تاريخ الإسلام، والإعلام بوفيات الأعلام، والأمصار ذوات الآثار، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، التاريخ الممتع، وتذكرة الحفاظ وتراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق، وتسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري، ودول الإسلام، وسير أعلام النبلاء وطبقات الشيوخ، والعباب في التاريخ والعبر في خبر من عبر، ومعجم الشيوخ الكبير، ومعجم الشيوخ الأوسط، ومعجم الشيوخ الصغير، والمعجم المختص بمحدثي العصر، والمعين في طبقات المحدثين، وميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيرها.

وخلاصة القول: حرص مؤرخو العرب والمسلمين أن يجعلوا مادتهم التاريخية التي يتناقلها جيل بعد جيل تعتمد على العلوم الشرعية. لذا نجد أن معظم المؤرخين في صدر الإسلام، كانوا يركزون في دراستهم وبحوثهم على السيرة النبوية والمغازي، وتراجم رجال العلم والفقه والحديث. من هنا يتضح تماماً للقارىء الأسباب التي دفعت مؤرخي العرب والمسلمين لأن يهتموا بتاريخ الرُسل والأنبياء، وعليه استطاع أبوعبد الله الذهبي أن يجمع وبجدارة فائقة بين كل من الفقه والحديث والتاريخ، حيث أصبح محدثاً بارعاً ومؤرخاً ناقداً، على الرغم من تخلف الحياة العلمية في عصره.

ويقول **بشار عواد معروف** في تقديمه لكتاب «سير أعلام النُبلاء» ـ الجزء الأول ـ لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: «وعلى الرغم من أن شمس الدين عاش في بيئة غلب عليها الجمود والنقل والتلخيص، فإنه قد تخلص من كثير من ذلك بفضل سعة دراساته وفطنته، وكان مفهوم التاريخ عند الذهبي يتصل اتصالاً وثيقاً بالحديث النبوي الشريف وعلومه، وقد ظهر ذلك في عنايته التامة بكتب التراجم التي قامت عليها شهرته الواسعة باعتباره مؤرخاً. وقد جعلت منه معرفته الرجالية الواسعة ناقداً ماهراً، ظهر ذلك في مؤلفاته المعنية بالنقد، وفي التفاتاته البارعة في أصول النقد، ورده الكثير من الروايات، وتخطئته لكبار النقاد، وقدرته الفائقة على البحث والاستدلال».

ولقد تفنن أبو عبد الله الذهبي بكل من تخريج الأحاديث الصحيحة وتطوير منهج تاريخي هام جداً، حيث تمكن من جعل علم التاريخ يتصل اتصالاً واضحاً وجلياً في مؤلفاته الكثيرة التي لا تخلو منها أيّة مكتبة، ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن أيضاً في العالم ككل، لأهميتها كمراجع ومصادر للباحثين في ميدان علم التاريخ، حيث إن المؤرخين في المعمورة لا يزالون يعولون على مؤلفاته الثمينة في أعمالهم التاريخية.

إذن لا عجب أن يقال: «إن شمس الدين الذهبي أفنى حياته في البحث

والاستقصاء والاستدلال في كل من علم التاريخ والفقه وأحاديث رسول الله ﷺ، حيث استطاع وبجدارة متناهية أن يفهم جيداً عصور تاريخ الإسلام من أول ظهوره حتى زمانه الذي عرف بالجمود والتخلف، ولكن بفضل ثقافة الذهبي الواسعة لم يتأثر مستواه العلمي، بل كان من المبدعين غير المقلدين.

الفائدة الرئيسة من إسهامات أبي عبد الله الذهبي تكمن في كون مؤلفاته أصبحت من أهم المصادر التاريخية، حيث جمع فيها معظم الأحداث التاريخية، ذاكراً الروايات المختلفة للحادثة الواحدة، وتاركاً الباحث يقرر. الحقيقة أن لصاحب الترجمة عقلية عجيبة جداً، لديه مقدرة فريدة على النقد العلمي الصريح، لذا عرف باسم شيخ الجرح والتعديل، وهكذا يقف عملاقاً بين المؤرخين.

ابن كثيـر الدمشقي

هو **إسماعيل بن عمر بن كثير**، يكنى **بأبي الفداء** وفي بعض الأحيان **بعماد الدين**، ويلقب **بالدمشقي**. ولد سنة (٧٠١ هجرية) في قرية صغيرة من أعمال بصرى الشام، ولذا يسميه بعض المؤرخين البصروي نسبة إلى مسقط رأسه، عاش أبو الفداء يتيماً؛ لأن والده الشاعر المشهور توفي سنة (٧٠٣ هجرية) وقد خلف الأب لابنه السمعة الحسنة، انتقلت عائلته إلى دمشق مركز الحركة الفكرية في بلاد الشام سنة (٧٠٧ هجرية)، فتلقى إسماعيل بن كثير تعليمه فيها على كبار علماء المسلمين. وتواتر عن شيوخه أن عنده ذاكرة قوية جداً، لذا حفظ القرآن الكريم وهو في سن العاشرة من العمر، كما تفوق على زملائه في كل من علم الحساب والحديث والفقه والتاريخ، وعليه اشتهر في جميع أرجاء الأمة العربية والإسلامية، مما دفعه إلى التنقل بين عواصم العالم الإسلامي؛ لكي يلتقي بجهابذة الفكر هناك،ولكنه في الأخير استقر في دمشق وانتهى من تأليف كتابه: «البداية والنهاية» المطول الذي يتكون من عشرة مجلدات، وفيه اعتمد ابن كثير على النصوص التي أخذها من الكتاب والسُّنة، وفي مدينة دمشق توفي المؤرخ الكبير ابن كثير سنة (٧٧٤ هجرية)، والمعروف بين المثقفين أن عماد الدين ابن كثير كان يجمع بين التاريخ والفقه، والقليل يعرف أن عنده مقدرة على نظم الشعر؛ لأن إنتاجه في هذا المجال الحيوي ضاع. ولقد حاول طاش كبرى زاده في كتابه آنف الذكر أن يبين موهبته الشعرية فذكر البيتين الآتيين:

تمر بنا الأيام تترى وإنما   تساق إلى الآجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى   ولا زائل هذا المشيب المكدر

ويذكر **الداوودي** في كتابه «طبقات المفسرين»: أن أبا الفداء الحافظ ابن

كثير الدمشقي كان أحفظ الناس لمتون الحديث وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان زملاؤه وأساتذته يقرون له بذلك، وكان يستحضر شيئاً كثيراً من الفقه والتاريخ، قليل النسيان لأن عنده ذاكرة رائدة، وكان فقيهاً جيد الفهم. كما أجمع المؤرخون على أنه صحيح الذهن، ولديه معرفة رائعة في حقل اللغة العربية ونظم الشعر، ولكنه تميز في مجال علم التاريخ، ويظهر ذلك واضحاً من كتابه البداية والنهاية. أما **أبو المحاسن الحسيني**، فيقول عنه في كتابه «ذيل تذكرة الحفاظ»: «أفتى ودرس وناظر وأبدع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل».

لقد تناقل المؤرخون مؤلفات عماد الدين ابن كثير القيمة التي لا يستغني عنها أي باحث في ميدان علم التاريخ ومنها: تفسير القرآن الكريم في عشرة مجلدات، ومختصر علم الحديث، والبداية والنهاية في عشرة مجلدات، والتكملة في أسماء الثقات والضعفاء، والفصول في سيرة الرسول ﷺ، وطبقات الشافعية والاجتهاد في طلب الجهاد ورجال الحديث، وجامع المسانيد الذي جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة، والجامع الحثيث إلى معرفة علوم الحديث.

وخلاصة القول: كان القرن السابع الهجري منعطفاً خطيراً جداً لكل من الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية في العالم الإسلامي؛ لأن التتار باتفاق مع الصليبيين بطشوا في المسلمين بقيادة هولاكو ثم أولاده فأحفاده، حتى صارت العواصم العربية والإسلامية مكاناً لذبح وتعذيب كبار العلماء والمفكرين، تخلصوا من آخر خلفاء بني العباس، فعمت الفوضى ـ التي خلفها التتار بمساعدة الصليبيين ـ الأمة العربية والإسلامية، وأصبحت سمة العصر الخوف والفزع، لقد عاش أبو الفداء الحافظ ابن كثير معظم هذه الاضطرابات الشيطانية التي قادت العالم الإسلامي إلى الانحطاط في مختلف أوجه الحياة.

اتجه أبو الفداء الحافظ ابن كثير في بادىء حياته إلى دراسة علم التاريخ وذلك

رغبة منه في الوقوف على الأحوال الماضية، وأخذ العبرة من الأحداث التاريخية، لذا صار يسهر الليل يحيي النهار في البحث والاستقصاء في ميدان علم التاريخ، فوصل من خلال دراسته المتأنية والمتطورة إلى نتيجة في غاية الأهمية: أن التتار يشبهوا تماماً الصليبيين في إيذاء المسلمين وترويعهم؛ وذلك لأنهم قتلوا أبناءهم وعلماءهم ونهبوا أموالهم وخرّبوا مكتباتهم وبيوتهم وأحرقوا كتبهم القيمة. بهذا الأسلوب القذر تمكنت أوربا من الاستيلاء على بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، والسيطرة الكاملة على سكانه أمداً طويلاً من الدهر، فانتشرت الخرافات والأساطير والخزعبلات بين الأهالي آنذاك.

وعاش عماد الدين ابن كثير في دولة المماليك في بلاد الشام، ولكنه عاصر الهجمات البربرية التي قام بها كل من التتار والصليبيين ضد المسلمين الأبرياء، لذا استطاع أن يعرض تصوراته التاريخية الصحيحة بكل نجاح؛ لأنه كان يمتلك القدرة على التمييز بين الخبر الصحيح والسقيم والإسرائيليات البالية التي كان يتناقلها المؤرخون الأوائل، ولاشك أن ابن كثير تفنن في عرض الأحداث التاريخية التي عاصرها، مثل اجتياح التتار لبلدان الشرق الأوسط بالتعاون مع الفرنج والقضاء تماماً على الخلافة العباسية، كما أبدع في تفسير القرآن الكريم، لذا نستطيع القول: إنه ليس فقط مؤرخاً مبدعاً ولكن أيضاً مفسراً بارعاً.

ذاع صيت أبي الفداء ابن كثير بين معاصريه بقدرته المنقطعة النظير على الاستحضار وعدم النسيان والفهم والجرح والتعديل، لذا لا عجب إذا سمي المحدث المفتي البارع والمؤرخ المحقق، والجدير بالذكر أن ابن كثير أجاد إجادة رائعة في دراساته وبحوثه في حقل علم التاريخ بوجه عام والسيرة النبوية على الخصوص، فلله دره.

لسان الدين ابن الخطيب

هو **محمد بن عبد ا لله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي** المعروف **بابن الخطيب**، ويكنى بكل من **أبي عبد ا لله** **ولسان الدين وذي الوزارتين وذي العمرين**، ويلقب أيضاً بكل من **الغرناطي واللوشي وابن الخطيب**، والجدير ذكره أنه اشتهر بذي الوزارتين والمقصود بذلك السيف والقلم، ويقال أيضاً: ذو العمرين، لعمله الدؤوب بالتأليف في الليل وبتدبير شؤون الدولة في النهار. ولد في بلوشة سنة (٧١٣ هجرية)، ولكنه نما وترعرع وتلقى تعليمه بغرناطة التي كانت تعج بكبار العلماء، ويعود نسبه إلى لوشة قريبة جداً من غرناطة، حيث كان أجداده الأوائل مشهورين بأعمالهم المرموقة في إدارة شؤونها السياسية والعلمية، ولقد تفوق لسان الدين ابن الخطيب على زملائه حينذاك بكل من علم التاريخ والعلوم الشرعية والطب والشعر والأدب، لذا استوزره حاكم غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل ثم ابنه السلطان الغني با لله محمد من بعده.

لسوء حظ أبي عبد ا لله ابن الخطيب كثرت أعداؤه نتيجة نبوغه وتميزه النادر في سائر فروع المعرفة، مما مكّن هؤلاء أن يؤثروا على السلطان الغني با لله محمد، فأحس لسان ابن الخطيب بعدم ارتياح السلطان له، مما جعله يتصل بسلطان المغرب عبد العزيز بن علي المريني، ويبدي له رغبته الملحة في ترك غرناطة والقدوم إلى بلده، فرحَّب به، لذا هرب إلى جبل طارق خفية، ثم سبتة فتلمسان التي كان يسكنها السلطان عبد العزيز المريني حينئذ، وعند وصوله أكرمه السلطان عبد العزيز المريني إكراماً عظيماً لمكانته العلمية التي احتلها بين معاصريه، وأرسل إلى سلطان غرناطة الغني با لله محمد يطلب منه إرسال أهل وأبناء لسان الدين ابن الخطيب إلى المغرب، فوصلوا معززين، وعليه استقر ابن الخطيب بفاس كمستشار لسلطانها، وتفرغ للقراءة والكتابة.

وعندما توفي السلطان عبد العزيز المريني خلفه ابنه السعيد بـا لله الـذي لم يبق في الحكم طويلاً، بل خلع واستبدل بالسلطان المستنصر أحمد بـن إبراهيـم الذي كان في أمس الحاجة لمساعدة الغني بـا لله محمـد سـلطان غرناطـة الـذي اشترط بدوره عليه تسليمه لسان الديـن ابـن الخطيـب، لـذا اضطـر المسـتنصر أحمد بن إبراهيم سلطان المغرب أن يسـجن ابـن الخطيـب ويخبر بذلـك الغـني با لله محمد سلطان غرناطة، فأرسل الأخير وزيره (ابن زمرك) إلى فاس وطلب تقديم ابن الخطيب للمحاكمة بتهمة الزندقة لاعتناقه منهج الفلاسفة، فحكـم عليه بالإعدام، وفعلاً قتل في السجن سنة (٧٧٦ هجرية).

تنقل لسان الدين ابن الخطيب في مراكز قيادية متنوعة لما فطر عليـه مـن صفات حميدة وعقل وذكـاء وحكمـة، إلا أن أعـداءه اسـتطاعوا أن يدخلـوه السجن ويقضوا عليه، فأراد أن يعبر عن شعوره في الحبس، فنظم قصيدة نقـل **محمد كرد علي** في كتابه «كنوز الأجداد» بعضاً من أبياتها وهي:

بعدنـــا وإن جاورتنـــا البيـــوت	وجئنـا بوعـظ ونحـن صمـوت
وأنفاســـنا ســـكنت دفعـــة	كجهـر الصـلاة تـلاه القنـوت
وكنـا عظامـاً فصرنـا عظامـاً	وكنـا نقـوت فهـا نحـن قـوت
وكنـا شمـوس سمـاء العـلا	غربـن فنـاحت عليهـا البيـوت
فكـم جدلـت ذ الحسـام الظبـا	وذو البخـت كـم جدلته البخـوت
وكـم سـيق للقـبر في خرقـة	فتـى ملئـت مـن كسـاء التخـوت
فقـل للعـدا ذهـب ابـن الخطيـب	وفـات ومـن ذا الـذي لا يفـوت
فمـن كـان يفـرح منكـم لـه	فقـل يفـرح اليـوم مـن لا يمـوت

ويعتبر لسان الدين ابن الخطيب واحـد زمانـه في معرفـة العلـوم بأسـرها، فكان واسع الثقافة ومتبحراً في العلوم الأساسـية والتطبيقيـة، لـذا أنتـج إنتاجـاً

هائلاً في مجالات مختلفة. ذلك يظهر واضحاً في مؤلفاته التي وصلت ستين كتاباً والتي تدل على شمول عام لميادين المعرفة، ولكن ضاع معظمها، ومنها ما تناقله المؤرخون مثل تاريخ غرناطة، وإعلام من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، والحلل المرموقة في ذكر الأخبار المراكشية، والكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، واللمحة البدرية في الدولة الناصرية، ورقم الحلل في نظم الدول، وأخبار الأندلس، والتاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، والمفاضلة بين مالقة وسلا، والإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر، وطرفة العصر في دولة بني نصر، وريحانة ونجفة المنتاب (مجموعة رسائل)، وديوان شعر، والدكان بعد انتقال السكان، وتاريخ إسبانيا، ورسالة في الطاعون وأسبابه وعلاجه والوقاية منه وغيرها.

وخلاصة القول: شعر علماء المسلمين في الأندلس في القرن التاسع الهجري المسمى: عصر مملكة غرناطة، أن المواطنين المسلمين في الأندلس بدأ يتخللهم كل من الضعف والخوف واليأس أمام الزحف الصليبي، لذا لجؤوا إلى الدراسة والبحث في ميدان علم التاريخ، لاعتقادهم القوي أن علم التاريخ هو العلم المحرك للهمم لاحتوائه على معلومات عظيمة عن دور الأجداد القيادي الرائع. وعليه اهتم لسان الدين ابن الخطيب في التعمق في البحث والاستقصاء في مجال علم التاريخ حتى ظهرت قدرته وبراعته فيه، وذلك لقناعته التامة أن علم التاريخ من الموضوعات الأساسية التي لابد من دراستها إذا أريد معرفة التاريخ الإسلامي معرفة سليمة، ولأنه يدرك أيضاً أن بلاد الأندلس تحت حكم المسلمين كانت تنعم بحضارة زاهرة نافست بجدارة الحضارة الإسلامية العظيمة في الشرق، وهذا ناشيء من اتحادهم وصدق نواياهم حينئذ.

ولقد كان لسان الدين ابن الخطيب شديد الولع في البحث والاستقصاء عن الحقيقة سواء كانت تاريخية أو علمية، لذا نال احترام وتقدير العلماء

الكبار وقتئذ، فعول الكثيرون من الباحثين على مؤلفاتــه المتنوعـة الـتي كـانت ثروة ثمينة للمكتبة الإسلامية، لاحتوائها على معظم نواحي الفكر والمعرفة التي اكتسبها من مشاهداته وتجاربه وقراءاته المتنوعة.

والحقيقة التي يجب أن يعرفهــا القـارئ أن لسـان الديـن ابـن الخطيـب كـان دارساً ممحصاً منذ نعومة أظفاره، ومتميزاً في الأمانة في النقل والرواية، لـذا وقـف عملاقاً بين علماء العرب والمسلمين الذين خدموا الحضارة الإنسانية، ولكن الذي يؤسف له أنه عذب في آخر حياته بالسجن ثم بالقتل، وهذا الحدث صعب يندى له الجبين، أخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في كتابة هذه السيرة الموجزة عن حيـاة لسان الدين ابن الخطيب الذي لم يعطه المؤرخون حقه.

عمر بن الملقن

هو **عمر بن علي بن أحمد بن الملقن**، كنيته **أبوحفص** ويسمى أيضاً **سراج الدين**، أما لقبه **فابن الملقن**، ويعرف في بعض الأحيان **بالواداشي الأندلسي**؛ لأن عائلته انتقلت من مدينة (وادي آش) التي تقع بالقرب من مدينة غرناطة. وهناك بعض المؤرخين يلقبونه بالتكروري؛ لأن أصله من قبيلة التكرور السودانية التي تقطن أقصى جنوب المغرب العربي. كان والده نور الدين نحوياً متمكناً من مادته، انتقل إلى القاهرة واستقر بها، وصار يدرس أبناء المسلمين اللغة العربية، فذاع صيته وأصبح طلاب العلم يأتون من كل حدب وصوب للتتلمذ عليه. ولقد حرم الابن عمر بن الملقن من تلقي العلم على يد أبيه؛ لأن الأب توفي وعمر الابن سراج الدين الملقن تقريباً سنة واحدة، ولحسن حظه أن والدته تزوجت بالشيخ شرف الدين عيسى المغربي الذي كان يلقن القرآن الكريم بالمسجد الطولوني نسبة لمؤسس الدولة الطولونية في مصر أحمد بن طولون، لذا حفظ الشاب عمر بن الملقن القرآن الكريم على يد زوج أمه وهو في ريعان شبابه، وهكذا تربى وترعرع يتيماً في كنف الشيخ شرف الدين عيسى المغربي، ولذا أطلق عليه لقب (ابن الملقن). والجدير بالذكر أنه ولد بمدينة القاهرة سنة (٧٢٣ هجرية) وتوفي بها عام (٨٠٤ هجرية).

زار عمر بن الملقن كلاً من مكة المكرمة والقدس ودمشق؛ لكي يتلقى العلم على أيدي كبار العلماء في مراكزها العلمية المشهورة، وبالفعل تم ذلك، فنبغ بعلم التاريخ وسائر العلوم الأخرى، لذا اشتهر بين زملائه، ليس فقط في علم التاريخ ولكن أيضاً في كل من الفقه والحديث النبوي والأدب. وعليه شغل سراج الدين عمر بن الملقن مناصب حساسة مثل القضاء والتدريس. كما يبدو أنه عرف بكل من أخلاقه العالية وورعه وزهده، لذا كان مدرساً ألمعياً يشار إليه بالبنان بالمدرسة السابقية المرموقة. والمؤسف حقاً أنه لحق به في آخر أيام حياته محنة كبيرة تمثلت في احتراق منزله ومكتبته التي تحتوي على كتبه الثمينة، فحزن حزناً عظيماً سايره حتى انتقل إلى رحمة الله تبارك وتعالى.

كان عمر بن الملقن ماهراً بتفسير القرآن الكريم، مبرزاً في الحديث والتاريخ والفقه والأدب، فكانت له مؤلفات عديدة تقدر بثلاث مئة مصنف ضاع أو احترق معظمها، ولم يبق سوى القليل في مكتبات العالم ينهش فيها الدود وتبني عليها العناكب بيوتها، ومنها على سبيل المثال: إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، والتذكرة في علم الحديث، والإعلام في عمدة الأحكام، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح، وخلاصة البدر المنير، وإيضاح الارتياب في معرفة ما يشتبه ويتصحف من الأسماء والأنساب، وطبقات الأولياء، والمقنع في علم الحديث، وخلاصة الفتاوي في تسهيل أسرار الحاوي، والإشارة إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن، وغاية السول في خصائص الرسول ﷺ ، وطبقات المحدثين من زمن الصحابة إلى زمنه، وطبقات القراء، وأخبار قضاة مصر، والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب، وتاريخ ملوك مصر الترك، ونزهة النظار في قضاة الأمصار، ونزهة العارفين من تواريخ المتقدمين، وتاريخ ابن الملقن وغيرها.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «جهود ومعارف وإنتاج أبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن أحمد بن محمد الأنصاري الواداشي الأندلسي في التاريخ، إنما أتت من باب خدمة الحديث وفي إطاره. وبالرغم من أنه اشتغل في كل فن حتى قرأ في كل مذهب كتاباً، وبرع في الفقه وفي الخط وفي الأصول والإفتاء، فقد كانت له مشاركة واضحة في علم الرجال، وإذا كانت قافلة طويلة جداً من المجلدات في جمع كتب الحديث المعروضة وتلخيصها وشرحها، وتؤلف حسب قوله ثلاث مئة مؤلَّف، وبعضها في مجلدات تبلغ العشرين، فقد كان منها في التاريخ والرجال عدد جيد معظمه مخطوط أو ضاع».

وخلاصة القول: وصلت الدولة المملوكية إلى مرتبة عالية من الثقافة العلمية، وذلك في الفترة ما بين ٧٨٤ ـ ٩٢٢ هجرية، لذا أنجبت مؤرخين

متفوقين بنوا مدرسة تاريخية متأنية تميزت بمنهجها التاريخي القائم على أن التاريخ جزء حيوي من التطور الثقافي، وأنه بصورة عامة الطريق السوي لمعرفة وفهم تقدم الأمة، وعليه اتجه عمر بن الملقن إلى الدراسة والبحث في علم التاريخ، ونتيجة لذلك صار مولعاً في البحث والتحري للأحداث التاريخية. ولقد عُرف بمقدرته العجيبة على إدراك الجزئيات إدراكاً رائعاً، وفي عهده صار علم التاريخ شاملاً للحياة الأخلاقية والأدبية والعلمية والسياسية والشرعية، فدخل في التاريخ العنصر الإنساني.

وكان عمر بن الملقن محدثاً ومؤرخاً رائداً وبارعاً، نال في عصره سمعة كبيرة، وبقي اسمه يدوي في جميع مكتبات العالم، ولقد اقتبس مؤرخو الإسلام عنه الكثير من معارفهم التاريخية الخاصة بالمماليك، معترفين في إنجازاته الهائلة ليس فقط في علم التاريخ، ولكن أيضاً في سائر العلوم الأخرى. كما أنهم أكدوا على أهمية منهجه وفلسفته في الكتابة، فلقد تبنى طريقة لكتابة التراجم تعتمد على العناصر الآتية: الاسم، والكنية، واللقب، واسم الشهرة، والقبيلة في بعض الأحيان، والوطن، وتاريخ كل من الولادة والوفاة، والنشأة والتكوين، والمنزلة والمكانة العلمية، والألقاب العلمية، والوظائف التي قام بها المترجم له. والجدير بالذكر أن هذه الطريقة صارت معتمدة بين المؤرخين في المعمورة عبر التاريخ، كما بقيت آثاره في علم التاريخ مدة طويلة من الزمن مرجعاً للدارسين والباحثين.

يجب أن يعرف القارىء أن أسلوب أبي حفص عمر بن الملقن تميز بالسلاسة والسهولة، حيث ابتعد كل البعد عن التعقيد والغموض والتحيز. كما أبرز بكل جدارة ووضوح ملاحظاته العلمية التي كان لها دور عظيم جداً في تقدم علم التاريخ. إذن مما تقدم لا عجب إذا أجمع المؤرخون في العالم الإسلامي على أن سراج الدين عمر بن الملقن كان حاضر البديهة قوي الحجة، عالماً ذكياً فصيحاً حافظاً للغة العربية وعلوم الدين والتاريخ ومن فحول عصره.

ابن خلدون

هو **عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي**، ويكنى **بأبي زيد**، وذلك لأن اسم ابنه الأكبر زيد (وهذه عادة من عادات العرب الأصيلة)، ويلقب **بابن خلدون** نسبة إلى جده التاسع (الذي يتصل نسبه بالصحابي وائل ابن حجر) خالد بن عثمان الحضرمي الذي قدم إلى الأندلس من اليمن واستوطن (قدمونة)، ولكن ذريته غادرتها إلى إشبيلية التي استقرت بها أمداً طويلاً، ومن ثم انتقلت هذه العائلة الكريمة إلى سبتة، وعندما تدهورت الحياة السياسية في الأندلس نزحت إلى تونس، حيث ولد النابغة عبد الرحمن بن خلدون سنة (٧٣٢ هجرية)، ففرح به والده محمد بن خلدون الذي يعتبر بحق من كبار فقهاء عصره. لقد تلقى أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون تعليمه الأولي على والده الحنون، ولكنه لم يكتف بهذا بل تتلمذ على أيدي كبار المفكرين في تونس، فتفوق تفوقاً ملحوظاً في كل من العلوم الشرعية (من حديث وتفسير وفقه) والعلوم اللسانية (من نحو وصرف وبلاغة وأدب) والفلسفة والتاريخ والرياضيات والفلك وعلم الاجتماع وغيرها من المعارف والثقافات.

يقول **محمد عبد الرحمن مرحبا** في كتابه «المرجع في تاريخ العلوم عند العرب»: «كان ابن خلدون لسناً فصيحاً، حسن الترسل متوقد الذهن، خصب التفكير دقيق الملاحظة فيما يقرأ ويرى، كبير النفس زاخر النشاط، متمكناً في العلوم التي انتهى إليها ارتقاء الثقافة ونشاط الترجمة والنقل في العالم العربي على عهده، يقلب الأخبار على وجهها ويكشف عن زيفها، ويتتبع الظواهر الإنسانية المختلفة ويستنتج منها ما يستنتج من أحكام. حفظ القرآن في صغره وجوده بالقراءات، وتلقى على أبيه ثم على كبار مشايخ تونس وفاس طائفة كبيرة من العلوم النقلية واللغوية والعقلية، فدرس التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام واللغة في مختلف فروعها، كما

درس المنطق والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية، وعلى الرغم من شؤون السياسة التي استأثرت بعد ذلك بقسط كبير من نشاطه في مرحلة شبابه، فإنه لم ينقطع عن متابعة الدراسة، واستيعاب التراث الثقافي القديم ومتابعة الحركة الفكرية في عصره، والاطلاع على ما يظهر في العالم حوله من بحوث وآراء.. وكان إلى جانب تمكنه في البحوث العلمية محدثاً بارعاً، رائع المحاضرة، يخلب ألباب سامعيه بمنطقه وذلاقة لسانه وبلاغة عباراته، كيف لا وهو من أعلام الأدب العربي وأمراء البيان».

حاز أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي على احترام وتقدير زملائه لمكانته العلمية التي احتلها، لذا أعطوه ألقاباً كثيرة منها: الوزير، والرئيس، والفقيه، وعلامة الأمة، وولي الدين. وربما يسأل القارىء لماذا أضيف إلى اسم جده الأعلى خالد الواو والنون، وصار يدعى خلدون؟ الجواب: أن هذه الطريقة كانت متبعة في الأندلس للدلالة على التعظيم والوقار. والحقيقة أن عدداً كبيراً من المؤرخين في المعمورة قدموا دراسات مستفيضة عن منهج ابن خلدون حول النواحي الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والجغرافية والسياسية والحضارية والدينية؛ لأنه تمكن وبجدارة عظيمة أن يستخلص من الجزئيات كليات ونظريات علمية طبقها على الأحداث التاريخية، ويظهر ذلك واضحاً من قوله في كتابه «مقدمة ابن خلدون»: «التاريخ في ظاهره لا يزيد على الأخبار عن الأيام والدول.. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق.. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق».

لقد نوه كبار المؤرخين الغربيين بكل صراحة عن مكانة أبي زيد عبد الرحمن ابن خلدون العلمية، فذكر **أرنولد توينبي** في كتابه «دراسة التاريخ» أنه تفوق على السابقين له تفوقاً ملحوظاً، ولم يصل أحد من معاصريه إلى ما وصل إليه، فهو الذي صاغ أصول التاريخ التي تعتبر لا ريب أعظم عمل من نوعه ابتكره أي

عقل في أي عصر وفي أي بلد. وأضاف **جورج سارتون** في كتابه «مقدمة في تاريخ العلوم» أن أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون يقف بجلاء كأكبر مؤرخ في العالم، فله السبق على مكيافلي وبودان وفيكو وكونت وكورنو،لذا لا عجب أن يعد في مقدمة رواد علم التاريخ في المعمورة. أما روبرت فلنت، فقد وصف **عبدالرحمن بن خلدون** في كتابه «تاريخ فلسفة التاريخ»: بأنه لم يأت في العالم له مثيل في مجال علم التاريخ، فهو كباحث نظري في هذا الحقل ليس له نظير في أي عصر أو في أي قطر، فلم يكن أفلاطون أو أرسطو أو سان أوغسطين أنداداً له، بل لا يستحق غيرهم الذكر بجانبه، والحقيقة أن المؤرخين الأوائل جمعوا له المادة التاريخية ولكنه هو وحده الذي استخدمها.

نما وترعرع أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في بيت علم ورياسة، نبوغه ليس فقط في علمي التاريخ والاجتماع، ولكن في سائر العلوم الأخرى التي جعلته يعتز بكل من جاهه وذكائه وحكمته وفطنته وأصالته في البحث. وكان كل من تطلعاته وحماسه وتحفزه دفعته أن يعمل في الوظائف الحكومية في ريعان شبابه، فقد أسند إليه العمل في ديوان الرسائل في تونس وهو في العشرين من عمره، وهكذا استمر يتنقل في الوظائف الحكومية في بلاد المغرب إلى عام (٧٧٦ هجرية)، وبعدها تفرغ للتأليف في كل من قلعة ابن سلامة وتونس إلى سنة (٧٨٤ هجرية)، وفي نفس السنة ذهب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وفي طريقه نزل في مصر، فبقي هناك يدرس طلاب العلم ويمارس وظيفة القضاء إلى أن توفي سنة (٨٠٨ هجرية).

يقول **نقولا زيادة** في كتابه آنف الذكر: «وحياة ابن خلدون تقع في فترة اضطراب سياسي حربي كبير في أقطار المغرب، وقد أسهم في الكثير من الشؤون العامة. فقد هرب من تونس بعد إنكسار عسكر الوزير الذي كان في خدمته وسعى إلى لقاء أبي عنان المريني الذي ضمه إلى حاشيته. ولكن الفترة التي قضاها في بلاد فاس شغل فيها ابن خلدون نفسه بالسياسة لا عملاً ورأياً فحسب بل

مؤامرات أيضاً، فانتهى به الأمر إلى قضاء سنتين في السجن. وخرج بعدها من فاس إلى غرناطة ليجرب حظه هناك مع صديقه سلطان غرناطة ووزيره لسان الدين الخطيب. ولكن ابن خلدون لم يلبث أن تعرض للسعايات والوشاية، فرحل من غرناطة إلى بجاية ولكنه لم يستقر هناك، فانتقل إلى بسكرة في الجزائر حيث قضى نحو سبع سنين متنقلاً بين المعسكرات المختلفة، وبعدها عاد إلى فاس ثم ذهب إلى تلمسان، ومن هناك انتقل إلى قلعة ابن سلامة في مقاطعة وهران حيث قضى أربعة أعوام. وهناك بدأ العمل بتاريخه الكبير الذي بدأه بالمقدمة، ولكنه أدرك أنه كان في حاجة إلى مكتبة عامرة ومصادر للتاريخ وافرة، فذهب إلى تونس حيث قضى أربع سنوات في الكتابة والتأليف، حتى فرغ من كتابه كاملاً، ورفع نسخة منه إلى أبي العباس سلطان تونس. وخشي ابن خلدون أن يحمل على العودة إلى الحياة السياسية في المغرب، فخرج إلى مصر متعللاً بالحج. وفي مصر سعى إلى لقاء سلطانها برقوق الذي ولاه التدريس بمدارسها، ولم يلبث أن ولي القضاء، وهو المنصب الذي تولاه ست مرات، عزل في خمس منها، وتوفي وهو في الولاية السادسة».

لقد عانى أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الكثير من الاضطهاد (مثل ما حدث له في فاس)، ولكن هذا لم يؤثر عليه كباحث مخلص وأمين، حيث نقل معارفه التاريخية بوضوح نحو الواقعية والموضوعية، وذلك بتفسيره أسرار النوازع البشرية وتأثيرها الحقيقي على الأحداث الفكرية. وعليه اختط لنفسه منهجاً خاصاً للدراسة والبحث، لم يحد عنه قيد أنملة حفاظاً على وقته الثمين وسمعته العلمية، لذا استفاد من المراجع التاريخية الغنية بالمعلومات التي كتبها المؤرخون الأوائل من مسلمين وغير مسلمين، فقد أخذ ما صح من الأخبار واستخدمها فيما كتبه في هذا الميدان الحيوي.

ويكفي عبد الرحمن بن خلدون فخراً واعتزازاً ما كتبه عنه العلامة الوزير الفطن **لسان الدين محمد بن الخطيب** في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»:

«إن أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون جم الفضائل، باهر الخصل، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لفنن الرياسة، خاطب للحظ، متقدم في عدة فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث كثير الحفظ، صحيح التصور».

أما **أبو القاسم محمد كرو** فقد وصف مكانة أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون العلمية في كتابه آنف الذكر فيقول: «يجدر بنا أن نشير إلى أن ابن خلدون بالرغم من مساهمته في أحداث المغرب العربي السياسية، وتقلبه في مناصب إدارية كثيرة بين دويلاته المختلفة، فإنه كان إلى ذلك ذا شهرة أدبية، وعلمية ملحوظة، وكان يلاقي التقدير والإكبار من أجل علمه وأدبه. أما في الشرق فإنه نال شهرة أكبر وتقديراً أوفى، وإن لم تخل حياته هنا وهناك من الدسائس والمكائد التي كان يسعى بها عليه خصومه وحساده ومنافسوه لدى الحاكمين. ولقد ذكره معاصروه من الأدباء والمؤرخين بكثير من الاهتمام والتفصيل».

حاز أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون على شهرة عظيمة من كتابه: (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) الذي قسمه إلى مقدمة وثلاثة كتب: المقدمة في فضل علم التاريخ، وأما الكتاب الأول فيختص بالعمران ويحتوي على معلومات هامة جداً عن طبيعة العمران البشري. والكتاب الثاني يشتمل على أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى زمان ابن خلدون، والكتاب الثالث يحتوي على أخبار البربر ومواليهم، وفي آخره ترجمة عن المؤلف سماها (التعريف بابن خلدون). وقد نشرت هذه الموسوعة القيمة في مصر سنة (١٢٨٤ هجرية)، ولحسن الحظ قام كل من عبد الكريم وحسن الزين صاحب دار الكتاب اللبناني في بيروت بطباعتها سنة (١٣٨٦ هجرية)، لذا صارت في متناول الدارسين والباحثين في جميع أرجاء المعمورة.

يقول **جرجي زيدان** في كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» :ـ الجزء الثالث

ـ: «اشتهر ابن خلدون بكتاب واحد بل بجزء واحد من ذلك الكتاب، نعني: مقدمة تاريخه. أما التاريخ فاسمه (العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، وهو اسم طويل لكنه يعرف بتاريخ ابن خلدون، وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات: الكتاب الأول في العمران، وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش، والصنائع والعلوم، وما إلى ذلك من العلل والأسباب، وهو المشهور بمقدمة ابن خلدون، وبها وحدها نال ابن خلدون القدح المعلى؛ لأنه أتى فيها بأبحاث جديدة من قبيل ما يسميه أهل هذا الزمان بعلم الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، وفلسفة التاريخ، وقد تصدى لذلك، وأجاد فيه، وأهل أوربا في غفلتهم، ولم يكتب غيره من العرب في هذا الباب إلا نتفاً متفرقة. فتوسع هو في ذلك بما استخرجه من الأسباب والعلل، بمقابلة الحوادث، ودرس المسائل، والبحث عن عللها مما طالعه أو كابده بنفسه. ولاشك أن توالي اغترابه، واحتكاكه بالأمم المختلفة، والدول المتباينة أعانه على ذلك، فضلاً عما اطلع عليه من التواريخ الإسلامية وغيرها.. فمقدمة ابن خلدون خزانة علوم، اجتماعية، وسياسية، واقتصادية وأدبية.. فضلاً على أسلوبها اللغوي فإنه خاص بها. وعباراتها متناسقة مترابطة كأنها سلاسل الذهب. ولذلك كان لهذه المقدمة وقع عظيم عند أهل التفكير من الإفرنج أيضاً، فنقلها كاترمير إلى الفرنسية عن نسخة في مكتبة باريس وطبعت هناك سنة (١٨٥٨ ميلادية)، وترجمت منها قطع إلى الإنكليزية والألمانية والتركية. وقد طبعت باللغة العربية مراراً في مصر والشام وأوربا».

وخلاصة القول: نشأ عبد الرحمن بن خلدون فترة من الزمن حافلة بالاضطرابات والفتن، فعلى سبيل المثال انقسمت دولة الموحدين على نفسها إلى ثلاثة أقسام:بنو مرين في المغرب الأقصى (فاس)، وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط (الجزائر)، وبنو حفص في المغرب الأدنى (تونس)، وكان الجو

محموماً بين هذه الدول الثلاث، لذا اندفع أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون إلى البحث والاستقصاء في ميدان علم التاريخ؛ لإبراز الحقائق التاريخية لشباب الأمة الإسلامية، وذلك لاعتقاده القوي أن علم التاريخ هو الوسيلة الفريدة للإجابة على ما جرى ويجري من أحداث وتطورات، ليس فقط في الدول الإسلامية ولكن في العالم، وهكذا انتشر منهجه التاريخي القائم على الواقعية، والمعقولية لمعظم الظواهر التاريخية.

يقول **أبو القاسم محمد كرو** في كتابه «العرب وابن خلدون»: «كان العالم العربي في عصر ابن خلدون من الناحية السياسية، مفككاً مشتتاً، تحكمه دويلات صغيرة، قامت هنا وهناك، لا تكاد الواحدة منها تستقر حتى تسقط تحت ضربات ثائر، أو خارج أو طامح، وكان كل جسور أو دجال يستطيع أن يصنع دولة من لا شيء، فإن لم يقدر أحدث الفتنة والخراب، وأشاع الذعر والفوضى في حياة السكان الآمنين، وفي مثل هذا الذعر وعدم الاطمئنان عن الحياة والمال والمتاع، لا يمكن أن ينهض علم أو تسير الحضارة في أمان، فكان العالم العربي يومئذ في تراجع علمي وأدبي شامل، وكان التقليد واجترار الماضي بأساليب مختلفة هو شغل المنصرفين إلى الأدب والعلم، والحياة تسير بخطى واسعة نحو الانحطاط، ولولا أقباس من النور تلمع بين فترة وأخرى في ذلك الظلام الداجي، لما كان ثمة شيء يثير الانتباه والاهتمام، وابن خلدون كان قبساً وهاجاً من تلك الأقباس الخاطفة».

وكان عند أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون قناعة تامة أن المؤرخين الأوائل من مختلف الجنسيات حتى عصره قد نحوا بسرد الحوادث التاريخية بطريقة لا تنمي الذهن، ولا تمتع المؤرخ اللبيب الذي يريد أن يربط الأسباب بالمسببات. وعليه أبدى ملاحظاته الجريئة والدقيقة على ما كتبه الأقدمون الأفاضل مستفيداً من خبرته الواسعة بالحياة السياسية، وبهذا لم ينحز إلى مدرسة فكرية معينة، بل استطاع أن يبلور أفكاره النادرة المستمدة من

استنتاجاته العلمية العميقة. والحق أنه صاحب خلق لا يقبل الجدل وآراؤه صائبة، وأحكامه متناهية في الدقة.

والحقيقة أن أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون لم يفسر الظواهر الاجتماعية أو الوقائع التاريخية المتوفرة لديه في ضوء نظرية معينة دون غيرها. استخدم وبجدارة فائقة كلاً من التفسيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية والنفسية، وهذا من دون أدنى شك يوضح أن لديه مقدرة متعددة الجوانب الفكرية. وعرف بين زملائه بإصراره على ضرورة تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها. كما أنه من المعجبين بقول الإمام علي رضي الله عنه: «من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله ذل».

لدى أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون تصور صحيح وواضح للحركة التاريخية للمجتمعات البشرية، ويظهر ذلك في مقدمته التي قال فيها: «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحُسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولا سيما في إحصاء الأعداد من

الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولابد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد».

وأخيراً نستطيع القول: إن أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون قد قدم للبشرية أجمع، بإجتهاده ومثابرته على الدراسة والبحث ليس فقط أصول علم التاريخ ولكن أيضاً علماً جديداً لم يسبقه أحد إليه ألا وهو علم الاجتماع. ومن المؤسف حقاً أن الكثير من المؤرخين يظنون أنه لم يؤلف سوى كتابه المعروف باسم: (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) بأجزائه الثلاثة علماً أنه شرح البردة في مدح صفوة الخلق رسول الله ﷺ، ولخص معظم أعمال الفيلسوف العربي المشهور ابن رشد، وألف كتاباً هاماً في علم الحساب.

أحمد القلقشندي

هو **أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي**، كنيته **أبو العباس** وفي بعض الأحيان يسمى **شهاب الدين**، أعطي ألقاباً كثيرةعدداً منها: **الفزاري وابن أبي غدة والقاهري والقلقشندي**، أما تسميته **بالفزاري** فلأنه ينتمي إلى القبيلة العربية الأصيلة من بني بدر بن فزارة من قيس عيلان، ولكن لقب القلقشندي طغى على جميع الألقاب التي أعطيت له. والجدير ذكره أنه اشتهر باسم القلقشندي لأنه ولد سنة (٧٥٦ هجرية) بقرية قلقشندة التي تُعتبر من أعمال طوخ بمحافظة القليوبية بالديار المصرية، وهذه القرية عرفت بمزارعها الخضراء وكثرة فواكهها. نما وترعرع أبو العباس القلقشندي في بيئة علم ووقار؛ لأن عائلته كان لها مكانتها العلمية والاجتماعية في مصر، تلقى تعليمه الأولي والأساسي بمدينة القاهرة، ولذا فإنه في بعض الأحيان يدعى بالقاهري.

انتقل **شهاب الدين القلقشندي** من مدينة القاهرة إلى مدينة الإسكندرية، ومكث هناك مدة من الزمن تتلمذ فيها على أيدي جهابذة الفكر هناك، فبرع في كل من علم التاريخ واللغة العربية والأدب، ولكنه تفوق في علم الأنساب الذي أجمع عليه أنه جزء لايتجزأ من علم التاريخ، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أنه بجهود شهاب الدين القلقشندي الخاصة ومثابرته على البحث والاستقصاء، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم، جعلت السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ ــ ٨٠١ هجرية) يختاره أن يكون مسؤولاً عن ديوان الإنشاء. والشخص الذي يسند إليه مثل هذه المهمة لابد أن يكون من أئمة النثر والبلاغة، ولديه القدرة على الإصغاء والفهم، والمتواتر عن أبي العباس القلقشندي أنه يرى في البحث والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات، واستمر يمارس عمله في ديوان الإنشاء بكل نشاط حتى توفي بمدينة القاهرة سنة (٨٢١ هجرية) في عهد السلطان المؤيد شيخ الحمودي، ولاشك أنه جنى معلومات تاريخية نادرة وقيّمة من مصادرها

الأولية بحكم وظيفته بدولة المماليك الجراكسة.

يقول **محمد حسين شمس الدين** في مقدمته لكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لأحمد بن علي القلقشندي: «وقد كانت لديوان الإنشاء أهمية خاصة في عصر القلقشندي، وكان على المرشح للعمل فيه أن يكون من أقطاب النثر والبلاغة، الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شؤون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية، وسير العلاقات الدبلوماسية بين مصر وباقي الأمم، كما كان على كاتب الإنشاء أن يتحلى بمجموعة من الصفات اللازمة له: كصباحة الوجه وفصاحة اللفظ وطلاقة اللسان وإيثار الجد على الهزل وتوقد الفهم وحُسن الإصغاء، كما تطلبوا فيه كتمان السر، الأمر الذي يصر القلقشندي على خطورته ويراه ضرورة لا يمكن التجاوز عنها، فيما يشغل وظيفة كاتب الإنشاء أو كاتب السر، فيقول عنها: هذه الصفة هي الشرط اللازم والواجب المحتم».

كان أبو العباس القلقشندي عالم عصره دون منازع حيث لمع في سماء العلم، ولا سيما في ميدان علم التاريخ، ويظهر ذلك واضحاً من مؤلفاته المختلفة التي امتازت بما جمعه من علوم علماء العرب والمسلمين الأوائل، وإلى آرائه وبحوثه الجريئة، كما أن ملاحظاته التاريخية كانت تدل على النضج والنبوغ، وقد نوه عن قيمة مؤلفاته العديد من المؤرخين، ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في جميع أرجاء المعمورة، ومنها: الكواكب الدرية في المناقب البدوية، والغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع، وحلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم، وضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر، ونظم سيرة السلطان المؤيد شيخ الحمود، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ومآثر الأناقة في معالم الخلافة وقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا.

وخلاصة القول: تسلطت جنود التتار الطغاة على بغداد فسقطت بأيديهم سنة (٦٥٦ هجرية) فلهم اللعنة ولهم سوء الدار، فدمروا جميع ألوان

الكتب والمخطوطات التي تُعتبر خلاصة فكر علماء العرب والمسلمين، مما جعل كبار علماء المسلمين يتجهون هاربين من اضطهاد التتار إلى مصر، وهناك كرس علماء كل من العراق والشام ومصر بكل إخلاص وتفان على جميع مفردات العلم، وعطايا العقل، ولوامع التراث. أما الفترة التي عاش خلالها أبوالعباس القلقشندي فكانت فترة حكم الدولة المملوكية الثانية المعروفة بدولة المماليك الجراكسة (٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ) التي كانت تفتقر إلى الاستقرار السياسي، بينما كان رجال العلم (كبار العلماء) متفرغين للدراسة والبحث والاستقصاء، ولذا كوّنوا صرحاً شامخاً من المؤلفات العلمية الثمينة، وعليه ازدهر علم التاريخ في هذه الحقبة من الزمن، وأتى ثماره على أيدي كبار مؤرخي الإسلام وفي مقدمتهم المؤرخ العلامة شهاب الدين القلقشندي الذي كان يتمتع بخبرة تاريخية أصيلة.

ولقد كان أبو العباس القلقشندي من مصنفي الموسوعات العربية التي خدمت الدارسين والباحثين عبر التاريخ، فهو بالحقيقة عالم موسوعي، ويُعتبر أيضاً من الأعلام البارزين الذين خططوا الخطوط العريضة والأساسية لفنون الكتابة، واشتهر بمنهجه التاريخي الاستقرائي للوقائع والأحداث الذي أساسه المشاهدة والمساءلة والمشافهة والملاحظات الشخصية والوثائق الرسمية والكتب القيمة الموثقة، كما عرف بين زملائه بأمانته حيث كان ينسب جميع معلوماته التي استخدمها لأصحابها فلا يدعي شيئاً منها لنفسه.

لقد ألمَّ شهاب الدين القلقشندي بالتراث الإسلامي وفنونه المتنوعة. وعليه تمكن من إبراز مفاخر الثقافة الإسلامية في مواجهة التيارات المعادية للإسلام، وهذا من دون شك إثبات واضح بأن عنده نفس وثابة للإنجاز، وفكر جائع للمعرفة، وضمير متطلع إلى إشاعة العدل على الأرض، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أنه كان يتمتع بمعارف تاريخية نادرة، علاوة على أنه كان أديباً وفقيهاً وسياسياً ودبلوماسياً محنكاً.

ابن تغري بردي

هو **يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري**، كنيته **أبو المحاسن** وفي بعض الأحيان يُعرف باسم **جمال الدين**، أما لقبه **الظاهري** فقد أخذه عن أبيه سيف الدين الذي كان أصله مملوكاً رومياً للسلطان الظاهر برقوق الذي عيّنه قائداً لإحدى فرق الجيش المملوكية السلطانية. كما أن ابن السلطان برقوق (فرج بن برقوق) أسند إليه نيابة دمشق وذلك بعد وفاة أبيه. ولد يوسف بن تغري بردي بمدينة القاهرة سنة (٨١٣ هجرية) أي قبل وفاة والده بسنتين، لذا عاش يتيماً في حجر أخته زوجة قاضي القضاة ناصر الدين محمد ابن العديم الذي توفي وعمر الطفل يوسف بن تغري بردي ثماني سنوات، ولكن أخته تزوجت بقاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقيني الذي تولى تربيته، وزرع فيه الميل إلى تحصيل العلم، لذا استمر الطفل يوسف بن تغري بردي تحت رعاية أخته إلى أن بلغ سن الرشد. وهكذا يتضح للقارىء أنه نما وترعرع في بيت علم، حفظ القرآن الكريم في سن مبكر جداً ونبغ في كل من الأدب والفقه والحديث، ولكنه أولع ولعاً شديداً بعلم التاريخ والرواية، فدرسه على أعظم مؤرخي العصر التاسع الهجري المقريزي، فتفتحت مواهبه واستوى عوده، لذا بدأ بتدوين الحوادث التاريخية بهمة مرموقة وأسلوب رائع. وعليه اتضحت شخصيته ومنهجه في التأليف. اشتهر بعرضه أكثر من رواية واحدة للحدث التاريخي الواحد، وذلك ليعطي الدارس والباحث الفرصة العلمية على القيام في مقارنة الروايات التاريخية المختلفة واستخلاص النتائج المناسبة والمعقولة، لاشك أن ارتباط المؤرخ يوسف بن تغري بردي بالطبقة الحاكمة، ومعلوماته الجيدة في كل من الفقه والحديث والأدب وتفوقه في مجال علم التاريخ، هيأته لأن يكون مؤرخاً متميزاً بين مؤرخي الحضارة العربية والإسلامية. عرف بين زملائه بكرمه وحبه للخير

وتقديره واحترامه أهل الفضل عبر حياتــه المديـدة. تـوفي بمدينـة القـاهرة سـنة (٨٧٤ هجرية) فحزن عليه طلاب العلم كثيراً.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «نشأ ابن تغري بردي نشـأته العلمية الدينية، ثم لازم مجلس المقريزي فأخذ عنـه التـاريخ وشـغف بـه حتـى أضحى هوايته الكبرى. لكنه درس الثقافة العسكرية أيضاً على أيـدي ممـاليك أبيه. وهكذا كبر ابن تغري بردي وهو ينتمي إلى طبقـتي أهـل السـيف وأهـل العمائم في وقت معاً، على أن ابن تغري بردي كان من أكـابر (أولاد النـاس) ومعنى ذلك بلغة العصر: أولاد الأمراء المماليك. وقـد كـان لديـه مـن مـوارد الرزق ما يسمح له بأن يعيش في سعة كاملة، واستغناء عن العمل. وإذا أتقـن ابن تغري بردي العربية بجانب التركية، وبرع في الفروسية براعتـه في الضـرب والإيقاع والنغم وعرف الفقه وقرض الشـعر.. فـإن دراسـة التـاريخ هـي الـتي استولت عليه.. وهذه الهواية مع التفرغ جعلت منه المـؤرخ الكبـير، ويضـاف إلى ذلك ما استطاع الاطلاع عليه من معلومات وأخبار عصره نتيجة صلاتـه الواسعة مع البلاط السلطاني وعدد من كبار الأمراء وصانعي السياسة».

كان أبو المحاسن ابن تغري بـردي فـاضلاً في ميـدان علـم التـاريخ، جيـد الاطلاع فيه مطلعاً على دقـائق أسـراره، كمـا أن لـه مؤلفـات في هـذا المجـال الحيوي تدل على أن ثروتـه التاريخيـة لا يُستهان بهـا، ممـا جعلـه محـل تقديـر وإجلال كبار العلماء والمؤرخين. ولقـد تنـاقل المؤرخـون في المعمـورة أعـداداً كبيرة من مؤلفاته في مؤلفاتهم ومنها: المنهل الصافي والمستوفى بعـد الـوافي في تراجم الأعيان، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقـاهرة، وحـوادث الدهـور في مدى الأيام والشهور، ونزهة الرأي في التاريخ، ونشء اللطافة في ذكر مـن ولي الخلافة، ومورد اللطافة فيمن ولي السـلطنة والخلافـة، ونزهـة الألبـاب في اختلاف الأسماء والألقاب، والبحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر، والبشارة في تكملة الإشارة، وحلية الصفات في الأسماء والصناعات، وكتـاب الـوزراء،

ورسالة في الموسيقى الصوتية، والانتصار للسان التتار، والدليل الشافي على المنهل الصافي، وكتاب في الرياضيات والموسيقى، والسكر الفاضح والعطر الفاتح وغيرها.

وخلاصة القول: يُعتبر القرن التاسع الهجري من أهم العصور التاريخية؛ لأنه حافل بالمؤرخين المخلصين والكتب التاريخية الشاملة، لقد حفظ المؤرخون لهذا العصر مقتطفات تاريخية كثيرة في مؤلفاتهم عن كتب ضاعت أصولها، كما اشتهروا بأسلوب الرواية في نقل الأحداث التاريخية، وذلك بنسبة الروايات التاريخية إلى أصحابها، ويظهر ذلك واضحاً من قول أبي المحاسن ابن تغري بردي في مقدمة كتابه «النجوم الزاهرة»: «وأجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار وأربابها، وذلك بعد اتصال سندي إلى من لي عنه منهم رواية، ليجمع الواقف عليه بين صحة النقل والرواية».

تفنن جمال الدين ابن تغري بردي في تاريخ المماليك والجراكسة، وعرف بمقدرته العجيبة على الإحاطة بالجزئيات التاريخية إحاطة دقيقة ونادرة، لذا يُعتبر بحق من كبار مؤرخي عصر المملوكية والمؤرخ الأول لعصر الجراكسة، والحقيقة أن مؤهلاته العلمية والأدبية والتاريخية والشرعية أهّلته لأن يكون قريباً من سلاطين مصر حوالي خمسين عاماً، حيث كان أغلب سلاطين الدولة المملوكية يصرون على استدعائه إلى مقر حكمهم لحضور مجالسهم؛ لكي يسمعوا ما لديه من معلومات ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في سائر العلوم. والجدير بالذكر أن أبا المحاسن ابن تغري بردي قد عاصر من خلال فترة حياته كلها أكثر من ستة عشر من سلاطين المماليك، وذلك من عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى أوائل فترة حكم الأشرف قايتباي.

ودرس أبو المحاسن بن تغري بردي بكل عناية ما حصل عليه من كتب الأقدمين، وعمد على تلخيصها وشرحها والتعليق عليها، هذا فضلاً عن بعد همته في الملاحظة الميدانية والاستقصاء والتأمل لاستخلاص الفائدة المرجوة،

وعليه تكون لديـه ذخـيرة تاريخيـة وأدبيـة وظفهـا في مؤلفاتـه المختلفـة، كمـا يسرت له علاقة قوية بسلاطين المماليك.

أرجو أن تكون هذه الترجمة الموجزة لأبي المحاسن ابن تغري بردي حـافزاً قوياً للاعتناء بتراث الأمة العربية والإسلامية، حيث ترك أبو المحاسن ابن تغري بردي ثروة علمية للأجيال لا تقدر بثمن، وقد ساعده على ذلك جودة ذهنـه وتصوره وحكمته وصحة فهمـه، وتجـرده عـن كـل تعصـب وهـوى. ويبـدو واضحاً من مصنفاته أنه وصف أجيال المـماليك ودولتهـم وسـلاطينهم بقـدر كبير من الحيدة والموضوعية والنزاهة، واشتهر أبو المحاسن ابن تغري بردي بين زملائه المؤرخين بجرأته على قول الحـق، وإصـدار رأيـه بعيـداً كـل البعـد عـن الاعتبارات الشخصية.

محمد الكافيجي

هو **محمد بن سليمان بن سعد بـن مسعود الرومـي الكـافيجي**، وسمي **الرومي** لأن أصله رومي، يكنى **بأبي عبد ا لله**، ويلقـب **بالكـافيجي** (الكافيه جي) لأنه كان من المغرمين بكتـاب: «الكافيـة» في النحـو، ويدعـى في بعـض الأحيان بمحيي الدين، ولد سـنة (٧٨٨ هجريـة) في كـوك جـاكي مـن بـلاد الأناضول، وتلقى تعليمه على أيدي كبار المفكرين فيها، حيث تفنن في علـوم كثيرة، ولكنه نبغ في كل من علوم التاريخ والفقه والنحو والتفسير. كما ذاع صيته بين زملائه بمقدرته الذهنية وطول نفسه في المناقشة والحوار، فكان يـرى ضرورة الحوار في التربية والتعليم. لذا كان معلماً شـعبياً محبوبـاً عنـد تلامذتـه وزملائه، ثم جـاءت لـه فكـرة مغـادرة الأنـاضول والتوجـه إلى أرض الكنانـة (مصر) لكي يلتقي بجهابذة الفكر هناك، وفعـلاً تم ذلـك وصـارت لـه صولـة وجولة في القاهرة، وتتلمذ عليه كثير من علمائها الكبار وعلى رأسـهم محمـد السيوطي (٧٨٣ ــ ٨٥٩ هجريـة) صـاحب كتـاب «ريـاض الأدب ومحاسـن الآداب» الذي لازمه أربع عشرة سنة. كمـا أسندت إليه وظـائف كثـيرة في مصر وأهمها رياسة الحنفية بمصر. ولكنه لم يسـتمر في أعمالـه الوظيفيـة، بـل تفرغ للبحث والاستقصاء في مجـال كـل مـن علمـي التـاريخ والفقـه والعلـوم الشرعية الأخرى والنحو والأدب حتى توفي سنة (٨٧٩هجرية). وقد برز أبو عبد ا لله الكافيجي بالمعقولات، لذا عندمـا صـدر كتابـه القيـم الـذي يعـرف باسم: «المختصر في علم التاريخ» صار المؤرخـون يتناقلونـه؛ لأنـه كـان الأول من نوعه في هذا المجال الحيوي.

يقول **فرانز روزنتال** في كتابه آنـف الذكـر: «وكتـاب المختصـر في علـم التاريخ لمحمد الكافيجي هذا جدير بالاعتبار لأصالة طريقته، وجـودة كتابتـه، وهــو يتبـع النظــام المــألوف في تعريــف علمــي يرجــع إلى الفلســفة

الأرسطوطاليسية. وكان مصدر الإلهام المباشر في هذا المضمار هو طريقة البحث في علم الفقه. وقد أجاب باختصار عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه، وهدفه وفوائده. غير أنه كرّس مجالاً أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة «تاريخ» العربية، وعن مركز التاريخ في العلوم الدينية الإسلامية».

ولأبي عبد الله الكافيجي مؤلفات كثيرة من أهمها: كتابه «النصر القاهر والفتح الظاهر»، ورسائله المشهورة التي سجل معظمها الكثير من المؤرخين في المعمورة وعلى رأسهم كل من حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وعمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين» ـ الجزء العاشر ـ، وخير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» ـ الجزء السابع ـ وهي: منازل الأرواح، ومعراج الطبقات، وقرار الوجد في شرح الحمد ونزهة المعرب، وفي النحو، والتيسير في قواعد التفسير، والإحكام في معرفة الإيمان والأحكام، والإلماع بإفادة لو للامتناع، وجواب في تفسير: والنجم إذا هوى، ومختصر في علم الإرشاد، وشرح قواعد الإعراب لابن هشام، وجيز النظام في إظهار موارد الأحكام، وحل الإشكال في مباحث الأشكال في الهندسة، والأنوار في علم الإرشاد، والأنوار في علم التوحيد الذي هو أشرف العلوم والأخبار. أما كتابه (المختصر في علم التاريخ) فهو يُعتبر الفريد من نوعه في هذا الميدان، وقد تطرق فيه إلى عدد من المسائل المتعلقة بعلم التاريخ، محاولاً بذلك أن يضع منهجاً واضحاً لهذا العلم الهام.

يقول **أبو عبد الله محمد الكافيجي** في مقدمة كتابه «المختصر في علم التاريخ» : «الحمد لله الذي خلق الأرض والسماء، وما فيهما عبرة لأولي النهى، والصلاة والسلام على رسوله وحبيبه محمد صاحب الوحي والهدى، وعلى آله وأصحابه وأتباعهم الذين هم نجوم الاقتداء والاهتداء، وبعد: فإن من جملة العلوم النافعة في المبدأ والمعاد، وما بينهما علم التاريخ الذي فوائده

وغرائبه لا تُعد ولا تُحصى، وهو بحر الدرر والمرجان، لا يحيط بمنافعه نطاق التحديد والتبيان، وفيه عجائب الملك والملكوت، وفيه إيصال إلى جناب الحق ذي العظمة والجبروت. ولكن لما كان درراً منثورة في عجاج بحر العمان غير منتظم في سلك القواعد والتبيان، وقد دعاني الحدب على أهل (الأدب والأرب) إلى جمعه في قوانين الضبط والبيان بقدر الوسع والمكان متوكلاً في ذلك على الله المعين كثير الفضل والإحسان. ولئن كنت بمراحل من جانب التصدي لذلك الخطب العظيم الشأن، دوّنت كتاب المختصر في علم التاريخ، تحفة مناي إلى الإخوان تحفة النملة إلى سليمان، راجياً من الله الذكر الجميل في الأولى والأجر الجزيل في الآخرة، إنه على كل شيء قدير».

وخلاصة القول: أولى فقهاء العرب والمسلمين الأوائل اهتماماً بالغاً لعلم التاريخ؛ لأنهم كانوا يرون أن علم التاريخ أحسن وسيلة لإيضاح كل من الفقه والعلوم الشرعية، حيث إن علم التاريخ بطبيعته يعرض تصوراً للحياة السياسية والاجتماعية والأدبية والدينية، ويقدم أيضاً معلومات وحقائق عن مآثر كل من الملوك والأمراء والعلماء الكبار والزهاد والفضلاء والنبلاء، وهكذا عني أبو عبد الله الكافيجي بالعلوم التاريخية، وألف كتابه الشهير الذي يحمل اسم: «المختصر في علم التاريخ» الذي صار مرجعاً ضرورياً لمن أراد أن يكتب عن التاريخ الإسلامي عبر التاريخ. كما خلفه بهذه المهمة طلابه الأوفياء من بعده، حيث أحاطوا علم التاريخ بضروب من العناية والاهتمام، وعليه أصبحت مادة علم التاريخ تدرس للشباب والكبار في جميع الدول الإسلامية إلى يومنا هذا، والسبب في ذلك أن علماء العرب والمسلمين أدركوا أن الذي لا يتذوق علم التاريخ لن يكون عنده الحافز والرغبة في الدراسة والبحث، لذا يصرون بدون هوادة على طلاب العلم في جميع المستويات أن يجمعوا بين علم التاريخ وأي فرع من العلوم الأخرى.

ولقد أصبح أبو عبد الله الكافيجي من العلماء المرموقين في الحضارة

العربية والإسلامية؛ لأن جميع كتاباته واضحة لا التباس حولها، وتمتاز أيضاً بأسلوبها السهل الممتنع الأصيل الجزيل بمعانيه، لذا صار كتابه «المختصر في علم التاريخ» ـ الذي يحتوي على مبادىء علم التاريخ، وأصوله ومسائله، وفي بيان شرف وفضل أهله ـ من المصادر الهامة جداً لأي باحث يريد أن يعمل دراسة تاريخية موثقة.

شمس الدين السخاوي

هو **محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي**، يكنى بكل من **أبي عبد الله وأبي الخير وشمس الدين والحافظ**، ويلقب **بالسخاوي** لأن أصله من سخا إحدى قرى مصر، ولد سنة (٨٣١ هجرية) في القاهرة، وتوفي سنة (٩٠٢ هجرية) في المدينة المنورة. تلقى تعليمه على كبار المفكرين في القاهرة، وتفنن في كل من علم التاريخ والحديث والتفسير والأدب والفرائض والحساب والميقات، ولكن ذاع صيته لمواقفه الجريئة في الدفاع عن أهمية دراسة علم التاريخ، حيث قدم أفكاره التاريخية تقديماً متقناً عالج فيها أمل ومعضلات العالم العربي والإسلامي آنذاك، وأبرز ذلك في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، الذي كان له عظيم الأثر على علماء العرب والمسلمين في تغيير اتجاههم وشعورهم نحو علم التاريخ، كما أثبت أبو عبد الله السخاوي فيه أيضاً أن علم التاريخ الإسلامي له صلة ضعيفة بالتواريخ القديمة التي ظهرت قبل شروق الدين الإسلامي، وأنه شديد الارتباط في كل من القرآن الكريم، وعلم الحديث والسيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ والفتوحات الإسلامية، كان أبو عبد الله السخاوي يحب الأسفار، وقد استفاد من رحلاته المتكررة إلى معظم عواصم العالم الإسلامي، فمثلاً التقى بكبار علماء الحديث في المدينة المنورة، وأخذ عنهم الكثير في هذا المجال، لذا كان قوي الحجة أمام خصومه؛ لأنه واسع الثقافة وصاحب منهج علمي متطور في مجال علم التاريخ، وكان يحث دائماً على اتباع الاستقراء والدقة في الاستنتاج من أجل الوصول إلى أفضل النتائج المرجوة.

يقول **الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي** في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»: «وأما ما لعله يذكر فيه من أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسننهم فهو من أخبار العلماء ومذاهبهم، والحكماء

وكلامهم والزهاد والنساك ومواعظهم، عظيم الغناء ظاهر المنفعة، فما يصلح الإنسان به أمر معاده ودينه وسريرته في اعتقاداته، وسيرته في أمور الدين، وما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوي، وكذا ما يُذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم وأسباب مبادىء الدول وإقبالها ثم سبب انقراضها، وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشباهها أبداً في العالم، غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقله ويصير مجرباً غير غر ولا غمر.. وأنه أيضاً جم الفائدة كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية، لما جبل عليه طباعهم من الارتياح عن سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها، ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر الذي حرض عليه خلاصة البشر، وأخبر الله تعالى عن إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخِرين﴾ [سورة الشعراء آية ٨٤]».

إن موقف شمس الدين السخاوي نحو علم التاريخ يدل على شجاعته ونزعته إلى الاستقلال في الرأي، ورغبته القوية في تحرير العقل، فهو بحق الذي جعل للاستقراء مكاناً في دراساته وتحرياته، وهذا يظهر في مؤلفاته العديدة التي ذكرها بعض المؤرخين، ومنهم مصطفى عبد الله الشهير بحاجي خليفة صاحب كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، ومن أشهرها: الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، وشرح ألفية العراقي في أصول الحديث، والمنهل البديع في أحكام الصلاة على الحبيب الشفيع، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، والتبر المسبوك، وذيل لتاريخ المقريزي، والذيل على كتاب الذهبي دول الإسلام (الذيل الحافل لتاريخ الإسلام)، وذيل لكتاب أخبار مصر، وذيل لكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر (لابن حجر العسقلاني)، والجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، والكوكب المضيء (ترجم به لبعض

معاصريه)، والتحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة، النفحة المسكية والأجوبة المكية، والغاية في شرح الهداية، والشافي من الألم في وفيات الأمم، والتاريخ المحيط وطبقات المالكية، وتلخيص تاريخ اليمن، وتلخيص طبقات القراء، وتحفة السائل بأجوبة المسائل، والتوجه للرب بدعوات الكرب، والسيف القاطع، وعمدة الناس في مناقب سيدنا العباس، والقناعة فيما تمس إليه الحاجة من أشراط الساعة، والمقاصد الحسنة في كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ونظم اللآلىء في الإبدال، وشرح التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير (للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي).

وخلاصة القول: حصل في القرن التاسع الهجري بعض التوجه في العالم الإسلامي نحو الدراسة والبحث في مجال علم التاريخ الذي يعتبره الأوائل الوسيلة القوية لخدمة العلوم الدينية؛ لأن الدين الإسلامي تاريخي الروح؛ ولأنه خلاصة الأديان السماوية كلها، والعقيدة الإسلامية لها جذورها الصلبة في علم التاريخ الإسلامي، والحقيقة أن الأوائل يرون أن علم التاريخ الطريق المبين لمعرفة الفقه والشريعة، وذلك لأن علم التاريخ ارتبط منذ البداية في صدر الإسلام بالعلوم الدينية. والجدير ذكره أن المسلمين الأوائل كانوا يكتبون عن السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ والفتوحات الإسلامية والخلافة في الإسلام وتراجم رجال العلم والفقه والحديث، لذا اهتم شمس الدين السخاوي اهتماماً بالغاً بعلم التاريخ، وأوضح مكانته بين العلوم الأخرى، وهذا يظهر واضحاً في كتابه التبر المسبوك، وكما عني أبو عبد الله السخاوي الحافظ المؤرخ بأخبار ومآثر كل من الملوك والأمراء والعلماء والزهاد والفضلاء والنبلاء؛ لكي تكون أعمالهم قنديلاً يضيء الطريق لشباب الأمة العربية والإسلامية.

وتمكن شمس الدين السخاوي من إعطاء علم التاريخ ملامحه الأصلية وأبعاده الفكرية المتميزة، وذلك باعتماده على الروايات الموثقة المتناقلة من جيل إلى آخر

وعلى بعض الأخبار المتوارثة عن الأسر العريقة والنبيلة، والمشهود له أنه كان موضوعياً ومنطقياً في جميع تعليلاته للأحداث التاريخية، حيث لم يخضع أبداً للابتزاز مهما كان مصدره، لذا يُعتبر من رواد علم التاريخ المخلصين لهذا العلم الحيوي، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن لأبي عبد الله السخاوي منهجاً فكرياً تاريخياً تميز به عما سواه من مؤرخي العرب والمسلمين، وهذا يظهر واضحاً وجلياً في كتاباته التي تمتاز بأسلوبها الاستقرائي الشامل، والسهل البسيط الواضح المعالم وبتقديمه الأحداث والوقائع التاريخية بطريقة مباشرة وسلسة، وفوق هذا كله جميع أعماله كانت تتصف بدرجة عالية من الاتزان والابتعاد كل البعد عن الخزعبلات والصور الخيالية.

وكان لآراء أبي الخير السخاوي حول علم التاريخ صدًى جيداً في أواسط الشعوب العربية والإسلامية، بها بث الوعي التاريخي بين معاصريه والتابعين له، كما أبرز بطريقة عملية ما لعالم التاريخ من ارتباط وثيق مع العلوم الأخرى، وذاع صيت أبي عبد الله السخاوي بين زملائه بتجواله وأسفاره وقيامه برحلاته العلمية إلى العواصم الإسلامية؛ لينهل المعارف التاريخية والفقه والشريعة من مصادرها العذبة، لذا ظهرت الرحلات العلمية قنديلاً في طبيعة منهجه وفي تثقيفه، واطلاعه على المعلومات التي ذكرها في مؤلفاته المختلفة.

ابن الوزير الملطي

هو **عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي**، كنيته **زين الدين**، لقبه **ابن الوزير**. ولد في مدينة ملطية التي تقع في أطـراف آسـيا الصغـرى سنة (٨٤٤ هجرية)، وظهر نبوغه مبكراً، حيث حفظ القـرآن الكريـم في صغـره، وكـان نفساً وثابة للإنجاز وفكراً جائعاً للمعرفة. زار عدداً كبيراً من المراكز الإسلامية مع والده خليل بن شاهين. كما تتلمذ الابن عبد الباسـط الملطي على كبـار العلماء في كل من دمشق والقاهرة اللتين كانتا تعجان بجهابذة الفكر، ونتيجة لذلك تفنن بعلوم كثيرة مثل علم التاريخ وتفسير القرآن الكريـم والأحـاديث النبوية واللغة العربية والفقه والمنطـق والحكمـة. والمشـهور لـدى المؤرخـين في المعمورة أنه درس العلم للعلم، لذا تنقل أيضاً في جميـع بلـدان المغـرب العربـي باحثاً عن كل من العلماء والمراجع، حيث نقل عن علمائها الكثير من معارفـه في مجال علم التاريخ الخاص ببلدان المغرب العربي. قضـى زيـن الديـن الملطـي معظم أيام حياته بمدينة القاهرة، لـذا يسـمى في بعـض الأحيـان بعبـد الباسـط الملطي القاهري. والمعروف أنه مؤلف مكثر في علوم كثيرة، ولكنه قطع شوطاً بعيداً جداً في ميدان علم التـاريخ، كمـا ذاع صيتـه بمنهجـه التـاريخي المتمـيز. أصيب بمرض السل وتوفي بمدينة القـاهرة سنة (٩٢٠ هجريـة). والمتواتـر أنـه كان غني الملاحظة وصاحـب مهارات متنوعة، يلتقي بالناس بكل سرور علـى اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ومذاهبهم، فيسجل ما يسمعه ويلاحظه، ويسأل ويجمع.

ولقد وصف **ابن الوزيـر الملطـي** منهجـه في التـأليف في كتابـه «الـروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» قائلاً: «وتوخيت فيه ما ثبت عند من نقـل السادة المعتمدين الأخيار، أو شاهدته عياناً أو مستقصياً يقيناً من الأخبار ومن الله - سبحانه - استمد المعونة والتوفيق، واسأله ــ تعـالى ــ الهداية للنطـق بمـا

يليق، والابتعاد عن الإفحاش وهضم الناس، والإرشاد لإعطاء كل ذي حق حقه من غير تعصب ولا اختلاس، وأن يجعله حاثاً للواقف عليه فعل ما يُحمد، وملازمة شهرة يذكر بها ويرشد، ومبعداً عن رذائل ذوي السير الذميمة، هذا مقصدي، ولم أقصد الغيبة والنميمة، والله بذلك هو الكفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل».

لقد أتاحت الرحلات العلمية التي قام بها زين الدين الملطي اجتماعه بكبار العلماء في العالم الإسلامي وحصوله على الكتب النادرة، وهذا المسار العلمي العظيم أكسبه معارف تاريخية وأدبية رائعة. وقد تجلت مقدرته العلمية المرموقة في مؤلفاته المختلفة التي نوه عنها المؤرخون في مؤلفاتهم ومنها: نزهة السلاطين فيمن ولي ملك مصر من السلاطين، والمجمع المفنن بالمعجم المعنون «تراجم على حروف المعجم»، وغاية السول في سيرة الرسول ﷺ ، ونيل الأمل في ذيل الدول، والقول الحزم في تاريخ الأنبياء أولي العزم، والروضة المربعة في سيرة الخلفاء الأربعة، وتاريخ مرتب على السنين، والروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، والدار الوسيم وتوشيح وتتميم التكريم في تحريم الحشيش ووصفه الذميم، وشرح عمدة الطالبين ورغبة الراغبين، ونزهة الألباب في مختصر أعجب العجائب، والقول المشهود في ترجيح تشهد ابن مسعود، ومجموع البستان النوري لحضرة مولانا السلطان النوري، والقول الخاص في تفسير سورة الإخلاص، والأذكار المهمات في المواضع والأوقات، والحكمة في كون خمس صلوات مخصوصة بهذه الأوقات، والمنفعة في سركون الوضوء مخصوصاً بالأعضاء الأربعة، والنفحة الفاتحة في تفسير سورة الفاتحة، والقول المأنوس في حاشية القاموس للفيروز آبادي، والزهر المقطوف في مخارج الحروف.

وخلاصة القول: لقد اهتمت الدولة المملوكية الثانية والمعروفة آنذاك بدولة المماليك الجراكسة في نشر العلم ودراسة التراث العربي والإسلامي عن كثب في مصر، لذا كان هناك حركة فكر جيدة في جميع العلوم والفنون،

وعليه ولد هذا الازدهار العلمي حينئـذ علمـاءَ متميزين، ليس فقـط في علـم التاريخ ولكن في سائر العلوم، ونتيجـة لذلـك درس ابـن الوزيـر الملطـي علـم التاريخ عن قناعة تامة، حيث أسهم فيه إسهامات رائعة؛ لأنه كـان يعتقـد أن علم التاريخ ملتقى كل من التحركـات السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والفكرية، كما برهن من خلال كتاباته أن علـم التـاريخ علـم شـامل للحيـاة العقلية والعقائدية والأخلاقية والأدبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولقد ساهم ابن الوزير الملطي مساهمة فعلية في تطور علم التاريخ، حيث قدم دراسة مفصلة عن الأمم الماضية والأجيال الغابرة، وشرح الغامض ببعـض الأحداث التاريخية. كما عرض دراسـة متكاملـة للأمـاكن والقبـائل والرجال المشهورين الذين التقى بهم، على هذا المنوال كون ثروة تاريخية عظيمة أفادت المؤرخين فائدة كبيرة. ومما لا يقبل التأويل أنه كان مؤرخاً بارعاً محبـاً لعلمـه. كما اشتهر بين معاصريه بأسلوبه العلمي الواضح الذي صـار نموذجاً للعلمـاء التابعين له.

تميز عبد الباسط الملطي عن غيره من المؤرخين بإضافاتـه وبأسـلوبه الرائـع الممتع وبأمانته في علمه وموضوعيته في أحكامه. والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن المؤرخين لم يعطوه حقه الكـامل، من حيـث الإشـادة بمجهوداتـه التاريخيـة والأدبيـة والشـرعية؛ فقـد أعطـى إنتاجـاً ضخمـاً حـافلاً بالنظريـات والآراء الفريدة التي ساعدت على كشف الحقـائق والوقـوف عليهـا، ولكنهـا للأسـف الشـديد لا تـزال في بطـون مؤلفاتـه الـتي علـى رفـوف المكتبـات في المعمورة تحتاج إلى من ينبشـها ويقدمهـا للدارسـين والبـاحثين المعـاصرين في ثوب جديد.

طاش كبرى زاده

هو **أحمد بن مصطفى بن خليل** الشهير **بطاش كبرى زاده**، يكنى بكل من **أبي الخير وعصام الدين**، وقد أخذ لقبه **طاش كبرى زاده** من عائلته التركية التي عاشت في قرية طاش كبرى القريبة من قسطموني في الأناضول (شبه جزيرة آسيا الصغرى). ولد بمدينة بورصة (عاصمة الدولة العثمانية ٧٢٦ ـ ٨٥٧ هجرية) سنة (٩٠١ هجرية)، وتلقى تعليمه الأولي هناك، في الوقت الذي كانت مدينة بورصة من أهم المدن التركية، ولكن طموحاته ورغبته الفائقة النظير للاستزادة من العلم والمعارف جعلته يتنقل بصحبة والده بين كل من مدينة حلب الشهباء وبورصة وأدرنة وغيرها من المدن الإسلامية، لذا تعددت نواحي عبقريته، وصار عالماً مشاركاً في كثير من العلوم. ولا شك أن الدين الإسلامي كان المحرك الأول له؛ لأنه يحث على طلب العلم والمعرفة، علاوة على أنه نما وترعرع في بيئة علمية راقية.

استوطن عصام الدين طاش كبرى زاده مدينة أنقرة (عاصمة تركيا الحالية) وأسندت إليه مهمة القضاء فيها وذلك سنة (٩٥٨ هجرية)، وقد فقد بصره من الإجهاد عام (٩٦١ هجرية)، ومن ثم اتجه إلى مدينة إستانبول القريبة من مسقط رأسه مدينة بورصة، وبقي فيها ضريراً حتى توفي سنة (٩٦٨ هجرية) ودفن فيها. والجدير ذكره أنه تفرغ في آخر أيام حياته لتعليم طلابه وللتأليف، فكان يملي بعض مؤلفاته على طلابه المتفوقين لنشرها بين طلاب العلم والباحثين. والمعروف أن أبا الخير أحمد طاش كبرى زاده كان متميزاً في تدريسه، لذا كان طلاب العلم يأتون من كل حدب وصوب للتتلمذ عليه في كل من علم التاريخ والحديث والفقه واللغة العربية.

ويذكر كل من المحققين كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور في مقدمتهما لكتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم»

لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده أن عصام الدين أحمد طاش كبرى زاده نشأ نشأة دينية مستقيمة في بيت علم ودين، وانعكس هذا على صفاته الخلقية والعلمية، فكان يفضل العلوم الدينية على سواها وينقد الفلسفة التي تؤدي إلى التضليل أو كما يسميها الحكمة المموهة. وقد حفظ القرآن الكريم على والده، وزار عدداً كبيراً من المدن التركية (للاستزادة من العلم والمعرفة) بصحبة والده الذي كان دائم الترحال، لذا تنوعت معاهد العلم التي التحق بها، فتفنن في كل من علم التاريخ واللغة العربية والدين والمنطق والفلك والجدل والعلوم العقلية المختلفة.

وفي آخر أيام حياته (أي قبل وفاته بسبع سنوات) أصيب بالرمد وكف بصره، فلزم بيته، وعكف على إملاء بعض كتبه وتوجيه تلاميذه إلى تبييض بعضها. والثابت أنه كان عزوفاً عن طلب الدنيا وحكامها، متواضعاً جم التواضع يعطي كل ذي حق حقه، غير متحيز ولا متعصب، وقد ذاع صيته وانتشر في الآفاق ذكره بواسطة كتابه آنف الذكر الذي يُعتبر موسوعة في تاريخ العلوم العربية، وقد رتبه ترتيباً مصنفاً (أي وفقاً لنظام تصنيف المعرفة البشرية السائدة في عصره) وضمنه معلومات ببليوجرافية نادرة تبين مكانة عصره.

كان عصام الدين أحمد طاش كبرى زاده واسع الثقافة، وكان متبحراً، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم، ولم يكتف بالاطلاع والتبحر، بل أسهم إسهامات جليلة في الحركة الفكرية، ويتضح ذلك من مؤلفاته العديدة التي ذكر بعضها مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وهي: كتاب آداب المولى أبي الخير، وكتاب الأربعين في الحديث وغيره، وكتاب الاستقصاء في مباحث الاستثناء، وكتاب التعريف والأعلام في حل مشكل الحد التام، وكتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، وكتاب فرايض طاش كبرى زاده، وكتاب المعالم في علم الكلام، وكتاب مفتاح

السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، وكتاب الإعـراب في النحـو، وكتاب نوادر الأخبار في مناقب الأخيار، وكتاب معجم الـتراجم، ولـه نظـم جيد، ورسالة أجل المواهب في معرفة وجوب الواجب، ورسالة في تفسير آيـة الوضوء، والرسالة الجامعة لوصف العلوم النافعة، ورسالة الشفاء لأدواء الوباء، ورسـالة في القضـاء والقـدر، ورسـالة صـورة الخـلاص في سـورة الإخـلاص، ورسالة في العناية في تحقيق الاستعارة بالكتابـة، ورسـالة فتـح الأمـر المغلـق في مسألة المجهول المطلق، ورسالة القواعد الجليـات في تحقيـق مبـاحث الكليـات، ورسالة مسالك الخلاص في مهالك الخواص، ورسـالة نزهـة الألحـاظ في عـدم وضع الألفاظ للألفاظ، وشرح كل من: كتـاب الأخـلاق لعضـد الديـن عبـد الرحمن بن أحمد الإيجي، وكتاب طوالـع الأنـوار للقـاضي عبـد الله بـن عمـر البيضاوي، وكتاب العوامل المئة في النحو للشيخ عبد القاهر بـن عبـد الرحمـن الجرجاني، وكتاب الفوائد الغياثية في المعاني والبيان للقاضي عضد الدين عبـد الرحمن بن أحمد الإيجي، وكتاب مفتاح العلوم للعلامـة سـراج الديـن يوسـف السكاكي، وكتاب المقدمة الجزرية في علم النحو (منظومة) للشيخ محمـد بـن محمد الجزري، وكتاب مقدمة الصلاة لشمس الدين محمد بن حمـزة الفنـاري، وكتاب الهداية لشيخ الإسلام برهان الدين علي المرغيناني.

وخلاصة القول: لقد شجعت الدولة العثمانية طلاب العلم على الدراسة والبحث في مجال علم التاريخ، لاعتقادهم الصادق أن علم التاريخ هو حصيلة تفاعل الإنسان مع بيئته، مما دفع أحمد بن مصطفى طاش كبرى زاده أن يعمل بكل جد وتفان في هذا الميدان الحيوي. وكان لديه قناعة تامة بما يملـك علـم التاريخ من مادة محددة الأبعاد، وعليه حاول أن يجعلـه محـور نشـاطه العلمـي، وقد نجح بذلك نجاحاً باهراً.

وكان عصام الدين أحمد طاش كبرى زاده مبدعاً في شتى فروع المعرفـة، ولكنه تفنن في ميـدان علـم التـاريخ، حيـث أدرك بعقليتـه الجبـارة مـا يعانيـه

الباحث في تحليل الأفكار التاريخية، وربط بعضها ببعض ربطاً علمياً نزيهاً. ولقد تمكن بجدارة من ترتيب كل من كتبه ورسائله وشروحه لبعض الكتب المشهورة أحسن ترتيب، حيث جعلها بمنهجه الرائع سهلة التناول للدارسين والباحثين؛ لأنه استعمل بهذا كل ما وهبه الله جل وعلا من سرعة البديهة ونفاذ القريحة، إذن لا عجب إذا اشتهر شهرة رائعة وانتشرت أقواله بين المؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في جميع أرجاء المعمورة.

أبو العباس المقري

هو **أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني**، يكنى **بأبي العباس**، ويلقب **بالمقري**، وفي بعض الأحيان يسمى **شهاب الدين**. ولد سنة (٩٨٦ هجرية) بقرية مقرة إحدى قرى تلمسان الجزائرية، ونما وترعرع في بيئة علمية بقريته، وحفظ القرآن الكريم على يد عمه مفتي تلمسان، حيث كان عمه من كبار علماء تلمسان في العلوم الشرعية. كما أن تلمسان تعتبر من أحسن وأجمل بلاد المغرب العربي برمته، والجدير ذكره هنا أن بعض المؤرخين اختلفوا بتاريخ ولادة أبي العباس المقري، فبعضهم يذكر أنه ولد سنة (١٠٠٠ هجرية) وعلى رأسهم كل من عمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين» وليفي بروفنسال في «دائرة المعارف الإسلامية»، وفي سنة (١٠٠٩ هجرية) غادر مسقط رأسه متجهاً إلى مدينة فاس العريقة وهو في ريعان شبابه ليتتلمذ على جهابذة الفكر هناك، ولكنه لم يستقر طويلاً بها في أول زيارة، بل عاد إلى تلمسان، ثم رجع إلى مدينة فاس سنة (١٠١٣ هجرية) واستوطنها، وتولى الإمامة والخطابة فيها. وأخيراً في عام (١٠٢٧ هجرية) رحل منها متجهاً إلى بيت الله الحرام «مكة المكرمة» لأداة مناسك الحج تاركاً الوظيفة والوطن وراء ظهره، وفي طريقه هذا مر بمصر، وشهد ـ وعمره يناهز الثلاثين سنة ـ مسلمي الأندلس يبحثون عن ملجأ لهم في بلاد المغرب العربي؛ لأنهم طردوا من بلادهم.

لم يمكث أبو العباس المقري طويلاً بمصر، بل استمر في رحلته متجهاً إلى الأراضي المقدسة، حيث وصل مكة عام (١٠٢٨ هجرية) وزار المدينة المنورة، ثم قرر أن يرجع إلى مصر سنة (١٠٢٩ هجرية) لكي يستقر بها وليتزوج من نسائها، ولم يلبث طويلاً هناك، بل فكر أن يزور كلاً من القدس ودمشق ومكة المكرمة، وأخذ يتنقل في كل من الديار المصرية والحجازية

والشامية حتى سنة (١٠٣٧ هجرية)، فقد زار مكة خمس مرات، ولكنه في الأخير استوطن القاهرة ليكون قريباً من الأزهر الشريف وتوفي بها سنة (١٠٤١ هجرية).. وذاع صيت أبي العباس المقري بين زملائه لعلمه وقوة عزمه، فكان مؤرخاً نزيهاً يقول كلمة الحق ولو على نفسه، كما عرف أيضاً بسعة ثقافته وقدرته العجيبة على التنقير والتفتيش.

يقول **أحمد بن محمد المقري التلمساني** في مقدمة كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ـ المجلد الأول ـ تحقيق إحسان عباس: «أما بعد حمد الله مالك الملك، والصلاة على رسوله المنجي من الهلك، والرضا عن آله وصحبه الذين تجلت بأنوارهم الظلم الحلك، وعن العلماء الأعلام، الخائضين بحار الكلام، المستوين من البلاغة على الفلك، فيقول العبد الحقير، المذنب الذي هو إلى رحمة ربه الغني فقير، المقصر المتبرىء من الحول والقوة، والمتمسك بأذيال الخدمة للسنة والنبوة، وذلك بفضل الله أمان وبراءة، الضعيف الفاني، الخطاء الجاني، من هو من لباس التقوى عري، أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقري، المغربي المالكي الأشعري، التلمساني المولد والمنشأ والقراءة، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة... ثم شمرت عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدة قليلة، إلى المهم الأعظم والمقصد الأكبر الذي هو سر المطالب الجليلة، وهو رؤية الحرمين الشريفين، والعلمين المنيفين، زادهما الله تنويهاً، وبلغ النفوس ببركة من شرفا به مآرب لم تزل تنويها، فسافرت في البحر إلى الحجاز، راجياً من الله سبحانه في الأجر الانتجاز، إلى أن بلغت جدة، بعد مكابدة خطوب اتخذت لها من الصبر عدة، فحين حصل القرب، واكتحلت العين بإثمد تلك الترب، وترنمت بقول من قال، محرضاً على الوخد والإرقال:

بدا لك الحق فاقطع ظهر بيداء ... واهجر مقالة أحباب وأعداء
واقصد على عزمةٍ أرض الحجاز تجد ... بعداً عن السخط في نزل الأودّاء

وقل إذا نلت من أم القرى أرَباً — وهو الوصول بإسرار وإبداء
يا مكة الله قد مكنت لي حرماً — مؤمَّناً لست أشكو فيه من داء
فمذ رأى النازح المسكين مسكنه — في قطرك الرحب لم ينكب بأرزاء
شوق الفؤاد إلى مغناك متصل — شوق الرياض إلى طل وأنداء

... ثم رجعت إلى القاهرة، وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة، فدخلت لهذا التاريخ الذي هو عام تسعة وثلاثين وألف مكةَ خمس مرات، وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات، وأمليت فيها دروساً عديدة، والله يجعل أيام العمر بالعود إليها مديدة، ووفدت على طيبة المعظمة، سبع مرار.. ثم أبت إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور، وملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور».

اعتكف أبو العباس المقري التلمساني في أواخر أيام حياته على التأليف، فأنتج إنتاجاً هائلاً ولكن للأسف الشديد ضاع أكثره. وقد تناقل المؤرخون قائمة أغلب مؤلفاته؛ منهم على سبيل المثال **إسماعيل باشا البغدادي**، الذي ذكر في كتابه «هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين» ـ المجلد الأول ـ بعضها وهي: كتاب روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس، وكتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، وكتاب إضاءة الدجنة في عقائد أهل السُّنة، وكتاب عرف النشق في أخبار دمشق، وشرح مقدمة ابن خلدون، وكتاب الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين، ونظم في علم الجدول، وكتاب الغث والسمين والرث الثمين، وكتاب البدأة والنشأة في النظم والأدب، وكتاب أخبار الوزير لسان الدين ابن الخطيب، وكتاب الدر المختار من نوادر الأخبار، وكتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب التي ذكرها أبو العباس المقري في مقدمته، فقد قسم المؤلف كتابه هذا إلى قسمين رئيسين كل منهما له حيثياته العلمية الخاصة به.

القسم الأول: خاص بأخبار بلاد الأندلس ويحتوي على ثمانية أبواب،

الباب الأول: في وصف جزيرة الأندلس، وحُسن هوائها واعتدال مزاجها ووفرة خيرها، وذكر بعض مآثرها. والباب الثاني: يختص بفتح بلاد الأندلس على يد كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد، مع الإلمام بذكر ولاتها من قبل بني أمية، والباب الثالث: فيما للدين الإسلامي بالأندلس من العز السامي، وقهر العدو، وتشجيع الناس على الجهاد مع ذكر خلفائها وملوكها، والباب الرابع: في وصف المساجد والمصانع والمنتزهات وقرطبة المقر الرئيس للخلافة الأموية، والباب الخامس: في التعريف بأعلام الأندلس ذوي العقول الراجحة، وخاصة الذين رحلوا إلى بلاد المشرق العربي، والباب السادس: في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق العربي، والتنويه عن مكانتهم العلمية. والباب السابع: في ذكر نبذة مما منَّ الله به على الأندلس من توقد الأذهان، وذلك بمقدرتهم على اكتساب المعارف المختلفة. والباب الثامن: من ذكر تغلب العدو الكافر على بلاد الأندلس بعد صرفه وجوه الكيد إليها، وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره.

أما القسم الثاني: من الكتاب فخصصه أبو العباس المقري التلمساني بالتعريف بالوزير الشاعر لسان الدين ابن الخطيب، ويشتمل على ثمانية أبواب أيضاً، الباب الأول: عن تاريخ عائلة لسان الدين ابن الخطيب العريق الذين ورث عنهم المجد وارتضع در أخلافه. والباب الثاني: يتناول نشأته وترقيته ووزارته وسعادته، والباب الثالث: في ذكر مشايخه الجلة، هداة الناس ونجوم الملة، وما يتصل بذلك الأخبار الشافية للعلة، والمواعظ المنجية من الأهواء المضلة والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة. والباب الرابع: في مخاطبات الملوك والأكابر له وثناء أهل عصره عليه، والباب الخامس: في إيراد جملة من نثره الذي عبق أريج البلاغة من نفحاته، ونظمه الذي تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته وما يتصل بذلك من بعض رجاله وموشحاته، ومناسبات رائعة من فنون الأدب ومصطلحاته. والباب السادس: في مصنفاته في الفنون،

ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون، وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المنون، والباب السابع: في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه، المستدلين به على المنهاج، المتلقين أنواع العلوم منه، والمقتبسين أنوار الفهم من سراجه الوهاج. والباب الثامن: في ذكر أولاده المقتفين أوصافه الحميدة، الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد عن غير كلالة، ووصيته لهم الجامعة لأدب الدين والدنيا، المشتملة على النصائح الكافية، والحكم الشافية.

لقد تردد كثيراً أبو العباس في تسمية كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، حيث أطلق عليه أولاً اسم: (عرف الطيب، في التعريف بالوزير ابن الخطيب) ثم قرر أن يغير الاسم عندما أضاف تاريخ الأندلس للكتاب فسماه (نفح الطيب) من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ثم انتهى إلى اختصار الاسم الأخير، واكتفى بـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» وللأسف الشديد أن هذا الكتاب القيم لم يكن معروفاً في العالم الإسلامي بأكمله إلا عندما نشر كاملاً في بولاق سنة (١٢٧٩ هجرية)، ومن ثم أعيد طبعه في القاهرة تحت إشراف محيي الدين عبدالحميد سنة (١٣٦٨ هجرية). ولحسن الحظ أن إحسان عباس قام بتحقيقه، ونشرته دار صادر اللبنانية سنة (١٣٨٨ هجرية)، وهذه الطبعة المنقحة هي المنتشرة في معظم مكتبات العالم العربي والإسلامي، ومما يجدر ذكره هنا أن كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» من الكتب المهمة جداً، حيث تكمن أهميته بأنه حفظ للأمة العربية والإسلامية فقرات ضرورية للباحثين في تاريخ الأندلس ضاعت أصولها.

وخلاصة القول: قضى المتعصبون الإسبانيون تماماً على آثار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلسيين، حيث أحرقوا معظم الكتب النفيسة لكبار المسلمين الأندلسين، وذلك لإرضاء أحقادهم الخطيرة التي يكنونها للمسلمين، لذا فإن المصنفات التي بقيت تتناول تاريخ الأندلس من حيث أحوال أهلها

السياسية والاقتصادية والتربوية والأدبية والدينية قليلة جداً. ونتيجة لهذه الأعمال التخريبية التي قام بها حمقاء الإسبان ـ النصارى ـ صار من الصعب الحصول على معلومات تاريخية عن فحول المسلمين في الأندلس تشفي غليل الباحث. وعليه أخذ المؤرخ أحمد بن محمد المقري التلمساني ـ المغرم والمفتون ببلاد الأندلس وإن لم يضع قدمه على أرضها ـ على عاتقه أن يعمل المستحيل لجمع المعلومات الضرورية عن أعلام ونبلاء الأندلس المغتصبة في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب».

ولقد أكثر أبو العباس المقري من التنقل بين عواصم الدول الإسلامية، وذلك ليحضر مجالس جهابذة الفكر، ويستمع إلى مناقشتهم وأحاديثهم ومساجلاتهم لكي يلم بأطراف المعرفة ويهضمها، وقد ساعده على تفوقه سرعة استيعابه وجودة فهمه واعتكافه ومثابرته للتحصيل والبحث والاستقصاء في سير فحول كل من الأندلس والمغرب العربي. ولاشك أن كلاً من عمله الواسع وثقته بنفسه وعلو همته جعلته يعد من كبار المفكرين في الحضارة العربية والإسلامية. والجدير بالذكر أن علامات كل من قوة ذاكرته وشدة إقباله على الدراسة أشرقتا عنده وهو في بواكير صباه. لذا حرص عمه مفتي تلمسان أن يوجهه ويعينه على طلب العلم وهو في ريعان شبابه، ويظهر واضحاً للقارىء أن الأسس التي بنى عليها هرم حياته هي العزيمة والجد والعمل.



المصادر والمراجع

أ

إبراهيم = ناجية عبد الله : قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي.

ابن الأثير = عز الدين : الكامل في التاريخ.

أدهم = علي : بعض مؤرخي الإسلام.

———— : تاريخ التاريخ.

الأصبهاني = عماد الدين : فريدة القصر وجريدة أهل العصر.

أمين = أحمد : ضحى الإسلام.

الأندلسي = صاعد بن أحمد : طبقات الأمم.

ب

باقر = طه وعبد العزيز حميد : طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار.

بالنثيا = انجل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي.

ابن بشكوال = خلف بن عبد الملك : كتاب الصلة.

البغدادي = إسماعيل باش : هدية العارفين (أسماء المؤلفين وآثار المثقفين).

البغدادي = حافظ بن أحمد الخطيب : تاريخ بغداد.

بوليبيوس : تاريخ الرومان واليونان.

ت

ترحيني = محمد أحمد : المؤرخون والتاريخ عند العرب.

التلمساني = أحمد بن محمد المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

توييني = أرنولد : دراسة التاريخ.

ج

الجمل = شوقي : علم التاريخ.

الجندي = أنور : أعلام الإسلام.

ح

الحجي = عبد الرحمن علي : نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي.

حسن = زكي محمد : دراسة في منهج البحث في التاريخ الإسلامي، مقالة (نشرت في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة).

الحسيني = أبو المحاسن : ذيل تذكرة الحافظ.

حسين = محمد عواد : صناعة التاريخ، مقالة (نشرت في مجلة عالم الفكر).

حلاق = حسان : مقدمة في مناهج البحث التاريخي.

الحلو = محمد : أعلام التراث الإسلامي.

الحموي = ياقوت : معجم الأدباء.

خ

ابن الخطيب = لسان الدين محمد : الإحاطة في أخبار غرناطة.

ابن خلدون = عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون.

ابن خلكان = أبو العباس أحمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

خليفة = حاجي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

خليل = عماد الدين : التاريخ الإسلامي فصول في المنهجة والتحليل.

خليل = محمد رشاد : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره.

د

دراركة = صالح موسى : بحوث في تاريخ العرب قبل الإسلام.

الداودي : طبقات المفسرين.

الدوري = عبد العزيز : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب.

______ : نصوص ودروس في نشأة علم التاريخ عند العرب.

الدمشقي = الحافظ ابن كثير : البداية والنهاية.

ديورانت = ول : قصة الحضارة.

ذ

الذهبي = محمد بن أحمد : أعلام النبلاء.

ر

الرفاعي = أنور : تاريخ العلوم في الإسلام.

روزنتال = فرانز : علم التاريخ عند المسلمين

روبنسون = ج.هـ : العصور الوسطى والعصر الحديث.

ز

زاده = أحمد مصطفى الشهير بطاش : مفتاح السعادة ومصباح السيادة.

الزركلي = خير الدين : الأعلام.

زكريا = فؤاد حسن : المنطق وفلسفة العلوم.

زيادة = نقولا : قمم من الفكر العربي الإسلامي.

زيدان = جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية.

س

سارتون = جورج : تاريخ العلوم.

———— : مقدمة في تاريخ العلم.

السبكي = عبد الوهاب بن علي : طبقات الشافعية الكبرى.

سالم = السيد عبد العزيز : التاريخ والمؤرخون العرب.

———— : منهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية.

السخاوي = شمس الدين محمد بن عبد الرحمن : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ.

ابن سعد = محمد : الطبقات الكبرى.

سليمان = حسين محمد : المدخل إلى علم التاريخ.

سمالي = بيرسل : المؤرخون في العصور الوسطى.

ش

شرارة = عبد اللطيف : الفكر التاريخي في الإسلام.

ص

صبحي = أحمد محمود : فلسفة التاريخ.

الصفدي = خليل بن إيبك : الوافي بالوفيات.

الصيني = بدر الدين حي : العلاقات بين العرب والصين.

ط

الطالبي = محمد : التاريخ ومشاكل اليوم والغد. مقالة

الطبري = أبو جعفر محمد : تاريخ الأمم والملوك.

ع

عاشور = سعيد : بحوث ودراسات في تاريخ القرون

ابن عبد ربه = أبو عمر : العقد الفريد.

عبد الجواد = توفيق حمد : تاريخ العمارة والفنون الإسلامية.

العبيدي = محمد جاسم ومالك الدليمي : مكانة الأستاذ في التراث العربي الإسلامي (بحث قدماه في ندوة مركز التراث العلمي العربي بجامعة بغداد سنة ١٤٠٨هـ).

عثمان = حسن : منهج البحث التاريخي.

ابن عساكر = علي بن الحسن بن هبة الله : تهذيب تاريخ دمشق الكبير.

العسقلاني = أحمد بن حجر : تهذيب التهذيب.

العزاوي = عبد الرحمن حسين : الطبري.

العقاد = عباس محمود : عبقرية عمر.

العلي = صالح : العلوم عند العرب.

ابن العماد = أبو الفلاح عبد الحي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

العمري = فاروق صنع الله : تاريخ علوم الأرض.

عناية = غازي حسين : منهج البحث العلمي في الإسلام.

العلوجى = عبد الحميد : مؤلفات ابن الجوزي.

غ

غنيم = عادل حسن وجمال محمود : منهج البحث التاريخي.

ف

فايس = ليوبرلد (محمد أسد) : الطريق إلى مكة المكرمة.

فلنت = روبرت : تاريخ فلسفة التاريخ.

ق

القفطي = جمال الدين : إنباه الرواة على أنباه النحاة

القلقشندي = أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

ك

الكافيجي = أبو عبد الله محمد : المختصر في علم التاريخ.

كاشف = سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامي ومنهج البحث فيه.

كب H.A.R. Gibb : علم التاريخ.

الكتبي = محمد بن شاكر : فوات الوفيات والذيل عليها.

كحالة = عمر رضا : معجم المؤلفين.

كراتشكوفسكي ـ اغناطيوس : تاريخ أدب الجغرافي العربي.

كرو = محمد : العرب وابن خلدون.

ل

لانجلوس وسينوبوس : أهمية الوثائق التاريخية.

ليفي : تاريخ العقود الرومانية.

م

ماجد = عبد المنعم : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.

———— : مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي.

محمد = ماهر عبد القادر : التراث والحضارة الإسلامية.

محمود = أحمد : في فلسفة التاريخ.

مرحبا = محمد عبد الرحمن : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب.

المسعودي ـ أبو الحسن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر.

مؤنس ـ حسين : التاريخ والمؤرخون.

———— : الحضارة.

———— : ماهية التاريخ ولماذا ندرسه؟، مقالة (نشرت في مجلة عالم الفكر).

مصطفى = شاكر : التاريخ العربي والمؤرخون.

الملطي = عبد الباسط بن خليل : الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم.

مليباري = محمد عبد الله : المستشرقون والدراسات الإسلامية.

ن

النقاش = عدنان : الجيولوجيا عند العرب (الموسوعة الصغيرة).

ابن النديم = محمد بن إسحاق : الفهرست.

هـ

هرنشوا = ف : علم التاريخ (ترجمة عبد الحميد العبادي).

الهمداني = الحسن بن أحمد : صفة جزيرة العرب.

ي

يزبك = قاسم : التاريخ ومنهج البحث العلمي.

اليماني = عبد الواسع بن يحيى الواسعي : تاريخ اليمن.

نبذة عن المؤلف

- ولد الأستاذ الدكتور علي بن عبد الله بن صالح الدفاع في مدينة عنيزة سنة (١٣٥٨هـ)، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها. أما أسرته فمن عائلة العويد التي تسكن مدينة المذنب. والجدير بالذكر أنه أخذ لقب الدفاع عن جده صالح العويد.

- حصل على البكالوريوس في الرياضيات البحتة من جامعة أوهايو، وماجستير في الرياضيات البحتة من جامعة فندربلت، والدكتوراه في الرياضيات من كلية بيبدي من جامعة فندربلت وكلها في الولايات المتحدة الأمريكية.

- التحق بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن سنة (١٣٩٢ هـ) بوظيفة أستاذ مساعد ثم أستاذ مشارك فرئيس قسم العلوم الرياضية حتى سنة (١٣٩٧هـ) ثم عميد كلية العلوم من (١٣٩٧هـ) إلى (١٤٠٣هـ)، والآن يعمل كأستاذ كرسي العلوم الرياضية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن ـ الظهران.

- عمل أستاذاً زائراً بكلية العلوم بجامعة الملك سعود من (١٣٩٩هـ ـ ١٤٠٢هـ).

- شغل منصب رئيس اتحاد الرياضيين والفيزيائيين العرب فيما بين (١٣٩٨هـ ـ ١٤٠٠هـ)، ثم انتخب للمرة الثانية رئيساً سنة (١٤٠٦هـ).

- عمل أستاذاً زائراً أيضاً في جامعة برنستون بولاية نيوجرسي في الولايات المتحدة الأمريكية في صيف عام (١٤١١هـ).

- عضو في لجنة موسوعة الحضارة الإسلامية ـ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ الأردن.

- عضو شرف في مجمع اللغة العربية الأردني ـ عمان ـ الأردن.
- عضو في المجلس العلمي للمؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية (منظمة المؤتمر الإسلامي ـ جدة).
- عضو لمجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (الرياض).
- عضو اللجنة المشتركة لدراسة مشروع إنشاء الجامعة الإسلامية في أوغندا.
- عضو شرف في المجمع العلمي العراقي ـ بغداد.
- عضو مؤسس للأكاديمية الإسلامية للعلوم.
- عضو الجمعية العالمية لإحياء التراث الإسلامي ـ مصر.
- عضو أسرة الرياضيات المعاصرة ـ وزارة المعارف ـ الرياض.
- عضو تحرير المجلة الرياضية ـ اتحاد الرياضيين والفيزيائيين العرب.
- عضو تحرير المجلة الأكاديمية الإسلامية للعلوم.
- عضو تحرير المجلة الرياضية الأمريكية (Mathematical Review) أكبر مجلة في العالم.
- عضو الجمعية العمومية لمؤسسة الملك فيصل الخيرية (الرياض).
- عضو تحرير مجلة الريان القطرية.
- أحد كتاب جريدة اليوم التي تصدر من الدمام بالمنطقة الشرقية.
- عضو في مجلس أمناء مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.
- عضو الجمعية المصرية للإسلام والعرب.
- بلغت مؤلفاته ٣٦ كتاباً منها ٣٢ كتاباً باللغة العربية و ٤ كتب

باللغة الإنجليزية، وأكثر مـن مئـتي بحـث ومقالـة نشـرت في مجـلات عالمية وسعودية بالإضافة إلى (٧٠٠ مقالة نشــرت في جريـدة اليـوم التي تصدر في المنطقة الشرقية ـ المملكة العربية السعودية تحت عنوان روائع الحضارة العربية والإسلامية). ومن بين مؤلفاته:

١ ـ إسهام علماء العرب والمسلمين في الرياضيات.

٢ ـ نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات.

٣ ـ الرياضيات الحديثة تخاطب القدرات العقلية.

٤ ـ الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي.

٥ ـ العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية.

٦ ـ المدخل إلى تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين.

٧ ـ لمحات من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

٨ ـ أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك.

٩ ـ أعلام العرب والمسلمين في الطب.

١٠ ـ لمحات من تاريخ الطب عند المسلمين الأوائل.

١١ ـ الهندسة التحليلية ـ للكليات المتوسطة (اشترك في تأليفه).

١٢ ـ تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين للكليات المتوسطة.

١٣ ـ العلوم الرياضية في الحضارة الإسلامية، مجلدان (اشترك في تأليفه).

١٤ ـ دراسات في العلوم الصرفه في الحضارة الإسلامية (اشترك في تأليفه).

١٥ ـ أعلام الفيزياء في الإسلام (اشترك في تأليفه).

١٦ ـ إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء.

١٧ ـ إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة.

١٨ ـ إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات.

١٩ ـ ترجمة كتاب حساب التفاضل والتكامل للجامعات لتايلور ـ ويد، ثلاثة أجزاء (اشترك في ترجمته).

٢٠ ـ الرياضيات الحديثة للصف الثاني والثالث الثانوي ـ أربعة أجزاء (اشترك في تأليفها).

٢١ ـ إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان.

٢٢ ـ المناحي العلمية عند القزويني.

٢٣ ـ المناحي العلمية عند ابن سينا.

٢٤ ـ مصادر علم الصيدلة عند العرب والمسلمين الأوائل.

٢٥ ـ رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية.

٢٦ ـ رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية.

٢٧ ـ إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطور علوم الأرض (اشترك في تأليفه).

٢٨ ـ طرق تدريس الرياضيات من جزأين (اشترك في تأليفهما).

٢٩ ـ الرياضيات مالها وما عليها.

٣٠ ـ رواد العلوم الرياضية في الحضارة العربية والإسلامية.

فهرس المحتويات